سيرة عنترة

دكتور محمود ذهني



دار المعارف

سيرة عنترة

تاليف

دكتور محمود ذهنى



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ـ ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة ـ ج. م. ع

مقدمة الطبعة الثانية

عندما نشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٦١ كانت دراسات الأدب الشعبي قد بدأت تأخذ مكانها في قاعات الجامعة بفضل استاذين عظيمين هما : شيخنا الأكبر الاستاذ أمين الخولي ، الذي وان لم يكن الأدب الشعبي من مجالات تخصصه ، إلا أن اخلاصه العلمي العميق ، وحماسه القومي العارم ، جعلاه من أكبر المبشرين به ، والمنافحين عنه . ثم استاذنا الدكتور عبد الحميد يونس ، رائد هذا المجال ، وأول أستاذ لكرسي الأدب الشعبي بجامعة القاهرة . وكنا نحن — تلاميذهما وحواريهما — نسير من ورائهما . نعبد الطريق أمام الأدب الشعبي، لإيماننا العميق بقيمته الفنية من جهة ، ومدى حاجة مجتمعنا المعاصر إليه من جهة أخرى .

وإذا كان هناك من يربطون بين نهضة أوربا الحديثة وإحيائها لتراثها الشعبي عن طريق نشأة « علم الفولكلور » ، ويرجعون أسباب تقدمها السريع إلى أثر الآداب الشعبية والدراسات الفولكلورية ، فإننا قد لانذهب إلى هذا المدى ، ولكننا نستطيع أن نؤكد أن دراسات الأدب الشعبي لها دور إيجابي وفعال في مواجهة الاستعمار الثقافي،الذي لازال يسوقنا في الطريق الذي رسمه لنا ،طامسا بصرنا وبصيرتنا ، ومقيداً فكرنا وحركتنا . ولاشيء يستطيع أن يكشف لنا مازيفه الاستعمار من أمر ثقافتنا مثلما تفعل دراستنا لأدبنا الشعبي ، ومعرفة تراثياتنا على وجهها الصحيح ، والغوص في أعماق وجداننا الوطني والقومي .

لقد زيف الاستعمار علينا حياتنا الثقافية بأكملها ، وركز تركيزاً مباشراً على اللغة العربية والأدب العربي ، باعتبارهما أهم أسس التحضر أولا ، وأقوى دعائم القومية ثانياً . ولسنا في حاجة إلى التذكير بمأساة العامية والفصحى التي أشعلها الاستعمار ، ثم راح ينفث فيها ليحرق بلهيبها كل شيء من علم وثقافة وفن وعقيدة وتعامل وثقة بالنفس . كما أننا لسنا في حاجة إلى الإشارة إلى الخط البياني الهابط لمستوى التعليم عندنا لاننا لازلنا نتبع المناهج والبرامج التعليمية التي وضعها

لنا « الميجور دنلوب »[وزير المعارف فى مصر ابان الإحتلال البريطانى لها] ولا نستطيع عنها حولا ، أو حتى ندرك مافيها من أثقال تشدنا إلى أسفل شداً مستمراً متزايداً . ولسنا فى حاجة أيضاً إلى تبيان هدف الاستعمار سياسياً واقتصاديا وإجتماعياً من تقسيم الأمة العربية إلى دويلات ، والدولة إلى فرق وشيع وأحزاب ، وبث أسباب الخلاف والشقاق بينهم جميعاً ، ودس الوقيعة والفتن فيهم ، كى يظل العرب أعداء متنابذين متباغضين ، لا يستقرون على رأى ، ولا تجمعهم كلمة ، ولا تضمهم قومية .

وليس من شك فى أن أول خطوة إيجابية نخطوها هى تصحيح المفاهيم والأوضاع التى عشنا امداً فى زيفها ، ولسوف نجد أن دراسة الآداب الشعبية والتراثيات القومية هى أنجع السبل للوصول إلى الهدف . فهى التى تكشف لنا خداع الاستعمار وتظهر مازيفه علينا ومابثه فينامن منحول المعارف وهابطالقيم ، وهى التى تجلو لنا ماضينا المشرق بحضارة القرون الوسطى وتربطنا بمقوماته وعوامل قوته ، وهى التى ترسخ إيماننا بعقائدنا وماتحويه من أسس بناء المجتمع الصالح السليم ، ثم هى التى تستطيع أن تضم الشمل وتوحد الأمل .

والواقع أن سيرنا الشعبية . التى تقف على قمة الدراسات الفلكلورية العربية. لا تحقق تلك الأهداف فحسب، وإنما سوف نجدأن الوطنيه والقومية لا تتعادلان فى شىء تعادلهما فى هذه السير الشعبية ، وأن النوازع النفسية للشعب العربى لا تظهر فى شىء ظهورها فى هذه السير الشعبية ، وأن الأهداف الحقيقة للفن بصفة عامة — والأدب على وجه الخصوص — لا تحققها أعمال ابداعية بمثل ما تحققها السير الشعبية .

وعندما نشأت الجامعة المصرية — فى ظل الاحتلال البريطانى — سيطر عليها الاستعمار الثقافى، واسدل على أعين رجالها غشاء قاتما وراح يقودهم فى متاهاته ومنعرجاته . ولكنهم بحسهم المصرى المرهف ، ومكوناتهم العربية التليدة ، أدركوا أن هناك شيئاً أو أشياء ، وإن لم يتبينوا حقيقتها فإنهم على الأقل شعروا

بوجودها ، واندفعوا بواقع الغريزة والفطرة السليمة يقاومونها فى مظانها وحيثما بدرت لهم منها بادرة تكشف عن مكمنها . فالدكتور طه حسين بعد أن يخرج كتابه « فى الشعر الجاهلى » منقاداً بما دفعه إليه الاستعمار الثقافى، ينتفض وشيكا ليغيره إلى « فى الأدب الجاهلى » ، ثم يتبعه بكتابيه « حديث الأربعاء » ومن حديث الشعر والنثر » ليصحح المفاهيم الأدبية ، ويخرج مجموعة كتبه الدينية — لاسيما كتابى « الفتنة الكبرى » والوعد الحق — ليصحح المفاهيم العقائدية ، ويدلى بدلوه فى مجال السياسة الإجتماعية ليصدر مجموعة من أمتع كتبه منتقلا فيها من دعاء الكروان إلى شجرة البؤس ، ويتوج كل هذا بدراسته القيمة التى كان من الممكن أن تكون نبراس الاصلاح التعليمى فى مصر منذ صدورها ، والتى لازال فى إمكانها أن تؤدى هذه المهمة الآن لو نجحنا فى الفهم الصحيح ، وأخلصنا فى التطبيق . ذلك هو كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى صدر عام ١٩٣٦، فاخفيناه امداً، وتجاهلناه زمناً،ثم نفذنا عكس ما كان ينادى به من أوجه الاصلاح وأخيراً زيفنا شعاراته وادعينا على صاحبه مالم يقل ومالم يقصد .

على أى حال ، فإن هذا الرعيل الأول من رجالات مصر العظام احسوا بما كان يحيق بهم — وأن لم يتبينوا كامل ملامحه — فاندفعوا بالغريزة لمواجهته ، وقادهم إحساسهم إلى مايقرب من الصواب ، فوجه طه حسين أول طالبة تتلمذ عليه فى الدراسات العليا إلى موضوع من موضوعات الأدب الشعبى ، فكان أول بحث أكاديمى تقدمت به طالبة فى الجامعة المصرية لنيل درجة الدكتوراه هو دراسة « ألف ليلة وليلة » للدكتورة سهير القلماوى .

وإذا كان الدكتور طه حسين والدكتوره سهير القلماوى قد اتجها هذا الإتجاه غريزيا وبدافع من الاحساس الدفين ، فان استاذنا الشيخ أمين الخولى دفع هو الآخر تلميذه — الدكتور عبد الحميد يونس — إلى مجال الأدب الشعبى ولكن عن معرفة وتبصر وضمن خطة إحيائية منضبطة، فكانت رسالته لدرجة الماجستير عن « سيرة الظاهر بيبرس »، وتبعتها رسالة الدكتوراه عن « الهلالية » ،وأثمرت

جهودهما فى إنشاء كرسى الأدب الشعبى بكلية الآداب جامعة القاهرة ، ولجنة الأدب الشعبى فى المجلس الأعلى للفنون والآداب .

وفى نطاق هذا الإتجاه الإيجابى ،حاولت أن أشارك بجهد متواضع ،بتعضيد من شيخنا العظيم الأستاذ أمين الخولى ، وبإشراف استاذى الدكتور عبد الحميد يونس، وبمعاونة الصديق الأستاذ فاروق خورشيد قدمت هذا البحث عن « سيرة عنترة » لنيل درجة الدكتوراه .

وقد انقضى على ذلك نحوا من عشرين عاما ، ترسخت فى غضونها الأفكار السابقة ، وتأصلت دراسات الأدب الشعبى ، وحظيت بعدد كبير من الباحثين والدارسين الجادين والمهتمين ، ومع ذلك فان ماتم فى هذا المجال لايعتبر كافيا ولاقريبا من مخايل الكفاية ، وإنما هو يحتاج إلى مزيد من الجهد ، وعمق فى الإيمان ، وتضافر الجماعات للاسهام فى الأعمال الموسوعية والمسحية ، وتبادل الرأى والمشورة ، والتعاون فى عمليات البحث والجمع والتقصى ، وعقد المقارنات بين ماعندنا وماعند غيرنا من الدول العربية — للجمع والتنقيه — والدول الأجنبية للمقارنة والموازنة .

وعلى الرغم من مضى هذه الفترة الزمنية الطويلة منذ خروج الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، فانه لازال يعتبر مرجعاً أساسياً لدراسة الأدب الشعبى العربى بصفة عامة ، والسير الشعبية بصفة خاصة، بل أنه يضم إلى مجالات الأدب الشعبى فوائد أكيدة فى دراسة الأدب العربى القديم وشعر عنتره بن شداد بالذات .

والأمل كل الأمل أن يكون هذا الكتاب — وأمثاله — بمثابة الدعوة إلى دراسة الآداب الشعبية عن بصيرة وإيمان ، وأن يكشف عن العيون تلك الغشاوة التى يحجب آثارها الاستعمار الثقافى علينا ،وأن يقنع بأنه لا يمكن أن تقوم حضارة مادية دون تحضر ثقافى، وأن أسس الثقافة تنبت من وجدان المقاس ، وتلك كان — ولازال وسوف يظل — غذاؤها الأمثل هو الفنون الشعبية وعلى رأسها فن الأدب .

وفقنا الله إلى الخير والصواب، وحقق لنا الآمال، إنه نعم المولى ونعم النصير.

محمود ذهنى

القاهرة ١٩٧٩

الباب الأول

الفصل الأول

المقومات الاجتماعية للبيئة العربية

طبيعة الجزيرة العربية

فى أقصى الجنوب الغربى من قارة آسيا تقع شبه جزيرة مستطيلة الشكل تحيط بها مياه البحر من ثلاث جهات .. البحر الأحمر فى الغرب ، وخليج عدن مع المحيط الهندى فى الجنوب ، والخليج الفارسى فى الشرق وهى تقع بين خطى طول ٣٥ و ٦٠ شرقا ، وخطى عرض ١٢ و ٣٧ شمالا أى أن مدار السرطان يمر فى وسطها تقريبا .

هذه هى بلاد العرب التى عرفت منذ الجاهلية السالفة باسم «جزيرة العرب» على سبيل التجاوز ولو ان جغرافيى العرب حاولوا أقصى جهدهم تخريج هذه التسمية فالمقدسى يقول : « ان العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة »[1] فمثلما أطلقوا على بلادهم جزيرة العرب أطلقوا على شبه جزيرة ايبريا اسم جزيرة الأندلس، وأطلقوا على الأرض الواقعة بين نهرى دجلة والفرات اسم « جزيرة اتور أو ابن عمر » أما الهمدانى[2] فيقدم تخريجا آخر مؤداه أن الضلع الرابع من أضلاع شبه الجزيرة يحده الماء كذلك ، وان كان فى هذه المرة ماء نهر الفرات الذى ينبع من مشارف الجبال المطلة على البحر الأبيض قريبا من مدينة حلب بالشام ليصب فى الخليج الفارسى .

وتخريج الهمدانى ينتقل بنا إلى نقطة بحث أخرى هى تعيين الحدود الشمالية لبلاد العرب . فالهمدانى — بقوله ذلك — يدخل ضمن بلاد العرب أرض الشام كلها وأجزاء من العراق ومن مصر ، وهذه المناطق يفصلها المقدسى عن بلاد العرب التى يعتبر أن حدها الشمالى هو صحراء النفود .

---

(١) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٩٧
(٢) صفة جزيرة العرب ص ٤٧

والواقع ان هذه المسألة فيها خلاف بين الجغرافيين ، سواء فى ذلك القدامى والمحدثون ، كما ان فيها خلافا بين الجغرافيين من جهة والمؤرخين من جهة أخرى، ولعل أقرب الآراء إلى الواقع وأكثرها تمشيا مع طبائع الأشياء هو ذلك الرأى القائل بفصل بادية الشام وأرض العراق عن الجزيرة العربية ، واعتبار أن حدها الشمالى هو أطراف صحراء النفوذ عند التقائها ببادية الشام .

وتتكون شبه جزيرة العرب من هضبة صحراوية يفصلها عن مياه البحر — التى تحدها من الشرق والغرب والجنوب — سلاسل جبلية تترك بينها وبين الساحل سهولا ضيقة تختلف سعتها باختلاف موقعها ، وترتفع قمم هذا الاطار الجبلى إلى علو يبلغ ثلاثة آلاف من الأمتار فى بعض الجهات الركنية وبذلك وقف حاجزا بين البحر والداخل حيث تنبسط الهضبة فى صورة فيافى وصحارى تختلف نصيبها من العمران باختلاف ما تصيبه من مياه الأمطار .

وعلى هذا فانه من الممكن تقسيم بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام جغرافية متميزة هى :

١ — الاطار الجبلى .
٢ — السهول الساحلية التى تقع بين الاطار الجبلى والبحر .
٣ — الهضبة الداخلية .

اولا — الاطار الجبلى :

وهو عبارة عن سلسلة من الجبال البركانية تحيط بشبه الجزيرة من جهاتها الشرقية والغربية والجنوبية . وعلى الرغم من أن جميع هذه الجبال متشابهة من حيث التكوين ، إلا ان جبال كل جهة من الجهات الثلاث تختلف عن الأخرى اختلافات كبيرة تبعا لاختلاف طبيعة البحر الذى تتاخمه إذ ان هناك فروقا جوهرية بين البحر العادى ، والمحيط الواسع ، والخليج الضيق .

وعلى هذا الأساس فانه يلزم تقسيم الاطار الجبلى إلى ثلاثة أقسام متميزة هى :

١ ـ سلسلة الجبال الغربية :

وتتألف من سلسلة جبال « السراه » التي تمتد من خليج العقبة شمالا حتى اليمن جنوبا بمحاذاة البحر الأحمر وبانحدار شديد نحوه — أي نحو الغرب — وميل تدريجي نحو الداخل — أي نحو الشرق . ويطلق على الشريط الساحلي الضيق المحصور بين هذه الجبال وبين مياه البحر الأحمر اسم « تهامه » .

وتنقسم هذه السلسلة الجبلية — تبعا لاختلاف عروضها الجغرافية — إلى ثلاثة أقسام . . سراة الحجاز في الشمال ، وسراة اليمن في الجنوب ، وبينهما سراة العسير .

(ا) أما سراة الحجاز فتبدأ من خليج العقبة حتى خط عرض ٢٠ ؛ أي ان طول سراة الحجاز يصل إلى حوالى ألف كيلو متر . ويطلق على القسم الشمالى من هذه المنطقة اسم « مدين » . ويقطع سلسلة جبال سراة الحجاز عدد من الأودية التي تكون ممرات طبيعية بين البحر والداخل، كذا بين الشمال والجنوب. وقد عرفت هذه الممرات منذ القدم على انها طرق للقوافل ومن أشهرها « وادى العقيق » بين «مكة والمدينة » و « وادى القرى » (بين الشام والمدينة) .

وتقل الأمطار في هذه المناطق ، وترتفع درجة الحرارة وتعم الرطوبة على الجانب الغربي — المواجه للبحر — بينما تكاد تنعدم على الجانب الشرقي . وتوجد الزراعة حيثما يكثر المطر أو حيث يمكن اختزان مياهه — مثلما في الطائف — فيزرع القمح والشعير والذرة والحمص والبلح والكروم والتين . وفي هذه المنطقة — سراة الحجاز — تقع مدينتا « مكة والمدينة » .

(ب) وسراة العسير تمتد من جنوب مكة حتى مشارف اليمن في شكل كتلة واحدة صماء لا نبات فيها ولا ماء ولا ممرات للقوافل .

(حـ) أما سراة اليمن فتنتشر على مدخل البحر الأحمر وتختلف اختلافا كليا عن سابقتيها ، فهى أخصب بقاع شبه الجزيرة وتتبع في مناخها الاقليم المداري

ذا الأمطار الصيفية ، ولذلك سميت منذ أقدم العصور باسم « بلاد العرب السعيدة » . وانحدارها متدرج على شكل مساطب مما يساعد على زراعتها . والمحصول الرئيسى لهذه المنطقه هو البن ، وأشهر مدنها « صنعاء » .

٢ – سلسلة الجبال الجنوبية :

وتمتد من مضيق باب المندب حتى رأس الحد «شرق عمان» . وهذه السلسلة الجبلية مكونة من كتل صخرية تبلغ أقصى ارتفاعها فى الغرب وتتدرج فى الانخفاض كلما اتجهت شرقا . وأمطارها صيفية غزيرة تنبت المراعى والأشجار ، وأهمها أشجار البخور والمطاط » .

٣ – سلسلة الجبال الشرقية :

وتمتد من رأس الحد « شرق عمان » إلى « رأس مسند » فى (مضيق هرمز) وهذه السلسلة الجبلية تشبه سالفتها — أى السلسلة الجنوبية — إلى حد كبير وتبلغ أقصى ارتفاعها فى اقليم عمان ، وتتلقى أمطارا شتوية كافية لنمو الأحراش الطبيعية والمراعى الجبلية ، وفى هذه المناطق كذلك يزرع البن والفواكه والحبوب ، وتخترقها أودية خصبة يزرع فيها النخيل .

ثانيا – السهول الساحلية :

وهى عبارة عن شريط ساحلى ضيق محصور بين ذلك الاطار الجبلى وساحل البحر . وهذا الشريط يضيق فى بعض المناطق بحيث يصير فى حذاء الشاطىء مباشرة ، بينما يتسع فى مناطق أخرى حتى يصل عرضه إلى أكثر من ٥٠ كيلو مترا . وكما قسم الاطار الجبلى المتاخم لتلك السهول إلى ثلاثة أقسام ، فانها – تبعا لذلك – تنقسم هى الأخرى إلى ثلاثة أقسام مناسبة لاقسام الاطار الجبلى . وهذه الأقسام هى :

١ – السهول الغربية :

وهى السهول المحصورة بين سلسلة جبال السراة والبحر الأحمر ويطلق عليها

اسم « تهامة » . (وكلمة تهامة أتت من « التهم » وهو ركود الريح . فسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها)[١] . وهذه المنطقة « تهامة » تنقسم إلى نفس الاقسام التى تنقسم اليها جبال السراة ، فأمام سراة الحجاز توجد تهامة الحجاز ، وأمام سراة العسير توجد تهامة عسير ، وأمام سراة اليمن توجد تهامة اليمن .

وسطح هذه السهول مؤلف — فى معظم أجزائه — من بجروفات السيول ومن رمال البحر ، لذا فهو غير صالح للزراعة .ودرجة حرارته شديدةالإرتفاع لايعدل منها القرب من البحر « لأن البحر الأحمر بحر مغلق » ولاهطول الأمطار « لأنها قليلة جداً باستثناء نهاية الشريط عند اليمن حيث تغزر الأمطار صيفا » .

ولهذا فإن الحياة فى هذا الأقليم الحار الجاف تعتبر صعبة وقاسية ، فالنباتات معدومة إلا من أعشاب قليلة وأشواك لاتصلح إلا لرعى الأبل ، بعكس المناطق المرتفعة المجاوره الصالحة للزراعة .وساحل البحر قليل الفجوات غير صالح للملاحة فى معظم أجزائه ، وهو عرضة للمد والجزر ويجاوره عدد من الجزر المرجانية والبركانية « ولكن الحاجة الملحة خلقت بعض الموانى لتكون مراكز اتصال بين شبه الجزيرة والبحر مثل مرفأ الوجه وينبع وجده والحديدة » .

٢ ـ السهول الجنوبيــة :

وتشمل سهول جنوب عمان ومهرة . وحضرموت وعدن والمحميات التسع وهذه السهول يطلق عليها كذلك اسم « تهامة » . وهى سهول فقيرة جافة منعدمة المطر ، ولاتقوم الحياة بها إلا فى بعض الوديان حيث يمكن استخراج الماء من الأرض . وتهب عليها رياح صيفية حارة تعرف باسم « السموم » .

وبعض سهول عدن والعوالق السفلى غنى بينابيع المياه والأشجار المثمرة «مثلما فى لحج » . وعلى الرغم من أن الساحل الجنوبى لايصلح كذلك للملاحة «باستثناء مرفأ عدن المشرف على مدخل البحر الأحمر» إلا أن معظم سكان المنطقة يعتمدون على الصيد البحرى وتجفيف الأسماك شتاء وجمع بلح النخيل صيفاً .

---

(١) معجم البلدان ـ ياقوت الحموى ج ٢ : ٤٣٦

٣ ـ السهول الشرقيــة :

وهى تسمى فى الجزء الجنوبى منها باسم « تهامة » كذلك إذ يقال لها « تهامة عمان » لشدة شبهها بالسهول الساحلية الغربية . وهذه المناطق يزرع فيها الحبوب والفاكهة والنخيل ، ويشتغل سكانها بالملاحة كذلك لصلاحية الساحل وقيام المرافىء الطبيعية فيه .

أما فى الجزء الشمالى فان جبال عمان تبدأ فى الانعدام وتصبح المنطقة كلها هضبة متدرجة الانخفاض . وهى تتألف من ساحل القرصان وبحر البنات فشبه جزيرة قطر فخليج وجزر البحرين حتى خليج الكويت . وتعتبر الملاحة وصيد اللؤلؤ من المهن الأساسية لسكان تلك المناطق . والأقاليم المتاخمة للساحل رطبة موبوءة بالحميات ، شديدة الحرارة .

ثالثــا ـ الهضبة الداخليــة :

وهى عباره عن أراضى منخفضة أطلق عليها اسم « صحارى » وتنقسم إلى أربعة أقسام :

١ ـ الربع الخــــالى :

ويطلق عليه اسم « الصحراء العربية الكبرى » ، ويشمل حوالى ربع مساحة شبه الجزيرة ولذلك عرف باسم « الربع » ، كما أنه اشتهر بخلوه من السكان لصعوبة الحياة فيه ولنعومة رماله التى تبتلع المار عليها .

٢ ـ النفـود الكبرى :

ويقصد بها الصحراء الواسعة الممتدة بين نجد وبين بوادى الشام والعراق ، « ومعنى كلمة نفود هو الرمال الكثيفة التى تسفوها الرياح فيصعب المرور فيها » . وفى أطراف هذه الصحراء توجد كثير من المنخفضات التى تتجمع فيها المياه مكونة الواحات « مثل واحة الجوف ـــ ودومة الجندل ـــ ومعان وتبوك وتيماء » أو توجد آبار المياه الجوفية التى يحفرها رجال القوافل والرعاة . وتجتاز القوافل

صحراء النفود لاسيما فى فصلى الربيع والشتاء حين تهطل بعض الأمطار وتعتبر الأراضى الشمالية منطقة إنتقال بين الصحراء والسهول إذ يكسوها العشب شتاء وتتخللها وديان تبقى فيها مياه الأمطار عدة أسابيع وتكثر المياه الجوفية القريبة من الأرض وذلك عن طريق حفر الآبار .

٣ ـ الدهنـــاء :

وهى امتداد لصحراء النفود الكبرى نحو الجنوب والشرق ولذلك فإنها تعرف أحيانا باسم « النفود الصغرى » وتقع بين الاحساء وتجد على شكل لسان طويل يصل بين صحراء الربع الخالى جنوبا وصحراء النفود الكبرى شمالا . وهذه المنطقة عبارة عن سلسلة من الآكام الرملية التى يصعب اجتيازها وتخترقها عدة طرق صحراوية تصل بين نجد والاحساء .

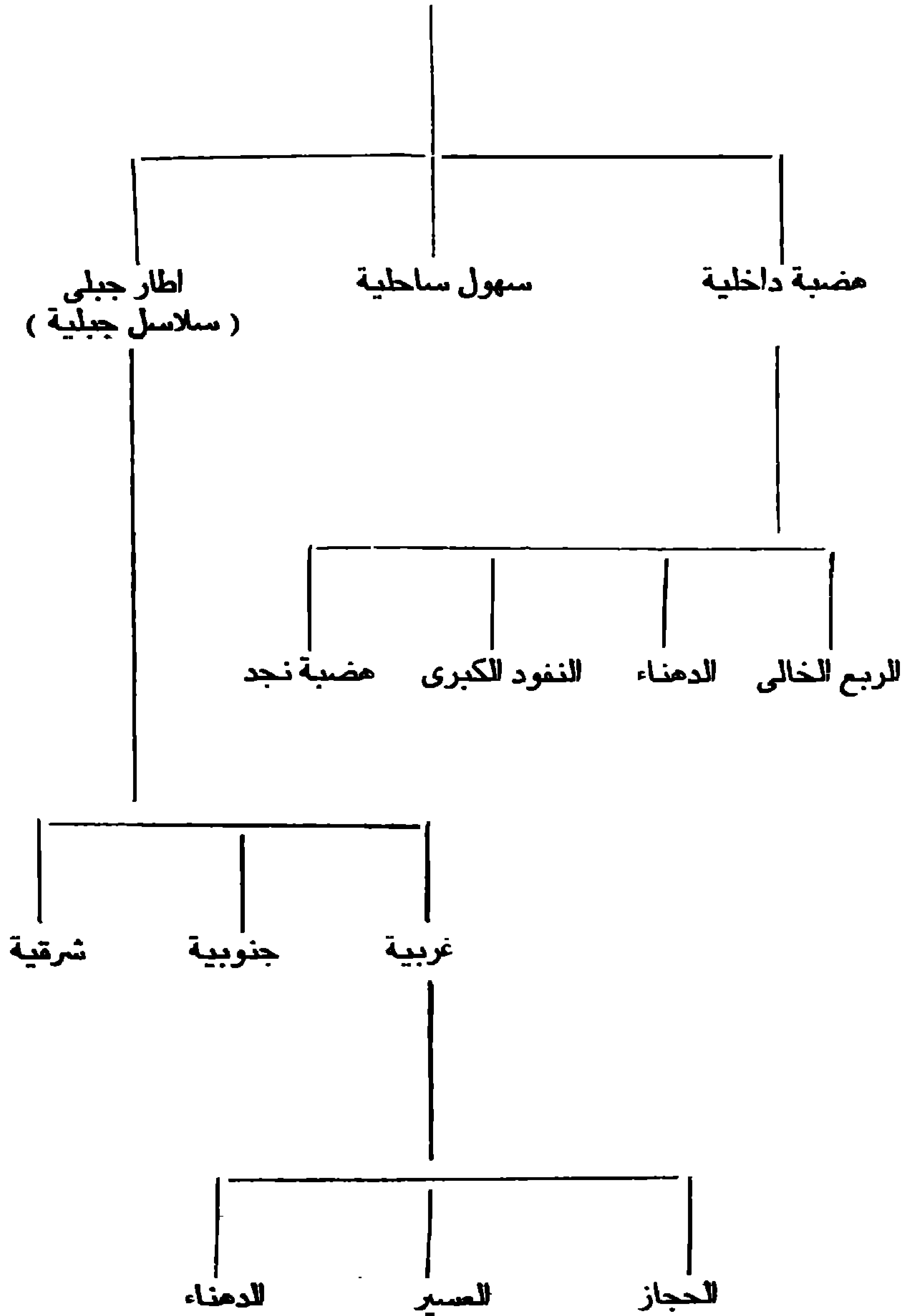
٤ ـ هضبة نجـــد :

وتشمل وسط شبه الجزيرة وتعتبر أكثر أقاليمها اتساعا ، فهى تتألف من هضبة واسعة يطلق عليها اسم « نجد أو العارض » وتتكون من سلسلة متشابهة من الواحات ترتفع فى وسطها سلسلة من الجبال متجهة من الشمال إلى الجنوب يعرف الجزء الشمالى منها باسم « السدير » ثم يتفرع جنوبا إلى شعبتين ، شعبة تتجه نحو الجنوب الغربى وتسمى « الطويق » والأخرى تتجه نحو الجنوب الشرقى وتسمى « العرمة » ، كما توجد فى الشمال كتلة جبلية تسمى « جبل شمر » وتحتوى على جبلين متوازيين هما « أجا وسلمى » .

وتتلقى نجد كمية من الأمطار تكفى لإفاضة السيول فى الوديان وإقامة واحات استقراروية وحياة زراعية إلى جانب قبائل البدو الرحل الذين يتنقلون شتاء إلى سهول النفود ويعودون صيفاً إلى واحات نجد لتبادل التجارة وكذلك للغزو وشن الغارات .

التقسيم الطوبوغرافى

لشبه جــزيرة العــرب



الحياة الاجتماعية

لسكان الجزيرة العربية

من ذلك العرض السريع لجغرافية الجزيرة العربية يتضح لنا أن طبيعة أرض هذه الجزيرة وتضاريسها تختلف اختلافا بينا من مكان لآخر . فمياه البحار والمحيطات تحصر فيما بينها مساحة هائلة من الأرض تعادل ربع أوربا . ومع ذلك فإنه لا يوجد بها نهر واحد أو بحيرة . وأرض الجزيرة ترتفع فى معظم أنحائها ارتفاعاً كبيراً فوق سطح البحر ، فهضبة نجد — التى فى الوسط — يبلغ ارتفاعها نحو ألفين وخمسمائة قدم أما جبال اليمن الشاهقة — فى الجنوب — فتصل قممها إلى أكثر من اثنتى عشر ألف قدم[1] . وبين هذه وتلك تمتد الصحراء الرملية المترامية الأطراف التى يتخللها القليل من الأغوار والنجاد .

وتبعا لإختلاف تضاريس مكان عن آخر من شبه الجزيرة العربية يختلف كذلك مناخه كما تختلف أحواله المعيشية . فالسواحل معتدلة المناخ — نسبيا — بردها محتمل وحرها يطاق ، والمناطق المرتفعة تكسو الثلوج قمم جبالها شتاء[2] ويربض فى أرجائها الصقيع بينما وسط شبه الجزيرة الصحراوى يسوده المناخ القارى وتهب عليه رياح السموم والانواء .

وتعتمد شبه الجزيرة اعتمادا كلياً على مياه الأمطار إلى جانب القليل من العيون والآبار وبعض مسايل المياه التى تقوم حولها المدن والقرى إذ يتوفر فيها الماء لرى بعض الزراعات البسيطة ، وإلا فلينبت الكلأ حيث تهطل الأمطار ،

---

(١) تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ج ١ ص ١٦
(٢) المسالك والممالك — للاصطخرى ص ١٩

فإذا لم تهطل حل الجدب والقفر . وهكذا نجد أن قلة الماء بالإضافة إلى جفاف الهواء وملوحة التربة جعلت فرص نمو النباتات تقل إلى درجة كبيرة بحيث أصبحت « النخلة » هي الأساس الزراعي الأول وأصبح بلحها قوام طعام البدوي[1] .

وعلى ذلك فإنه يمكننا أن نقسم الجزيرة العربية — من حيث البيئة الطبيعية — إلى ثلاثة نطاقات اجتماعية هي :

أولا — مناطق الاستقرار الطبيعي حيث يوجد الماء وينبت الزرع ويعتدل المناخ فتنشأ دول مستقرة نسبياً مثلما في اليمن والشام والحيرة . ويكون اعتماد هذه المناطق الأساسي على الزراعة والتجارة . وتجمع أهلها وحدة اجتماعية واسعة فيكونون شعبا أو دولة . ويرتفع مستوى حياتهم الطبقي والحضاري بحيث يصلون إلى درجة لا بأس بها من الرقي .

ثانياً — المناطق الصحراوية التي تهطل بها بعض الأمطار أو ينبع فيها بعض العيون والآبار فتقوم عليها زراعات بسيطة تسمح باستقرار نسبي مثلما في مدن وقرى الحجاز أو الواحات المنتشرة في الصحراء . ولما كانت الزراعة لا تكاد تقيم حياة سكان تلك المناطق ، فإنهم يعتمدون — إلى جانبها — على الرعي . ووحدتهم الاجتماعية لا تصل إلى مستوى الشعب — لقلة عددهم — وإنما تكون على شكل قبيلة أو عدد من القبائل بينها حلف أو جوار . وهؤلاء لا يصلون في مستواهم الحضاري إلى مستوى سكان المناطق السابقة .

ثالثاً — المناطق الصحراوية التي لا يفي ماؤها بحاجة الزرع وربما نبتت الكلأ لترعاه الإبل فإذا ما غاض الماء وجف الكلأ اضطر سكان هذه المناطق إلى الارتحال بحثا عن كلأ جديد . وعلى ذلك فإن هؤلاء السكان يكونون مجموعة من البدو الرحل القليلي العدد بحيث يصلون - في تكوينهم الاجتماعي -

---

(١) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٣ ص ٢٠٩

إلى عشيرة أو فخذ أو بطن من قبيلة . وقوام حياتهم الرعى كمهنة والغارة كمورد من موارد الرزق ولهذا فإن مجتمعهم بدائى غير متحضر .

ومنذ القدم قسم جغرافيو العرب أهل الجزيرة العربية إلى : « سكان الممالك وسكان البوادى » ، واعتبروا أن سكان الممالك هم أهل اليمن والشام والحيرة ، أما سكان البوادى فقد قسموهم إلى قسمين : « أهل المدر ، وأهل الوبر » ، ومثلوا لأهل المدر بقبيلتى الأوس والخزرج فى المدينة وبثقيف فى الطائف وقريش فى مكة ، واعتبروا أهل الوبر بقية سكان الجزيرة من البدو والرحل سكان الخيام[١] ولعل هذا هو ما حدا ببعض المستشرقين إلى القول بأن العرب لم يكونوا مجتمعا واحدا وإنما كانوا طبقات مختلفة تمثل المجتمعات الإنسانية التى مرت بها البشرية فى تاريخها الطويل[٢] .

ويرجع المؤرخون الشعب العربى إلى أصلين أوليين هما العرب العاربة — أو شعب قحطان — والعرب المستعربة — أو شعب عدنان الذين يرجع نسبهم إلى اسماعيل بن ابراهيم[٣] وهما يختلفان عن بعضهما اختلافات كبيرة من حيث النظام الاجتماعى واللغة والدين والأسماء وذلك تبعا لإختلاف أصلهما وبيئتهما[٤] .

وتناسل من عقب عدنان : معد الذى كان له أربعة أولاد هم : أياد ونزار وقنص وانمار ، ولكن الفتنة مالبثت أن وقعت بينهم فتفرقوا ولعل السبب الأساسى فى تفرقهم هو تكاثرهم المستمر بحيث وصلوا إلى درجة أصبح المكان معها لا يتحمل مجموعهم فصار لزاما على البعض أن يرحلوا للبحث عن مأوى جديد .. وتلك هى سنة الحياه البدوية .

---

(١) مختصر الدول — لابن العبرى ص ١٥٨
(٢) مصادر الشعر الجاهلى — لناصر الدين الاسد ص ٩
(٣) المعارف لابن قتيبة ص ١٨
(٤) العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان ص ١٨٧

ومن نزار انحدر : ربيعة ومضر . ومن مضر تشعب : قيس عيلان والياس ، ومن قبائل قيس بنو غطفان ، التي من بطونها بنو عبس وفارسهم عنترة بن شداد .

وهكذا نجد أن الظروف الطبيعية لتلك البيئة الصحراوية هي التي قسمت أولئك البدو إلى وحدات اجتماعية صغيرة أطلقوا عليها اسم « القبيلة » . فاذا تكاثر أفرادها حتى ضاقت بهم الأرض انقسموا إلى بطون أو أفخاذ أو عشائر، وكون كل منهم وحدة اجتماعية قائمة بذاتها ومستقلة عن غيرها استقلالا تاما مع ارتباطها بقبيلتها الأم ارتباطا معنويا أو نحوه .

والبدوى الذى ترتبط حياته بالكلأ والماء لابد أن يتكالب عليها ويتناحر حولها ، فاذا عز عليه الماء والكلأ خرج إلى عرض الصحراء باحثا عن القوت فيصيد أو يصاد ، وإلا فالغارة والغزو لاغتنام ما يقيم الأود . لهذا كانت حياة البدوى دائما قتالا أو تأهبا لقتال ، ولهذا كانت القوة والشجاعة شرطا من شروط بقائه وعاملا من أهم العوامل التي تلعب دورا فعالا في مجتمعه ، ولهذا أيضا كانوا يكرمون الشجعان ويتفاخرون بأعمالهم ، ويشيدون بذكرهم وذكر شجاعتهم[١] . ومن هنا جاءت شهرة عنترة .

والبدو — أفراد القبيلة الواحدة — لا تجمعهم المصلحة المشتركة التي توحد بين أبناء الأمة والوطن ، لأن هذه المصلحة لا تلبث أن تضيق عليهم فتنقلب إلى مصدر نزاع وخصومة بدلا من أن تكون رابطة عقد وجامعة شمل . لهذا كان لابد لأبناء القبيلة الواحدة من رابطة أخرى تجمعهم وتربط بينهم . وقد وجدوا هذه الرابطة في النسب ، ولذلك نجد أنهم عنوا بحفظ أنسابهم وضبطها وردها إلى الآباء الأولين والمبالغة في استقصائها كما تفاخروا بها واعتمدوا عليها في كل الاعتماد في الفخر والمدح والهجاء . ويبدأ النسب عندهم بالعائلة ، الوالدان

---

(١) مروج الذهب — للمسعودى ج ١ ص ٢١١ .

والأخوة والأعمام ، ثم الفصيلة التى تتألف من عدد من العائلات ، يليها الفخذ الذى يضم بعض القبائل ، وهذه تنضم إلى بعضها فتكون البطن ومن البطون تكون العمارة ، ومن العمائر تتألف القبيلة ، ومجموع القبائل هو الشعب .

من هذا يتضح ان الأصل فى العصبية عند العرب هو الأبوة والأمومة — أى الانتساب إلى أب وأم كريمين نسبها معروف ومتصل . فالأب هو الاصل فى الانتساب والام تقوده إلى الخؤولة التى كان لها شأن عظيم عندهم . ولهذا فان العربى كان لا يلحق بنسبه إلا من كانت أمه حليلة من ذوات النسب . . قال الحجاج بن يوسف مفتخرا « لم تلدنى أمة بينى وبين آدم ما خلا هاجر[1] » وهذا الامر هو الذى أنشأ عقدة العقد لعنترة وكان عاملا ذا أثر قوى سواء فى تكوينه أو فى مجرى حياته .

فابن الأمة كان يعتبر عبدا بصرف النظر عن أبيه وعن اعترافه بوطء تلك الأمة أو عدم وطئها . ومع ذلك فان هذا النظام لم يقف حائلا دون البارزين من العبيد — الذين يأتون أعمالا عظيمة أو تدعو الحـــاجة إلى استلحاقهم والانتساب إلى سادتهم من العرب الذين خلص نسبهم ، أو على الاصح الحاقهم بنسبهم ، مثلما حدث لعنترة . فالاستلحاق كان من توابع العصبية العربية ، وعن طريقه يمكن للعربى أن يلحق بنسبه عبدا أو أسيرا أو مولى ، وأن يسميه باسمه وبذلك يصبح كواحد من القبيلة له نصيب الحر وجميع حقوقه وعليه جميع واجباته كما انه يرث ويورث مثله فى ذلك مثل الابن الصريح[2] .

والدافع إلى الاستلحاق — فى هذا المجتمع البدوى — غالبا ما يكون هو الرغبة فى استغلال الشخص الذى يريدونه اما لكسب مادى مثلما روى عن

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ٧١
(٢) الاغانى جـ ١٧ ص ٩٤

نصيب ـــ المغنى المعروف ـــ حينما أراد مواليه أن يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم : « والله لأن أكون مولى لائقا أحب إلى من أن أكون دعيا لاحقا ، وقد علمت أنكم تريدون مالى »[١] ، أو أن يكون الدافع إلى الاستلحاق هو الرغبة فى الحصول على نصرة المستلحق مثلما فعل معاوية بن أبى سفيان مع زياد بن أبيه ـ أو زياد بن سمية ـــ فاستشهد خمارا من أهل الطائف أن أبا سفيان جاءه والتمس منه بغيا فأتاه بسمية فحملت منه بزياد وبذلك ألحقه بنسبه وسمى بعدها بزياد ابن أبى سفيان[٢] . أو يكون الدافع إلى الاستلحاق هو الحاجة الحقيقية للقبيلة إلى هذا الذى ولد لأحد رجالها وكل ذنبه ان أمه كانت أمة وليست حرة ولكن أخلاقه وفعاله تدفع القبيلة إلى الاعتراف به ورد حقه المسلوب اليه ، وهذا هو ما حدث لعنترة حينما أعلن شداد إلحاقه بنسبه .

ومع ذلك فان الاستلحاق لم يكن يعيد إلى الرجل إلا حقوقه المادية والرسمية فحسب ، أما الحقوق الاجتماعية والنفسيه فانه كان يفتقدها ويظل تحت تأثير المعاناة منها من ذلك انهم كانوا يطلقون عليه اسم « الدعى » ويتحاشونه إلا فيما تقتضى الرسميات ، ويعيرونه بأصله لأوهى الاسباب أو ربما بلا سبب . وهكذا يعيش وسط القبيلة بعقده القديمة أو بعقدة جديدة قريبة الشبه من العقد القديمة .

ولعل السبب فى ذلك هو الحرية الشخصية التى كان يتمتع بها كل فرد من أفراد القبيلة لا سيما حرية الرأى وحرية القول ، وقد تصل هذه الحرية إلى درجة انه يستطيع رفض ما اجتمع عليه رأى الأغلبية من أبناء القبيلة[٣] . ولما كان

---

(١) الاغانى جـ ١ ص ١٣٤
(٢) الكامل فى التاريخ ـ لابن الاثير جـ ٣ ص ٢٢٥
(٣) الدعوة الى الاسلام ـ لسير توماس أرنولد ـ ترجمة حسن ابراهيم حسن ص ٣٦

العرق دائما يحتقر أبناء الاماء [١] ، فمعنى هذا ان استلحاق الرجل لن يعفيه من هذا الاحتقار بل ربما زاد عليه شيئا من التحامل والحقد وكان سببا من أسباب مناهضته والتحرش به .

من هذا يتضح ان علاقة الفرد بالقبيلة كانت تنقسم إلى قسمين متميزين ، أولهما ما كان يتعلق بالسياسة العامة لها — أى علاقتها الخارجية — وهنا كانت شخصية الفرد تكاد تختفى وتذوب بأكملها فى القبيلة . هذه العلاقة هى التى كانت تضمن بقاء الفرد وتيسر معيشته وتحميه من الأعداء ، وأوضح مظاهرها تلك المقولة المتواترة بين القبائل « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » ، وهذا هو ما عبر عنه أبو سفيان بقوله عن قريش : انا رجل منها ما فعلت فعلت [٢] كما كان أوضح قوانين هذه العلاقة اجتماع القبيلة كلها على دفع الدية إذا ما قتل أحد أبنائها فردا من قبيلة أخرى .

أما داخل القبيلة فقد كانت حرية الفرد مطلقة ومكفولة ما لم يقترف إثما فى حق قبيلته ، فله مثلا حرية القول وحرية معارضة شيخ القبيلة بل واجماعها — وذلك فى الشئون الداخلية فحسب — ولكن إذا استقر رأى الجماعة على أمر معين فى شأن من شئونها الخارجية — كغارة ، أو رد غارة ، أو تحديد علاقة بالجيران - فان كل فرد من أفراد القبيلة ملزم بتنفيذه وتابع لها فى كل ما تأتيه . وله كذلك حرية تامة فى طريقة معيشته وفى تنقله ، وفى عقيدته ، وفى تجارته فلم تكن هناك أية قوانين تلزم بمعيشة معينة أو بعقيدة معينة ، كما كانت القبيلة لا تتدخل فى تجارة أبنائها وفى دخلهم ومعاملاتهم ، ولكن إذا ما اقترف الفرد أمراً من شأنه تعريض سلامة القبيلة للخطر أو تهديد وحدتها — كان قتل فردا من أفراد قبيلته — فانه يعد بذلك مجرما وتطارده القبيلة للقصاص منه ، أو

---

(١) وفيات الأعيان — لابن خلكان جـ ١ ص ٣٢٠
(٢) كتاب المغازى — للواقدى ص ٣٢٠

تخلمه عنها وتتركه وحيدا وسط الفلاة ليفنى فان كتبت له الحياة انضم إلى عصابة من عصابات الصماليك ، أو زاد حظه قليلا فتستلحقه قبيلة من القبائل .

هذه الحريات الشخصية كان عمادها المساواة التامة بين جميع أفراد القبيلة ، فلا سيد ولا مسود ولا طبقة تعلو أخرى ، وإنما الجميع سواسية لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ، حتى شيخ القبيله كان لا يزيد عن أى فرد من أفراد قبيلته ، فهو لا يحتجب ولا يخاطبه أحد بالقاب التعظيم والتفخيم ، وإنما ينبع احترامهم أياه لكبر سنه ورجاحة عقله وقيامه بالفصل بينهم فى قضاياهم الداخلية[١] ... فهو « أى شيخ القبيلة — لا يتوج ولا يحرص على ألقاب التفخيم ولا يحتجب عن عشيرته ولا يستأثر بالرأى فى الأمور العظام ، فليست سلطته مطلقة[٢] .

والنظم الاجتماعية تختلف من أمة لأخرى إختلافات كبيرة تبعا لأصل السكان وطبيعة البيئة وظروف الحياة ، فقد أثبت البحث فى حياة الأمم أن النظام الإجتماعى للأمة هو فى الحقيقة عنوان مشاعرها واحتياجاتها الموروثة . ولما كانت الجزيرة العربية من أكثر بلاد العالم جدبا ، وكان أهلها مقيدين بحدودها لا مناص لهم من الاكتفاء بما تنتجه أرضهم القاحله ، لذلك فان نظامهم الإجتماعى أحل الغارة والغزو باعتباره مصدرا طبيعيا من مصادر الرزق ، ورفع مفهومه بحيث أصبح بالنسبة لهم يوازى مفهوم الحروب الدولية بالنسبة للامم الحديثة فالغارة والسلب لم تكن عملا قانونيا فحسب ، وإنما هى عمل بطولى ومصدر شرف ومجال مفاخرة .

وبقدر ما كان الفوز فى الغارة مفخرة ، كانت الهزيمة فيها مذلة ومجلبة للعار فضلا عن ضياع مصادر الحياة الأساسية من أخذ الإبل والانعام وسبى النساء

---

(١) ملوك العرب لامين الريحانى جـ ١ ص ٢٦
(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية — للدكتور طه حسين ص ٨٧

والأطفال . وهذا العار لا يمحوه إلى القصاص والأخذ بالثأر . فالبدوى المهزوم لا يعيش إلا على أمل واحد هو رد تلك الهزيمة والتمكن من غريمه مهما طال الزمن . لذلك كانت الحرب هى المحور الاساسى للحياة البدوية باعتبارها أول ضرورة من ضروريات تلك الحياة . وكانت فلسفتهم تجاهها أن أغز أنت قبل أن يغزوك غيرك وكن دائماً على استعداد لدفع محارب أو رد مغير .

وكان من مظاهر ذلك النظام الاجتماعى أنه أصبح من العسير على الفرد أن يعيش بنفسه ، فالإنسان الذى يعيش منفردا فى مثل هذه البيئة مصيره إلى زوال عاجل ، ولا يزول ضعفه هذا إلا إذا انضم إلى غيره ليكونوا جماعة هدفها الاول هو العمل على حفظ الحياة لأعضائها ، وبقدر ما يكون من تضامن بين أفراد هذه الجماعة تكون عداوتها وتربصها بغيرها من الجماعات .

وعلماء الإنساب يقسمون الطبقات الإجتماعية فى البيئة العربية الجاهلية إلى عدة أقسام يندرج بعضها تحت بعض هى فى معظمها : الجماهير — أى مجموعة الشعوب — وبعد الشعب تأتى القبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالعشيرة فالفصيلة فالرهط الذى هو أسرة الرجل خاصة وقد قال البعض : إن الشعوب هم العجم بينما القبائل هم العرب . وقد سميت القبيلة قبيلة لتقاربها وتناظرها وأن بعضها يكافىء بعضا . وقيل لها عمائر من الاعتمار والاجتماع ، وقيل لها بطون لانها دون القبائل ، والافخاذ لانها دون البطون ، ثم العشيرة وهى رهط الرجل ثم الفصيلة وهى أهل بيت الرجل خاصه[1] .

من هذا نرى أن الرهط والأسرة والفصيلة تكاد تكون كلها بمعنى واحد وتدل جميعا على أهل البيت وأن الفرق بينهم هو اختلاف من حيث الحجم فقط فالرهط ما دون العشرة والأسرة فوق ذلك والفصيلة أكثر من هذه وتلك ،وقد

---

(١) العقد الفريد — لابن عبد ربه ج ٢ ص ٤٥

عنترة مع مالك — أبى عبلة — وتعسفه فى طلب مهر ابنته منه . وكان العرب كذلك يرفضون رفضاً باتاً تزويج بناتهم للموالى ، وكانوا يعيرون من يفعل ذلك وكثيراً ما كان المعير يعترف صراحة بأن دافعه هو طلب المال وإرتفاع قيمة المهر (كما فى قصة خولة بنت مقاتل بن قيس)[١] .

فالاسرة العربية إذن كانت قائمة على أساس نظام الزواج العادى ، وكما كان هذا الزواج يتم برغبة الرجل وبناء على طلبه فان التحلل منه كان كذلك يتم برغبة الرجل فيقع الطلاق لمجرد مشيئته وبكلمة منه ، ولكن عليه فى هذه الحالة أن يقدم من الأسباب مايقنع أهل الزوجة وإلا وقع السيف بينهم ، فان عدداً غير قليل من أيام العرب كان سببه المباشر وقوع طلاق أو انفصال بين زوجين من قبيلتين مختلفين .

وكما أباح هذا النظام الطلاق ، أباح كذلك تعدد الزوجات . وأغلب الظن أن ذلك كان لحاجات بيئية فرضتها طبيعة حياة البدوى فى تلك الصحراء ، أهمها الرغبة فى زيادة النسل وكثرة الأبناء الذين هم عماد قوى من عمد الحياة القبلية ، ولم يكن دافعه فى معظم الحالات هو مجرد الانغماس فى الشهوة والاغراق فيها ، فكثيراً ما كان الزوج يزف إلى زوجة ثانية بناء على رغبة زوجته العاقر وبمساعدتها . ويقدم لنا « لوى » فى كتابه الجماعة البدائية سبباً آخر لتعدد الزوجات هو أن المرأة فى كثير من الأحيان كانت تدفع زوجها إلى الاقتران بأخرى لشدة رغبتها فى طرح جزء من أعباء واجباتها المنزلية على عاتق المرأة الجديدة[٢] وربما كانت لها أسباب سياسية مازالت قائمة حتى الآن منها مجرد الرغبة فى المصاهرة للتوفيق بين جانبين أو للحصول على القوة أو الرغبة فى عقد حلف .

وإلى جانب تعدد الزوجات كان يوجد فى المجتمع الجاهلى نظام الاماء وما

---

(١) الكامل للمبرد جـ ١ ص ١٨١ والعقد الفريد جـ ٢ ص ٢٤٤

(٢) Lowie R. : Primitive society, P. 40

الخاص بها الذى لا يسمح لغريب بوروده أو الاقتراب منه . وكان الحى يعمل كجماعة واحدة مترابطة نظرا لظروف البيئة الصحراوية ، فكان يرحل سويا ويقاتل سويا [١] ، وكان جميع أعضائه متساوين فى الحقوق والواجبات ، وكان أقدس تلك الواجبات المطالبة بالثأر للقتيل والتضامن عند دفع الدية لقاتل .

ولما كانت العشيرة هى جماعة أقليمية أوجدتها الظروف البيئية القاسية والمعيشة الصحراوية الصعبة ، لذا وجب عليها أن تواجه أمرين متعارضين : أولهما الدفاع عن النفس وهذا يتطلب كثرة فى عدد أفراد العشيرة إذ كلما ازداد عددهم كلما ازدادوا مناعة وقوه ، ولكن كيف تفى البيئة الفقيرة بحاجات العشيرة من الماء والكلأ ؟ أن هذا — ولا شك — يدعو إلى أن تكون العشيرة أقل ما يمكن عددا حتى يستطيع الحى أن يستوعبهم ويفى بحاجات معيشتهم . لهذا فإن عدد أفراد العشيرة كان يتراوح بين ثلثمائة وستمائة فرد وكثيرا ما يبلغ الالف . ولعل الالف كان هو العدد المناسب للعشيرة حيث نجد أن لفظة (الف) فى العبرية هو اللفظ المستعمل للدلالة على العشيرة [٢] — فاذا نمت العشيرة وزاد عددها عما يستطيع الحى أن يقدمه من ضروريات الحياة كان من اللازم — بحكم الضرورة الإقتصادية — أن تنقسم إلى جماعتين أو أكثر ، وأن ترحل إحدى الجماعتين أن هونا وأن قسرا ، وتبحث لها عن حى جديد وبذلك تصبح كل جماعة عشيرة مستقلة لها ظروفها ومصالحها الخاصة بها والتى ربما تعارضت مع مصالح أختها الاولى فتتنازعان وتتحاربان . وهذه الظاهرة سائدة ومطردة فى حياة العرب الاجتماعية ، نجدها بين الكثير من الاخوة مثل الأوس والخزرج ، وبكر وثعلب ، ومثل عبس وذبيان . فعلى الرغم من أن كل زوج منهما كان فى الأصل يكون حيا واحدا إلا انهما ما ان وقفت بينهما ظروف الحياة وافترقا

---

(١) الاغانى جـ ١٨ ص ٢١٠
(٢) للنظم الاجتماعية والسياسية عند العرب — لمحمود جمعة ص ١٤٦

حتى وقع السيف بينهما ودارت عليهما رحى الحرب[١] .

وكان برأس العشيرة شيخ يختار من بين أفرادها غالبا ما يكون أكبرهم سنا وأكثرهم مالا وأعظمهم نفوذا وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصى[٢] .

والتخطيط العام لمواضع الحى (كما ذكره كوست[٣] : هو ان تكون خيمة الرئيس فى الوسط وتليها خيام أبنائه المتزوجين ، فخيام الأقرباء ، فخيام الخدم. وتكون الافراس أمام الخيام لتكون حاضرة عند أول اشارة ، ثم تليها مرابط الابل والضأن والماعز وتصف الجمال حول خيمة الحرس على شكل دائرة، وتنصب خيام الارصاد الصغيرة بعيدة عن المخيم قليلا للرقابة ليلا .

اما داخل الخيمة فانه إلى جانب المتاع البسيط الملائم للحياة البدوية لابد أن تحتوى كل خيمة على أسلحة ورمح ، فالحروب هى عماد حياتهم وهى المحور الاول الذى يدور حوله كل سلوكهم ، فهى بذلك العامل الأساسى فى تكوين المجتمع العربى الجاهلى ، لأن البدوى دائما اما مغير أو معرض للاغارة عليه ، بل انه ربما أقدم على الحرب تلقائيا وبحكم العادة ، « فإذا لم يجدوا من يقاتلونهم قاتلوا أنفسهم . ولعل خير ما يمثل ذلك قول القطامى : —

فمن تكن الحضارة أعجبته   وأىّ رجال بادية ترانا
أغرن من الضِّباب على حلال   وضبّةَ أنه مَن حان حانا
أحيانا على بكر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا[٤]

والبدوى دائما وأبدآ صاحب ثأر يسعى وراءه ، أو انه مطلوب الثأر منه

---

(١) راجع ايام العرب فى الجاهلية والعقد الفريد
(٢) الدعوة الى الاسلام — لسير توماس أرنولد — ترجمة حسن ابراهيم حسن ص ٣٦
(٣) حضارة العرب — لليبون ص ٣٤٥
(٤) فجر الاسلام — لأحمد امين ج ١ ص ١٠ — ١١

وعليه أن يدافع عن نفسه . وهذا الثأر لا يموت مهما طال الأمد، فحروب الثأر دائرة تذكيها أجيال بعد أجيال وتمر عليها السنون التي قد تربو على الأربعين مثلما حدث فى حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وفى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان(١). ثم هو بعد كل ذلك وجها لوجه أمام وحش الصحراء الكاسر الذى يشاركه سكنى الجزيرة والذى عليه أن يرده عن غنمه وعن نفسه ، فإذا ما جاع سعى وراء ذلك الوحش يطارده ويصطاده ويتخذ منه قوته وقوت أولاده .

هذه الحياة المصبوغة دائما وأبداً بالدم والتى لا مكان فيها إلا للقوى الذى يعرف كيف يدافع عن نفسه إذا هوجم ، وكيف يهجم إذا ما دفعته ظروف الحياة إلى ذلك ، لابد أن تكون الصفة البارزة فيها هى اجادة الحرب واتقان أساليب القتال ، وأن تكون الفروسية هى المثل الأعلى والهدف الأسمى الذى يسعى اليه الجميع ، وأن تكون الشجاعة هى قمة الصفات لا سيما إذا ما واكبها قوة احتمال وحسن تبصر . ولهذا فان طرق التربية عند هؤلاء القوم كانت تقوم على أساس واحد لا أساس سواه هو تعليم الصغار طرق الحرب والقتال وتنشئتهم على الشجاعة والاقدام ، وتهيئتهم لاحتلال مكان الفارس فى مجتمعهم وقد أقر الاسلام هذه السياسة التربوية واستمر عليها ودعمها بكثير من الأحاديث النبوية والأقوال المأثورة .

هذه التنشئة الحربية كانت وقفا على أبناء العرب ذوى النسب ، أما العبيد فعملهم الأساسى هو الرعى والخدمة وليس لهم أن يتدربوا على القتال ، بل ان ذلك كان محرما عليهم لأن الدربة على القتال تتطلب جوادا ، والفرس فى الجزيرة العربية كان شيئا عظيما لا يرقى اليه العبيد . ولهذا فان كاتب سيرة عنترة جعل بطله يتدرب على القتال خفية وهو بعيد فى الصحراء ، وحينما بلغ أمره مولاه شداد عاقبه على ذلك عقابا شديدا .

---

(١) راجع أيام العرب فى الجاهلية والعقد الفريد ج ٣

والحرب فى ذلك المجتمع كانت محصلة للانسان والحصان والسلاح، لهذا كان اهتمامهم بالفرس يعادل اهتمامهم براكبه. فكما ان الفارس يجب أن يكون عربيا أصيلا عالى النسب كذلك الحصان يكون معما مخولا معروف الآباء موصول النسب، وكما كانت أفضل وجباتهم هى شرب اللبن الغبوق فى الصباح فان الفرس له نصيب من هذا اللبن كذلك. وكما كانوا يتغنون بأنفسهم فى أشعارهم ويفاخرون بشجاعتهم كانوا أيضا يصفون أفراسهم ويمدحون شجاعتها ويتغنون بمحاسنها. وكما كانت الحرب تندلع إذا ما أهين عربى أو مست كرامته كذلك كان القتال يدور بسبب الخيل مثلما حدث للفرسين «داحس والغبراء». وكما أن هناك مشاهير من فرسان العرب فان هناك كذلك مشاهير من أفراسهم حفظ لنا الرواة أسماءها وأنسابها وأفعالها(١).

ولهذا وجدنا أن كاتب سيرة عنترة لا يرضى بأن يركب فارسه فرسا عاديا، وإنما هو يركبه «الأبجر» الذى أبوه «واصل» وأمه «النعامة» ويجعله يدفع مقابله كل ما غنمه فرسان عبس من أسلاب وأموال، بل ويضيف إلى ذلك أن عنترة نسى عشقه لعبلة بذلك الحصان(٢). وليس كاتب السيرة — فى ذلك — موغلا فى المبالغة إذ من المعروف أن الجواد العادى كان يعادل خمسا وعشرين ناقة(٣)، فما بال هذا الجواد المعجز المؤصل؟

لكل ذلك كان الفارس العربى يضع فرسه فى المكان الأول بل وكان يقدمه على نفسه فى كثير من الأحيان، وكان يطلق عليه من الأسماء ما له دلالة على المكانة والاعزاز ويسومه حتى لا يختلط نسبه، ويعلمه بعلامات تبرزه ويعرف بها. وقد بلغ من وثوق الصلة بين الخيل وأصحابها ان الفارس كثيرا ما كان

(١) راجع العقد الفريد جـ ١
(٢) سيرة عنترة بن شداد مجلدا ص ١٣٦
(٣) دائرة المعارف الاسلامية ص ٣٧١

يعرف بفرسه لا بقسماته وزيه[١] وكان العربى خبيرا بالافراس يعنى بها العناية كلها : روى ان عمر بن الخطاب قال لعمرو بن معديكرب : كيف معرفتك بعراب الخيل ؟ قال : معرفة الانسان بنفسه وأهله وولده[٢] وقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ الكثير من أسماء الخيل العربية الأصيلة كما أفاضت فى شرح صفاتها وما هى عليه من خصال وألفوا العديد من الكتب عنها بخاصة[٣] .

والركن الثالث من أركان هذا المظهر الاجتماعى من مظاهر البيئة الجاهلية هو السلاح الذى لم تكن تخلو منه خيمة عربى والذى كان يحظى من صاحبه بالعناية الفائقة . وكان البدوى يقضى الوقت فى تثقيف أسلحته وصقلها واعدادها للقتال كما كان يفاخر بجودة صنعها وصلابة نصلها . وقد فطن كاتب سيرة عنترة إلى هذه الناحية فسلم بطله سيفا صقيلا مصنوعا من شهاب وقع من السماء ولم يقنع بأن يحمل عنترة مهندا أو مشرفيا عاديا مع أن هذه من أشهر أسياف العرب المستوردة من الهند ومشارف اليمن .

وإلى جانب السيف الذى كان يعتبر السلاح الأول للفارس العربى وجدت الرماح « الخطية واليزينية » (نسبة إلى ذى يزن الملك) . فالسيف كان للمبارزة والقتال عن قرب أما الرمح فللكر والمباغتة . وكما كان الفارس يتدرب تدريبا كاملا على استعمال السيف سواء وهو راكب أو هو راجل ، كان عليه كذلك أن يتدرب تدريبا آخر على استعمال الرمح . وربما كانت تدريبات هذا الأخير أشق من تدريبات السيف حيث يتطلب استعماله مهارة خاصة فى التصويب .

---

(١) الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى ـ للدكتور عبد الحميد يونس ص ٨٩
(٢) راجع الفهرست لابن النديم
(٣) العقد الفريد جـ ١ ص ٤٧

أما الرمى من بعيد فبواسطة القسى والسهام . وكان أجود أنواعها ما أطلق عليه اسم « العصفورية » . واستعمالها يتطلب اجادة التصويب وتحديد موقع الهدف دون رؤيته اعتمادا على السماع والتقدير . وهذه هى الطريقة التى اختارها مؤلف السيرة لينهى بها حياة بطله بواسطة سهم يصيبه من يد الأسد الرهيص (فاقد البصر) صوبه اليه عن طريق السماع والتقدير فأصاب منه مقتلا .

تلك هى أجهزة القتال التى كان العربى لا يفارقها ولا يدخر وسعا فى الاحتفاء بها وتقريبها من نفسه حتى ان كثيرا منهم كان يتصور أسلحته وكأنها كائنات تنبض بالحياة تعى وتحس وتستطيع التمييز والتعرف على الأعداء وتتأثر بألفاظ الحماس وتستجيب للحث على الاقدام[1] .

وهناك أجهزة أخرى كانت تستعمل للدفاع يأتى فى مقدمتها الدرع وهو ذلك الرداء الحديدى الذى يلبسه الفارس ليقيه الطعنات . وكان لبس الدرع ليس من العيوب التى تؤخذ على الفارس العربى وان كان التخلى عنها يعتبر منتهى الشجاعة وقمة الفروسية . أما الترس فقميص مصنوع من الجلد وكان يسمى « الدرقة أو المجن » . أما رأس الفارس فيغطيها بالبيضة أو المغفر كما كانت تسمى .

هذه الأجهزة الحربية هى عدة العربى وعتاده الذى يقيم عليه كل حياته حتى ان زيد بن حاتم يقول فى ادرعة اشتراها : « اننى لست اشترى ادرعا وانما اشترى أعمارا[2] » وتلك العدة لا غناء فيها إذا لم يحسن العربى استعمالها ، فالسيف لا يبتر إلا باليد التى تحمله . قال العتبى ان عمر بن الخطاب بعث إلى عمرو بن معد يكرب ان يبعث اليه بسيفه المعروف باسم « الصمصامة » ، فبعث به اليه ، فلما

---

(١) بلوغ الارب للالوسى جـ ٢ ص ٣٥٤ و ٣٥٧
(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٥٣

ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب اليه فى ذلك ، فرد عليه : انما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث بالساعد الذى يضرب به[١] . وحين استعمال القوس تعتبر المهارة فى اصابة الهدف هى العامل الأول ، وكان المتخصصون فى ذلك يسمون « رماة الحدق » لما لهم من قدرة فائقة فى التحكم والسيطرة على أقواسهم واصابة الاهداف بها ... يروى ان رجلا خرج يقطع الصحراء فى بعض أمره فلما اصحر لحق به أعرابى راكب على حمار معه قوس وكنانة فسارا معا ، وعنت لهما ظباء ، فقال له الاعرابى : أى هذه الظباء أحب اليك ، المتقدم منها أم المتأخر فأذكيه لك . قال له : المتقدم . فرماه فخرمه بالسهم ، فاشتويا وأكلا فاغتبط الرجل بصحبة الاعرابى . ثم عن له زفة قطا فقال : أيتها تريد فاصرعها لك ؟ فأشار إلى واحدة منها ، فرماها فاقتصدها ثم اشتويا وأكلا[٢] .

وهكذا كانت الحرب هى العامل الاساسى الاول فى تكوين المجتمع العربى فى الجاهلية . فهى المحور الذى تدور عليه حياة الناس ، وهى المصدر الذى منه يرتزقون وعليه يعتمدون ، وهى الدستور الذى يسود العلاقات بين القبائل والافراد ، وهى اللغة التى يفهمها كل عربى والتى يتكلمها مع غيره لسبب ولغير ما سبب .

أما العامل الثانى فى تكوين ذلك المجتمع فهو المرأة ووضعها فيه ، ولعل اهتمامنا بها يزداد إذا ما عرفنا أنها كانت العامل الاساسى الاول فى تكوين شخصية عنترة وتطويرها ورسم اتجاهات سيرها ، وتحديد المنحى الذى نحا اليه فارسنا بحيث لا نستطيع تفسير كل ذلك إلا على أساس من معرفة مكان المرأة العربية فى المجتمع القبلى .

---

(١) السابق
(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٥٥

وأول ما يقابلنا من ذلك هو علاقة الرجل بالمرأة ، أو بمعنى آخر طبيعة الزواج وكيفية بناء الاسرة التي على أساسها يبنى المجتمع. من الثابت أن الانتساب إلى الاب كان هو النظام السائد بين عرب الجاهلية ، فكان الاب هو رأس الاسرة المتصرف في جميع شئونها وأمورها ، المهيمن على كل أفرادها ، إليه ينسب الابناء وأبناء الابناء حتى أن القبيلة كلها كانت ترجع في نسبها إلى الجد الاكبر لها . وتبعاً لذلك كان العربي القديم يظن أن كل شعب منحدر من أب واحد ينتسب إليه ، فكان « الاشوريون » في نظره منحدرين من رجل يدعى « آشور » ، والكنعانيون من رجل يدعى كنعان ، والمؤابيون من مؤاب ، والاسرائيليون من اسرائيل[١] .

ويختلف المؤرخون وعلماء الانثروبولوجي حول هذا النظام ، ففريق يقول بأنه الاصـــل الذي عرفه العرب وآخرون يدعون أنه تطور طبيعي للحياة الاجتماعية البدائية التي لا بد أن تكون قد بدأت بنظام الانتساب إلى الام وأن تقدم الجماعة أدى إلى تحول هذا النظام إلى قيام العصبية الابوية . وسواء صح رأي هؤلاء أو أولئك فمن الثابت أن العرب عرفوا نظام الانتساب إلى الام وأنهم مارسوه بقدر طفيف يدل على أنه كان شذوذاً وليس قاعدة ، فعلماء الانساب يذكرون أن العرب كانوا يطلقون على ولد الياس بن مضر بن نزار (وهم مدركة وطابخة وقمعة) اسم « خندف » نسبة إلى أمهم خندف .[٢] وقد أفرد مؤرخو الادب عدداً من الرسائل عمن نسب إلى أمه من الشعراء .[٣] ولكن يبدو أن هذا الإجراء الشاذ كانت له دوافع اجتماعية قاهرة أوجدتها نظم الزواج في الجاهلية . ومع ذلك فان البدوي كان يمقت هذا الوضع ويأنف من قبوله فقد حدث أن خطب عمرو بن حجر إلى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم أياس،

(١) النظم السياسية والاجتماعية عند العرب ـ لمحمود جمعة ص ٧٩
(٢) نهاية الارب ـ للنويري جـ ٢ ص ٢٦٢
(٣) ورد ذكرها في كتاب الاصابة لابن حجر العسقلاني والفهرست لابن النـديم

فقال : نعم ، أزوجكها على أن أسمى بنيها وأزواج بناتها . فقال عمرو بن حجر: أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا، وأما بناتنا فننكحهن اكفاءهن من الملوك ، ولكنى أصدقها عقارا فى كنده وأمنحها حاجات قومها لاترد لأحد منهم حاجة . فقبل ذلك منه أبوها وأنكحه أياها[1] .

من ذلك نرى أن أساس قيام الأسرة فى الجاهلية كان الزواج العادى الذى يذهب فيه الزوج إلى أب العروسة خاطبا ، فان قبل دفع اليه المهر وحمل زوجته إلى داره وأصبحت فرداً من أفراد عشيرته هو وسمى أبناءه باسمه . وهذا هو السبب الذى دفع بعض المستشرقين إلى اطـــلاق اسم « الزواج بالشراء Marrige by Purchase على هذا النظام باعتبار أن المهر إن هو إلا نوع من أنواع التعويض . فالعرب كانوا ينظرون إلى الفتاة نظرتهم إلى السلعة القيمة التى تضيف إلى مال أبيها الكثير ، ومن أجل هذا كانوا يسمونها « النافجة » وكانوا يحيون الرجل إذا رزق ابنة بقولهم « هنيئا لك النافجة »[2] .

ولعل هذا يفسر لنا ظاهرتين إجتماعيتين هامتين وجدتا فى المجتمع القبلى فالعرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من قبيلة أجنبية ، وكانوا يختارون لهن أفضل أبناء القبيلة وأوسعهم ثراء ، وأوسعهم ثراء ، وسموا ذلك « بالكفاءة » وعدوا من الشرف إلا تعطى المرأة إلا لكفء حتى أن قيس بن زهير قال لنمر : «إن لم تجدوا الاكفاء لبناتكم فخير أزواجهن القبور »[3] ولهذا أيضاً كانوا يغالون فى المهر ويجادلون فى طلب المزيد، فإذا تقدم للفتاة أكثر من خاطب كان أساس المفاضلة الوحيد بينهم هو إرتفاع المهر . وربما كانت المبالغة فى المهر ضربا من ضروب التعجيز حينما لا يستطيع الأب اظهار الرفض الصريح لسبب أو لآخر مثلما نجد فى قصة

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٢٣
(٢) فى القاموس : النافجة هى البنت لأنها تعظم حال أبيها بمهرها
(٣) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٤٤

اعتبر العرب أن هذه الوحدة العائلية هى أصغر وحداتهم الإجتماعية . أما العشيرة والفخذ والبطن والعمارة فتكاد كلها تتشابه كذلك لتدل على أصغر وحدة من وحداتهم السياسية . وقد عرفوا العشيرة بقولهم : «هم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء»[1] — أما القبيلة فرتبة أكبر وأن كانت لا تختلف عن العشيرة إلا من حيث الحجم ودرجة البعد على الأصل المشترك[2] .

والواقع أن محور الحياة الإجتماعية الجاهلية يدور فى معظمه حول العشيرة لا حول القبيلة . فالعشيرة هى الأصل ، ولم يظهر النظام القبلى بعد ذلك إلا عندما اضطرت العشائر إلى التقرب من بعضها لضرورة حربية أو اقتصادية . ومع ذلك فقد ظلت العشيرة هى الأصل والأساس ، كما ظلت محتفظة بذاتيتها وكيانها داخل النظام القبلى أما الأسرة فلم تعد تسهم فى الحياة الاجتماعية إلا بقدر يسير حيث أن كيانها الفعلى قد ذاب فى العشيرة .

وكان يطلق على العشيرة كذلك كلمة « الحى » ، وهى كلمة تدل على ذوى القربى — أى الجماعة التى يمت أفرادها إلى بعض بعلاقة الدم — وهذه الكلمة مشتقة فى الأصل من الحياة لاعتقادهم أن لأعضاء الحى حياة واحدة بسبب ما يجرى فى عروقهم من دم واحد . وكان الحى يتكون من عدة بيوت يطلق على كل منها اسم « الدار » . فلما كثرت هذه البيوت وامتدت أطرافها تنوسى المعنى القديم لكلمة «حى» وأصبحت تدل على الاقليم أو مكان السكنى ، وأصبحت العشيرة عبارة عن جماعة أقليمية تتألف من عدة بيوت أو أسر وتقطن مكانا واحدا هو «الحى»[3] .

وكان لكل حى — أو مجموعة من الأحياء — مرعاها الخاص بها ، وماؤها

(١) نهاية الارب ـ للنويرى ج ٣ ص ١٦١
(٢) Smith Kinship p 5
(٣) الاغانى ج ٤ ص ١٦٣

ملكت اليمين . ولعل سبب وجود هذا النظام هو ما كان لزيادة النسل من أهمية كبرى عندهم ، فالزوجة كانت إذا آنست من نفسها عقما آثرت أن يدخل الزوج بأمتها على أن يتزوج من أخرى ، لأنها تعلم أن الأمة لن تطمع قط إلى مكان الزوجة ولن تنازعها أوضاعها الإجتماعية التى تتمتع بها ، أضف إلى ذلك أن تعدد الزوجات يعتبر من الناحية الاقتصادية عبئا يثقل كاهل الرجل بحيث لا يستطيع حمله إلا الاغنياء فى حين كان الاحتفاظ بعدد من الاماء والجوارى — على قلة نفقته — ينيل الرجل مأربه إلى جانب توفير الايدى العاملة فى البيت وفى خارج البيت.

وكان من عادة العرب فى الجاهلية أسر النساء فى الحروب والغزوات. وكانوا يتزوجوهن قصرا لأن سبى النساء هو أحد الاغراض الرئيسية للحرب والغارة . والمرأة التى تؤخذ فى السبى كانوا يطلقون عليها اسم « النزيعة » لأنها انتزعت من أهلها وفصلت عنهم . والنزيع ولد الأسيرة ، فاذا ولدت الأسيرة هجينا لم يعترف به ولا ببنوته ولا يورث وإنما يعامل معاملة العبيد . ويعتقد البعض أن الزواج بالاسر يرتبط إرتباطا وثيقا بنظام الزواج الخارجى الذى يتطلب من كل فرد من أفراد القبيلة أن يبحث له عن زوجة خارج القبيلة من غير أهله وذوى قرباه لإعتقادهم أن أبناء السبايا أصلح وأقوى . قال الأصمعى فى ذكر النساء : بنات العم أصبر ، والغرائب انجب، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن الاعجمية[١]
وقال حاتم الطائى :

وما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناها باسيافنا قسراً
فما زادها فينا السباءُ مذلّة ... ولا كلّف خبزاً ولا طبخت قدراً
ولكن خلطناها بخير نسائنا ... فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا

---

(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٣٢

وكائن ترى فينا من ابن سبية إذا لقى الأبطال يطعنهم شذرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه فيوردها بيضا ويصدرها حمرا[١]

وهكذا نجد أن نظام زواج الاماء وزواج الاسارى كان لها أكثر من سبب إجتماعى واقتصادى وحربى مثله فى ذلك مثل تعدد الزوجات . فالبيئة الطبيعة هى التى فرضت تلك النظم وأمثالها لتلافى حاجاتها وحاجات أهل العصر . ومع ذلك فإن الكثيرين كانوا لايقرون تلك النظم أو يأنفون منها. فبعض الآباء كان يشترط على الزوج ألا يقترن بغير ابنته أو ألا يقرب الجوارى والاماء[٢] .

من هذا يتضح أن المجتمع النسائى الجاهلى كان يتكون من طبقات ثلاث : أولها طبقة الحرائر — أو بنات العائلات — وتلك هى التى يتزوج منها العربى زواجا موثقا ويذهب إليها خاطبا بعد أن يتأكد من جمالها وحسبها ونسبهاوربما مالهاكذلك ، وهو فى نظير ذلك يدفع المهر الوفير ثم يحملها إلى قبيلته ليفتح لها منزلا ويبنى بها عائلة ، والطبقة الثانية هى طبقة السبايا ، وهؤلاء يبعن فى الاسواق ويقمن — إلى جانب الاستمتاع بهن وانجاب الأطفال — بخدمة المنزل والقيام على لوازمه وأداء بعض الأعمال اليدوية من غزل ونسج . وقد يظن أن هذه الطبقة مكونة فى معظمها من أجنبيات كان يجلبهن تجار الرقيق لبيعهن فى أسواق مكة وغيرها ، ولكن الواقع يدل على انهن كن عربيات أو على الأقل كانت نسبة العربيات بينهن أكثر من نسبة الأجنبيات ، فحياة العرب كانت قائمة على الغزوات والحروب الداخلية أكثر من الخارجية وكانت هذه الغزوات تسفر عن عدد كبير من السبايا اللائى يعتبرن أسرى وملكا لليمين ويحل وطئوهن كما يحل بيعهن . فليس غريبا اذن أن يكون قوام هذه الطبقة من العربيات ، وليس غريبا كذلك أن يختلفن اختلافا كبيراً — من حيث الحقوق والواجبات — عن الطبقة الاولى — طبقة الزوجات .

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٤٤
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ص ١٩٠

أما الطبقة الثالثة فهى طبقة الاماء ، وهؤلاء عليهن القيام بالأعمال الشاقة التى يقوم بها عادة العبيد وأهمها رعى الأغنام والابل، ثم الأعمال المنزلية المجهدة كاعداد الطعام وطحن الغلال وجلب الماء . وبطبيعة الحال لم يكن لدى هؤلاء الاماء من المؤهلات الجسدية مايرفعهم إلى درجة السبايا ومع ذلك فانه كان من الجائز وطؤهن مرة — أو مرات — تحت ظروف متحكمة وليس بصورة منتظمة مثل السبايا .. هذا فضلا عن أن السبية كانت وقفاً على سيد واحد ، أما الأمة فكانت مشاعا لكل المغيرين ، ولهذا فان الاعتراف بابن السبية كان أمراً طبيعياً مسلما به ، بينما كان الاعتراف بأبناء الاماء أمراً لايقره العرف ولايجيزه .

وهذه الطبقة هى التى كان معظم أفرادها من غير العرب ، بل ومن السودان والحبشة على وجه الخصوص ، وإن كان هذا لا يمنع وجود عربيات بينهن . ونحن وأن كنا قد فرقنا تفرقة واضحة بين طبقة السبايا وطبقة الاماء إلا أنهما فى الواقع يتداخلان ببعضهما تداخلا كبيراً إذ كان مجرد غضب الرجل أو رضاه كفيلا بنقل المرأة من أحدى الطبقتين إلى الأخرى ، كما كانت هناك حالات بين بين أى لسن بالاماء ولسن بالسبايا وإنما هى شىء وسط بينهما ، وربما يجمعهما معا .

قبيلة بنى عبس

« عبس بن بغيض » بطن عظيم من غطفان بن قيس بن عيلان بن مضر من العدنانية ، سكن نجدا وحدد صاحب « معجم ما استعجم » منازلهم بأنها بين الابانين والنقرة وما دان والزبدة[1] . « والابانان جبلان غربى القصيم يسمى أحدهما أبان الاسود والثانى أبان الأبيض ، والنقرة منهل يقع شرقى المدينة » . أما حديثا فقد حددها صاحب كتاب « فارس بنى عبس » بأن حدها الغربى هو جبلا الابانين ، وحدها الشرقى الرمال الواقعة شرق القصيم ، وحدها الشمالى أطراف القصيم الشمالية ، وحدها الجنوبى اقليم السر . أى ان منازلهم هى ديار القصيم ونواحيه[2] .

وكان يجاور عبسا من ناحية الشمال والغرب بنو أسد ، وشرقا جاورهم بنو تميم ، وجنوبا بنى عامر . وإلى جوار بنى أسد نزلت قبيلة طىء بن ادد فى جبلى اجا وسلمى[3] وكان بنو فزازة يقطنون وادى القرى والجانب الآخر من جبلى الابانين .

ولم تكن عبس مهيبة الجانب بين جاراتها فحسب ، وإنما كانت عالية المكانة بين قبائل العرب عامة ، وبين بطون قيس عيلان بصفة خاصة . فملكها زهير بن جذيمة كان يعتبر سيد قيس عيلان برمتها وكانت بقية بطون قيس تأتيه بالاتاوة كل عام[4] ، كما كانت بقية القبائل تخشاه وترهبه حتى انه عندما قتل ابنه شاس

---

(١) البكرى ص ١٧٨
(٢) عبد الله القرشى ص ٢٦
(٣) معجم قبائل العرب ــ لعمر رضا كحالة جـ ٢ ص ٦٨٩
(٤) الاغانى جـ ١ ص ٨

« منبح » على يد رياح من قبيلة غنى لم تستطع قبيلته أن تحميه كما كانت تقضى بذلك التقاليد العربية وإنما اضطرت إلى أن تتبرأ منه وتنفيه خوفا من بطش زهير بها[١] . ولعل أوضح مظهر لقوة زهير ومدى نفوده فى الجزيرة العربية هو أن النعمان بن المنذر أصهر إليه وتزوج من أخته المتجردة .

وتبعاً لسنة الحياة الجاهلية فى الجزيرة العربية فإن عبسا لم تبلغ هذه المكانة إلا اغتصابا ، ولم تنل تلك المنزلة إلا بشجاعة فرسانها وحسن بلائهم وكثرة عددهم . ونحن نلمح ذلك لا فى سير حروبهم فحسب وإنما فى نظرة القبائل الأخرى إليهم ومن واقع الأوصاف التى يطلقونها عليهم . ففى أخبار يوم النتاءة مثلا نجد أن المستكشف الذى أرسله بنو عامر ليستطلع لهم قوة أعدائهم المغيرين عليهم لا يلبث أن يعود قائلا : « أرى قوما كأنهم الصبيان على متون الخيل ، أسنة رماحهم عند آذان خيلهم . قالوا : تلك فزارة . قال : وأرى قوما بيضا جعادا كان عليهم ثيابا حمراء ، قالوا : تلك أشجع . قال : وأرى قوما نسورا قد علوا خيولهم آخذين بعوامل رماحهم يجرونها . قالوا : تلك عبس أتاكم الموت الزؤام . أما فى يوم اللوى فقد قال بنوهوازن عن كل قبيلة وصفها لهم المستكشف أنها « ليست بشىء » إلى أن قال لهم : أرى قوما أدمانا كأنهم يحملون الجبل بسوادهم يخدون الأرض بأقدامهم خدا وهم يجرون رماحهم جرا . قالوا : تلك عبس والموت معهم[٢] .

وعلى ذلك فإن حياة عبس كانت سلسلة متصلة من الحروب المتلاحقة ، أما مشتركة مع قبيلتها الأم — قيس فى حروبها ضد غيرها من القبائل ، أو متلاحقة مع شقيقاتها من بطون قيس وافخاذها لسبب أو لآخر من تلك الأسباب التى كانت تدعو إليها طبيعة الحياة الاجتماعية فى البيئة البدوية ومعظمها

---

(١) المثل السائر — لابن الاثير ج ١ ص ٣٣٧
(٢) الاغانى ج ١ ص ٣٠٣ والمثل السائر لابن الاثير ص ٣٩٥

يتعلق بالغزو والغارة والتكالب على أسباب الحياة مما جعل لها رصيدا كبيراً فى أيام العرب[1] .

ولكن هذه القبيلة لم تلبث أن فقدت ملكها غدرا ، الأمر الذى أقحمها فى سلسلة طويلة من الحروب استمرت سنين عديدة وانتهت بفناء عبس وتحطيم كيانها كقبيلة موحدة . . فبينما كان زهير بن جذيمة فى أوج مجده حقدت عليه هوازن بسبب اعتدائه على إحدى عجائزها وتربص له خالد بن جعفر الكلابى وقتله فى يوم النفراوات[2] فترأس على القبيلة من بعده إبنه قيس الذى لم يكن يثقل كاهله شئون القبيلة بقدر ما كان يثقله الأخذ بثأر أبيه . فسار إلى المدينة ليتجهز لقتال بنى عامر . وأثناء هذا التجهيز وقعت حادثة لم تكن على بال أحد لأنها شيء عادى يقع مثله كل يوم . فالعربى معتد بنفسه فخور بها يريد دائماً أن يبرز الجميع وأن يكون هو الذى فى المقدمة . فهو يفتخر لحسبه ونسبه ، فإن تساوت الأنساب يفتخر بقوته ، فإن كان المجال لا يسمح بالنزال افتخر بما يملك ، وأرفع الأشياء التى يملكها شأنا هو الخيل ، ولا تظهر قوة الخيل إلا بالسرعة . حينئذ يأخذ الفخر بها مظهراً عمليا هو إطلاقها فى سباق .

وهكذا شاء القدر أن تتحول المفاخره بين قيس بن زهير وبين جذيمة بن بدر إلى سباق تجرى فيه خيولهما . فأجرى الأول فرسيه داحس والغبراء ، وأجرى الثانى الخطار والحنفاء . وقيل أن حذيفة خشى الهزيمة فبعث بمن أعاق داحس عن السبق وبذلك وقع الشقاق وثارت الفتنة فقتل قيس ندبة بن حذيفة ، وانتقم هذا منه بقتل أخيه مالك بن زهير ، فجمع كل منهما فرسانه ودارت المعارك بين الشقيقتين عبس وذبيان واستمرت ما يقرب من الأربعين عاماً .

---

(١) راجع العقد الفريد ج ٣ وأيام العرب فى الجاهلية ـ لجاد المولى
(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٠

وفى حرب داحس والغبراء ظهرت شجاعة عنترة بن شداد[1] وبدا وسط قبيله بنى عبس كواحد من فرسانها العتاة ينازل الأعداء فيهزمهم ويقتلهم .. نازل فى يوم المريقب ضمضما — أبا الحصين — وهو من كبار فرسان بنى مرة فقتله بعد أن قتل العديد من فرسانهم الذين لم يبلغوا شهرة ضمضم[2] ثم هو بعد ذلك يظهر بمظهر البطل الذى يحمى القبيلة بأجمعها ، فحينما صاحب قومه فى غزوة لهم على بنى تميم وانهزموا أمامها وأخذ بنو عبس فى التقهقر وقف عنترة بمفرده يحمى تقهقرهم ويذود عنهم بنى تميم الذين كانوا فى أثرهم فنعهم عنترة ونجت عبس دون أن يصيب مدبر منهم أى سوء . وقد دفع هذا بنى عبس إلى الشهادة لعنترة بحسن صنيعه وإن كان قد داخل اعترافهم ذاك شىء من المرارة دفعت بقيس بن زهير أن يقول : « والله ما حما الناس إلا ابن السوداء »[3] وهكذا أصبح عنترة بن شداد فارس فرسان بنى عبس التى أسلمت له قيادها واستحق عن جدارة لقب « عنترة الفوارس »[4] وسارت شهرته فى طول الجزيرة وعرضها وأصبح يخشاه الفرسان حتى أننا نجد فارسا من أشهر فرسان العرب هو عمرو بن معد يكرب يصرح دون خجل قائلا : « ما أبالى من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقنى حراها وهجيناها » . (وهو يعنى بالحرين عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث ويعنى بالهجينين عنترة والسليك ابن سلكة)[5] .

ولم تكن حرب داحس والغبراء سببا فى شهرة عنترة كفارس فحسب ،وإنما أظهرت — إلى جانب ذلك — لونا آخر من ألوان بطولته لا يقل فى أهميته عن الفروسية ونعنى به القدرة القولية — التى كانت بالنسبة للعرب — لا تقل

(١) الشعر والشعراء — لابن قتيبة جـ ١ ص ٣٠٦
(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ٥٧
(٣) شعراء النصرانية — للأب لويس شيخو جـ ١ ص ٧٩٥
(٤) العقد الفريد جـ ٣ ص ٥٧
(٥) الاغانى جـ ٨ ص ٢٤٦

قيمة وقدرا عن البطولة الحربية ، فتفجرت مواهب عنترة الفنية ، وتوالت قصائده الشعرية الجيدة التي أخذت طريقها إلى أسماع العرب جميعاً — في كل جزء من أجزاء الجزيرة — فتداولوها بكثير من الاحترام للقبيلة والتقدير لذلك الفارس الذي منع قومه بسيفه وبلسانه معا فكان كسبا مزدوجا لها .

ويستمر تقدم عنترة الشعرى مسايرا لتقدمه الفروسى حتى يصل إلى منتهى ما يأمل شاعر عربى من مجد ورفعة ، إذ يضم إلى صفوة شعراء الجزيرة الذين علقت قصائدهم على أستار الكعبة احتراما وتقديراً ، وبذلك أصبح عنترة فارس الفرسان وشاعر الشعراء ولعل هذا هو مادفع الدكتور فيليب حتى إلى عقد مقارنة بين عنترة وبين « أخيل » فارس اليونان الشهير وبطل الياذة هوميروس .[1] وحبذا لو أن الدكتور فيلب — أو غيره — قام بعقد دراسة مقارنة بين سيرة عنترة بن شداد وبين الياذة هوميروس .

ومهما يكن من أمر ، فان حرب داحس والغبراء — التى تعتبر من أطول حروب العرب وأشهرها — قد اضنت بنى عبس وانهكت قواهم وأتت على الكثير من رجالهم وقللت اموالهم ، والبت عليهم معظم القبائل الاخرى الأمر الذى اضطر بنى عبس إلى ترك ديارهم والضرب فى الصحراء بحثا عن احلاف ومجيرين. فكانوا كلما نزلوا بقوم حلت عليهم لعنة القتال فلا يلبثون أن يتخلصوا منهم.أو لا يلبث بنو عبس أن يحسوا ضيما أو ضغينة فيشدوا الرحال مرة أخرى . وهكذا أمضى بنو عبس الأيام والأعوام فى قتال وحروب حتى بلغوا درجة لم يستطيعوا بعدها مواصلة القتال فقرروا العودة إلى ذبيان وطلب الصلح معهم. بعد أن دارت الحرب بينهم أربعين سنة لم تنتج لهم ناقة ولا فرس لانشغالهم بالحرب .[2] أما ملكهم قيس بن زهير فلم يقبل الانحدار إلى هذا الدرك من مذلة

---

(١) تاريخ العرب جـ ١ ص ١٠٧
(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ٥٦

التسليم فتركهم وراح يهيم على وجهه فى الصحراء وحيدا إلا من ذكرى ملك قد اندثر ومجد قد زال .

وهكذا نجد أن تاريخ بنى عبس يعتبر نموذجا مثاليا لحياة القبيلة العربية . ففيه تصوير صادق للطريقة التى كان يعيش بها هؤلاء القوم ولكن هذا العرض التاريخى لا يتناول إلا جانبا واحدا من جوانب الحياة التى مرت بقبيلة بنى عبس ولو أننا اخذنا هذا القطاع من حياة بنى عبس ونظرنا إليه من زاوية أخرى لنرصد الأسس الاجتماعية التى قامت عليها حياتهم لأمكننا الوصول إلى كثير من الحقائق التى توضح معالم المجتمع العربى الجاهلى .غير أن المصادر التاريخية الموجودة الآن لا تؤهل لإقامة مثل هذه الدراسة الاجتماعية على قواعد سليمة ومن ناحية أخرى يمكننا أن نصل إلى ما نريد عن طريق استكشافه من أحداث « سيرة عنترة بن شداد » غير أن هذا العمل سوف يكون بعيدا عن الحقائق التاريخية المجردة ، ولكنه - بالرغم من ذلك — يعتبر أقرب إلى تصوير هذا الوجه الاجتماعى للبيئة العربية الجاهلية بعامة ولحياة عنترة وقبيلته بصفة خاصة .

وقد كان من الممكن كذلك استشفاف صورة هذه الحياة العربية الجاهلية من ديوان عنترة والاعتماد على شعره فى تبيان المظاهر الاجتماعية لقبيلة بنى عبس . ولكن عنترة — كما سنرى فيما بعد — لم يقل شعرا جماعيا كما هو الحال عند معظم الشعراء الجاهليين وإنما خرج على إجماعهم ليكون شاعرا فردياً يصور بشعره خواص نفسه ويعبر عن شخصيته ولهذا فإن شعر عنترة إن صلح لإعطائنا صورة عن شخصية قائله ونفسية منشئه ، فإنه لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يعطينا صورة عن قبيلته وبالتالى عن البيئة الاجتماعية الجاهلية .

ولما كان غرضنا الأساسى هو دراسة عنترة وتسليط الأضواء على شخصيته فإن ما رأيناه من أمر المقومات الاجتماعية للقبيلة العربية يكفى لأن ينير أمامنا

أول الطريق إلى شخصية عنترة ، أما بقية الأضواء فنسلطها عليه من زوايا أخرى حددها تاريخه الخاص وشعره ثم السيرة التشجيعية التي ألفت عنه .

ولكننا قبل أن نفعل نحاول أن نقتبس شعاعا آخر يضيء لنا الطريق خطوة ، وذلك من معرفة النظرة التي كان ينظر بها العربي الجاهلي إلى الفارس البطل ، ومن محاولة تحديد مفهوم الفروسية العربية والوقوف على فلسفتهم تجاهها ، لا سيما وأن هذا المجال كان هو أوضح المظاهر الاجتماعية التي كونت بيئتهم ولونتها بذلك اللون المميز لها .

الفصل الثانى

مفهوم الفروسية العربية وفلسفتها

يختلف مفهوم الفروسية وتصور البطولة من أمة إلى أمة تبعا لاختلاف البيئة الطبيعية والظروف الإجتماعية . الأحوال السياسية ، بل أن هذا المفهوم يختلف عند الأمة الواحدة باختلاف الأزمان وتطور العصور . ولهذا فإن البيئة الإجتماعية الجاهلية فى الجزيرة العربية حددت مفهوما معينا للفروسية ،وجعلتهم يتمثلون مظهرا معينا للبطولة يوائم ظروفهم البيئية ويتمشى مع أحوالهم الاجتماعية ويواكب نظمهم السياسية .

العربى البدوى — أبان الجاهلية — كان لا يعيش فردا قائما بذاته ، مستقلا بشخصيته ، كما أنه لم يكن يعيش كعضو فى المجتمع الكبير الذى يشمل الجزيرة كلها ، وإنما كان يعيش ضمن نطاق إجتماعى محدود هو القبيلة . ومن خصائص هذا المجتمع القبلى أن شخصية أفراده تكاد تفنى فى شخصية القبيلة . ولكن مهما كانت الجماعة القبيلية فلا يمكن أن يوجد المجتمع الذى يفنى الذاتية الفردية للإنسان فناء تاما ، وعلى ذلك فإن المجتمع العربى الجاهلى كان له مظهران أساسيان هما المظهر الجماعى والمظهر الفردى ،غير أن المظهر الأول كان أقوى بكثير من الثانى ، وكان هو صاحب التأثير المباشر — أو غير المباشر — على منحى المظهر الفردى ومجالات ظهورة ومدى هذا الظهور .

وتبعا لذلك فلابد أن يكون لمفهوم البطولة عند العرب نفس هذين المظهرين الجماعى والفردى — وأن يكون المظهر الجماعى أقوى من المظهر الفردى، ويأتى

سابقا له فيؤثر فيه ويحدد معالمه . فاذا نظرنا إلى مفهوم البطولة عند العرب من الزاوية الجماعية التي تخفي شخصية الفرد وتذيبها في شخصية القبيلة وجدنا أن أول مظهر من مظاهرها هو القوة بمعناها العام الشامل الذي يوصل إلى الغلبة، وعكسها الضعف الذي يؤدي إلى الهزيمة . والسبب في هذا أن الغلبة في البيئة البدوية القفراء معناها الحياة والحصول على الغذاء سواء للأشخاص أو للأنعام ، أما الهزيمة فمعناها الحرمان من هذا الغذاء والماء ومنه إلى الفناء .

ولهذا فإن لفظة « القوة » هنا تعني القوة البدنية الطبيعية سواء في تكامل أجزاء الجسم وعضلاته ، وفي قوة الاحتمال ، وهي تعني كذلك القوة البدنية المكتسبة من أجادة ركوب الخيل وحسن استعمال السلاح واتقان فنون القتال والنزال ، ثم هي بعد ذلك تعني القوة الفكرية أو الشخصية التي تدفع صاحبها إلى التقدم والشجاعة بل وربما التهور أحيانا . فحصول هذه القوى جميعا هو ما يريده العربي في فارسه ليستطيع أن يشن الغارات ويخوض المعارك فينتصر فيها ويعود إلى قومه بالأنعام والاسلاب ، فاذا ما جاء الدور على قبيلته وهوجمت تصدى هو للمغيرين فيهزمهم ويردهم عن قومه ، وبذلك يحفظ لهم ما حصل عليه في غاراته .

هذا المفهوم ولا شك مفهوم عادي وطبيعي بالنسبة للبيئة المادية الصحراوية التي تعيش على الفطرة وتبنى حياتها على ما تجود به الطبيعة . والطبيعة الصحراوية قد تكون بخيلة فتقتر عليهم في الرزق ، وقد تقسو فلا تجود بشيء ، وهنا تثور عند هؤلاء القوم غريزة حب البقاء . والبقاء لا يكون إلا بالحصول على الغذاء والغذاء في كف الجار — أو حتى في كف الأخ — فهذا شيء لا يهم لأن نفسي أولا ، فيلزم أن أحصل على هذا الغذاء بأي طريق وبأي ثمن وإلا فالهلاك في الانتظار ، والطريق الوحيد إلى ذلك هو طريق القوة الموصلة إلى الغلبة ولذلك كان أول مظهر من مظاهر البطولة عند العرب هو القوة .

ولعل أوضح ما يمثل لنا مدى ارتباط القوة — كمظهر بطولى — بحياة الجماعة هو الوجه الآخر من أوجه هذا المظهر . فقوه القتال والهجوم لها وجه ثان لا يقل عنها قيمة وقدرا عند البدوى ، ويتصل بها اتصالا وثيقا ، إلا وهو الانتقام والأخذ بالثأر ، تلك العادة التى قامت عليها الحياة البدوية القبلية جميعها وبصرف النظر عن الآراء الحديثة فى هذه العادة ، فإنها لم تكن تعنى عند العربى إلا شيئا واحدا هو أنه قد خسر الجولة الأولى ، والخسارة فى الصحراء معناها الفناء ، فعليه إذن أن يكسب الجولة الثانية وإلا فنى وهلك . وحتى يحس بوطأة الفناء والهلاك فإنه كان يفرض على نفسه ما يشعره بذلك ، فكان العرب إذا ما عقدوا النية على الانتقام حرموا على أنفسهم النساء والدهن حتى يدركوا ثأرهم (١) أى أنهم كانوا يحرمون أنفسهم من منابع الحياه الأساسية التى هى الاحتفاظ بالنفس وخلق الأنفس الجديده ، وبمعنى آخر أنهم يرغمون أنفسهم على صوره مصغره من صور الفناء ليعرفوا فداحة ذلك ويقدموا على القتال بكل قوه وشجاعة حتى يأخذوا بثأرهم فيزيلوا عن أنفسهم شبح الفناء وترد القوة اليهم روح الحياه .

هذا المظهر البطولى — بوجهيه — مظهر جماعى تكاد تتلاشى فيه الشخصية الفردية . فهم يخرجون لغزواتهم فى جماعات ، فاذا ما غنموا شيئا عادت الغنائم للقبيلة بأكلها قبل أن تعود على أشخاص الغانمين ، وإذا كسبوا مجدا توجت به القبيلة كلها دون ما ذكر لأشخاص الكاسبين ، يقابل هذا أنه إذا انهزم الفرد هبت القبيله كلها لنصرته سواء كان ظالما أو مظلوما ، وعلى ذلك فان قوة البطل الفرد لم تكن تمثل نفسه أو تعود على شخصه بقدر ما كانت تمثل القبيلة وتعود عليها ، وكل ما يحرزه من مجد ورفعة إنما عائد اليها .

أما المظهر الجماعى الثانى من مظاهر الفروسية العربية فيتمثل فى لون آخر من

---

(١) العقد الفريد — لابن عبد ربه جـ ٣ ص ٦٥

الوان القوه ، ولكنها قوة معنوية وليست قوه ماديه . وكلا القوتين الغرض منهما واحد هو حماية القبيلة وتوفير الحياه لها . القوة الاولى تؤدى عملها فى سبيل القبيلة وهى فى حومة الوغى بينما القوة الثانية تؤدى نفس الشيء ولكن فى المجالس والاسواق . والقوة الاولى وسيلتها الخيل والسيف بينما القوة الثانية عدتها القول والنظم ، فالشاعر كان لسان القبيلة المتحدث باسمها والمعبر عنها ، وكان صحيفة القوم يذيع بشعره أخبارها واحداثها بين الناس ، وكان المدافع عنها ضد أعدائها ينازلهم بسلاحه القولى فى ميدان الفخر والهجاء . لكل هذا « كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر — كما يصنعون فى الأعراس — ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وأشادة بذكرهم »[1] .

فالقوة المادية فى القتال لا تكتمل إلا اذا واكبتها قوة قولية فى الاشعار لتصور هذا المجد الحربى الذى حازته القبيلة فتفتخر به وتتيه على غيرها من القبائل وليكون سجلا لتلك الأعمال يحفظها من النسيان ويذيعها بين أرجاء الجزيرة فى صور شعرية يسهل حفظها وتداولها ، ثم هو بعد ذلك يلقن أبناء القبيلة ويحمس رجالها ليحافظوا على ما نالوه من قدر ، أو ليبلغوه ويتفوقوا به على غيرهم من القبائل . ولهذا كانت قيمة الشاعر للقبيلة لا تقل عن قيمة الفارس فكل منهما نصف من كل ، هو قوة القبيلة ورفعتها ، وبمعنى آخر دوام حصولها على ضروريات الحياه ، وهذا يصل اليه الفارس بسيفه كما يصل اليه الشاعر بلفظه وهما معا جماع ذلك السؤدد الذى تصبو اليه كل قبيله .

فالشعر هو المظهر الجماعى الثانى من مظاهر مفهوم الفروسية والبطولة العربية وكما مثل المظهر الاول القبيلة دون الفرد فان هذا المظهر الثانى يمثل القبيلة دون

---

(١) العمدة — لابن رشيق جـ ١ ص ٣٧

الفرد كذلك . ولهذا كانت أول سمة من سمات الشعر الجاهلي هي أنه شعر جماعي بعيد عن الفردية لا يمثل شخصية قائلة بقدر ما يمثل الجماعة التي ينصهر فيها ذلك الفرد[١] .

هذان هما المظهران الأساسيان في مفهوم البطولة عند العرب ، والجمع بينهما معناه الوصول إلى أقصى مراتب الفروسية . فالبطل مهما كان قويا وشجاعا لا يبلغ مرتبة البطولة الحقة إلا إذا كان مفوها في الشعر قدر شجاعته في القتال . وكان العربي لا يتصور بطلا قويا يعجز عن قول الشعر . ولعل هذا هو التعليل المنطقي لما نجده في كتب الروايات والسير من شعر عربي فصيح قاله جميع أبطال التاريخ سواء أكانوا عربا أو غير عرب ، وسواء أكانوا قدامى أم محدثين ، حتى نوح وآدم قالوا شعرا — أو على الأصح قال الرواة شعرا على لسانهم — ولعل هذا كذلك هو التعليل المنطقي لما نجده في سيرة عنترة — وفي غيرها من السير من مبارزات شعرية يتبادلها الأبطال بالسنتهم قبل أن يتبارزوا بسيوفهم . وكاتب سيرة عنترة يقتنع بالربط بين هذين المظهرين إقتناعا غريبا ينعكس في ذلك الموقف القصصي الخيالي الذي صور لنا فيه عنترة وهو يحاول تعليق قصيدته على الكعبة . فهو يجتمع بشعراء المعلقات جميعا لا ليتبارى معهم في قرض الشعر فقط ، ولا لينافسهم في معرفة علوم العرب فحسب ، وإنما هو يبارزهم مبارزة حربية حقيقية فينتصر عليهم ويأسرهم جميعاً ، ثم يطلق سراحهم ليعرض عليهم قصيدته فيبزهم في قول الشعر كما بزهم في ضرب الحسام . وبذلك يتم فوزه عليهم طبقا لمفهوم الفروسية عند أهل ذلك العصر من أنها جماع بين قوة اليد وقوة اللسان . وربما كان هذا هو السبب الذي جعل معظم الكتب التي وصلتنا عن العصر الجاهلي تجمع بين دفتيها مقدارا من الشعر — يكثر أو يقل حسب موضوع الكتاب — ولكن مهما كان ذلك الموضوع فالكتاب فيه شعر لا محالة.

---

(١) فجر الاسلام — لاحمد أمين ج ١ ص ٧١

أما المظهر الثالث من مظاهر مفهوم البطولة عند العرب فهو ما يتمثل فى جانب الشرف والكرامة . هذا المظهر أوجدته الأوضاع الاجتماعية للقبائل العربية ، فالفرد الذى لا يمكنه أن يعيش وحيداً والذى لا بد له من الاندماج مع غيره فى وحدة عشائرية اندماجا كلياً حتى يضمن حياته وسلامته لا بد أن يفنى فيها بحيث تصبح هى وحدة متكاملة دستورها «الفرد فى سبيل الجماعة ، والجماعة فى سبيل الفرد» ، ويصبح شعارها «انصر أخاك ظالما أو مظلوماً» . فالقبيلة كلها تنصر رجلها وقت الشدة سواء أكان على صواب أو على خطأ ، فإذا ما ارتكب هذا الشخص إثما فى حق قبيلته أو فى حق فرد آخر من أفرادها فإن العقوبة الوحيدة — التى لا عقوبة غيرها — هى خلعه والتبرؤ منه وطرده من الديار .

ويبدو هذا المظهر من مظاهر البطولة بوجه آخر هو اجارة اللاجئين . فإذا ما لجأ غريب إلى القبيلة واحتمى بها أجارته وحمته ودافعت عنه وكأنه فرد من أفرادها وشرعت رماحها ولسانها للذود عنه ، وتمسكت بوعدها له مهما تحملت فى سبيل ذلك من مشاق ومهما خاضت من أجله الحروب . فالمظهر البطولى هنا هو «نجدة القبيلة» ممثلة فى أفرادها أولا وفيمن آوتهم أو قطعت على نفسها العهود لهم وبذلك أصبحوا جزءاً من كيانها لهم كل ما لأفرادها الأصليين من حقوق . فالبطل لا يعتبر بطلا حقيقياً إلا إذا أوفى بهـــذا المظهر من مظاهر البطولة . ونحن نجد فى سيرة عنترة أنه مهما جفا قبيلته واختلف معها وتركها مغضبا فإن مجرد وصول رسول منها يدعوه إلى نجدتها — أو مجرد علمه بأن قومه فى مأزق — سرعان ما يجعله ينسى كل خلافاته وأحقاده — أو يتناساها مؤقتاً — لينقذ قبيلته أو ليساند حليفا من حلفائها قطعت له العهد وعقدت معه الكلمة .

ورب وجه ثالث من أوجه هذا المظهر الجماعى نجده فى الكرم . فالضيف إذا ما نزل على القبيلة أقرته وأكرمته وضحت فى سبيل ذلك بخير زادها وعزيز مالها ، وهو بعد فى حماها ويعتبر كابن من أبنائها ، وربما وقعت بسببه حروب

مثل حرب « حاطب » التى ثارت بين الاوس والخزرج بسبب إعتداء الخزرج على ذبيانى كان قد نزل ضيفا على حاطب بن قيس الاوسى . (١)

ولهذا فاننا نجد أن الكرم الجماعى — أو كرم القبيلة — هو أشهر الصفات التى أثرت عن العرب ، وأنه كان أهم الفضائل وأوسع مجالات المديح ، وأخصب موضوع من الموضوعات التى كان يدور حولها الفخر ويتشبث بها الهجاء .

تلك هى المظاهر الجماعية لمفهوم البطولة عند العرب . ولكن — كما سبق أن ذكرنا فإن القبيلة مهما قوى جانبها الجماعى ونجحت فى اذابة شخصية الفرد فى بوتقة الجماعة فإنها لا يمكن أن تفنى هذه الشخصية أو أن تجعلها تتلاشى كلية . فالشخصية الفردية موجوده فى كل زمن وفى كل بيئة وفى كل مجتمع مهما كانت ظروفه أو أسسه أو مثله ومذاهبه ولكن الذى يحدث — فى الواقع — هو غلبة إحداهما على الأخرى بنسب متفاوتة لا يمكن أن تبلغ الصفر بأى حال من الأحوال . لذلك فإنه — إلى جانب تلك المظاهر الجماعية للبطولة عند العرب - كانت هناك مظاهر فردية تتصل بالشخص نفسه ، وتتمثل فى الغرائز الإنسانية والنوازع النفسية .

وكما يرد بعض علماء النفس المحدثين جميع تلك الغرائز الإنسانية إلى غريزة واحدة هى الغريزة الجنسيه ، فإن أهم مظهر من المظاهر الفردية للبطولة عند العربى كان هو الجنس كذلك ، أو بمعنى آخر كان يتمثل فى المرأة.. تلك الصورة الجميلة التى ما إن يراها الرجل حتى يشتهيها وينقلب إلى طفل تدفعه غريزة حب الاقتناء إلى امتلاكها . ولهذا كان البدوى ما أن يلمح أمرأة وتقع فى نفسه حتى يعمل على الحصول عليها ويتمثل له مفهوم البطولة كله فى نجاح مهمته . فيبدأ بالتقرب إليها ودعوتها إليه ، فإن أبت أتى أباها خاطباً وأمامه استعداد غير مشروط بان يقدم المهر مهما كانت قيمته ومهما كان نوعه فان رفض الأب —

(١) أيام العـــرب ــ جاد المولى ص ٧٢

لسبب أو لآخر — فليس هناك إلا حل واحد هو استعمال العنف ، وعليه أن يحارب القبيلة بأكلها ، وأن يأسر الفتاة وأباها ، وبذلك يرغمه على تزويجها منه ، وإلا فصيرها أمة من الإماء أو جارية من الجوارى .

وربما فسر لنا هذا المظهر من مظاهر البطولة ظاهرة اجتماعية ملفتة من ظواهر المجتمع القبلى الجاهلى التى بقيت حتى الآن دون تفسير مقنع . فمما هو مأثور عن الجاهلية أن الرجل كان إذا شبب بفتاة وتغزل فيها امتنع أبوها عن تزويجه منها بعكس ما هو متوقع فى مثل تلك الحالات ، إذ من الطبيعى جمع شمل المحبين بمجرد ظهور حبهم ، ومباركة هذا الحب بعقد أو رباط . فلماذا إذن كان الجاهلى يمتنع عن تزويج ابنته ممن شبب بها ! ؟ ... أن تشبيبه بها معناه أنه يقول فيها شعراً ويذكر محاسنها ويشيد بجمالها ، وهذا الشعر يسير وينتشر فى ارجاء الجزيرة العربية فيسمعه الجميع ومن بينهم من يأنس فى نفسه البطولة ، ويروم تحقيق هذا المظهر الفردى من مظاهرها وذلك بان يحصل هو على تلك الفتاة الجميلة . وتبدأ القصة بان يذهب إلى أبيها خاطباً فلو أن أباها قد وعد بها ذاك الذى شبب وقال شعره فيها لما أمكنه التحلل من وعد قطعه ولعرض نفسه لنقمة هذا البطل الوارد إليه فى سبيل تحقيق المظهر الذاتى لبطولته فمن الحكمة إذن أن يمتنع عن تزويجها لمن شبب بها ، وأن ينتظر القدر ليهبط عليه بفارس — أو بفرسان — حتى إذا ما فاز أحدهم دفع إليه بالعروس دون أن يصيبه من جراء ذلك ضرر أو معرة .

وهذا هو ما حدث لعنترة ، إذ رأى أن اكتمال بطولته وتحقيق المظهر الذاتى لها لن يتم إلا بحصوله على سيدته التى كان يقوم على خدمتها حين كان عبداً ، فلما صار سيداً أصبحت هى الهدف الذى يتركز فيه تحقيق المظهر الذاتى لبطولته . ويمتنع والدها — أول الأمر — احتقاراً لوضع عنترة الاجتماعى ، ولكن حاجته إلى الحماية دفعته إلى الرضوخ ووعد عنترة بها إذا ما ابلى بلاء حسنا فى الذود عنهم وعن القبيلة . ولكن ما أن يشبب عنترة بعبلة ويسير شعره فيها بين

العرب حتى يتراجع مالك — أبوها — عن الوفاء بوعده لعنترة ، أو عله يتأنى انتظاراً لما يحدث من وصول أبطال يطمحون إلى تلك التى شهرها شعر عنترة . فكان على عنترة أن ينازلهم واحداً واحداً ، وكلما قضى على أحدهم تريث مالك فى انتظار وافد جديد .. وهكذا .

ويتمثل المظهر الذاتى للبطولة العربية كذلك فى حفظ كرامة الفرد وعدم قبول ما قد يمسه من قريب أو من بعيد . ولعل حرب البسوس ان توضح لنا هذا المظهر ، فكليب بن ربيعة يسأل زوجته — جليلة بنت مرة — : هل على الأرض أمنع منى ذمة ؟ فقالت : نعم ، اخواى جساس وهمام . فيخرج كليب مغضبا ليلتقى بناقة لبنى مرة فيطفىء غيظه فيها ويقتلها . ويعتبر فارس بنى مرة ان هذا العمل اهانة موجهة اليه فيقضى على كليب ، وهكذا تدور رحى تلك الحرب الشهيرة التى استمرت أكثر من أربعين عاما[١] . ومثلها تماما كانت حرب داحس والغبراء ، فقيس بن زهير وحذيفه بن بدر لم يقبل كل منهما ان يعد فرسه مهزوما فى السباق لأن فى ذلك خفضا لكرامته أمام الناس ، لتكن إذن حربا تمكث هى الأخرى أربعين عاما وتنتهى بشبه فناء لبنى عبس[٢] . وتضطر قبيلة عبس اضطرارا إلى طلب الصلح من ذبيان ، وهنا يقفز هذا المظهر البطولى بشكل آخر ، إذ يأنف قيس بن زهير من فعل ذلك ويؤثر عليه الخروج بمفرده هائما على وجهه فى الصحراء[٣] .

والأمثلة التى توضح هذا المظهر البطولى الذاتى فى سيرة عنترة أكثر من أن يجمعها الحصر . تبدأ بتلك الحادثة التى قتل فيها عنترة عبدا من عبيد الأمير شاس ابن زهير لاعتدائه على أعرابية عجوز ، وتستمر معه فى كل خطوة من خطواته وفى كل مرحلة من مراحل حياته لتنتهى بتلك الحادثة الدرامية التى تبدو من عامر ابن الطفيل ، فعبلة — بعد وفاة عنترة — تتزوج عامر بن الطفيل عملا بنصيحة عنترة

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى ص ١٤٢
(٢) العقد الفريد — لابن عبد ربه جـ ٣ ص ٥٦
(٣) السابق

لها ، ولكنها تكثر فى حياتها معه من المقارنة بينه وبين عنترة ، فيحس فى نفسه بالصغار والهوان الذى يدفعه إلى قتل عبلة ليتخلص منها ومن مقارناتها . وعندما يذهب أبوها وأخوها للتفاهم معه وهو ولا يزال تحت تأثير هذه العقدة يقتلها كذلك[١] .

ولعل اعتماد كاتب سيرة عنترة على هذا المظهر الذاتى للبطولة العربية وحسن استغلاله فى بناء شخصية بطله من أول حدث فى القصة حتى آخر حدث فيها هو الذى مكنه من تقديم مواقف درامية رائعة واعانه على تطوير شخصية عنترة وتحديد معالمها مرحلة بعد أخرى ، كما ساعده على الاطناب أو الافاضة بحيث أصبحت قصته بهذا الطول المفرط .

وكمظهر ذاتى للبطولة العربية يجب أن يتحلى الفارس بكثير من الخصال التى تعتبر فى حد ذاتها فضائل بطولية شخصية . وأوضح جوانب هذا المظهر هو العفو عند المقدرة . فالفارس الذى يتمكن من خصمه بحيث يصبح تحت رحمته ويسهل عليه قتله أو القصاص منه ، ان فعل كان فارسا عاديا ، أما إذا عفا عنه وأطلق سراحه فانه يكتسب بذلك مظهرا بطوليا واعترافا بفرط فروسيته ، فهذا دليل على انه لا يخشى منافسه فى شتى الظروف ، وان انتصاره عليه لم يكن وليد صدفة أو ضربة حظ وإنما هو تفوق ثابت ومضمون . هذا المظهر حققه كاتب السيرة لبطله فى لقائه مع الكثيرين من الفرسان الذين قدروا فيه هذا المظهر البطولى واعترفوا له بالفروسية ثم انضموا إلى جملة فرسانه ورجاله مثلما حدث مع عروة ابن الورد ودريد بن الصمة وهانىء بن مسعود وغيرهم .

ولهذا المظهر وجه آخر لا يختلف كثيرا عن سابقه ، ويتمثل فى العفو عن الأسير لا بسبب ضعف بدا منه ، ولكن تقبلا لشفاعة صديق فيه . فعنترة يأسر ذا الخمار عدة مرات وفى كل مرة يتشفع فيه صديق فلا يلبث عنترة ان يطلق سراحه ، ومثل هذا حدث مع عدد كبير من الفرسان آخرهم وزر بن جابر

---

(١) سيرة عنترة مجلد ٨ ص ١٨٧

النبهانى الملقب بالأسد الرهيص ويستغل كاتب السيرة هذا المظهر البطولى الفردى استغلالا جميلا إذ يجعلها فى النهاية الدرامية التى ينهى بها حياة بطله ، فهو يعفو عن الأسد الرهيص مرة بعد أخرى تحت رجاء صديقه عمرو بن معد يكرب ، ومن هذا العفو المتكرر تتكون السقطة الكبرى التى يتردى فيها فيموت قتيلا بيد هذا العدو الذى طالما عفا عنه وأطلق سراحه وبذلك يصبح هذا المظهر البطولى هو العقدة التى تقود القصة إلى نهايتها الدرامية .

وفن القيادة مظهر من مظاهر البطولة عند العرب ، فالشجاعة الفردية والكفاية الشخصية وقوة الشكيمة والعريكة فى القتال ، كل ذلك لا يكفى أن يجعل من الفارس بطلا وإنما يلزم أن يكون هذا البطل قادرا على أن يقود الفرسان فى المعارك ، وان يترأس الجيوش فى الغزوات والحروب . ولهذا قال الحطيئة عن عنترة بن شداد ردا على سؤال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انه كان قائد بنى عبس ، يسيرون خلفه فيهجمون إذا هجم ويحجمون إذا احجم [1] . ولهذا أيضا خرج كاتب السيرة ببطله عنترة من حيز القبيلة إلى حيز الشعب فجعله يقود جيوش العرب ضد النعمان ، ثم جيوش العرب والنعمان ضد كسرى مرة وضد قيصر أخرى ، وبعد ذلك يتأمر عنترة على جميع جيوش قيصر وأساطيله ليفتح له ممالك الشرق والغرب ويخضع بسيفه وبفن قيادته كل بلاد العالم المعروفة فى زمانه .

وهكذا نجد ان العرب قد فطنوا منذ قديم إلى الفروق الدقيقة بين الفروسية الفردية وبين البطولة العامة — أى بين الشجاعة الذاتية وبين الموهبة القيادية والقدرة على التحكم فى الجماعات وتوجيهها وتسييرها ، واعتبروا ان فن القيادة هذا صفة لازمة للبطل ومظهر من المظاهر الأساسية للفروسية . وقد بعد كاتب سيرة عنترة فى استغلال هذا المظهر لا فى شكله الواقعى فحسب ، وإنما فى شكل ملحمى إذ جعل أبناء عنترة يحاربون القبائل ـ بعد موته ـ وقد جمعوا عظامه

---

(١) الاغانى جـ ٧ ص ١٥٣

على جمل ودفعوا به فى صدر المعركة رمزا إلى ان بطلهم عنترة لا زال هو القائد الذى يقود معاركهم .

أما الجانب الأخلاقى للفارس فأمر له من الأهمية قدر كبير إذ يعتبر أوضح المظاهر الذاتية له وألصقها به وأقربها فى علاقته بالناس . والمرأة كانت — فى المجتمع القبلى — محورا يرتكز عليه أكثر من مظهر اجتماعى دقيق فى اتصالاته بوجدانات هؤلاء القوم ومثلهم وكرامتهم . فأسرها — أو حصول قبيلة أخرى عليها عنوة — يعتبر كارثة الكوارث وقمة الهوان والمذلة والعار ، ولهذا فان حماية النساء من الأسر ومنعهن عن المغيرين يعتبر أول هدف من أهداف القبيلة، وعلى ذلك فلابد للفارس الذى يريد أن يحمل لقب البطولة من القيام بهذا العمل الهام وبحيث يكون قادرا على أدائه فى كل وقت وضد كل عدو . ونحن لانكاد نمر بقصيدة من قصائد الفخر فى الأدب الجاهلى إلا ونجد ان منع النساء هو مجال المفاخرة الأول الذى يزهو به العربى . فإذا تحول الغرض الشعرى من الفخر إلى الهجاء وجدنا أيضا ان أقسى معيرة يعير بها البدوى هى عدم تمكنه من حماية نساء قبيلته وتركهن يقعن أسيرات فى أيدى المغيرين .

وعنترة لم يشذ عن هذه القاعدة ، فأهم ما افتخر به فى شعره هو منعه لنساء قبيلته وحمايتهن . وقد أولى كاتب السيرة الشعبية هذا المظهر عناية فائقة إذ على أساسه بنى أول لبنة فى صرح المجد الذى شيده لبطله عنترة ، وجعله السبب المباشر لظهور فروسيته سواء حينما قتل عبد شاس لاعتدائه على عبسية عجوز ، أو حينما رد بمفرده فرسان بنى طىء إذ أغاروا على ديار عبس بعد أن رحل الرجال عنها ولم يبق إلا النساء ومعهن عنترة الذى هزم المغيرين وردهم . ويستمر هذا الحال على طول السيرة معتبرا ان أهم مظهر من مظاهر الفروسية العنترية هو حماية نساء القبيلة .

وكما يحمى الفارس نساء قبيلته من الأعداء المغيرين ، فان عليه واجبا آخر هو حمايتهن من نفسه . فشهامة الفارس تدفعه إلى حفظ أعراض قومه وعدم

استغلال مكانته أو قوته فى الوصول اليهن وتلويث شرفهن . وليس من شك فى ان هذا المظهر الأخلاقى البطولى كان من أنبل المظاهر الاجتماعية فى الجاهلية ، وليس من شك كذلك فى ان عنترة بن شداد هو المثل الأعلى الذى اتخذه العرب - على اختلاف عصورهم - لهذا المظهر البطولى الأخلاقى . فها هو أحد أئمة المسلمين يقول : « وددت لو ان لنا مع اسلامنا كرم أخلاق آبائنا فى الجاهلية . ألا ترى ان عنترة الفوارس جاهلى لا دين له والحسن بن هانىء اسلامى له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانىء دينه فقال عنترة :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

وقال الحسن بن هانىء مع اسلامه : —

كان الشباب مطية الجهـل ومحسن الضحكات والهزل
والباعثى والناس قد رقدوا حتى أتيت حليلة البعل[١]

وكان الأولى بهذا القائل ان يدرك ان الذى منع عنترة إنما هو فروسيته التى يمثلها هذا المظهر ، وان مفهوم الفروسية وفلسفتها التى تغيرت بعد ذلك هى التى جعلت ابن هانىء يقول ما قال ويفعل ما ذكر . وكم ألح عنترة بن شداد فى شعره على اظهار هذا الجانب من جوانب فروسيته ، فهو لا يغشى فتاة الحى إذا ما سافر حليلها ، وهو لا يقرب امرأة إلا بعد الزواج منها وأداء مهرها[٢] .

والخمر فى المجتمع الجاهلى كان لها مظهران متناقضان ، فهى من ناحية مظهر من مظاهر السيادة والغنى لا يعاقرها إلا الأشراف الذين تسمح مواردهم المالية بدفع أثمانها المرتفعة ، ثم هى من ناحية أخرى رذيلة حيث تذهب بهيبة شاربها وكرامته إذا ما أفرط فى شربها وبذلك يصبح مهزأة القوم ومجال سخرياتهم . لهذا كان مظهر الفروسية يتمثل فى ضرورة معاقرة الخمر ولكن إلى حد الاعتدال

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٤٩
(٢) شعراء النصرانية — للأب لويس شيخو جـ ١ ص ٧٩٥

وبالدرجة التي تحفظ للفارس كرامته ولا تفقده وعيه . وقد عبر عنترة عن هذا المظهر الذاتي من مظاهر الفروسية العربية أجمل تعبير حين قال في معلقته :

فإذا شربت فإنني مستهلك مالي ، وعرضي وافر لم يكلم[(١)]

أما كاتب السيرة فقد استغل مكانة الخمر في المجتمع الجاهلي بمظهريها . فحينما أعجب الملك زهير بعنترة — وهو لا يزال عبدا — قربه اليه ثم قدم اليه الخمر كأعظم مظهر من مظاهر التكريم . فإذا ما أصبح عنترة الفارس الحر بطل الجزيرة العربية ومقوض عروش الملوك وحامي حمى الامبراطوريات ، تهاون في الحفاظ على هذا المظهر وأفرط في شرب الخمر ، فما كان من زوجته عبلة إلا أن سخرت منه أمام أترابها وطالبته بتقبيل قدمها ، حينئذ أفاق الفارس وعرف سقطته فأوقع على نفسه العقاب المناسب وهو ترك الديار والخروج منفردا إلى الصحراء[(٢)] .

---

(١) ديوان عنترة ص ٢٤
(٢) السيرة مجلد ٥ ص ٢٢٤

الفصل الثالث

شخصية عنترة في التاريخ

على الرغم من أن كتب الأدب تسرف فى ذكر اسم عنترة وتتخذه مثلا للشجاعة وللحب العفيف البناء وتروى الكثير من شعره ، إلا أن القليل من تلك الكتب أهتم بحياته وبذكر أخباره ، الأمر الذى دفع باحثا كالدكتور طه حسين إلى رفض هذا الشعر بل والى انكار وجود عنترة كانسان حقيقى عاش فى جاهلية ماقبل الاسلام واعتبره شخصية اسطورية اتخذها الرواة والواضعون أساساً يستمدون منه مادة لقصصهم ومرجعا ينسبون إليه أشعارهم المنحولة[1] .

والواقع أن الواضعين قالوا من الشعر على لسان عنترة أكثر مما قال هو ، ونسبوا إليه ديوانا ليس له فيه إلا النذر القليل ، ولكن هذا لاينفى شعره جملة وتفصيلا ، فقارىء ديوان عنترة يستطيع فى يسر وسهولة أن يفرق بين شعره المرصين وبين أشعارهم المنحولة المغرقة فى ذكر عبلة والموغلة فى التشدق بالشجاعة فى نسج ركيك ملىء بالهفوات والاخطاء ثم أن هذا لاينفى — من ناحية أخرى — وجود عنترة نفسه كشخصية واقعية . فلربط بين الشك فى بعض شعر عنترة — أو حتى فى شعره كله — وبين الشك فى وجوده أمر لايرتضيه منهج البحث الصحيح ، هذا فضلا عن أن وجود عنترة كشخصية جاهلية لايحتاج إلى تدليل فهو أن لم تثبته تلك القصص والروايات وشهرة أسمه فى الآفاق ، أثبتته معلقته

---

(١) حديث الاربعاء حـ ١ ص ١٤١ .

المعروف بها من الجميع فهى أساس بين المعلقات سواء كانوا عشراً أم سبعا ، وأثبتته كذلك أحاديث الرسول عليه السلام وأقوال الصحابة والأقدمين مما هو صريح فى المراجع الأدبية والتاريخية . وغاية ما هنالك أن الحقائق التاريخية اختلطت بالمواقف القصصية التى التفت حول عنترة بحيث أصبح من العسير استخلاص الأولى وتنقيتها من أوشاب الثانية .

فالرواة جميعاً متفقون على أن أم عنترة كانت أمة سوداء حبشية الأصل تدعى « زبيبة » سباها آل شداد ووقع عليها أحدهم فانجبها هذا الغلام . أما من الذى وطأ الأمة من آل شداد ، وبمعنى آخر من هو أب ذاك الغلام . فهذا أما اختلفوا فيه . معظمهم يقول أن الذى فعل ذاك هو عمرو بن شداد[١] ، وبذلك يكون شداد جده إلا أن اسمه غلب على اسم أبيه فعرف بعنترة بن شداد . ويقول غير هؤلاء أن أباه هو شداد نفسه ، وعلى هذا الزعم سار كاتب السيرة فى بناء قصته وقال آخرون أن شداد لم يكن جده ولا أباه وإنما كان عمه كفله بعد موت أبيه فنسب إليه[٢] .

أما قوم عنترة فقراد من بنى مخزوم ، وقبيلته عبس بن بغيض التى تنحدر من قيس بن عيلان بن مضر[٣] .

وكما اختلفت الرواة حول أبيه اختلفوا كذلك حول اسمه. فالاعم أنه «عنترة» ولكن بعضهم ناداه « عنتر » محتجين بورود ذلك فى شعره مثلما فى المعلقة : « يدعون عنتر والرماح كأنها .. » ، أو فى قوله :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها   قبل الفوارس ويك عنتر أقدم[٤] .

---

(١) بلوغ الارب جـ ١ ص ١٢٦ وخزانة الادب جـ ١ ص ٦٢ والشعر والشعراء حـ ١ ص ٢٠٤ والاغانى حـ ٨ ص ٣٩ .
(٢) شعراء نجد والحجاز . رواية ابن الكلبى جـ ٦ ص ٧٩٤ من شعراء النصرانية .
(٣) الاغانى جـ ٨ ص ٢٣٧ وجمهرة انساب العرب ص ٢٣٩ ط المعارف
(٤) الديوان ص ٩ ، وص ٣٠ ط بيروت ١٩٥٨

وواضح دون كبير عناء أن التاء هنا محذوفة للترخيم أو أنها محذوفة للضرورة الشعرية

والعنترة هى السلوك فى الشدائد والشجاعة فى الحرب . وهذا هو مادفع صاحب مقدمة أحدى طبعات الديوان(١) إلى القول بأن « عنترة » ليس اسما وإنما هو لقب خلع عليه بعد تميزه بالبطش : وغلب هذا اللقب وشاع فمحا اسمه الأول الذى ما كان إلا إسما بائسا لمولى مغمور، مثله فى ذلك مثل الشماخ والشنفرى وغيرهم كثيرون(٢) أضف إلى ذلك أن لفظة « عنترة » كانت شبه قاسم مشترك بين أغلب القابه الأخرى مثل « عنترة الفلحاء » (لتشقق شفتيه) ، و « عنترة الفوارس » ، وغيرها .

ونحن لانعلم تاريخ ميلاد عنترة — ولاحتى تاريخ وفاته — مع أن حياته كانت قبل الإسلام بفترة وجيزة ، إذ أنه من الثابت اشتراك عنترة فى حرب داحس والغبراء التى انتهت بين عامى ٨٠٦ — ٦١٠م وعلى ذلك تكون وفاة عنترة تكون حول هذا الزمن دون امكان تحديد تاريخ معين(٣) .

وقد اتفق الرواة على أن عنترة عمر طويلا ، بل وبلغ ارذل العمر حتى لقد أدعى البعض أنه مات من البرد ، أو أنه وقع عن فرسه فى معركة فلم يستطع ركوبه مرة أخرى بسبب شيخوخته ،(٤) من ذلك نستطيع القول بأن عنترة عاش حياة استغرقت معظم القرن السادس الميلادى دون أن نحاول تحديد سنة مولده(٥) .

---

(١) الاستاذ ابراهيم الابيارى فى مقدمة الديوان ط المكتبة التجارية
(٢) كتاب هدية الاحباب فى ذكر المعروفين بالكنى والالقاب للقمى
(٣) حدد حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون وفاة عنترة بعام ٦١١ م وحددها الدكتور فيليب حتى فى كتابه تاريخ العرب بعام ٦١٥ م ص ١٠٧
(٤) الاغانى جـ ٨ ص ٢٣٩ ـ الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٠٦ خزانة الأدب جـ ١ ص ٦٢
(٥) حددها الدكتور فيليب حتى لعام ٥٢٥ م على أساس أن عنترة توفى عام ٦١٥ عن تسعين سنة (تاريخ العرب ص ١٠٧)

ونحن لانقف من حياة عنتره بعد ذلك إلا على بضع روايات وأقاصيص هى فى معظمها تفسير لبعض شعره . ولكن هذه الروايات تدلنا على شيئين هامين لونا حياة عنترة ، أولها الحرب وثانيتهما هى المرأة . فذلك العبد — ابن الأمة — لم يقعد على رعى الأغنام والقيام بما يقوم به العبيد من أعمال الخدمة ، وإنما اتجه إلى السيف والفرس فاجاد استعمالهما ، وشارك بهما فى حروب قومه ضد أعدائهم وعن طريقهما اكتسب اعترافا بنسبه واستلحاقا بقبيلته ، وبذلك ارتفع عن طبقة العبيد ولحق بطبقة العربان[1] .

يقول أبو الفرج الاصبهانى : أن السبب المباشر الذى دفع أبا عنترة إلى ادعائه هو أن بعض أحياء العرب أغاروا على بنى عبس باصابوا منهم واستاقوا ابلا ، فتبعهم العبسيون ولحقوهم ، فقاتلوهم عما معهم — وعنترة يومئذ فيهم — فقال له ابوه «كر» .. فقال العبد لايحسن الكر ، وإنما يحسن الحلاب والصر . فقال أبوه : كر وأنت حر . فكر عنترة وهو يقول :

أنا الهجين عنترة كل امرىء يحمى حره

وقاتل يومئذ قتالا حسنا فادعاه أبوه بعد ذلك والحق به نسبه[2] وهذه القصة تتفق إتفاقاً كبيراً مع ماذهب اليه كاتب سيرة عنترة .

ولم يكتف هذا الرجل بما بلغه من مكان بين الفرسان فى قبيلته ، وإنما أخذ يتقدمهم ويبزهم حتى تولى قيادهم وأصبح فى مكان الصدارة منهم . يدلنا على ذلك تلك الرواية التى تقول أن عمر بن الخطاب سأل الحطيئة يوما : كيف كنتم فى حربكم ؟ فقال الحطيئة : كان قيس بن زهير فينا — وكان حازما — فكنا لانعصيه ، وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا أحجم[3] .

---

(١) الاغانى ج ٨ ص ٢٣٨ ·

(٢) الاغانى ج ٨ ص ٢٣٩

(٣) الاغانى ج ٧ ص ١٥٣ ·

وهذا النص يدلنا على أكثر من معنى . فقوله « كان فارسنا عنترة » يدل على أنه أعتبر عنترة واحداً منهم ، أى فرداً من أفراد القبيلة. والعرب والجاهلية كانوا لايعترفون بالعبيد ولايعتبرونهم جزءاً من كيان القبيلة ، وإنما هم متاع علوك مثلهم فى ذلك مثل الأنعام التى يرعونها . فهم لايحملون اسم القبيلة ، ولايقرنون بذكرها . وإذن فعنترة لم يكن عبداً بينهم إنما كان واحداً من أحرار القبيلة ، سواء حدث ذلك إبتداء أو بعد أن أستلحقه أبوه .

أما قوله « كنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا أحجم » فمعناه أن الرجل كان مقدما عليهم وقائداً لجيوشهم ، أسلموا اليه القياد وساروا من خلفه ، إذا أمرهم بالهجوم هجموا ، وإذا أشار بالتريث قبلوا . والعرب ماكانوا ليسلموا قيادهم إلى شخص ليس منهم أو إلى عبد من عبيدهم إلا إذا فاز هذا الشخص بشرف الإنتساب اليهم وأظهر من ضروب الشجاعة والأقدام ما أوصله إلى مكان الصدارة بينهم فمن المعروف أن مناصب الرياسة فى القبيلة العربية لم تكن تشغل بالوراثة ولا بالتعيين، وإنما كانت تكتسب بالعمل والخبرة ويستحوذ عليها بالجدارة والكفاءة وهذا يقطع بأن عنترة لم يصل إلى المكانة التى وصل اليها — والتى وصفها الخطيئة — إلا لأنه كان حائزاً على مجموعة من الصفات والمزايا الشخصية التى تؤهله لتولى هذا المنصب .

هذه الصفات والمزايا الشخصية يأتى فى مقدمتها الشجاعة والاقدام وحسن البلاء فى القتال ، ولكن النص — سالف الذكر — يلفتنا لفتا لطيفا إلى أن شجاعة هذا القائد لم تكن من نوع الشجاعات المطلقة المتهورة ، وإنما كان يواكبها ويساندها حكمة متبصرة . خبرة بفنون القتال والنزال تمكن صاحبها من معرفة الأوضاع معرفة صحيحة وتقدير المواقف تقديراً سليما ، بحيث يستطيع أن يقرر متى يحسن الهجوم فيهجم ، ومتى يكون الأحجام خيراً فيحجم .

وهكذا يثبت لنا هذا النص — أول مايثبت — وجود عنترة كشخصية تاريخية حقيقية عاش فى الجزيرة العربية فى الحقبة التى سبقت الإسلام مباشرة

بحيث عاصر الحطيئة أو عاصره الحطيئة وعاش بعده ليحكى عنه لعمر بن الخطاب. ثم هو بعد ذلك يثبت أن عنترة كان فرداً من القبيلة، أى أن القبيلة كانت قد اعترفت به وألحقته بنسبها، وبذلك أزال عنه وصمة العبودية وتخلص منها إلى الأبد، وأن تخلصه ذاك كان بسبب شجاعته وقدرته الحربية الفائقة بحيث اتخذه القوم قائداً لهم يتبعونه فى قتالهم . وليس من شك فى أن هذا القائد كان محاربا بارعا، وأن ذكره قد ملأ أفاق الجزيرة، وسار بين العربان بحيث أصبح مجرد الاشارة إلى اسمه الأول تكفى للدلالة عليه . فالحطيئة — فى النص السابق — عندما ذكر قيس بن زهير أورد اسمه كاملا بينما ذكر عنترة باسمه المفرد . ومعنى ذلك أن عنترة كان أشهر من أن يعرف باسمه الكامل، وأنه كان أشهر من الملك زهير بن قيس ملك بنى عبس، وأن فروسيته كانت هى السمة المميزة له، بل أن اسمه كان الصفة المميزة للفروسية — وليس العكس — بدليل أن الحطيئة يصف قيس بن زهير بقوله « وكان حازما ».

أما عنترة فيصف الفروسية به قائلا « وكان فارسنا عنترة ».

وهكذا تقفز الروايات التاريخية بعنترة من مولده تحت ارساف العبودية إلى قيادته لجيوش بنى عبس دون أن تذكر لنا كيف تم ذلك، ودون أن تتدرج فى حياته مرحلة بعد مرحلة، ودون أن توقفنا على أى شىء من طفولة عنترة أو صباه أو شبابه، المهم إلا حادثة اعتراف أبيه به ، بل أنها حتى لم تعن بتحديد تاريخ ميلاده .

ومعرفة تاريخ تلك الحقبة من حياة عنترة له من الأهمية قدر كبير . فهذا الطفل الذى ولد عبدا، وشب ليعهد اليه برعى الأغنام، كانت له — ولاشك — نفس وثابة عالية أبت ذل العبودية وثارت على العمل الحقير الذى عهد إليه به . ومما لاشك فيه أن هذا الموقف خلق لعنترة العديد من المنغصات وعقد النقص والآلام النفسية وربما البدنية التى لا تذكرها روايات التاريخ بينما تصورها خيال

كاتب السيرة تصوراً لابأس به وعرضها علينا فى مجموعة متتالية من الأحداث لاتخلو من حبكة قصصية إلى جانب إرتباطها بالبناء العام للسيرة .

وما يقال عن نشأة تلك العقدة يقال كذلك عن تغلب صاحبها عليها وهذا أيضاً أغفله مؤرخو عنترة بينما أجاد فى تخيله ووصف أحداثه كاتب السيرة الذى لمس عقد النقص عند عنتره فوصفها ووصف موقف عنتره منها واصراره على التغلب عليها ، ثم لم يلبث أن حولها إلى أهداف محدوده يتمثل فى الحصول عليها حل كل تلك العقد . ولهذا اوقف عنتره حياته على حلها . وتسير هذه الأهداف فى سلسلة متصلة تبدأ بموضوع النسب ، ثم بحصوله على الزوجة العربية التى يريدها هو ، وتنتهى بتعليق قصيدته على الكعبة بين المذهبات . ولا يصل كاتب السيره بفارسه إلى تحقيق غاياته إلا بعد أن يجعله يمر بأحداث تتلوها أحداث ،ويخوض المعارض تلو المعارك ، ويقطع من فصول سيرته ماينيف على ستة عشرا جزءاً . أما رواة التاريخ فكما قفزوا بنا من ميلاد عنتره إلى حصوله على النسب عاودوا القفز مرة أخرى لنجد انفسنا أمام بطولته وهى معلقة على الكعبة .

ويذكر رجال الأدب — لا التاريخ — السبب الذى من أجله قال عنتره تلك القصيده وهو أن رجلا من بنى عبس سابه وشاتمه فذكر سواده وسواد أمه وأخوته وعيره بذلك وبأنه لايقول الشعر . فقال له عنتره : « والله أن الناس ليترافدون بالطعمة فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط . وأن الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بتسويمهم فما رأيناك فى خيل مغيره فى أول الناس قط . وأن اللبس ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فيصل . وإنما انت فقع نبت بقرقر . وانى لاحتضر الباس ، واوفى المغنم ، واعف عن المسألة ، واجود بما ملكت يدى ، وافصل الخطة الصمعاء ، واما الشعر فستعلم » . فكان اول ماقال قصيدته :

هــل غادر الشــعراء من مــــتردم

وهى اجود شعره، وكانوا يسمونها المذهبة .(١) اما كيف علقت هذه المذهبة على الكعبة واعتبرت واحدة من مسمطات العرب ؛ وما الذى فعله عنتره لينال هذا الشرف ويصل بشعره — او بغير شعره — إلى تلك المكانة ؛ فهذا مالم يرد له ذكر فى احاديث المؤرخين والأدباء على حد سواء بينما تكلف كاتب السيره عنداً آخر من فصول سيرته فصل فيها الكثير من الأحداث ، وذكر الكثير من الأسباب والمسببات التى انتهت بعنتره إلى هذا المركز الأدنى الممتاز الذى يكمل سلسلة الأهداف التى هدف اليها كتعويض للعقد التى صاحبت مولده ونشأته.

ولا يرد لعنتره بعد ذلك من ذكر فى كتب التاريخ اللهم إلا إشاره عابره تدرج اسمه ضمن من اشتركوا فى حرب داحس والغبراء، تلك الحرب التى استعر اوارها بين عبس وذبيان ؛ واستمرت مايقرب من اربعين عاما ؛ واعتبرت واحده من اشهر ايام العرب وملأ ذكرها كتب التاريخ والأدب . ومع ذلك فان عنتره لايذكر فى احداثها إلا ضمنا ؛ ولايذكر عنه إلا انه كان ممن اشتركوا فى هذه الحرب بحكم كونه واحداً من بنى عبس؛ ثم هم لايذكرون من شعره فى تلك الحرب الضروس إلا ابياتا قلائل قال بعضها فى رثاء مالك ابن زهير ؛ وبعضها فى مناسبات اخرى متفرقة لاتحدد مكانا واضحا لعنترة فى تلك المواقع ولعل هذا هو السبب الذى دعا كاتب سيرة عنتره ان يمر بهذه الحرب المشهوره مرور الكرام دون ان يفيض فى وصفها ورسم صور معاركها مثلما فعل فى تلك الوقائع التى لانهاية لها والتى انشأها خياله ؛ ورسمها تصوره ؛ وجعل عنتره فيها لافارسا فحسب ؛ بل وبطلا تراجيديا مرة ؛ وملحميا مرة ؛ واسطوريا مرة .

ولم تكن شهرة عنتره فى التاريخ والأدب كفارس تعادل شهرته كعاشق

---

(١) الشعر والشعراء — ابن قتيبة حـ ١ ص٢٠٥ والاغانى حـ ٩ ص٢٢٣ وخزانة الادب — للبغدادى حـ ١ ص ٦١ .

متيم احب عبلة — ابنة عمه — وهام بها وراح يقول فيها الشعر ويذكرها اينما سار وأينما حل واصبحت قصة حبه ذاك من اشهر قصص الحب المعروفة. وعلى الرغم من ذلك فان المؤرخين ورواة الآدب لا يحددون لنا مدى العلاقة التى كانت بين عنتره وبين حبيبته عبله ؛ ويتركوننا نقف وسط متاهه من التكهنات والآراء المتضاربة دون أن يقطعوا الشك باليقين فيذكروا صراحة : هل تزوج عنتره من عبلة أم لم يتزوجها ؟ . ونحن لن نحاول تجشم المصاعب — مثلما فعل كثير من الباحثين[1] — لنرجح أحد الاحتمالين ؛ ونروح نتصيد اوهى الأسباب لنبنى عليه ونؤكد ان عنتره قد تزوج عبله او انه لم يتزوجها ؛ فهذا أمر ليس له من القيمة مايوازى الافتئات على الحقائق بترجيح رأى ظنى فى موضوع تاريخى . واللوم فى هذا يقع — ولاشك — على عاتق اولئك الذين اغفلوا ذكر هذا الحدث ولم يحددوا لنا ماتم بين عبلة وعنتره . اما كاتب السيره فقد زوجهما ؛ بل واتخذ من زواجهما خيطا يقيم عليه صرح البناء الفنى لقصته الطويلة التى دارت معظم احداثها حول عبلة أو بسببها .

ويسكت عنا مؤرخو الآدب فلا يوردون لعنتره ذكرا حتى نصل إلى النهاية فيموت عنتره . ولكن . . . كيف مات هذا البطل ؟ ومتى توفى ؟

إن الشق الثانى من السؤال لا يهم مؤرخى الأدب فى كثير أو قليل ولذلك اغفلوه اغفالا تاما . أما الشق الأول فقد عادوا فيه إلى سابق عهدهم من اختلاف الروايات وتضارب الآراء . فيقول ابو عبيده ؟ إن عنتره اغار على بنى نبهان من طىء فطرد لهم طريدة — وهو شيخ كبير — وكان وزر بن جابر النبهانى — الملقب بالأسد الرهيص — فى فتوة ؛ فرماه وقال : خذها وانا ابن سلمى . فقطع ظهره . ولكن عنتره تحامل بالرمية حتى أتى أهله وهو مجروح[2] .

---

(١) فارس بنى عبس — لحسن عبد الله القرشى ص ٦١ والفتوة عند العرب لعمر الدسوقى ص ٤٣٤ .

(٢) الاغانى حـ ٨ ص ٢٤٤ .

ويذكر أبو عمرو الشيباني قصة أخرى في موت عنترة هي أنه غزا طيئا مع قومه فانهزمت عبس، فخر عن فرسه ولم يقدر — من الكبر — أن يعود فيركب. فدخل دغلا وأبصره طليعة طيء فنزل إليه وهاب أن يأخذه أسيراً فرماه وقتله (١).

ومع أن الرواية الأولى أقرب إلى التصور من الرواية الثانية، لأن لقاء عنترة المسن بفارس كالأسد الرهيص — وهو شاب — وتمكن الثاني من الأول أمر أقرب إلى طبائع الأشياء من تصور وقوع عنترة عن فرسه فلا يستطيع العودة إليه وهو الفارس المغوار المحنك إلا أننا لا نستطيع ترجيح هذه الرواية لأن أبا عبيدة لا يستقر عليها وإنما يضيف إليها رواية ثالثة أكثر غرابة من رواية الشيباني. مؤداها أن عنترة كان قد أسن واحتاج وعجز - لكبر سنه - عن الغارات، وكان له على رجل من غطفان بن بكر، فخرج يتقاضاه اياه، فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين « شرج وناظرة »، وهما ماءان لعبس — فقتلته ووجد بينهما ميتا(٢) أي أن عنترة المحارب الصنديد الذى لم تقتله الحرب ومنازلة أعتى الفرسان، ولم تلتهمه المواقع التي خاضها، تضر به ريح في منازله اعتادها كل عام فتقضى عليه. ولهذا فإن أغلب الباحثين — قدماء ومحدثين — اعتبروا الرواية الأولى أصح الروايات وأنها هى الصورة الواقعية التي مات عليها عنترة(٣) وهى كذلك الصورة التي أخذها كاتب السيرة وأضاف إليها إضافات درامية جعلتها نهاية رائعة لقصة ممتازة.

ونحن لا يهمنا كثيراً أن نرجح رواية على أخرى، أو أن نستعمل المنطق

---

(١) لاغانى حـ ٨ ص ٢٤٥.
(٢) السابق.
(٣) المؤتلف والمختلف ص ٩٩ ط القدسي وشعراء النصرانية، حـ ٦ ص ٧٩٨ وخزانة الادب للبغدادى حـ ١ ص ٦٢ وفارس بنى عبس للقرشي ص ٦٦.

والحساب لنحدد سنة وفاة صاحبنا مثلما فعل البعض[١] أو أن نحدد سنة لذلك دون ما سند أو دليل[٢] ، فإن هذه الحقائق التاريخية ليست مجالا للاجتهاد ، ولكن الذى يهمنا هو أن نسأل : لماذا سكت مؤرخو الأدب عن إثبات ذلك ؟ هل لأن عنترة بن شداد كان شخصا خاملا لا يستحق العناية والتأريخ ؟

والإجابة على هذا الغرض هى النفى القاطع طبعاً . فعنترة كان شخصا ذا مكانة بارزة فى عصره وبين قومه ، نصبوه فارساً عليهم وقائدا لهم ، وتبعوه ونفذوا أوامره كما أقر بذلك الحطيئة . ولم تكن قيمته وشجاعته أمراً داخلياً محصورا فى نطاق قبيلته ، وإنما كانت شهرة عامة بين العرب ، وصيته ذائعاً فى أرجاء الجزيرة العربية . فها هو صاحب الأغانى يروى أنه قيل لعنترة : « أنت أشجع العرب وأشدها ؟ قال : لا . قيل : فبماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ . قال كنت أقدم إذا رأيت الاقدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الاحجام عزما ولا أدخل إلا موضعا أرى لى منه مخرجاً ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنى عليه وأقتله[٣] .

فعنترة إذن معروف فى الجزيرة العربية كلها ، مشهور بالشجاعة ومشهود له بها حتى لقد خلعوا عليه لقب « أشجع العرب وأشدها » . فلماذا إذن سكت عنه المؤرخون . ربما كان ذلك لأن قصص شجاعته وبطولته لم تكن تذاع فى الناس ؟ . ولكن الواقع يدحض هذا الغرض كذلك ، فقصص عنترة وأخباره كانت تروى وتحكى للناس ، وما كان يروى منها لم يكن خلق خيال وتنميق قاص ، وإنما كان أحداثا حقيقية وأخبارا واقعية رائدها الصدق والواقع وإلا لما جسر أحد على حكايتها للنبى محمد عليه الصلاة والسلام . وهى إلى جانب ذلك كانت — ولا شك — شيئاً رائعاً مشوقا ومشرفا ، أعجبت الرسول

---

(١) مقدمة ديوان عنترة لابراهيم الابيارى .
(٢) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٤٨ .
(٣) الاغانى حـ ٨ ص ٢٤٤ .

حتى أنه قال عنها : « ما وصف لى اعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة ».[١] ومعنى هذا أن عنترة كان يذكر أمام النبى ، وكان يوصف وتروى قصصه وتسرد سيرته ، وأن هذه القصص وتلك السيرة كانت مشرقة رائعة لدرجة جعلت النبى يود لو أن الظروف قد أتاحت له رؤية صاحب تلك القصص وبطل هذه السيرة ،

ونعود إلى السؤال .. لماذا إذن سكت عنه مؤرخو الأدب ؟

وأقرب اجابة على ذلك عندنا هى أن أولئك المؤرخين ما كانوا يهتمون بالقصص والسير ولا بالأشخاص والاعلام ، ولا بالتاريخ والأحداث ، وإنما كان كل همهم موجها نحو الشعر والشعر وحده . فهم يرون الشعر أولا وأخيرا ، فإذا ما اتصل ذلك الشعر برجل ذكروه وإذا ارتبط بحدث أوردوه ، وإذا جرى فى مكان كتبوا اسمه .

ولن نخوض فى أسباب هذا الاتجاه ولا فى نتائجه الضارة ومدى ما سببت من خسائر أدبية فادحة نحن أمام احداها الآن ، فهذا الحديث يطول وليس هنا مكانه ، ولكن علينا أن نحاول محاولة أخرى ، فنقنع بما وقع بين أيدينا من شعر عنترة وندرسه علنا نستطيع أن نستشف منه تاريخا لحياة صاحبه .

هذا من حيث تأريخ حياة عنترة تاريخا منهجيا ، أما إذا انتقلنا إلى ناحية أخرى محاولين استغلال تلك الروايات والأخبار المتفرقة فى رسم صورة لعنترة تبين شخصيته وتوضح حياته ، وتتلمس عاداته ونوازعه متتبعة الأسباب التى التى أدت إلى ذلك وجدنا أن أول ما يلفتنا هو بناء تلك الشخصية . فأم عنترة هى زبيبة الحبشية التى وقعت فى أسر بعض قبائل العرب ، فعملت ورعت الإبل وتحملت المشاق . ومعنى هذا أنها لابد كانت فى صحة جيدة وقوة احتمال تعين

---

(١) بلوغ الارب ــ الالوسى والاغانى جـ ٨ ص ٢٤٣ .

عليه بنية قوية ، كما كان شكلها — أو منظرها العام — مقبولا إلى حد ما وإلا لما وقع عليها ذلك الفارس العربي الذى أنجبها عنترة . وهذا الفارس — سواء أكان هو شدادا نفسه أو أبنه أو أخاه — فانهم جميعا من صفوة فرسان عبس تلك القبيلة التى كانت من جمرات العرب بل وكانت أشهر القبائل فى الحرب وأقواها شكيمة وأعزها جانبا . فلاشك أن فرسانها كانوا هم أقوى الفرسان وأعتاهم ، وكان أبو عنترة واحدا من صفوة أولئك الفرسان .

وهكذا نجد أن التزاوج المختلط بين فارس عربي قوى وأمة حبشية قوية — أى بين أصلين قويين صالحين من جنسين مختلفين — قد أنتج خامة جديدة جمعت بين قوة الأصلين وحصلت على مزايا التزاوج المختلف الأجناس ، وامتازت بما فى كل منها من محاسن وأفضال . وأهلت لعنترة أن يجمع بين القوة البدنية التى يمتاز بها العربي وقوة الإحتمال التى يمتاز بها الجنس الحامى . وهذان العاملان يكمل كل منهما الآخر . فالقوة البدنية دون مقدرة على الاحتمال مثلها مثل قوة الاحتمال دون قوة بدنية . كلاهما لا يوصل صاحبه إلى شىء . وإنما اجتماعهما هو الذى يبلغه أرفع درجات الفروسية .

وقد التفت مؤلف سيرة عنترة إلى هذه النقطة الهامة فى البناء التكوينى لشخصية عنترة فأحسن استغلالها ثم حور فيها قليلا ليكسبها المظهر القصصى وذلك بأن أضاف اليها قوة غيبية خارقة حبا الله بها عنترة فكان كلما اجهد فى القتال تأخر خطوة للخلف وانتظر لحظة ثم تقدم وقد عادت اليه قوته بأكملها من جديد .وبهذا يستطيع أن يستمر فى الضرب والطعان يوما كاملا أو يومين — وربما أكثر — دون أن يصيبه تعب أو خور أو كلال .

وكان لهذا التزاوج المختلط الذى أنتج عنترة وحباه بمزايا الجنسين المتزاوجين أن شب الصبي وفى صدره رغبة متوثبة نحو الفروسية أخذها عن أبيه . وفى نفسه قوة احتمال ومثابرة أخذهما عن امه . فدفعته القوة الاولى إلى عدم القناعة بالرعى

والقيام بما يقوم به العبيد من اعمال الخدمة فراح يتعلم الفروسية ويتدرب على ركوب الخيل . وساعدته الثانية على الاستمرار فى هذا العمل إذ لاشك انه كان يقوم به خلسة دون علم أسياده لأنهم لم يكونوا ليسمحوا له بامتهان خيلهم واجهادها وترك العمل الموكول به اليه كما انهم لم يكونوا ليسمحوا لعبد من عبيدهم بالتمرس على اعمال الفروسية التى هى مظهر من مظاهر الساده محرم على العبيد .

وهنا تظهر فضيلة المثابره التى ورثها عن امه الحبشية . إذ بواسطتها تمكن من مزاولة المران والتغلب على كل ما قد يصادفه فى عمله هذا من عقبات . ولا شك أن هذه الفضيلة ما كانت لتوصله إلى مبتغاه لو لم يؤازرها فضيلة اخرى مشهوره عن الجنس الحامى كذلك هى المراوغة وسعة الحيلة وحسن تبصر الأمور وهذه الفضيلة اكتشفها عنتره فى نفسه واحسن استغلالها وبنى عليها مجده بل وحياته وعبر عنها اصدق تعبير فى عبارة ابى الفرج الأصبهانى[1] فهذه الفضيلة استغلها فى صباه فمكنته من التدريب على الفروسية واجادة استعمال الخيل والسلاح . ثم استغلها بعد ذلك فكانت الأساس الأول الذى بنى عليه شهرته ومجده . وكاتب السيره لم يذكر تلك الفضيلة لعنتره فحسب . بل واكد انها فضيلة حامية مكتسبة من الأم ومن جنسها فركزها فى شيبوب — اخى عنتره — وجعلها اظهر صفاته ورد اليها الفضل فى تخليص عنتره من كثيرا من المآزق التى كانت تحيق به . كما جعل من شيبوب وزيرا له ومشيرا يرجع اليه فى كثير من اموره فيشير عليه شيبوب بما تمليه عينه المتبصره وذهنه ذو الحيل .

وشب الوليد الذى اكتسب تلك الصفات البدنية والذهنية عن والديه المختلطين فوجد نفسه فى مركز لا يليق به ولا تحتمله نفسه العربية الابية . فهو عبد يملكه

---

(١) الأغانى حـ٨ ص ٢٣٩ ...

سيده . وهو خادم عليه ان يقوم بأعمال وضيعة قليلة الشأن . وهو تابع يجب ان يطيع كل ما يصدر اليه من أوامر . ثم هو أسود البشره بين قوم يعتبرون السواد عيبا وسبة وسمة من سمات العبيد كل هذا جعل الصبي يشعر بالذل والهوان واوجد عنده عددا من مركبات النقص وامراض النفس ... اوجد عنده عقدة ضد العبودية . وعقدة ضد اللون . وعقدة ضد اعمال الخدمة التي يقوم بها . وعقدة ضد الساده البيض الذين يستعلون عليه . ولم يكن عنتره ضعيف الشخصية بحيث تؤثر عليه تلك العقد النفسيه تأثيرا سلبيا فيركن إلى الفرار والخذلان . ويقع فريسة سهلة بين براثن الأمراض والعلل النفسية . وإنما كان بفضل المزايا البدنية والذهنية التي اكتسبها عن طريق الوراثة إيجابيا في مجابهته لتلك العقد جميعا . فبدا في محاربتها منذ اللحظة الأولى بأن تدرب على الفروسية واعد نفسه لمهنة القتال وبذلك تخلص أولا من مهنة الرعي واعمال العبيد . ثم اخذت مكانته تعلو بين قومه حتى ساوى فرسانهم وكلون من الوان التعويض اخذ يبزهم ويتفوق عليهم حتى اصبح وحده حامى حمى القبيلة . ثم يستغلها استغلالا آخر يمكنه من الحصول على حريته . فبعد ان اصبح فارس القبيلة الاول يقف تجاه متمنعا عن القتال محددا حريته ثمنا لذلك فلا تجد القبيلة امامها سوى الرضوخ ودفع الثمن وبذلك يتخلص عنتره من عقدة العبودية بعد ان تخلص قبلها من عقدة الرعي فأصبح سيدا حرا وفارسا مغوارا .

بعد هذا واجه عنتره عقدة أشد على نفسه من العقدتين السابقتين هي عقدة الجنس واللون . فعنتره — وان تحرر رسميا — إلا ان القوم مازالوا يعتبرونه عبدا أسود الوجه . وهم يعاملونه — اجتماعيا — على هذا الاساس . ولم تفلح فروسيته وحمايته للقبيلة في تغيير هذا الوضع الاجتماعي . فعليه إذن ان يسلك

إلى ذلك سبيلا آخر . وإن يبحث لنفسه عما يوقف هذه التفرقة العنصرية ويعوضه عنها بطريق مباشر — او غير مباشر —

وجد عنتره امامه طريقين ربما مكناه من بلوغ مأربه فسلكهما معا . وكان اول الطريقين هو المرأة . فالمجتمع العربي يعتز بالمرأه العربية كل الاعتزاز ويحفل بالحرائر العربيات ويعتبرهن الهة او اشباه الهة بالنسبة للعبيد . فعلى عنتره اذن ان يحاول الحصول على واحدة من تلك الحرائر اللائى استعبدته حينا حتى يثبت لنفسه انه لم يعد عبدا وإنما صار سيدا له كل ما للساده من حقوق . فبدأ محاولاته اولا بالحصول على عربية حصولا جنسيا ليرضى هذه النزعة التى تمزق نفسه . ولم يقنع عنتره باقتحام خدر أى عربية . وإنما هفت نفسه إلى أسمى اولئك العربيات وأعلاهن قدرا عنده وأوثقهن صلة بمشكلته إلا وهى « سمية » امرأه سيده السابق شداد . فراح يراودها عن نفسها[1] ولم تحدد الروايات التاريخية ما إذا كانت الصلة قد توثقت فعلا بينهما أم أنها لم تتم ولكن اغلب الظن انها تمت واستمرت . فسمية حين وشت به الى بعلها الذى غضب وضربه ضربا شديدا لا تحتمل النظر إلى عنتره وهو يضرب فتلقى بنفسها عليه وتكف زوجها عنه ويسيل منها دمع العين أسى على حبيبها الاسمر . وحبيبها يعرف هذا الدمع جيدا فكم شاهده من قبل حتى انه ليقول عنه :

أمن سمية دمع العين مذروف ولو أن ذا منك قبل اليوم معروف

وهكذا يصل عنترة إلى مبتغاه وينجح في أن يرضى نفسه معوضا عقدة التفرقة العنصرية . ولكن هذا الرضى النفسى الذى بلغه لم يحل المشكلة بأكملها وإنما حلها حلا داخليا فقط ، أما المظهر الخارجى فباق كما هو ، فعنترة لازال فى أعين الناس عبدا . إذن فلابد له أن يغير هذه العقيدة . ومادام قد استطاع الوصول إلى عربية فى الخفاء فعليه أن يحصل على واحدة فى العلن : وكما اختار فى

---

(١) اغانى جـ ١ ص ٢٣٧ .

المرحلة الأولى زوجة سيده التى كان يقوم على خدمتها أبان عبوديته، اختار للمرحلة الثانية ابنة أخى سيده التى كان يقوم على خدمتها كذلك لما لكل منهما من صلة وثيقة بعقدته . فراح يخطب عبلة من أبيها علنا وأمام الناس حتى إذا ماتم الزواج منها وأقر له الجميع بهذا كان قد تخلص من تلك العقدة التى أضنته . وهنا تقف الروايات التاريخية دون أن تحدد لنا هل تم لعنترة ما أراد أو أنه لم يستطع تحقيق هدفه ولم يتزوج من عبلة . ولكن الذى لا شك فيه هو أن هذا الهدف الذى وضعه عنترة نصب عينيه كان عاملا هاما من العوامل التى تضافرت على بناء شخصيته ، ودافعاً قويا حفزه إلى المزيد من الأعمال . فهو يعلم أنه لم يحصل على حريته إلا بإظهار بأسه وقوته ومدى احتياج القبيلة إليه ، فمن نفس هذا الطريق يستطيع أيضاً الحصول على هدفه الجديد .

أما الطريق الثانى الذى سلكه عنترة ليجابه به عقدة النقص لديه من الناحية العنصرية فهو طريق الشعر . فالقبيله كما تحتاج إلى الفارس لحمايتها تحتاج إلى الشاعر لحمايتها كذلك ، وكما تدرب عنترة ليكون فارسا وليرتفع بنفسه عن أعمال العبيد ويبز الفرسان ، تدرب كذلك ليكون شاعرا وليرتفع بنفسه بين قومه ويبز الشعراء . وهكذا نجد أنه اتخذ الشعر وسيلة إلى غاية وعلاجا من عقده النفسية ومركبا يوصله إلى ما يصبو إليه من مكانة بين العرب . ونحن نجد مصداق ذلك فيما ساقته الأخبار عن السبب المباشر الذى دفعه إلى إنشاء معلقته فقومه لا زالوا يحتقرونه ويسبونه ويعيرونه ، فيرد عليهم معرتهم مفاخرا بأنه يبزهم فى القتال مثلما يبزهم فى الشعر سواء بسواء، وبسبب إحدى تلك المعايرات قال عنترة معلقته (١)

فعنترة إذن ليس فارس القبيلة وحاميها فحسب ، بل هو أيضاً شاعرها وصوتها المتحدث بلسانها بين القبائل . وكما أن عقدتى النقص والرغبة فى

---

(١) الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٠٥ .

التعويض عنها دفعاه إلى أن يتفوق على الفرسان جميعا فيصبح « عنترة الفوارس » وأشجع العرب وأشدها ، فهو كذلك شاعر الشعراء وأحد الفحول الذين خلد العرب انتاجهم ووضعوه موضع التقديس فوق أستار الكعبة .

وربما كانت هذه العقد النفسية وسلوك عنترة للتغلب عليها هي السبب الذى جعل الفردية تظهر بوضوح فى شعره بخلاف ما هو معروف عن الشعر الجاهلى عامة من أنه تعبير عن الجماعه لا عن شخص قائله ، وأنه لسان حال القبيلة بأكملها وليس لسان حال الفرد . ولكن بما أن عنترة كان يتخذ الشعر وسيلة للوصول إلى مغانم شخصية وطريقاً من الطرق التى سلكها فى سبيل التخلص من عقد النقص التى واجهته ، لذلك كان شعره معبراً عن نفسه أكثر من تعبيره عن القبيلة ، وكانت معظم أقواله تعود إلى ذاته وتدافع عن شخصه وتفخر بمآثره هو قبل أى شيء آخر .

تلك هى المعالم الكبرى التى حددت شخصية عنترة ورسمت له طريق السير فى الحياة ، وكونت الأسس والدوافع التى جعلته يسلك سلوكا معينا وينهج هذا النهج البطولى . فإذا ما أردنا أن نغوص وراء بعض دقائق تلك الشخصية ، وأن نقف على مزيد من صفاتها الفردية ومزاياها الخلقية وجدنا أن أول إشارة تحدد لنا معالم هذا الطريق هى ذلك الحديث النبوى الذى قاله الرسول عليه السلام :
« ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه عنترة . » (١)

فهذا النص وان كان لا يعطينا أى تفصيلات عن شخصية عنترة ، إلا أنه يلفتنا إلى أمور عديدة . أولها أن عنترة كان ذائع الصيت فى الجزيرة العربية ، وكان مادة خصبة من مواد السمر الذى يلجأ إليه العرب فى مجالسهم . فصاحب العقد الفريد يذكر أنه قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ٢٤٣ .

ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم فى مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر وتتحدث بأخبار جاهليتنا » (١)

فأحاديث السمر تلك كانت تدور بين القوم كما كانت تدور فى حضرة الرسول عليه السلام ، وكان عنترة يذكر فيها كثيرا ، بأشعاره مرة ، وبأعماله مرة ، بل وبصفاته وأخلاقه مرات وكما كانت اشعاره عبقرية رائعة ، وأعماله بطولية فائقة ، فلا بد أن أوصافه وخصاله كانت كذلك حميدة ومثالية استحوذت على اعجاب النبي فخص عنترة بهذا الحديث الذى يرفعه فوق جميع أبطال الجاهلية ورجالها .

ولم يكن عنترة قدوة بين اهل زمانه فحسب ، بل انه كان قدوة للازمان التالية بعده رغم ما طرأ على حياة العرب الدينية والسياسيه والاجتماعية من تطور بعيد . ومعنى هذا ان اخلاق عنترة وخصاله الحميدة لم تكن تناسب العصر الذى هو فيه وحده ، وإنما كانت مثلا عليا ثابتة القيمة صالحة لكل انسان فى كل زمان ومكان حتى تمنى بعض ائمة الإسلام لو أن تلك القيم الأخلاقية الجاهلية التى سنها عنترة بقيت وتأصلت فى نفوس شباب الإسلام فقال : وددت لو أن لنا مع اسلامنا كرم اخلاق آبائنا فى الجاهلية . ألا ترى ان عنترة الفوارس جاهلى لا دين له ، والحسن بن هانىء إسلامى له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن ابن هانىء دينه . فقال عنترة :

واغض طرفى مابدت لى جارتى ... حتى يوارى جارتى مأواها

وقال الحسن بن هانىء مع اسلامه :

كان الشباب مطية الجهل ... ومحسن الضحكات والهزل
والباعثى والناس قد رقدوا ... حتى أتيت حليلة البعل (٢)

---

(١) حـ ٣ ص ٤٩ .
(٢) العقد الفريد ــ ابن عبد ربه حـ ٣ ص ٤٩ .

ولعل هذا النص هو الذى لفت كاتب السيرة فنقله بفكرته ـــ وبما يقارب لفظه ـــ ليجرى على لسان « شاس بن زهير » حينما يسرع عنترة إلى انقاذه وتخليصه من الأسر مرة تلو اخرى على الرغم من الإساءات التى كان شاس يلاحقه بها . واخيرا يعترف شاس بافضال عنترة وبحسن خصاله ويتمنى لوكانت له مثلها فيقول مخاطبا نفسه « هذه فعال عنترة معى ومع سائر الناس وهو ابن الأمة ، فكيف تفعل انت بضده ياشاس وانت ابن حرة مكرمة »(١)

وهكذا نجد أن التاريخ لا يقدم لنا صورة عن حياة عنترة ، ولا يزودنا بأحداث وافعال تمكننا من تصور هذه الصورة واستنتاجها وكل ما يستطيعه التاريخ هو أن يعطينا تأكيدا بوجود عنترة ثم يطمئننا إلى ان حياته كانت مشرقة فاضلة ، وانها كانت مثالا للفروسية العربية وتطبيقا لمفهومها الصحيح سواء قبل الإسلام وبعده .

---

(١) سيرة عنترة مجلد (١) ص ٣٨١ .

الفصل الرابع

شخصية عنترة من شعره

طبع ديوان عنترة عدداً من الطبعات فى أماكن متعددة ، وكان أقدم هذه الطبعات هى مجموعة القصائد التى جمعها « اسكندر اغا ابيكاريوس » وأطلق عليها اسم « منية النفس فى اشعار عنتر عبس » ونشرها عام ١٨٨٣ م مرتبة ترتيبا أبجدياً . وقد أعيد طبعها بعد ذلك عدة مرات فى كل من القاهرة وبيروت . وتلا ذلك محاولة جديدة للأستاذ عبد المنعم عبد الرؤوف شلبى حيث أضاف إلى « منية النفس » عدداً من القصائد التى رواها البطليوسى والاصمعى واعاد نشره تحت اسم « شرح ديوان عنترة بن شداد » ، ورتب القصائد ترتيباً أبجديا كذلك مع ذكر مصادر كل قصيدة وبحرها ، وذيلها بشرح مختصر لبعض الألفاظ والعبارات .

أما أحدث طبعات الديوان فتلك التى أصدرها الأستاذ كرم البستانى عام ١٩٥٨ ونهج فيها نهجا جديدا إذ قسم الديوان إلى قسمين متميزين ، القسم الأول يشتمل على القصائد التى أطلق عليها اسم « الشعر الثابت له » ، وهى ماروواه الرواة الذين تقدموا وضع قصته كالأصمعى وأبى عبيدة أبى عمر بن العلا والمفضل الضبى وأبى سعيد السكرى والبطليوسى ومن أخذ عنهم .والقسم الثانى يحتوى على القصائدالتى أطلق عليها اسم « الشعر المشكوك فى صحته » ، وهو ماروى فى القصة وماروى فى الديوان دون أن يكون مرويا عن أحد أولئك الرواه الثقات .

ومعنى هذا أن الأستاذ كرم البستانى وضع الشعر الذى ورد فى سيرة عنترة ضمن ما حمل عليه ، ومعنى هذا أيضاً أن شعر عنترة الذى ورد فى ديوانه ليس جميعه مقطوعا بصحته . والاعتماد فى التفريق بين الشعر الصحيح والمنحول يرجع أولا إلى روايات الثقات من الرواة ثم بعد ذلك يعتمد على دراسة الشعر نفسه ، تلك الدراسة التى تظهر للقارىء المدقق فرق ما بين الشعرين .

ولسنا هنا بصدد تنخل شعر عنترة لنقبل الصحيح من شعره فنثبته ، ونرفض المحمول عليه فنبعده . وإنما غايتنا هى دراسة شخصية عنترة وحسب ، لإبراز صور هذه الشخصية فى أوجهها المختلفة والمقابلة بين تلك الأوجه لاسيما بين الوجه الحقيق الثابت من أحداث التاريخ ووقائعه وبين الوجه الفنى الذى تخيله القاصون المنشئون لشخصية عنترة الروائية . وقد بدأنا بمحاولة رسم الصور الحقيقية لعنترة كما صورها التاريخ بعد ذلك سوف نحاول تتبع الصورة — أو الصور — التى تخيلها مؤلف السيرة الشعبية له . وعلى ذلك فلست أرى ما يمنعنا من النظر فى شعر عنتره على نفس الأساس فنقبل كل ما حمل اسم عنترة من قصيد لا باعتبار أنه صاحبه دائماً ولكن على أنه يبرز لنا شخصية عنترة فى صورة من الصور : وعلينا أن نقبل مبدئيا ذلك التقسيم الذى اصطنعه الأستاذ البستانى ، فنأخذ القسم الأول أساسا لتبيان شخصية عنترة الحقيقية ونعتبر القسم الثانى تقويما لتلك الشخصية ، وهذا بالطبع بعد تدقيق النظر فى شعر عنترة جميعه والقيام بعمليات استقرائية فيما صح وما لم يصح حتى تطمئن إلى ذلك التقسيم .

هذه « الثنائية » التى تبدو فى شعر عنترة هى فى الواقع ثنائية طبيعية ومنطقية، فشعر عنترة الثابت له يعبر عن شخصيته الحقيقية أو شخصيته التاريخية — ولكن من زاوية خاصة هى الزاوية الذاتية فيظهر لنا كيف يرى عنترة نفسه ، وكيف يحس بذاته ويعبر عنها ، وهو فى ذلك ربما رسم لنا خطوطا نفسيه مكمله للصورة

الشكلية أو الخارجية التي رسمها الرواة والمؤرخون . اما الشعر المحمول عليه فمن أوضح مظاهر القصص العربي أن القاص كان يؤيد مروياته بما يعن له من قصائد يحتاج إليها الموقف الروائي ، أو يتطلبها الصراع الدرامى ، أو ربما ليضفى على مروياته ظلا من الحقيقة يدفعها إلى نفوس المتلقين ، أو أن المتلقين أنفسهم هم الذين كانوا يحسون بتلك الحاجة إلى عدد من أبيات الشعر لتثبت الرواية القصصية فى نفوسهم . فعبيد بن شريه — الذى استدعاه معاوية بن أبي سفيان ليقص عليه قصصه — كان يذكر على لسان ابطاله الشعر الذى قالوه ، فاذا اغفل عبيداً أمر الشعر لاحقه معاوية قائلا : « سألتك ألا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلا ذكرته »[1] ، أو يقول له « سألتك الا شددت حديثك ببعض ما قالوه من الشعر ولو ثلاثة أبيات »[2] ولهذا فانه لاغرابة فى أن نجد قاصا كوهب بن منبه يذكر قصصه مشفوعة بابيات من الشعر قالها آدم أو نوح أو حتى غير العرب من أبطال قصصه .

فهذا الشعر إذن هو الصورة المكملة للشخصية الروائية التى يرسمها القصاص ، ووجود هذا الشعر جزء من منهج التأليف الروائى عند العرب بحيث يعتبر إهماله — أو طرحه جانبا — قصوراً فى خطة البحث واغفالا لمقوم أساسى لاتقوم شخصية عنترة التقويم الفنى المناسب إلا بايراده ودراسته . أما مسألة قبول هذا الشعر أو رفضه فأمر متروك لمتخصص فى دراسة شعر عنترة من ناحية التحقيق والتأريخ الأدبى . أما نحن فنقبل هذا الشعر على إعتبار أنه جزء من فن الرواية العربية اصطنعه القصاص كمقوم من مقومات البناء الفنى لعملهم .

وقد يوحى قبول هذه الثنائية فى شعر عنترة بتخبط منهج البحث على إعتبار أن شخصية عنترة من شعره سوف تكون مهزوزة مترددة بين الشعر الصحيح

---

(١) التيجان ص ٣١٤ .
(٢) التيجان ص ٣١٨ .

والشعر المنحول ولهذا فأننا نسرع قائلين أن هذه الدراسة يجب أن تسير على أساس فهمين مختلفين لشخصية عنترة ، فهو يعطيه شعره الثابت له ، وآخر يعطيه شعره المنحول ، وإن كلا الفهمين قائم بذاته منفصل عن الآخر تمام الانفصال وإن كانا معا قد عملا فى دأب على خلق ، عنترة البطل ، الذى اخترق حدود الواقع إلى دنيا الأساطير . بمعنى أن شخصية عنترة الحقيقية — أو الواقعية — كانت مادة جذبت إليها القصاصين كما كانت فى نفس الوقت مادة طيعة مكنتهم فى سهولة ويسر من تحويلها إلى صور روائية . ومعنى هذا أيضاً أن شخصية عنترة الاسطورية كانت تجمع صفات الواقع التاريخى إلى جانب تخيلات القصاص وما اضفوه عليها من صفات روائية .

وهنا يلزم أن نحدد شخصية عنترة بتحديدين مبدئيين : تحديد خلقى يرسم الهيكل الإنسانى بخطوطه وقسماته وملامحه الظاهرة ، وتحديد خلقى يرسم النفس الإنسانية بعواطفها وغرائزها وانفعالاتها ومواقفها من الحياة والكون . وسوف نرى أن التحديد الأول — أى التحديد الخلقى — قد عنيت به القصة أكثر من عنايتها بأى شىء آخر ، فرسمت صورة هيكلية لعنترة جعلت منه انسانا مكتملا للصفات البطولية الظاهرية بينما نرى التحديد الثانى — أى التحديد الخلقى — وقد عنى به التاريخ فصور بعضه فيما أورده عن عنترة من روايات ، وأكمله هو نفسه بما قال من شعر ثابت له .

وربما كان سبب عنايه القصاص بالتحديد الخلقى لعنترة دون التحديد الخلقى هو طبيعة البناء القصصى عند العرب ، إذ أن منهج التأليف الروائى العربى كان يعتمد أساساً على طريقة السرد وحدها دون اللجوء فى كثير أو قليل إلى طريقة التحليل . ولهذا فانه لم يحاول العناية بالنفس البشرية وتتبع خلجاتها والغوص فى أعماقها لاستكشاف مشاعرها وإنما وجه كل همه نحو الخطوط البارزة والملامح الظاهرة . وأوضح مثل على هذا هو ذلك الجزء من السيرة الذى يحكى لنا التقاء عياض بن ناشد وفرسانه بعنترة واتفاقهم على الغزو معا ، ولكن عنترة رد كل

ماغنموه ليحصل على فرسه الابجر ، فأراد عياض أن يؤدبه وينتقم منه ، فتقدم لمبارزته ولكنه ما أن واجه عنترة حتى رجع عن عزمه وعاد إلى قومه ذليلا مخذولا . فلما سألوه عن سبب ذلك لم يستطع تبرير خوفه من عنترة على أساس نفسى استبطانى ، وإنما بحث له المؤلف عن تبرير مادى ظاهرى وإن وضح فيه التكلف والاغراق فى المبالغة إذ قال عياض عن عنترة : « لما نزل يشد حزام فرسه وارد أن يركب رأيت خصيتيه مدلاتين إلى قرب ركبتيه فعلمت أننا لم نخطر له على بال ، ولو أننـــا خطرنا على باله لارتفعت خصيتاه وتغيرت جميع أحواله »[1] .

وهكذا نجد أن القاص العربى الذى اتبع طريقة السرد لم يحاول حتى فى المواقف النفسية البحتة — أن يتزحزح عن إيراد الظواهر الطبيعية دون غيرها . ولهذا فان العناية بالتحديد الخلقى تعتبر الأساس الأول للبناء القصصى عنده . وربما أمكن استشفاف الجانب النفسى من بعض الأحداث أو الوقائع ، أما إيراده فى صورة مستقلة فأمر تفتقده سيرة عنترة كما يفتقده القصص العربى على وجه العموم . ولهذا فإننا نقرر من البدايه أن دراسة القسم الأول من شعر عنترة سوف تكون مكملة لدراسة شخصية عنترة الحقيقية أو التاريخية ، بينما تكمل دراسة القسم الثانى من شعره شخصيته الاسطورية فى السيرة .

ونود أن ننوه هنا كذلك بأننا لن نعرض للطعون الكثيرة التى تناول بها بعض الباحثين الشعر الجاهلى بعامة ، وشعر عنترة على وجه الخصوص من امثال المستشرق نللينو والدكتور طه حسين ، حيث أن هناك كثيرا من الأبحاث

(١) السيرة مجلد (١) ص ١٤١ .

المتخصصة التى تعرضت لهذا الموضوع وأثبتت وجود الشعر الجاهلى[1] ، كما حاولنا نحن من قبل إثبات الوجود التاريخى لعنترة كانسان ولمعلقته كشعر جاهلى . هذا فضلا عن أن بحثنا يتناول تصوير شخصية عنترة فى مصادرهـــا الموجودة دون الخوض فى تحقيق وجود تلك المصادر .

والناظر فى شعر عنترة يجد ـــ منذ الوهلة الأولى ـــ أن شعره يختلف عن الشعر الجاهلى عامة فى مظهرين أساسيين . المظهر الأول هو أن شعر عنترة يتسم بالرقة والوضوح مع بلاغة التعبير وجودة الأسلوب ، وأنه لم يأخذ مأخذ الشعر الجاهلى عامة من حيث ضخامة الألفاظ وخشونة المعانى ووعورة الوصف[2] . والمظهر الثانى أن شعره يكاد يكون فى معظمه شعرا ذاتيا يعبر عن فردية قائله بعكس ما هو معروف عن الشعر الجاهلى من أنه شعر جماعى يعبر عن القبيلة أكثر مما يعبر عن قائله . ولا شك أن هذا العامل سوف يساعدنا على استكشاف شخصية عنترة من شعره ، إذ لو كان هذا الشعر جماعيا أكثر منه فرديا لمااستطعنا الوقوف على صورة واضحة المعالم لشخصية قائله .

وأول خبر تاريخى لعنترة هو أنه ولد عبدا لشداد من أمة تدعى زبيبة ، ثم استمر عنترة يرسف فى أغلال تلك العبودية إلى أن اعتقه أبوه والحقه بنسبه عندما أبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن قومه . هذه الفترة من تاريخ عنترة ، وهذه النقطة بالذات ـــ نقطة العبودية ـــ ليس لها أى ذكر أو اشارة فى شعره . فديوان عنترة لا يعرض لعنترة « العبد » ، ولا يصوره ، بل انه لا يكاد يذكر هذه الكلمة اطلاقا . ولسنا نرى لذلك من تفسير إلا أن يكون أحد هذه الفروض الثلاثة :ـــ

---

(١) من ذلك كتاب « مصادر الشعر الجاهلى » للدكتور ناصر الاسد .
(٢) شعراء النصرانية : للاب لويس شيخو ج ١ ص ٨٨٢ .

أولا : أن عنترة لم يقل شعرا فى تلك الفترة ، وانه بدأ قول الشعر بعد أن تخلص من عقدة العبودية وأصبح سيدا حرا مالكا لنفسه . أى ان ملكة عنترة الشعرية لم تترعرع وتزدهر إلا حينما تخلص من «القينية» وذل الرق(١) .

وأصحاب هذا الرأى يعززونه بتلك الرواية التى ذكرت بين يدى معلقته مبررة السبب الذى حفزه على قول الشعر وهو أن رجلا من بنى عبس سابه وشاتمه فذكر سواده وسواد أمه وأخوته ، وعيره بذلك وبانه لا يقول الشعر فقال له عنترة : «وأما الشعر فستعلم» . فكان أول ما قال قصيدته تلك(٢) .

والواقع أن أصحاب هذا الرأى لفتتهم الظاهرة ، ولكنهم أرادوا أن يريحوا ويستريحوا فعللوها هذا التعليل الساذج دون أن يحاولوا سؤال أنفسهم : كيف يبقى الفنان طوال هذا الوقت دون أن يستجيب لنزعاته الفنية ؟ ولو أمكن حدوث ذلك فإنه من غير المستساغ أن يبدأ شاعر قرض الشعر بمثل تلك القصيدة التى تعتبر عينا من عيون الشعر العربى ، والتى لم تعلق على الكعبة فحسب وإنما وضعت ضمن المعلقات سواء أكانت عشرا أم سبعا . أضف إلى ذلك أنها أجود ما فى الديوان طرا ، ومن غير المعقول أن يبدأ شاعر قول الشعر بمثلها ثم كلما تقدم فى عمره وفى فنه وفى تجاربه أخرج قصائد تقل عنها قدرا وكمالا وجمالا وفنا ثم أن عنترة فى هذه القصيدة يصور عشقه لعبلة بما يدل على ان هذا العشق قد مضى عليه زمن طويل ، وهو يتباهى بفروسيته وحمايته للقبيلة بما يدل كذلك على انه قد تربع على عرش البطولة منذ أمد بعيد . فلماذا اذن لم يقل شعرا طوال ذلك الزمن ؟ إلا وفق ان نقول بوضع تلك المقدمة ، وانها وضعت بعد القصيدة

---

(١) تاريخ الادب العربى ـ للزيات ص ٤٨ وفارس بنى عبس ـ للقرشى ص ٣٥ .

(٢) الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة جـ ١ ص ٢٠٥ .

كتفسير لها — وربما بعد حياة عنترة نفسه . والدليل على أن هذه المقدمة من إضافات الرواة هو أن السبب الأساسي من قول القصيده — كما تزعم المقدمة — كان الرد على عبسي سابه وشاتمه وعيره ، ومع ذلك فان عنترة لم يرد على شيء من كل هذا ولم يذكر ذاك الخصم ولا الحادثة ، في الوقت الذى ذكر فيه ابنى ضمضم (وهما ليسا من عبس) بما يشبه هذا الادعاء حيث قال عنهما :

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تدر للحرب دائرة على ابنَي ضَمْضَمِ
الشاتِمَي عِرضي ولم أشتمْهما والناذرَين إذا لم القَهُما دمي[1]

ولهذا فاننا نعتقد أنه من أبعد الأمور أن تكون هذه القصيده اول شعر قاله عنتره كما نرفض تلك المقدمة التي زج بها بين يديها . ثم نحن لا نوافق على الزعم بأن عنتره قد امضى تلك الفتره الطويلة من عمره — التي ذاق فيها طعم الحب ، وعاقر الخمر ، وانتشى بالنصر — دون أن يقول شعرا ، ودون أن تترعرع ملكاته وتزدهر .

ثانياً : والفرض الثاني لهذه الظاهره هو أن عنتره لم يكن قينا قط . وان كان هذا الزعم يخالف كل ما ورد عن عنتره سواء في التاريخ او في السيره . في الوقت الذى لا يسنده فيه سوى خلو الديوان من شعر او اشاره تعرض لتلك المرحلة من حياته ، اللهم إلا تلك الأبيات الثمانية التي تسبقها مقدمة تقرر أن « أمرأة أبيه — قبل أن يدعيه أبوه — حرضت عليه وقالت أنه يراودني عن نفسي ، فغضب أبوه من ذلك غضبا شديداً وضربه ضربا مبرحا بالسيف فوقعت عليه أمرأة أبيه وكفته عنه ، ولما رأت ما به من جراح بكت »[2] .

فالخبر بهذا السياق صريح في أن عنترة مر بفترة لم يدعه فيها أبوه ، وهذه

---

(١) الديوان ص ٣٠ — ٣١ ط ١٩٥٨ .
(٢) الديوان ص ٥٣ .

الفترة هي حياته في ظل القينة . أما الأبيات فليس فيها دليل على الخبر سوى لفظة واحدة وردت في البيت الذي يقول فيه :—

المالُ مالُكُمُ والعبدُ عبدُكُمُ فهل عذابُكَ عني اليومَ مصروفُ

والبيت بهذه الصورة لا يدل على قينة بأى حال من الأحوال . فإن ناقشنا حركة الضمير في كلمة (عذابك) ووجدنا أنها « فتحة » في الديون عجبنا أن تكون كذلك والخطاب فيما قبل البيت وفيما بعده موجه إلى « سهية » مما يستدعى أن يكون الخطاب في هذا البيت كذلك موجهاً إليها وأن تكون حركة الضمير فيه هي « الكسرة » لا الفتحة .

ولكن .. من هي سهية هذه ؟ ان الأبيات ليس فيها إشارة واحدة تنم عن أنها زوجة أبيه ، بل — على العكس من ذلك — فإن فيها ما ينم عن أنها لا يمكن أن تكون زوجة أبيه وإنما هي مجرد صديقة يتغزل فيها . وآية ذلك قوله : —

كأنها يومَ صدّت ما تُكلمُني ظبيٌ بعُسفانَ ساجي الطرف مطروفُ

فبالله .. كيف يصف عبد من العبيد زوجة أبيه بهذا الوصف ، وكيف يوجه إليها هذا الغزل الصريح وهذا الادعاء ، بل وكيف يصرح بقيام علاقة بينهما فيها الكلام وفيها اللقاء وفيها الصد وفيها الغزل .

أغلب الظن أن هذا الخبر كله مصنوع ، وأنه — مثل سابقه — وضع بعد قول الأبيات وربما بعد عصر عنترة . أما القصيدة نفسها فلا بد أن تكون المرأة فيها غير زوجة أبيه . وفي هذه الحالة لا يكون فيها اشارة إلى «قينة» أو نحوها ، إذ يفسر البيت الذي أثار هذا الزعم : « المال مالكم والعبد عبدكم » على أنه ضرب من ضروب الضعف عند العاشق حتى أنه ليسلم لصاحبته بكل شيء ويجعلها فوق الجميع ويرضى منها بمكان العبد تتصرف فيه وتتأمر دون أن يقدر هو على مخالفة أو عصيان .

يبقى بعد ذلك عدة أبيات فيها ذكر لسواد جلده دون أى تصريح بالقينية. والمفهوم السائد عند العرب هو أن الأسود ينبغى أن يكون عبدا. ولهذا أخذت تلك الأبيات على أنها موحية بعبودية عنترة . ومن الواضح خطأ هذا الاعتقاد إذ لا يلزم أن يكون كل أسود عبدا لا سيما فى بيئة صحراوية لافحة الشمس ومجاورة لمناطق الحاميين الذى يتبادلون معهم التجارة والناس .

ولكن — على الرغم من كل ذلك — فليس من السهل أن يدعى بعدم قينية عنترة وليس لدينا من دليل سوى عدم ذكر ذلك فى ديوانه . وعليه فلا يبقى أمامنا إلا الفرض الثالث وهو :—

ثالثا : ان عنترة ترفع عن القينية فأبى أن يسجلها على نفسه وأن يذكر شيئا عن حياته خلالها فاسقطها من شعره عامدا متعمدا ، ونسيها آملا أن ينساها الناس كذلك بل أنه — كتعويض لهذا النقص الذى يحسه — أفاض فى تصوير نفسه كسيد عظيم مترئس على قومه ، آمر فيهم ، إذ يقول :—

ناديتُ عبساً فاستجابوا بالقَنا وبكل أبيضَ صارمٍ لم يَنْجلِ [(١)]

فالعبد لا يمكن أن يدعو فيستجيب له الأحرار .

وهو فضلا عن ذلك حامى حماهم ومقيل عثراتهم ، يلجأون اليه فى الملمات ويستجيرون به فى النوازل .

يدعون عنترَ والرماحُ كأنها أشطانُ بئرٍ فى لَبانِ الأدهمِ [(٢)]

ولاشك أن هذا الوضع التعويضى قد سبب له راحة نفسية لم يستطع إخفاءها فصرح بها قائلا :—

---

(١) الديوان ص ٥٧ .
(٢) الديوان ص ٢٩ .

واقد شفى نفسى وأذهبَ سُقمها
قِيلُ الفوارس وَيكَ عنترَ أقدِمِ[1]

ثم هو يركز كثيراً من الاهتمام حول فعل بالذات كان سمة من سمات الأشراف هو معاقرة الخمر ، لأن العبد لم يكن من حقه شربها علنا ، ولهذا حاول عنتره فى أكثر من موضع أن يذكر الخمر وأن يفتخر بمعاقرته إياها وكأنما ليقنع نفسه — والناس — بأنه سيد من الأشراف . فيقول :

ولقد شربتُ من المُدَامةِ بعدما
رَكدَ الهوَاجِرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ[2]

وهو لا يشرب الخمر مثل السادة فحسب ، ولكنه يصرع أولئك الساده الأشراف الذين يعاقرون الخمر ليكون أكثر منهم تعمقا فى السياده . فهو إذ يصور لنا سيدا من هؤلاء الساده الذين كان يصرعهم ، يحرص الحرص كله فى هذه الصوره على إظهار ذلك السيد بمظهر « هتاك غايات التجار » ،أى رايات الخمارين التى كانوا ينصبونها ، والتى كان عنتره يتخذها هدفا لهجومه حيث تحتها أكثر من سيد وأكثر من بطل . .

وَبذِ يداه بالقداحِ إذا شَتاَ   هَتّاكِ غاياتِ التِّجارِ ملَوَّمِ[3]

وتكمل مقومات السيد لعنترة فى هذه القصيدة ذاتها حين نراه يصطحب جارية له . فهذه الخاصة لم تكن للقين قط وإنما السادة فقط هم الذين يملكون العبيد .

فبعثتُ جاريتى فقلتُ لها إذهبى   فتحسسى أخبارها لى واعلَمى[4]

(١) الديوان ص ٣٠ .
(٢) الديوان ص ٢٣ .
(٣) الديوان ص ٢٧ .
(٤) الديوان ص ٢٨ .

وكأنما يريد عنترة أن يقول أنه ليس بعبد ولكنه سيد ومالك للعبيد . ومهما يكن من أمر عنترة وعبوديته ، فمن الواضح أنه نجح نجاحا كبيراً فى اخفاء ذلك من شعره ، وجعل ديوانه يظهره بمظهر السيد البعيد كل البعد عن القينية .

وقارىء الديوان يلحظ — منذ النظرة الاولى — أن ما فيه من شعر يعطى صورة كاملة للفارس كما تصورته البيئة العربية البدوية ، وأنه يساير فى ذلك — خطوة بخطوة — فلسفة الفروسية العربية بجميع مظاهرها ودقائق مفهومها وبشطريها الجماعى والفردى .

وقد سبق أن بينا مدى اهتمام العربى بنسبه حفظاللعصبية وتوثيقا لإرتباطه بالقبيلة وتماسك وحدتها سواء فى ذلك النسب إلى الأب والنسب إلى الأم . وهنا تبدو الهوة سحيقة أمام عنترة ، فهو لا يستطيع أن يفخر بنسبه كاملا ، وإنما يقر فى صراحة بأن أمه ليست عربية فيقول عن نفسه :

يقدّمُهُ فتى من خيرِ عبسٍ أبوهُ ،وأمُّهُ من آلِ حامِ [(١)]

فنسبه لأبيه يكفيه . أما النصف الثانى من النسب فإنه يستعيض عنه بسيفه :

إنى امرُوءٌ من خير عبسٍ مَنْصِباً

شَطرِى واحمى سائرى بالمُنصلِ [(٢)]

وهو فى ذلك خير ممن سلم نسبه من الناحيتين ، ناحية أبيه وناحية أمه :

وإذا الكتيبةُ أحجمَتْ وتلاحظت

ألفيتُ خيراً من مُعمٍّ مُخْولِ [(٣)]

---

(١) الديوان ص ٦٧ .
(٢) الاغانى حـ ٣ ص ١٥٣ .
(٣) الديوان ص ٥٧ .

بل ليعترف صراحة بأن سواد أمه وعدم عروبتها كان يسببان له إحراجا ويؤلبان عليه القوم . يقول :

فإن تَكُ أمي غُرابيةً من أبناء حَام بها عِبتَني
فإني لطيفٌ ببيض الظُّبي وَسُمْرِ العوالي إذا جِئتَني (١)

ونقف هنا وقفة قصيرة لنناقش هذه الأبيات التي تثبت أمرين دون الثالث ، ففيها يعترف عنترة بسواد لونه وبأن أمه ليست عربية وإنما من بنات حام ، ولكن هذه الأبيات لا تثبت بأي حال من الأحوال عبودية عنترة في أي فترة من الفترات . فمن المسلم به أنه ليس كل أسود عبدا . وهذا الشعر — بالإضافة إلى المعلقة — يثبت أن عنترة كان له أكثر من عدو وأكثر من حاسد ، وأن هؤلاء كانوا يسبونه ويشتمونه ويعيرونه . ولكن كل ذلك اقتصر على سواده وسواد أمه ، ولم يذكر أي واحد من هؤلاء مسألة عبوديته ولم يعيره بها أو يذكره بأيامها . ومسألة العبودية سلاح نافذ بتار ، لو أنه وجد حقا لما أغفله أولئك الأعداء والحاسدون . فهل معنى ذلك أن عنترة لم يكن عبدا في أي مرحلة من مراحل حياته ؟ أم لأن العربي كان إذا وافق على إلحاق أحد بقبيلته احترم كلمته ونسى كل ما كان قبل ذلك ، أو أن عنترة بلغ من العظمة والسطوة وقوة الشكيمة ما مكنه من تكميم جميع الأفواه بالنسبة لهذه النقطة بالذات — حيث كانت مركز عقدة النفسية — ونجح في إبعاد كل الأقوال وكل الإشارات عنها . أو لعل ما أداه للقبيلة من خدمات سودته عليها ، ودفعهم إلى أن يخجلوا من ذكر ماضي ذلك العبد الذي نصبوه سيدا عليهم وقائدا لهم ، فاسقطوا تلك الفترة من حياته وتناسوها تناسياً كلياً .

أن واحدا من تلك الفروض جميعاً لا يستطيع أن يرجح على غيره دون دليل ،

---

(١) الديوان ص ٣٦ .

وطالما أننا لا نملك هذا الدليل حتى الآن ، لذلك سيبقى هذا السؤال الحائر : هل كان عنتره عبدا ، أم لم يكن ؟ .

وقد سبق لنا القول أن اول مظهر من مظاهر البطولة هو القوة البدنية — سواء أكانت طبيعية أو مكتسبة — وتتمثل القوة الطبيعية فى الشجاعة والاقدام والقدرة على مقارعة الفرسان ، بينما تتمثل القوة المكتسبة فى اجاده ركوب الخيل وحسن استعمال السلاح واتقان فنون القتال والنزال . ولما كانت القوه مظهرا من مظاهر البطولة الجماعية ، فقد تغنى عنتره بقوة قومه فى قصيدتين من قصائد الديوان ، واختار لهم من الصفات كل تلك التى كان يحتاج اليها البدوى ويأتى على رأسها كثرة العدد . ولهذا يصفهم قائلا :

إذا ما مَشَوْا فى السّابغاتِ حسبتهم سُيُولاً وقدجاشت بهنّ الأباطحُ (١)

وليست المسألة مجرد عدد فحسب ، وإنما كل فرد من ذاك العدد الكبير يتصف بقوة الشكيمة ورجاحة العقل والقدرة على ممارسة القتال ، وهو بعدذلك لا يهاب الحرب ولا يطيش لهولها صوابه . يقول عنترة :

فأشرعتْ راياتٍ وتحتَ ظلالها من القومِ أبناءُ الحروبِ المراجحُ (٢)

وهؤلاء القوم ليسوا حديثى العهد بالحروب ، ولكن لهم فيها قدم راسخة وكفاح طويل وتجارب متعددة . فهو يصفهم بقوله :

فلم أرَ حياً صابروا مثل صبْرنا ولا كافحوا مثلَ الذى نكافحُ (٣)

ويعدد عنترة بعض المعارك التى خاضها قومه وكتب لهم فيها النصر قائلا :

فلما التقينا بالجفارِ تَضَعْضَعوا وردّت على أعقابهنّ المسالحُ

(١ ، ٢ ، ٣) الديوان ص ٣٨ .

تركنا ضراراً بين عانٍ مُكبَّلٍ وبين قتيلٍ غابَ عنه النّوائحُ
وعَمراً وحبّاناً تركنا بقفرة تعودُهما فيها الضِّباعُ الكوالح(١)

كما يعدد عنترة بعض المواقع المشهورة التي حازت عبس فيها النصر على أعدائها واثبتتها فى سجل أيام العرب باسمها . يقول :

فَانْ يَكُ عزٌّ فى قُضاعة ثابتٌ فان لنا برَجرَجانَ وأسقف(٢)

ولم يتغن عنترة بقوة قومه كثيرا ، وإنما راح يتغنى بقوته الفردية ، ويفيض فى ذكر شجاعته وحمايته للقبيلة بأسرها ، وكأنما هو يدل عليها بذلك . وهنا تظهر فردية عنترة واضحة وطاغية . وربما يرجع هذا السلوك إلى سببين أساسيين أولهما إخفاقه فى ربط نفسه بالقبيلة ربطا نسبيا فامه حامية غير عربية الأمر الذى فصل بينه وبين القوم وجعله لا يستطيع التباهى بنسبه اليهم والفخر بخؤولته فيهم — تلك الخؤولة التى كان لها عند العرب شأن كبير — فلم يجد أمامه من سبيل سوى الاعتماد على نفسه ورفعها لتكون خيرا من كل معم وكل مخول . ولهذا وضحت الفردية فى شعر عنترة بشكل لم يظهر فى شعر أى شاعر جاهلى غيره .

أما السبب الثانى لهذا السلوك فهو عقد النقص العديدة التى كان يعانى منها فى حياته الجماعية ، ويأتى فى مقدمتها عقدة اللون التى لم يفتأ القوم يعيرونه بها، والتى لم يستطع إخفاءها مثلما فعل بعقدة العبودية التى نجح فى إغفالها إغفالا تاما من شعره . وفى لباقة وثقة بالنفس حول عنترة عقدة اللون عنده من مطعن إلى مفخرة مظهرا إعتزازه بها ، معتبرا إياها مجال مدح لا مجال قدح . وكعمل تعويضى انساق عنترة فى فخره ذاك مبالغا بعض الشىء ليقنع نفسه — ويقنع المستمعين معه — بهذا العمل التعويضى . فيقول مثلا :

إنى أنا عنترةُ الهجينُ فجُّ الأتانِ قد علا الأنينُ

(١) الديوان ص ٣٨ ، ص ٣٩ .
(٢) الديوان ص ٥٢ .

يحصد فيه الكف والوتين | من وقع سيفي سقط الجنين
عندكم من ذلك اليقين[1]

وعلى هذا الأساس اعتبر عنترة أن التعويض الطبيعى لعقد النقص عنده هو التمادى فى ذكر شجاعته وقوته والفخر بأنه اشجع الجميع وتذكير القبيلة دائماً بأنه هو الذى يحميها ويرد كيد أعدائها . ولهذا فانه لا تكاد تخلو قصيدة واحدة من قصائد ديوانه من تلك الصيحات المعوضة لعقد النقص ولآلام النفس . ولعل هذه الفردية التى بدت فى شعر عنترة ، وتلك الصور الشعرية التى رسم فيها شجاعته وفروسيته هى التى لفتت اليه مؤلف السيرة ليختاره بطلا لقصته الطويلة .

أما إجادة فنون القتال ، وحسن الدربة على استعمال الأسلحة والعتاد مع العناية بإنتقائها وتثقيفها ، فإن هذا جزء مكمل للفروسية ، ولذلك نجد أن عنترة لا يذكر شجاعته وقوة بأسه إلا وقد أكمل الصورة بذكر سلاحه والتغنى بحسن استعماله له . يقول مثلا لعمارة بن زياد العبسى :

متى ما تلقنى فردين ترجف | روانف اليتيك وتستطارا
وسيفى صارم قبضت عليه | أشاجع لا ترى فيها إنتشاراً
وسيفى كالعقيقة وهو كمعى | سلاحى لا أفل ولا فطاراً[2]

والدروع يلبسها ولا يكاد يخلعها لكثرة حروبه ولاعتماده عليها فى تلك الحروب . يعطينا عنترة صورة شعرية جميلة للفارس الدائب الحرب الذى لا يجد فى وقته متسعا لخلع الدروع والإغتسال . يقول :

---

(١) الديوان ص ٧٣ .

(٢) الديوان ص ٤٣ .

عجبتْ عُبيلة من فتىً متبذّلِ عاري الأشاجع شاحب كالمنصلِ

شعث المفارق منهج سرباله لم يدّهنْ حولاً ولم يترجلِ

لا يكتسي إلا الحديدَ إذا اكتسى وكذاك كل مغاور مستبسلِ

قد طالما لبسَ الحديدَ فإنما صدأ الحديد بجلده لم يغسلِ[١]

وهو كما يجيد استعمال السيف يجيد كذلك استعمال الرمح . قال في يوم جبلة:

وما ابليه إلا وسيفي ورمحي في الوغى فرسا رهان[٢]

والفرس بالنسبة للبطل شيء هام ، بل أنه أهم عنده من نفسه ومن أهله . فلا غرابة أن نجد تلك المقطوعة المعبرة لعنترة يزجر فيها امرأة لامته لأنه يحابي فرسه ويؤثره بالغبوق دونها ، فما كان من عنترة إلا أن رد عليها قائلا :

لا تذكري مهري وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجربِ

إن الغبوق له وأنت مسوءة فتأوهي ما شئتِ ثم تحوّبي[٣]

ثم يرسم لنا عنترة صورة رائعة معبرة لذلك الفرس يعدد فيها أسباب إيثاره إياه ، ويعترف له فيها بالفضل ، ويجعل منه شريكا وصاحبا يقاسمه أمجاده وجهاده تقول هذه الصورة الإنسانية الجميلة :

جزى اللهُ الأغرّ جزاء صدق إذا ما أوقدت نارُ الحروبِ

يقيني بالجبين ومنكبيه وأنصره بمطرد الكعوبِ

وأدفئه إذا هبّت شمالاً بليلا حرجفاً بعد الجنوبِ[٤]

---

(١) الديوان ص ٥٩ .
(٢) الديوان ص ٧١ .
(٣) الديوان ص ٣٣ .
(٤) الديوان ص ٣٤ .

ويختمها هامسا فى أذن الأغر :

أَلَستَ بصاحبى يومَ التقينا َ   بسيفَ وصاحبى يومَ الكثيبِ

أما الكر والفر وحسن تقدير الموقف مع خفة الحركة واصطناع الحيلة فانها جميعا خصائص لازمة للفارس وركن هام من أركان الحرب والنزال . ولقد زادت العناية به فى العصر الحديث فخصصت له الدراسات والطرق والتعليمات تحت اسم « التكنيك العسكرى » . وأول مبدأ من مبادىء هذا التكنيك هو حسن تقدير المواقف واتخاذ الاجراءات المناسبة لها . وهذا ما نجده فى بيت عنترة :

إن يلحَقوا أكرُرْ،وأن يستلحِموا   أشدُدْ،وأن يُلفَوا بضَنكٍ أنزلِ (١)

ثم هو يصف لنا خطة هجومية ناجحة يقول فيها :

وسرَيتُ فى وَعثِ الظلام أقودُهم   حتى رأيتَ الشمسَ زال ضحاها

ولقيتُ فى قبل الهجير كتيبةً   فطعنتُ أول فارس أولاها

وضربتُ قرنَى كبشِها فتجدلا   وحملتُ مهرى وسطَها فمضاها (٢)

ولمظهر القوة فى البيئة الجاهلية وجه عكسى لا يقل فى قيمته وقدره على الوجه الأساسى ونعنى به الأنتقام والأخذ بالثأر . وهذا الوجه يظهر فى شعر عنترة باعنف صوره وأقوى مظاهره . فهو وديع طيب مسالم ما لم يعتد عليه أحد ولكنه يضيف :

وإذا ظُلِمتُ فان ظلمىَ باسِلٌ   مرٌّ مذاقتهُ كطعم العلقمِ (٣)

---

(١) الديوان ص ٥٧ .
(٢) الديوان ص ٧٥ .
(٣) الديوان ص ٢٣ .

وإذا غدر به الحليف فاقل جزاء يلحق به هو جدع الأنف

وأنا كذلكِ يا سُهيَّى إذا غَدَرَ الحليفُ نقودُ بالخطمِ [١]

أما الثأر فهو صنو الحياه ولا يحول دونه حتى الموت . يقول عنتره :

لقد خشيت بأن أموتَ ولم تدرُ للحربِ دائرَ على ابنيْ ضمضمِ [٢]

ويقـــول :ـــ

وقد كنتُ أخشى أن أموتَ ولم تقُم قرائبُ عمرو وَسطَ نَوحٍ مسلب [٣]

ثم هو يوصى قومه بالثأر له إذا ما حالت المنيـــة بينه وبين مبتغاه ، فيقول لهم :

إن ابن سَلمىَ ـ فاعلموا ـ عنده دَمى وهيهات لا يُرجى ابن سلمى ولا دمى [٤]

وحينما قتل مالك بن زهير العبسى أقسم عنتره لينتقمن له ، ووجه اليه الخطاب قائلا :

فسوفَ ترى إن كنتُ بعدكَ باقيا وأمكننى دهرى وطولُ زمان

وأقسمُ حقا لو بقيتَ لنظرة لقرّتْ بها عيناكَ حين ترانى [٥]

وهكذا نجد أن المظهر الأول من مظاهر الفروسية العربية — وهو مظهر القوة بوجهيها — يكتمل عند عنتره ويصوره شعره فى وضوح وجلاء يدلان على أنه كان بحق نموذجا مثاليا للفارس العربى . فاذا انتقلنا إلى المظهر الثانى من مظاهر الفروسية العربية وهو القوه القولية والفصاحة الشعرية ، وجدنا أن ما

---

(١) الديوان ص ٦٤ .
(٢) الديوان ص ٣٠ .
(٣) الديوان ص ٣٥ .
(٤) الديوان ص ٦٨ .
(٥) الديوان ص ٧٠ .

بين أيدينا من أبيات تسلم لعنتره بالقيادة الفنية مثلماسلم الأقدمون له بهاوعلقوا قصيدته على الكعبة .

والمظهر الثالث من مظاهر الفروسية العربية — وهو ما يتمثل فى الشرف والكرامة وحميد الخصال — فان شعر عنترة يرسم لنا صورة وضاءة له . ولعل أبرز ما فى شعر عنترة خاصا بهذا الموضوع هو ذلك الشعور الانسانى الفياض ضد الحرب وويلاتها والملفت هنا حقا هو أن هذه اللفتة الانسانية صادرة عن فارس تعتبر فروسيته مصدرا أساسيا لوجوده ولبناء كيانه الاجتماعى ، ثم هى صادرة عن عنترة بالذات وهو الذى اتخذ من الحرب وسيلة يرقى بها من طبقة إلى طبقة ويصل عن طريقها إلى مصاف السادات — بل انها كانت الدواء الشافى لعقده النفسية — ومع ذلك فإننا لا نستطيع إلا ان نجل ذلك الشعور الانسانى الذى فاض به شعر عنترة وهو ينعى على أولئك الذين يتسببون فى اشعال نار الحرب ليكتوى بها الناس وهم فى غنى عنها ، أما هو فما أثار حربا ولا سعى اليها ولكنه مضطر للدفاع عن نفسه وعن قومه ضد تجار الحروب ، وكم يتوق إلى انتهاء تلك الحروب والخلاص منها .. يقول :

وإن تَكُ حربُكُم أمستْ عواناً ... فإنى لم أكُنْ مِمَّن جَنَاهَا

ولكنْ وُلْدُ سَوْدَةَ أرثوها ... وشبُّوا نارهَا لمن اصطلاها

فانى لستُ خاذلَكُمْ ولكن ... سأسعى الآنَ إذْ بلغَتْ أناها[1]

وهو وان كان يكره الحرب إلا ان شهامته تأبى الاشاحة عن مستجير استجار به ، فاذا ما دعاه مكروب هب لنجدته وفرج كربه . يقول :

ومكروبٍ كشفتُ الكربَ عنه ... بضَرْبةِ فيصلٍ لما دعانى

فلمْ أمسكْ بسمعى إذ دعانى ... ولكن قد أبَانَ له لسانى

---

(١) الديوان ص ٧٧ .

فقرقتُ المواكبَ عنه قهراً بطعنٍ يَسبقُ البرقَ اليماني
وما ابقيتـــه إلا وسبقى ورمحى فى الوغى فرسا رهان[١]

فإذا انتقلنا للبحث عن الخصال الحميدة والسلوك الأخلاق الكريم وجدنا أن عنترة يرسم لذلك — بشعره — صورة مثالية لم تكن فريدة وفذة فى عصره الجاهلى فحسب وإنما اعجب بها كذلك كبار رجال الدولة الاسلامية وحثوا شبابهم على اتباعها[٢] . وجماع هذه الفضائل تجده فى قصيدته الهائية التى يقول فيها:

ما استَمْتُ أنثَى فى موطن حتى أوفى مهرها مولاها
ولما رزأتُ أخا حفاظ سلمةً إلا له عندى بها مثلاها
وأغشى فتاةَ الحى عند حليلها وإذا غزَا فى الجيش لا أغشاها
وأغضُّ طرفى ما بَدتْ لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها
انى امرؤٌ سمح الخليقة ماجدٌ لا أتبعُ النفس اللجوجَ هواها[٣]

وهكذا يضع لنا عنترة دستورا أخلاقيا اجتماعيا فريدا يحدد أصول المعاملات، ويبين واجبات الفرد تجاه مجتمعه ، ويعين علاقاته بجيرانه ، ويوضح السلوك السوى للمواطن الصالح . فإذا أضفنا إلى ذلك بعض التعاليم الأخرى التى وردت فى شعر عنترة اكتملت لنا الصورة الأخلاقية المثالية للفارس العربى . فإلى جانب تلك الفضائل الاجتماعية التى تتحرى الحق والعدل فى المعاملات ، والتى ترعى حرمة الجار ، والتى تنادى بالسماح وعدم اللجاجة ، فان الرجل الأبى لا ينال عيشه إلا عن طريق شريف مهما لاقى فى سبيل ذلك من مصاعب . ولهذا فان عنترة يقول :

---

(١) الديوان ص ٧١ .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه حـ ٣ ص ٤٩ .
(٣) الديوان ص ٧٦ .

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلّهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ (١)

وعفة النفس من الصفات التى أسندها عنترة إلى نفسه حين قال :

يخبرك مَنْ شَهِدَ الوقيعة أننى أغشى الوغَى وأعفُّ عند المَغْنَمِ (٢)

ومن حسن الخصال حفظ الجميل وشكر النعمه . وفى ذلك يقول عنترة :

نُبِّئتُ عمراً غيرَ شاكِرِ نعمتى والكفرُ مخبثةٌ لنفس المُنعمِ (٣)

والفارس قد يشرب الخمر ، ولكن عليه فى هذه الحالة ألا يسرف فى الشراب إلى الدرجة التى يفقد عندها وعيه أو هيبته ، إذ يجب عليه أن يظل دائماً محافظا على وقاره وكرامته ، يقول عنترة :

فإذا شربتُ فاننى مُستهلِكٌ مالى وعرضى وافرٌ لم يُكْلَمِ (٤)

والندم من الصفات المذمومة التى لا يرضى عنها عنترة فينفيها عن نفسه قائلا:

وإذا حُملتُ على الكريهة لم أقُلْ بعد الكريهة ليتنى لم أفعلِ (٥)

ثم هو بعد ذلك شريف المعاملة شريف الخصومة ، يعتبر المبارزة مباراة رياضية ما أن تنتهى حتى تنتهى معها الخصومة ، فلا يستوجب الأمر بعدها حقدا على مهزوم أو تشفيا فى مغلوب . قال عنترة عن جرية ابن الهجيم بعد أن قاتله وقرعه :

فإن يبرأ فلم أنفِثْ عليه وإن يُفقَدْ فحُقَّ له الفُقُود (٦)

---

(١) الديوان ص ٥٧ .
(٢) الديوان ص ٢٥ .
(٣) الديوان ص ٢٨ .
(٤) الديوان ص ٢٤ .
(٥) الديوان ص ٥٨ .
(٦) الديوان ص ٤٢ .

وتكتمل صورة البطل فى شعر عنترة بذلك الايمان بقدرة الخالق والتسليم بالقدر . ولن نستند فى ذلك على بيت عنترة المشهور :

يا عَبْلَ أينَ من المنية مهربى ... إن كان ربى فى السماء قَضاها[1]

حيث أن البعض يشك فى هذا البيت لا لشىء سوى ذكر الله والسماء فيه مع أن قائله جاهلى لم يدرك الإسلام . ومن الثابت أن الجاهلية عرفت الأديان السماوية واعترفت بوحدة الخالق فى الدينين المسيحى واليهودى اللذين كانا منتشرين فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وليس هناك ما يمنع من معرفة عنترة لدين من هذه الأديان بل وربما إيمانه به . وقد يعزز هذا الرأى عدم ذكر عنترة لأى إله من آلهة الوثنية وأصنامها ، ويعضده كذلك تلك الدساتير الأخلاقية السامية التى ضمنها عنترة أبياتا كثيرة له مما يكاد أن ينطبق انطباقا كاملا مع تعاليم الأديان السماوية . ولكننا لن نعتمد على هذا البيت وإنما نعتمد على ظاهرة واحدة بدت فى شعر عنترة بصورة ملحة وملفتة ، وكان لها — ولا شك — أثر عظيم على سلوكه حتى أننا لا نغالى إذا ما قلنا أنها كانت الدافع الاول لشجاعته وفروسيته . تلك الظاهرة هى تسليمه المطلق بالقدر وإيمانه بأن الحياة الانسانية موكولة إلى قوة غيبية ، وأن الموت لا ينجى منه شىء ولا يبعد عنه خوف أو هرب أنظر إليه وهو يقول :

بَكَرَتْ تخوّفنى الحتوفَ كأننى ... أصبحتُ عن غَرَضِ الحتوف بمعزلِ

فأجبتها : إن المنية منهلٌ ... لا بدّ أن أسقَى بكأسِ المَنهلِ[2]

ويقول فى قصيدة أخرى :

وَعَرفتُ أنَّ منيتى إن تأتنى ... لا يُنجِنى منها الفِرَارُ الأسرعُ[3]

---

(١) الديوان ص ٧٤ .
(٢) الديوان ص ٥٨ .
(٣) الديوان ص ٤٩ .

وهكذا نجد أن شعر عنتره يرسم لنا صوره متكاملة واضحة للفارس العربي ، ويجعلنا نرى في صاحب هذا الشعر نموذجا مجسما للبطل حسب مفهوم العصر الجاهلي ولكن هذه الصوره تعتبر في واقع الأمر قاسما مشتركا بين الفرسان جميعاً ، وبذلك فإننا لا نخرج منها إلا بأن عنتره كان فارسا جاهلياً وبطلا من أبطال العرب ، وهو في ذلك يشبه الكثيرين غيره من الفرسان والأبطال ، أما إذا أردنا أن نستخلص صورة مفردة له تميزه عن غيره من الفرسان والأبطال ، وتوضح جوانب شخصيته ، فإننا ما نكاد نعيد النظر في شعره حتى نكشف النقاب عن حقيقتين هامتين — لا باعتبار أن كلا منهما قائمة بذاتها ومنفصلة عن الأخرى — ولكن على أساس أنهما ممتزجتان ومتفاعلتان مع بعضهما .

هاتان الحقيقتان هما الصوره المستخلصة لعنتره الفارس البطل ، والصوره المستخلصة لعنتره المحب المدنف . فالجمع بين هاتين الظاهرتين يجعل بؤرة الصوره تتركز على شخص واحد هو في نفس الوقت « محارب عاشق » ، أي أن البطولة والعشق قد تفاعلا معا وانتجا شخصية مميزه لا تشبهها أية شخصية جاهلية أخرى سواء في الفرسان كفرسان فقط أو في العشاق كعشاق فحسب .

هذه الشخصية الفريده في تكوينها ومواصفاتها يصورها لنا شعر عنتره تصويراً ممتازاً جاء بعضه في لاميته المشهوره التي مطلعها :

عَجِبتْ عُبَيلةُ من فتًى مُتَبَذِّلِ ... عارى الأشاجعِ شاحبٍ كالمُنْصُلِ (١)

فنحن نرى في هذه القصيده صورة العاشق الفارس . . العاشق الذي يريد أن يهب روحه لصاحبته ، والفارس الذي يريد أن يقدم حياته للنصر . والمعنى في الحالين سواء ، إذ هو بذل وسماحة وكرم مسرف . وقد ظهر هذا الاتجاه — أول ما ظهر — في الملاحم القديمة ، ثم تقدم بعد ذلك على اعتبار أنه يمثل لمرحلة من مراحل التطور في وجدانات الأمة حتى رأيناه في الطور الرومانسي يظهر عند جميع الأمم .

---

(١) الديوان ص ٥٩ .

ولقد كان الفارس فى أوربا فى القرون الوسطى يجمع بين القوه الخارقة والضعف الجميل ، فهو قادر على كل شىء ما دام بعيدا عن حبيبته ، فإن عرض له أمر معها سلم لها القياده لانه يحب ولأنه يريد أن يرضى حبيبته .

هذه هى الصوره الفريده لعنتره التى تميزه عن جميع فرسان الجاهلية وأبطالها فغيره من الفرسان كانوا بدوا تعتبر المرأه عندهم متاعاً يشترى بالمهر أو يحصل عليه بالسلاح ، وفى هذه الحالة تكون متعتهم معها متعة جسدية لا مكان فيها للمشاعر الوجدانية والتجاوب الروحى . والمؤهل الأول للمرأه ـ بهذا الوضع ـ هو جمال الشكل الخارجى . فإذا ما ذوى الجمال ، أو بشم منه الرجل ، أوعرضت له من هى أجمل ، ترك الأولى — غير مبال — وراح يسعى وراء متعة جسدية جديده . أما عنتره فقد أعطانا صورة للعشق بمعناه الروحى الذى يحيل البطل الغضنفر إلى قط وديع تسعده البسمة أكثر من اللمسة ، ويغنيه الرضى النفسى عن اللقاء الجسدى .

ولعل هذه الظاهره هى التى لفتت كاتب السيره ، فكانت عاملا من العوامل التى دفعته إلى احتيار عنتره كشخصية أولى لروايتهمع الاحتفاظ له بطابعهالحقيقى وقد صور الكاتب هذه الظاهرة ثم ضخمها تضخيما روائيا لجعل عبلة تتمادى فى تدللها على عنتره وتسخره للقيام بكثير من الأعمال ، ثم يصل الأمر إلى منتهاه حينما تطلب منه أن يقبل قدمها أمام اترابها إمعانا فى التدلل . ولعل هذه الظاهره كذلك هى التى اوحت للكاتب المعاصر — الأستاذ محمود تيمور ـ بفكرة مسرحيته « حواء الخالده » التى جعلها تدور اساساً حول تدلل عبلة وتحكمها فى عنتره وبالتالى فى غيره من الفرسان .

ونعود إلى القصيدة لنرى عنتره يتشفع إلى حبيبته بصفة خلقية هى التحول ويقول انه خفيف اشعث الشعر ، يريد بذلك ان يلفت نظرها إلى انه رجل رحلة وحرب . وقد قرر صراحة فى مطلع القصيدة انه « متبذل » اى باذل نفسه فى الحرب ، لذلك فإنه . . . .

لا يَكْتسى إلاَ الحديدَ إذا اكتسى وكذاك كلّ مُغاورٍ مستبسل
قَدْ طالما لَبِس الحديــدَ ، فإنما صدأ الحديدِ بجلده لم يُغْسَل

على أن هذا الفارس المغوار يهون أمام حبيبته ويرجوها ويتوسل اليها ألا تهجره ، فيقول لها :

لا تَصْرِميني يا عُبَيْل وراجعى فىّ البصيرةَ نظـرةَ المتأمل

وهو يحب عبلة حبا صادقا لذاتها وليس لجسدها ، فلو أن غرضه كان قضاء لبانة أو نحوها فان سبيل ذلك أمامه ميسور ، وطريقه إلى غيرها من الحسان موصول ، لأنه مطمح الفتيات ، وقبلة أنظار الغانيات . وعنترة لا يجد غضاضة فى التصريح بكل ذلك لحبيبته قائلا :

فَلَربّ أملحَ منكِ دَلاّ فاعلمى وأقرّ فى الدنيا لعين المجتلى
وَصَلَتْ حبالى بالذى أنا أهلُه من وُدّها وأنا رخىّ المِطْوَل

وعنترة — ذلك الفارس العاشق — يعرف من نفسه هذه الظاهرة ، ولا ينى يرددها فى الكثير من شعره . فنحن نراه مثلا يقول فى المعلقة :

إن تغْدِ فى دونى القناعَ فاننى طَبّ بأخذ الفارس المستلئم (١)

ولعل عنترة هنا يتساءل فى دهشة : كيف يستطيع رفع اللامة عن هامة الفارس ولا يستطيع رفع القناع عن وجه حبيبته ؟ . وربما كان هذا البيت الذى نسوقه يعد أقوى لمسة فى قصة هذا الشاعر العاشق الذى امتزج هذان العاملان فى نفسه امتزاجا كاملا وانتجا طرازا فريدا من الرجال جعلته أحاسيسه يهمهم قائلا فى حيرة .

---

(١) الديوان ص ٢٣ .

عُلّقتُها عَرَضاً وأقتلُ قومَها   زَعْماً لعمرُ أبيكَ ليس بمزْعم[1]

فهو ميدان الوغى لا ينسى قلبه ، وهو فى ساعات عشقه لا يغفل عن حربه وهو فى الحالين نتاج للتفاعل بين الفارس والعاشق ، ذلك التفاعل الذى خلق له شخصية معينة هى شخصية عنترة الفارس الذى يختلف عن جميع الفرسان ، وعنترة العاشق الذى يختلف عن بقية العشاق ، وعنترة الشاعر الذى يختلف عن غيره من شعراء الجاهلية .

هذه الظاهرة تتكرر فى شعر عنترة باطراد وتكاد تلح على جميع قصائده ، ففى غارة له على بنى ضبة نراه يقول :

تَخالتْ بىَ الأشواقُ حتى كأنما   بِزَنْدين فى جوفى من الوجد قادحُ
وقد كنتَ تخفى حبَّ سمراء حقبة   فَبحْ لأنَ منها بالذى أنتَ بائحُ

ولكنه لا يلبث عقب هذه الأبيات الرقيقة الحالمة أن يهدر مرعدا وقد انتقل بكيانه كله إلى الحرب والقتال . فيقول :

أعاذلَ ، كم من يوم حرب شهدته   له منظرٌ بادى النواجذ كالح
فلم أر حيّاً صابروا مثلَ صبرنا   ولا كافحوا مثلَ الذى نكافحُ
إن شئتُ لاقانى كَمِىٌّ مدجَّجٌ   على أعوجِىٍّ بالطعان مسامحُ
نزاحفُ زَحفاً أو نلاقى كتيبةً   تطاعننا أو يذْعَرُ السرحُ صائحُ[2]

وفى معلقة عنتره لمحة فنية تدل بوضوح على روحه التى امتزجت فيها عواطف الحب بشعارات الحرب . فعنترة شاعر مرهف الحس متأجج العواطف له روح

---

(١) الديوان ص ١٦ .
(٢) الديوان ص ٣٧ .

الفنان وقدراته الإبداعية في نفس الوقت الذي تمتلىء فيه نفسه بالشجاعة والفروسية يصور لنا هذه اللمحة بيت عنترة الذي يقول :

علقتُها عرضا وأقتلُ قومها   زَعْماً لعَمرُ أبيكَ ليسَ بمزْعمِ (١)

وقد يزعم البعض أن هذا البيت يوحي بانفصام عصابي أو بلون من ألوان المرض النفسي ، إذ أنه يظهر تناقضا في سلوك الشاعر ويترجم عن تضارب عواطفه وتذبذبها . ويجعل لعنترة شخصية مهزوزة قد جمعت بين عاطفتين متناقضتين تجاه إنسان واحد . وأبسط رد على هذا الزعم هو أن ذلك البيت المفرد قد جمع بين شطريه كل المعاني والأحاسيس والإنفعالات التي حملها « شكسبير » لمسرحيته الشهيرة « روميو وجوليت » .

والواقع أن شاعرية عنترة تتجلى في التعبير عن هذا المزج الشعوري عند الفارس العاشق . إذ نراه لا يلبث أن يتبع البيت السابق بقوله :

ولقد نَزلْتِ فلا تظنِّي غيرَهُ   مِني بمنزلة المحبِّ المكْرَمِ (٢)

فعنترة محب صادق الحب وليس طالب لذة عابرة . وهو مصر على هذا الحب مهما لاقى في سبيل حبه من صعاب وعقبات ومهما تدخل القدر الساخر ليحكم العداء بينه وبين أهل حبيبته . هذا الحب الذي يحسه إذن حب حقيقي مركز حول حبيب واحد لا يمكن استبداله أو تركه إلى غيره . ولهذا فان عنترة حينما يصف لنا عبلة يبدأ بذكر صفة مادية لها ، هي عذوبة الثغر ولذة المقبل . ولكنه لا يلبث أن تتحول وجداناته عن النواحي الموضوعية المادية وتحلق في أقصى آفاق التجريد والتحليل . يأخذ عنتره في البحث عن أسباب يعلل بها عذوبة ثغر حبيبته . فيبتعد ذهنه ابتعاداً كليا عن الماديات ويتجه من فوره نحو

---

(١) الديوان ص ١٦ .
(٢) الديوان ص ١٦ .

الرائحة الزكية . ولكن هذا التجريد لا يشبع انفعالاته العاطفية فيجعل تلك الرائحة ناتجة من روضة . ولكن ... أى روضة ؟ أنهـــا ليست الروضة فى صورتها المادية . وإنما يريد الشاعر صوره تعبيرية يبدع فى وصفها وتحليلها فى أبيات لا تحتاج إلى تعقيب أو تعليق . يقول فيها :

وكأنَّ فَارةَ تاجر بقَسيمَةٍ سبقتْ عوارِضَها إليكَ من الفمِ
أو روضةً أنفاً تضمن نبتَها غيثٌ قليل الدِّمنِ ليس بمَعْلمِ
جادتْ عليه كلُّ بِكْرٍ حرَّةٍ فتركْنَ كلَّ قرارةٍ كالدرهمِ
سَحاً وتسكاباً فكلَ عَشيَّةٍ يجرْى عليها الماء لم يتَصرمِ
وخَلا الذبابُ بها فليس ببَارحٍ غَرِداً كفعل الشارب المترَنِّمِ
هَزِجاً يحكُ ذراعهُ بذراعه قَدْحَ المكب على الزناد الأجذمِ[1]

فهذه الصور الشعرية المتتابعة التى انساق وراءها عنترة مدفوعا بصدق فنيته الشعرية حتى كاد أن ينسى أصل التشبيه واندفع — فى حماس — محاولا التعبير عن الصورة الفنية التى تخيلها لتلك الروضة ، محددا كمية الغيث التى تسقيها ومشبها قطراته بالدراهم ، ثم وصف ما فى الروضة من طيور وشبهها بالشارب المترنم مرة ، وبالأجذم المكب على الزناد مرة أخرى. ونوشك على الاعتقاد بأن عنترة قد نسى حبه وغزله وفتنه وجمال الروض ، ولكن فجأة تطفو مشاعر الفارس العاشق وتنطلق جميعها فى بيت واحد يوقظنا من تلك الرحلة التخيلية التى قطعناها مع عنترة فى روضته ، ويعيدنا — أمام انفعالات الفارس العاشق — إلى تلك الحقيقة التى لا تزال تلح عليه . يقول :

تُمْسى وتصبحُ فوقَ ظهر حَشيةٍ وأبيتُ فوق سَراةِ أدهمَ مُلجَمِ

---

(١) الديوان ص ١٨ — ١٩ .

وهكذا نجد أنفسنا أمام مثال ناطق لفارس فريد يمثل جماع الصفات والخصال التى كان عليها الفارس البدوى ، ويترجم لنا فلسفة الفروسية كما فهمها المجتمع العربى ، ويحدد الأصول والأسس التى تقوم عليها الفضيلة الجاهلية ، ثم ينفرد عنترة بعد ذلك بصورة من صور الفروسية تميزه من الناحية العاطفية وتجعل منه نموذجا ناجحا لعمل روائى ممتاز .

* * *

وننتقل إلى الشعر المشكوك فى صحة نسبته إلى عنترة — بما فى ذلك شعر السيرة — لننظر فيه من الناحية الموضوعية وحدها ونطرح جانبا مسألة صحة نسبته أو عدم صحتها ، كما لا نحاول أن نبحث له عن صاحب أو قائل . وإنما نحاول فقط أن نستخلص منه صورة لشخصية عنترة تكون هى فى الواقع الصورة التى تخيلها شعراء ذاك العصر لعنترة . وهذه الصورة تختلف كثيرا عن الصورة التى يصورها شعر الشاعر لصاحبه ، كما تختلف أيضا عن الصورة التى تصورها له السيرة الشعبية . فشعر الشاعر يعبر عن الانفعالات الذاتية له والاحساسات النفسية التى يستشعرها هو ، الأمر الذى لا يستطيع غيره ان يعبر عنه بلسانه ، والسيرة تعطى صورة كاملة محددة المعالم ، واضحة القسمات ، مرسومة بحذق قصصى وطبقا لتخيل سابق مساير للاحداث والمضامين . أما هذه المقطوعات الشعرية التى قالها بعض الناس فى مناسبات مختلفة ولأسباب متفاوتة وتحت وقع ظروف تختلف من شخص لآخر ومن موقف لآخر فانها لا يمكن أن تعطينا صورة تامة كاملة لشخصية عنترة لا سيما واننا نلاحظ منذ القراءة الأولى لتلك المقطوعات ان معظمها موضوع على مثال من شعر عنترة الحقيق . فمثلا يقول عنترة مخاطبا عمارة بن زياد .

فإن تَكُ أمّى غرابيةً   من أبناء حام بها عِبْتَنى
فإنى لطيفٌ ببيضِ الظُّبى   وسُمْرِ العَوالى إذا جِئْتَنى [١]

فيأتى الواضعون ليحملوه قولهم على لسانه :

لئن أكُ أسودا فالمسك لونى   وما لسواد جلدى من دواء
ولكن تَبْعُدُ الفحشاء عنى   كبعد الأرض عن جو السماء [٢]

فضعف هذين البيتين الأخيرين يكاد يشير إلى وضعهما وإلى انهما موضوعان على قياس واحتذاء لبيتى عنترة الصحيحين . ويشبه هذا إلى حد كبير احتذاء كاتب هذه القصيدة لنفس المعنى إذ يقول :

لئن يعيبوا سوادى فهو لى نسب   يوم النزال إذا ما فاتنى النسب [٣]

وواضح ان هذا القول لا يمكن أن يصدر عن عنترة ، لا لما فى نسجه من هزال وتفكك — فهذه وصمة تسوم كل الشعر المنحول عليه — ولكن لأن هذا المعنى الذى فى البيت يتعارض تعارضا كاملا مع ما فى شعر عنترة الصحيح. فعنترة — فى شعره الصحيح — قد فرق بين مشكلة اللون ومشكلة النسب وناقش الأولى بعيدا عن الثانية التى أغفلها — أو كاد — فإذا ما اضطرته الظروف إلى ذكرها اعتز بنسبته إلى القبيلة ، وبنسبته إلى أبيه ، بل واعتز كذلك بنسبه الحامى إلى أمه زبيبة ، ولم يذكر مطلقا وضاعة نسبه أو معرته منه كما فى البيت المنحول .

فالشعر المنحول قد وضع على مثال من شعر عنترة الصحيح ، ولكن المثال الواحد وضع على ظله العديد من القصائد التى تمتاز جميعا بوحدة التقسيم الشكلى لها ، فهى تبدأ بالغزل ، وهذا الغزل يتناول عبلة بالذات ويصر على ذكر اسمها

---

(١) الديوان ص ٣٦ .
(٢) الديوان ص ٨٨ .
(٣) الديوان ص ٩٢ .

عددا من المرات قد يصل إلى العشر فى القصيدة الواحدة وبعد ذلك يأتى الحديث عن بطولة عنترة ومغامراته ، وتنتهى القصيدة عادة بحكمة مناسبة . وقد يعكس ترتيب القصيدة فتبدأ بالحكمة وتنتهى بالغزل وبينهما وصف شجاعة عنترة وقوته وبلائه فى الحروب .

وليس هنا مكان تحليل هذه القصائد فنيا للدلالة على وضعها ، ومع ذلك فان مجرد القراءة السريعة لها تظهر ما فيها من ضعف وسقطات وتكاد تقطع بأنها ليست لعنترة على الرغم من أنها موضوعة على مثال من شعره الصحيح . فمثلا مقطوعة عنترة الشهيرة التى يقول فيها :

إنى أنا عنترة الهجينُ فَجّ الأتانِ قد علا الأنينُ
يُحَصْحَصُ فيه الكفُّ والوتَينُ من وقع سيفى سقط الجَنينُ[1]

نجد قصيده منحولة على منوالها تتناول معظم هذه المعانى إلى جانب الاطار العام للقصيدة ولكنها تظهر بوضوح مفهوم الناحلين عن عنتره . تقول القصيدة المنحولة :

دعنى أجِدُّ إلى العلياء فى الطلب وأبلُغ الغايات القصوى من الرُّتَبِ
لعل عبلة تُضْحى وهى راضيةٌ على سوادى ، وتمحو صورةَ الغضب
إذا رأتْ السادات سائرةً تزور شعرى بركن البيت فى رجبِ
فبادرى وانظرى طعنا إذا نظرتْ عينُ الوليد إليه شاب وهو صبى[2]

ولعل من حقنا بعد ذلك أن تتصور عبلة بعد أن تنظر إلى هذ الطعن الذى إذا نظر اليه الوليد شاب ، فما الذى سوف يصيب عبلة منه ؟

وفى قصيدة أخرى من تلك القصائد المنحولة يعمل العقل الباطن لواضعها

---

(١) الديوان ص ٧٣ .
(٢) الديوان ص ١٠٢ .

عملا يكاد يكشف أمره ويجعله يعترف بالحقيقتين السابقتين، وهما أنه هو الذى وضع القصيده على لسان عنتره . والثانيه أنه وضعها على مثال من قصائده الحقيقية . فبعد أن انهمك هذا الواضع فى وضع ما يقارب الأربعين بيتا — على لسان عنتره يصف فيها حملة له على الفرس . يختم القصيده بقوله :

فدونكم يا آلَ عبسٍ قصيدةً ‌ ‌ ‌ يلوح لها ضوء من الصبح أبلجُ
ألا إنها خيرُ القصائد كلهـــا ‌ ‌ ‌ يفصّل منها كل ثوبٍ وينسجُ(١)

وكأنى بهذا الواضع — بعد طول ما عاناه أبان وضع قصيدته — قد تصور نفسه متقمصا شخصية عنتره . وتصور أن الناس الذين يقدمها اليهم هم آل عبس ولما كان هذا الرجل يعرف أنه ينسج قصيدته على منوال قصائد عنتره الصحيحة . فقد تصور مدى ما فى هذا العمل من فخر لصاحب القصيدة الأصلية . فدفعه عقله الباطن إلى الافتخار بأن القصيدة التى وضعها الآن سوف تكون أحسن مثال ينسج على منواله الواضعون والناحلون فيما بعد .

وقد يتمادى الواضع فى اتخاذ المثال الذى يطلبه ، فلا يكتفى بشعر عنتره نفسه وإنما يسطو على شعر غيره من الجاهليين ليتخذ منه مثالا لما ينحل . ففى احدى تلك القصائد يقول ناحلها على مثال قول عمرو بن كلثوم فى ختام معلقته :

إذا بلغ الرضيعَ لنا فطاماً ‌ ‌ ‌ تخرُّ له الجبابرَ ساجدينا(٢)

فيقول ناحل شعر عنتره :

إذا بلغَ الفطام لنا صبىٌّ ‌ ‌ ‌ تخرُّ له أعادينا سُجودا(٣)

ولعل معلقة عمرو بن كلثوم كانت أقرب الشعر الجاهلى إلى أذهان واضعى

---

(١) الديوان ص ١١٣ .
(٢) شرح المعلقات السبع ـ للزوزنى ص ١٣٥ .
(٣) الديوان ص ١٢٣ .

شعر عنترة وأكثره ارتباطا بتصورهم لبطلهم . فنحن لا نلبث أن نلتقى بما يشبه أبيات عمرو بن كلثوم التى يقول فيها :

ونحن إذا عماد الحى خرّت عن الأحفاض نمنع من يلينا
ونحن غداة أوقد فى خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا
ونحن الحابسون بذى أراطى تسف الجلة الخور الدرينا[1]

ويقول واضع الشعر على لسان عنترة :

ونحن العادلون إذا حكمنا ونحن المشفقون على الرعية
ونحن المنصفون إذا دعينا إلى طعن الرماح السمهرية
ونحن الغالبون إذا حملنا على الخيل الجياد الأعوجية
ونحن الموقدون لكل حرب ونصلاها بأفئدة جرية[2]

ومهما يكن من أمر ، فالذى يهمنا هو الصورة التى يرسمها هذا الشعر المنحول لعنترة ، والشخصية التى تخيلها واضعو شعر عنترة له وتقمصوها ليكتبوا الشعر على لسانه ومن العجيب حقا أن هذه الصورة لا تكاد تتفق مع الصورة التاريخية الواقعية لعنترة ، كما أنها تتعارض تعارضا تاما مع الصورة التى يرسمها شعره الصحيح .

أول وجه للخلاف بين صورة الشعر الصحيح وصورة الشعر المنحول هو طبيعة التصور أو أساسه المبدئى فبينما يهتم الشعر الصحيح بتصوير اللمحات الخلقية عند عنترة ، يميل الشعر الموضوع إلى رسم الجوانب الخلقية معتمدا فى رسمه على

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٣٠ .
(٢) الديوان ص ٢٤٠ .

المادية ، . . . والمادية فى كل شىء فعنترة بن شداد — ذلك الفارس المغوار — لا بد أن يكون وحيدا فى نسجه ، فريدا فى نوعه ، لا يشبهه أحد ، ولم يخلق الله من طرازه سواه . يقول عن نفسه :

إننى لَيثٌ عَبوسٌ ليس لى فى الخَلقِ ثانى[1]

وتبدأ قصة هذا الأوحد منذ مولده . فهو لم يولد لأم آدمية كما يولد الأطفال، وهو لم يرضع من لبنها ، ولكن الحرب هى التى ولدته ومن لبن المعامع أرضعته :

وفى الحرب العَوانِ ولدتُ طفلا ومن لبن المَعَامع قد سُقيتُ[2]

فهذا البطل الذى ولد فى الحرب ورضع من لبن المعامع لا بد أن تكون خلقته مناسبة لهذا المنبت الشاذ ، فيكون له شكل رهيب مخيف يكفى النظر إليه لإرهاب العدو وحمله على الفرار يبكى حظه العاثر الذى أوقعه بين براثن هذا الوحش المخيف :

وآخَرُ هاربٌ من هولِ شخصى وقد أجرَى دموعَ المقلتينِ[3]

ومع ذلك فان هذه الصورة الرهيبة لعنترة التى تجعل الناظر إليها يفر هلعا ورعبا تقل كثيرا عما يتصوره فى نفسه ، فهو يعتقد أن صورته لا تدفع إلى الحرب وحده وإنما هى كفيلة بأن تميت الناظر إليها . ولهذا يقول :

إنى لأعجَبُ كيف يَنظرُ صورتى يومَ القتالِ مبارزٌ ويَعيشُ[4]

ويساعدنا الشاعر على تصور هذا الشكل المخيف بإبراز لمحات من وجهه ربما

---

(١) الديوان ص ٢٢١ .
(٢) الديوان ص ١٠٧ .
(٣) الديوان ص ٢٢٥ .
(٤) الديوان ص ١٦٢ .

كانت كفيلة بجعلنا نتخيل باقى معالم خلقته ، فهذا البطل — غير الآدمى — ينفث اللهب من مقلتيه . يقول الشاعر : أنه يواجه الأعداء ...

بوجه مثل ظهر الترس فيه لهيبُ النار يشعلُ فى المآقى[1]

فالمقل يشع منها اللهب ، أما الفم فيخرج أنفاسا حارقة يلين لها الحديد :

تحل أنفاسى إذا رددتها بين الطلول محت نقوش المبرد[2]

وتشبيه هذا البطل بالأسد الهزبر الغضنفر تشبيه عام دارج تكاد لا تخلو منه قصيدة ، ولكن المهم فى الموضوع هى أوصاف هذا الهزبر . . أنه هزبر شرس عبوس .

إنـــــى ليث عبوس ليس لى فى الخلق ثانى

أما الشراسة فيحدث عنها عبلة قائلا :

يا عبلَ إنى فى الكريهة ضيغم شرس إذا ما الطعن شقَ جباها[3]

وهو قوى الاحتمال لدرجة معجزة . . . يقول عن نفسه :

وإنى لحمالٌ لكل ملمة تخرُّ لها شمُّ الجبال وتزعج[4]

وقد ساعدته قوة التحمل هذه على مداومة الطراد وعدم الشعور بأى كلل أو ملل منه ، ولهذا نراه ينذر عمارة بن زياد العبسى قائلا :

لقد عاديتَ يابن العم ليثا شجاعا لا يملُّ من الطراد[5]

---

(١) الديوان ص ١٧٦ .
(٢) الديوان ص ١٣٧
(٣) الديوان ص ٢٣٦ .
(٤) الديوان ص ١١٢ .
(٥) الديوان ص ١١٨ .

ولا تظهر قوة هذا الليث فى المبارزات الفردية فحسب، وإنما هو يبيد الجيوش ويقضى على الجحافل ولا يخشى لقاء الاعادى مهما كان عددهم ... يقول :

يا عَبْلَ لو أنى لقيت كتيبة سبعين ألفاً ما رَهبتُ لقاءها[1]

وكما أن هذا البطل لا يرهب العدد الكبير، فإنه كذلك لا يرهب الليل والوحدة والبيداء ووحش الفلاة ... يقول :

كم ليلة سرتُ فى البيداء منفرداً والليل للغرب قد مالتْ كواكبُهُ
سيفى أنيسى ورمحى كلّما نَهمتْ أسدُ الدِّحالِ اليها مالَ جانبُهُ
وكم غديرٍ مزجت الماء فيه دماً عند الصباح وراح الوحشُ طالبهُ[2]

ولعل وصف بعض المعارك التى خاضها هذا البطل يساعد على استكمال الصورة التى تخيلها له الواضعون حتى أنهم جعلوه يخاطب سباع الفلا قائلا :

ياسباعَ الفلا إذا اشتعَل الحرْ ب اتبعينى من القفار الخوالى
اتبعينى تَرى دماءَ الاعادى سائلات بين الرُّبا والرمال
ثم عودى من بعدِ ذا واشكرينى واذكرى ما رأيته من فعالى
وخذى من جماجم القوم قوتا لبنيـك الصغارِ والأشبال[3]

وهكذا نرى أن صورة عنترة فى أذهان الواضعين لشعره صورة مادية تجسد البطولة فى الشكل والخلقة أكثر مما تتصورها معنويات كامنة فى النفس وقدرات يجيدها الشخص . وهذه الصورة تكاد تكون عكسا تاما لما يرسمه شعر عنترة

---

(١) الديوان ص ٢٣٧ .
(٢) الديوان ص ٩١ .
(٣) الديوان ص ٢٠٠ .

الصحيح من تفسير معنوى للبطولة يكاديطابق تمام المطابقةمفهوم الفروسية آنذاك ويعتمد على المعنويات والخلقيات أكثر من إعتماده على الماديات والشكليات . فعلى الرغم من أن حصيلة هذا الشعر المنحول تصل إلى ثلاثة أضعاف ماجمع من شعر عنترة الصحيح ، فإنه لم يرد بيت واحد فى كل هذا القدر من الشعر الموضوع يذكر شيئا عن خلق عنترة وعن سلوكه وعن خصاله بينما رسم لنا شعره الصحيح صورة مشرقة لمكارم الأخلاق وحدد لنا دستور الفضائل وبين هذا الجانب الهام من جوانب البطولة الذى يعتبر جزءاً مكملا لمفهوم الفروسية العربية .

ولم يقتصر هذا الفهم العادى لشخصية عنترة على تصور خلقته وقياس بطولته بمقياس الدم والقتل ، وإنما انتقل من شخصه وحربه إلى حبه ، فغفل — أو تغافل — عن جميع المعنويات التى تكمن فى هذه العاطفة الانسانية الرقيقة ، وبعد عن جميع المشاعر والأحاسيس التى يثيرها العشق الصادق ، وراح يصور هذا الحب بصورة المادية كذلك . فعنترة لم يحب عبلة بقلبه وإنما أحبها بعينيه :

يا عبلَ لولا أن أراكِ بناظرى ما كنتُ ألقى كلَّ صعب مُنْكَرِ (١)

وعبلة — هى الأخرى — تحب من عنترة فعاله فقط ، أما هو — كشخصية متكاملة — فليس له دور فى هذا الحب ، إذ أن المسألة لاتعدو أن تكون صفقة قابلة للمساومة والاستبدال والمزايدة ، فلو أتى من رفع الثمن فاز بها ... والثمن هو الضرب والطعن من جانب عنترة فى مقابل الحب والوصل من جانب عبلة . ويبدو أن عنترة كان واثقا من نفسه كل الثقة إذ نراه لا يسمح لها بتغيير المشترى إذا مادفع ثمنا أعلى وإنما هو يقبل حتى من يدفع نفس الثمن الذى يدفعه .. ويعبر لها عن ذلك قائلا :

ألا يا عبل قد عاينت فعلى وبان لك الضلال من الرشاد
وإن أبصرت مثلى فاهجرينى ولايلحقك عار من سوادى (٢)

(١) الديوان ص ١٥١ .
(٢) الديوان ص ١٢٢ .

فاذا كان هذا هو مفهوم الحب عنده، فالحبيبة إذن لا تقاس إلا بالمعيار الجسدى الذى يحكم على الأرداف والخصر والبطن والساق فضلا عن إجادة الممازجة والغنج . وتجتمع كل هذه الصفات فى قوله :

فيا طالما مازحتُ فيها مهيبلةً ... ومازحنى فيها الغزالُ المغنجُ
أغنُّ مليح الدَّلِ أحورِ أكحلُ ... أزجٌّ نقىُّ الخدِّ أبلجُ أدعجُ
له حاجبٌ كالنونِ فوق جفونه ... وثغرٌ كزهرِ الأقحوانِ مفلجُ
وَرِدفٌ له ثِقلٌ وخصرٌ مهفهفٌ ... وخدٌّ به ورد وساقٌ خدلجُ
وبطنٌ كطىِّ السابرية لينٌ ... أقبُّ لطيفٌ ضامرُ الكشحِ مُدمجُ
لهوتُ بها والليل أرخى سدوله ... إلى أن بدا ضوء الصباح المبلجُ(١)

وعلى كثرة ما ورد فى هذا الجزء الموضوع من ديوان عنترة من قصائد مطلعها الغزل بعبلة وأخرى اقتصرت على هذا الغرض وحده ، فانها جميعا لم تتناول من عشيقة عنترة سوى هذا الجانب المادى ، ولم تخرج بعلاقتهما عن اللقاء الجسدى. فعنترة حين يلقاها يقبلها ويضمها و ... يقول :

فضممتها كى ما أقبلَ ثغرَهــا ... والدمعُ من جفنى قد بل الثرَى
وكشفت برقعها فاشرق وجهُها ... حتى أعاد الليلَ صبحـا مسفرا
عربيةٌ يهتزُّ لين قوامهــا ... فيخاله العشّاق رمحـا أسمرا(٢)

وحتى ذكرياته عنها لا تخرج من نطاق الناحية المادية ... يقول :

(١) الديوان ص ١١٠ .
(٢) الديوان ص ١٥٩ .

كم ليـــــلة عانقتُ فيها غادةً يَحْيا بها عند المنـام ضَجيعُها[1]

وحين يتذكر مراتع صباه يقول :

أرض الشربةِ كم قضَّيت مبتهجا فيهامع الغيدِ والأتراب من وَطَرِ[2]

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة لعاطفة رقيقة كالحب ، فليس من المستغرب أن تطغى هذه المادية التجسيدية على كل معنى من المعانى التى وردت فى ذلك الشعر المنحول الذى وضع على مثال من شعر عنترة الصحيح. فحين يصف الفرس يتناول الجوانب المادية فيه ، بل و يجسد الفرس نفسه ليكلم عنترة داعيا أياه للقتال مرة[3]، ومجيبا عليه مرة أخرى إذ نبهه عنترة قائلا : « كن مستيقظا غير ناعس » .

فجاوبنى مهرى الكريمُ وقال لى أنا من جياد الخيلِ كن أنتَ فارسى[4]

ولا يقتصر الأمر على الجواد ، فالغربان هى الأخرى تفهم لغتـه وترد عليه[5] .

ولن نستطرد فى هذا المجال أكثر من ذلك لننتقل إلى نقطة أخرى أهم مما سبق وهى أن واضعى الشعر على لسان عنترة لم ينظروا إلى شخصيته من الناحية الخلقية فحسب ، ولكنهم لم يفهموا حقيقة هذه الشخصية على الاطلاق. فعنترة فى شعره الصحيح — لم يعترف بعبوديته اطلاقا — كما سبق أن بينا — أما واضعو تلك الأشعار فقد اعترفوا بعبوديته اعترافا صريحا ورد فى عشر قصائد[6] . وقد

---

(١) الديوان ص ١٦٩ .
(٢) الديوان ص ١٥٠ .
(٣) الديوان ص ١٠١ .
(٤) الديوان ص ١٦١ .
(٥) الديوان ص ٢٢٧ .
(٦) الديوان صفحات ١٤٦ — ١٤٨ — ١٥١ — ١٦٨ — ١٧١ — ١٧٨ — ١٩٧ — ٢٠٤ — ٢١٩ — ٢٤٠ .

عللنا الدوافع التى حدت بعنترة إلى انتهاج هذا السبيل، ولكن أحداً من واضعى الشعر على لسانه لم يفطن لهذا ولم يحاول مساندته بشكل أو بآخر ، واندفعوا جميعاً وراء مؤلف السيرة الذى أصدر عليه حكمه بالقينية فظلت تلك الوصمة عالقة به عند الجميع .

ويشبه هذا إلى حد كبير موضوع النسب. فعنترلم يأنف من نسبه ولم يعترف فى شعره الصحيح بأنه كان مطعنا وجهت اليه منه الطعنات ،وإنما هو يثبته ويفتخر به . أما فى هذا الجزء من شعره المنحول فالاعتراف صريح بوضاعة النسب .قال فى أكثر من موضع .

لئن يعيبوا سوادى فهو لى نسبٌ يوم النزالِ إذا مافاتنى النسب[1]

وهكذا خلط الواضعون الأمور ، فالعبودية التى تبرأ منها عنترة ألحقوها به ، والنسب الذى افتخر به جردوه منه . أما السواد الذى قبله عنترة راضيا فقد حاول هؤلاء الواضعون تبريره بتعلات هزيلة ممنطقة مثلما فى قوله :

وإن يعيبوا سواداً قد كسيتُ به فالدُّرُ يستره ثوبٌ من الصَّدَفِ[2]

فاذا ما أعجزتهم هذه التبريرات المنطقة الهزيلة نفوا عنه السواد كلية ووصموا من يدعى ذلك بالكذب . قالوا على لسان عنترة :

ومن قال إنى أسودٌ ليعيبنى أريه بفعلى أنه أكذب الناس[3]

ثم هم بعد ذلك ألصقوا بعنترة وصمة لم تكن أبداً من شيمه وهى أنه شاعر مداح يخصص قصائد بأكملها للمدح والتزلف .. فقالوا على لسانه قصيدتين فى مدح ابنة قيس بن زهير[4] ، بينما نحن لا نجد فى شعره الصحيح بيتا واحداً فى المدح كما نجد أن الصورة التى يرسمها ذلك الشعر لا يمكن أن تجعل منه شاعراً مادحا .

---

(١) الديوان ص ٩٢ .
(٢) الديوان ص ١٧٢ .
(٣) الديوان ص ١٦٠ .
(٤) الديوان ص ٢٢٣ ـ ٢١٢ ـ ٢٠٩ ـ ٢٣٤ .

وكما لم يفهم الواضعون الشخصية السوية لعنترة ، فانهم بالتالى لم يفهموا ذلك الجانب الهام من جوانب بطولته متمثلا فى تلك الصورة الناتجة عن التفاعل بين الحب والحرب عنده . فعنترة بالنسبة اليهم عاشق عادى يتمثل عشقه فى الجانب الجسدى من المرأة وقضاء الوطر منها ، فلابدله إذن من أن يخضع ويتذلل ويريق ماء وجهه تحت أقدامها لتنيله ما يريد ... أنظر اليه وهو يقول لها :

سأندُبُ حتى يعلَمَ الطيرُ أننى حزينٌ ، ويرثى لى الحمامُ المغرَّدُ
وألثُمُ أرضاً أنت فيها مقيمةٌ لعلَّ لهيبى من ثرى الارض يبردُ(١)

ويصل هذا الضعف إلى منتهاه حينما نجد عنترة ينعى نفسه بنفسه قائلا :

أيا صادحات الأيك إن مِتُّ فأندبى على تربتى بين الطيور السواجع
ونوحى على من مات ظلما ولم ينَل سوى البعدِ عن أحبابه والفجائع
وياخيل فابكى فارسا كان يَلتقى صدورَ المنايا فى غبار المعامع(٢)

وبعد هذا التذلل فى الحب نعجب أشد العجب حين نجد أن الشاعر قد انقلب فجأة إلى عدو لدود للمرأة ، ثار ضدها وحانق عليها ، وأن هذه الثورة قد انطقته بجملة يقول فيها :

موت الفتى فى عِزَّةٍ خيرٌ له من أن يبيتَ إسيرَ طرفٍ أكحل(٣)

أو يقول عن نفسه مفاخرا :

وأنى أعشقُ السُّمرَ العوالى وغيرى يعشَقُ البيضَ الرشاقا(٤)

---

(١) الديوان ص ١٤٢ .
(٢) الديوان ص ١٦٤ .
(٣) الديوان ص ١٩٧ .
(٤) الديوان ص ١٧٨ .

هذا التضارب العاطفى لا نلمحه فقط فى علاقة العاشق بالمعشوق ، وإنما نلمحه كذلك فى علاقته بما يذكره به . فأكثر قصائد هذا الجزء من الديوان تبدأ بالوقوف على الأطلال والبكاء على الدمن وسؤال الصحاب مشاركته فى ذلك . ولكننا لا نلبث أن نفاجأ بثورة « نواسية » ترفض كل هذا الهذر وتنادى الصحاب قائلة :

يا صاحبى لا تَهْلِكِ ربما قد خَلا ... ودَعِ المنازلِ تشتكى طول البلى

من أين تَدْرِى الدارا أنك عاشقٌ ... أو عندها خبرٌ بانك مبْتلىَ (١)

هذه الصورة المهزوزة التى يرسمها شعر عنترة الموضوع تدفعنا إلى إعادة النظر فى هذا الشعر لمحاولة الوقوف على سره ومعرفة الدوافع التى دفعت اليه . وسرعان ما نكشف أن السر الكامن وراء وضع هذا الشعر إنما هو السيرة الشعبية. فهذا الشعر جزء مكمل للسيرة ، أو على الأصح هو جزء من التأليف القصصى الذى وضع ليكون رواية طويلة بطلها عنترة .

تبدأ القصة ـــ فى الشعر الموضوع ـــ متمشية تماما مع أحداث السيرة ، فيقول عنترة فى أول حياته لحبيبته عبلة :

أنا العبدُ الذى خبِّرتِ عنه ... رَعيْتُ جِمالَ قومى من فِطامى

أروحُ من الصباح الى مغيبٍ ... وأرقُدُ بين أطنابِ الخيام

أذِلٌ لعبــــلة من فرط حبى ... وأجعلها من الدنيــــا اهتمامى

وامتثــلُ الأوامرَ من أبيهـا ... وقد ملك الهـوى منى زمامى

وان عابتْ سوادى فهو فخرى ... لأنى فارس من نسل حـام (٢)

ولكن سرعان ما يحصل هذا العبد على حريته فى موقعة يتقاعس فيها عن

---

(١) الديوان ص ٢٠٥ .
(٢) الديوان ص ٢١٩ .

نصرة قومه فيستصرخونه النصرة نظير استلحاقه ، ويتم له ولهم ما أرادوا[١] ، حينئذ يفرغ لعبلة ، ولكن لا يلبث أن يأتى اليها الربيع بن بدر خاطبا فيقاتله عنترة ويرده عنها[٢] . ويأتى من بعد الربيع مسحل ليخطبها كذلك فيقف منه عنترة نفس الموقف[٣] ويتألب عليه فرسان العرب كل يطالب بعبلة فينازله عنترة فى سبيلها[٤] ، بينما يهرب مالك — أبو عبلة — بابنته من ديار عبس[٥] فيدركه عنترة ويقدمه بقبوله بعلا لها فيطلب مالك ألفا من النوق العصافير كمهر لابنته ، ويسرع عنترة إلى ديار المنذر طالبا تلك النوق العصافير[٦] . ولكن المنذر بن ماء السماء يأسره ويلقى به فى غياهب السجن[٧] ويخرج عنترة من سجن المنذر ليلتحق ببلاط كسرى الذى يعجب به ويغدق عليه النعم فيمدحه عنترة[٨] .

وتستمر قصائد هذا الجزء من الديوان تسير مع أحداث السيرة خطوة بخطوة ، ذاكرة كل لقاء لعنترة مع مشاهير فرسان العرب أمثال : بسطام[٩] ومقرى الوحش[١٠] وكل موقعة خاضها عنترة سواء فى اليمن[١١] ، أو ضد العجم[١٢] . وبعد ذلك يتحدث هذا الشعر عن صدور عروة بن الورد وعن ابنه ميسرة[١٣] ، كما لا يفوته أن يذكر الغول والجن الذى التقى به عنترة فى

(١) القصيدة ص ٢٠٣ .
(٢) الديوان ص ١٥٨ .
(٣) الديوان ص ١٧٧ .
(٤) الديوان ص ١١٩ .
(٥) الديوان ص ١٤٢ .
(٦) الديوان ص ١١٩ .
(٧) الديوان ص ١٦٣ .
(٨) الديوان ص ٢١٢ ، ص ٢٢٣ .
(٩) القصيدة بالديوان ص ١٦٥ .
(١٠) القصيدة بالديوان ص ٢٠٥ .
(١١) القصيدة بالديوان ص ١٣٩ .
(١٢) القصيدة بالديوان ص ١٨٤ .
(١٣) القصيدة بالديوان ص ١٣٥ .

أسطورته[١] .

والواقع أن هناك أكثر من دليل على أن هذه الأشعار إنما وضعت لخدمة السيرة . وأول هذه الأدلة هو أن كثيراً من ألفاظ السيرة تردد بشكل ملفت فى تلك الأشعار . فعنترة مثلا يناجى عبلة بقوله :

وحق هواكِ لا داويتُ قلبى بغير الصبرِ يا بنت الكرام[٢]

فنعت عبلة « ببنت الكرام » تعبير غير شعرى ولكنه كثير الورود فى السيرة ومثله نعت الأعادى « ببنى اللئام » الذى تكرر فى أكثر من قصيدة لأنه اصطلاح شائع فى السيرة . يضاف إلى هذا أن عنترة — عند كاتب السيرة — أصبح رمزا أكثر مما هو شخص ، ولهذا استعمل اسمه كوصف لكثير من الأشياء مثل « الصرخة العنترية »[٣] ، و « الحملة العنترية »[٤] ، وحتى ذلك المثل — أو الذى أصبح كذلك فيما بعد :

« ولا كلُّ من خاض العجاجةَ عنترُ »

ويلفتنا هنا التركيب « ولا كل » فهو إلى المصرية الدارجة أقرب منه إلى العربية الفصحى . وسيرة عنترة — كما سنبين فيما بعد — مصرية التأليف، وأحد أدلتنا على ذلك هو شيوع الألفاظ والتعبيرات والأمثال المصرية فيها . هذه الألفاظ والتعبيرات والتراكيب المصرية نجدها كذلك فى هذا القسم من شعر عنتره . ففيه مثلا ذكر للصعيد فى قوله :

فأفْحمها ولكن مع رجـــال كأن قلوبهـــا حجر الصَّعيد[٦]

---

(١) القصيدة بالديوان ص ٢٠٢ .
(٢) الديوان ص ٢١٩ .
(٣) القصيدة بالديوان ص ١٥٤ .
(٤) القصيدة بالديوان ص ١٥٤ .
(٥) الديوان ص ١٤٧ .
(٦) الديوان ص ١٢١ .

والقبر يذكره باسمه المصرى وهو « التربة » قائلا :

أيا صادحات الايك إن مت فاندبى   على تربتى بين الطيور السواجم[١]

وكذلك « الحنا » اعتادت المصريات أن يخضبن بها فى الأفراح ، يقول عنها عنترة :

وكمْ من سيد أضحى بسيفى   خضيبَ الراحتين بغير حنّا[٢]

كل هذا يدل على أن القسم المنحول من شعر عنترة لم يوضع إلا لخدمة غرض واحد هو السيرة ، أو أنه على الأصح وضع كجزء مكمل لهـــا ، ولهذا جاءت الصوره التى حاولنا استشفافها منه لشخصية عنتره قاصره مهزوزة ومتناقضة .

والسؤال هنا : هل هذه الصوره الهزيلة هى نفس الصوره التى ترسمها السيره ؟

ونسرع لنقرر أن هذه المقتطفات الشعرية لا يمكن أن يكمل بعضها بعضا وبالتالى لا يمكن استخلاص صورة منسقة متكاملة منها . أما السيرة فاننا سنحاول فى الفصل التالى استكشاف الصورة التى ترسمها لشخصية عنتره لنستطيع بعد ذلك الحكم على ذلك العمل الروائى المصرى القديم الذى يعتبر أقدم الأعمال الروائية العالمية .

---

(١) الديوان ص ١٦٤ .
(٢) الديوان ص ٢٣١ .

الباب الثاني

سيرة عنترة بن شداد

الفصل الأول

مخطوطات السيرة

ذكر الأب لويس شيخو — فى كتابه شعراء النصرانية — أن الشيخ يوسف ابن اسماعيل « أخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس » .[1] وذكر اسكندر أغا ابيكاريوس — فى كتابه منية النفس فى أشعار عنتر عبس — فى سياق قصته عن الرجل الحمصى الذى كان يتحمس لعنترة ويداوم على حضور حلقة القصاص كل ليلة فلم يتحمل فى إحدى الليالى أن يقطع القاص الكلام عند أسر كسرى لعنترة ، وقصد إلى منزل القاص ورجاه أن يكمل السياق . . « فأخذ القصاص الكتاب وقرأ له باقى السياق إلى أن أخرج عنترة من السجن[2] وذكر ابن أبى أصيبعة — فى كتابه عيون الأنباء فى طبقات الأطباء — أن أبا المؤيد ابن الصايغ العنترى . . « كان فى أول أمره يكتب أحاديث عنتر عبس فصار مشهورا بنسبته إليه »[3] .

من هذا يتضح أن قصة عنترة أنشئت — فى أول امرها — مكتوبة ، وتدوولت بين الناس — عبر العصور المختلفة — مكتوبة كذلك ، فلا غرو ان يكون لها عدد غير قليل من المخطوطات منتشرة فى المكتبات العالمية المختلفة . ولكن نظراً لطول هذه السيرة طولا مفرطا فإن من العسير العثور على مخطوط كامل لها ، وإنما هى فى اغلب الأحيان فصل او عدة فصول قليلة من السيرة التى قسمها صاحبها اساساً إلى اثنين وسبعين فصلا .

---

(١) ص ٨٨٢
(٢) ص ٣
(٣) جـ ١ ص ٢٩٠

وقد حصر المستشرق « كارل بروكلمان » مخطوطات سيرة عنترة فيما يلي :

١ — نص كامل للسيرة بدار الكتب المصرية ويقع فى خمسة وثلاثين جزءاً.

٢ — قطعة بمكتبة برلين تحمل رقم ٥ / ٩١٢٣ .

٣ — قطعتان بالمتحف البريطاني تحت رقم ٥ / ٦٦٣ و ٢٤ / ٣١٩

٤ — قطعة بمكتبة باريس رقمها ٣٦٨٨

٥ — قطعة بمكتبة ميونيخ رقمها ٦٢٠ .

٦ — قطعة بمكتبة جوته برقم ٧٥ / ٢٤٣٥ .

٧ — قطعة بمكتبة واين رقم ٧٨٢ .

٨ — قطعة بمكتبة ليدن رقم ٢ / ٥٤١ .

٩ — قطعة بمكتبة بوهار تحت رقم ٤٧ / ٣٧

١٠ — قطعة بمكتبة بانك رقم ٤ — ١١١٠ / ١١٠٣[١] .

وفى معهد المخطوطات — التابع لجامعة الدول العربية — قطعة هى الجزء الثالث من سيره عنتره بن شداد مصوره عن مخطوط بمكتبة استامبول كتب عام ٨٤٨ هـ .

والواقع أن الظروف لم تتح لنا فرصة الاطلاع إلا على المخطوط الأول ومصور المخطوط الأخير، ولهذا سوف نقصر الكلام عليهما إلى ان تتاح لنا فرص أوفى للاطلاع على بقية المخطوطات أو العثور على مخطوطات أخر تشمل السيره بأكلها .

* * *

مخطوط سيره عنتره المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ز ١٣٦٢٥

---

(١) تاريخ الادب العربى — ملحق الجزء الثانى ط ١٩٣٨ ص ٧٤

يقع فى خمسة وثلاثين جزءاً كل جزء منها فى مجلد يحمل عنوانا يبدأ برقم الجزء ثم عبارة : « الجزء ... (كذا) ... من سيرة فارس الطراد الأمير عنتر بن شداد على التمام . » ، وتحت العنوان مختصر لما فى الجزء من أحداث ، فنى الجزء الثانى مثلا يقول هذا الفهرست المقتضب : « هذا فيه ظهور عنتر، وقتل الذيب والأسد، وقتل المتغطرس لما أتى بنى عبس فى غيبة زهير ، وقتل بسام عبد الربيع وسبب عداوة شاس والربيع فى عنترة لأجل قتل عبيدهم وهما داجى وفاجر ، وعشقه لعبلة ، وطلبه الحسب والنسب من أبيه ، وغضبه على بنى عبس لأجل نفور شداد فيه ، ومقابلته بعياض ابن العتب وأخذ الأبجر بالغنيمة التى غنموها ، والحاقه بالحسب والنسب من بعد قتل العساف ، وزواج حصن، ولقيته بالسيف الضامى وهو مدفون لما أن قابل الاثنين الذين كانوا يتقاتلون عليه وقتل عنترة أحدهم ونصر الآخر ، وعودته بالسيف وإخبار مالك بذلك وزواج عمارة بعبلة، وسير الملك زهير إلى بنى المصطلق ، وسبى عبلة — والله أعلم . »

أما فهرست الجزء الثالث فيقول : « ان هذا فيه رواح عنتر إلى الملك المنذر، وأسره ، وأخذ النوق العصافير ، وقتل الأسد وهو مقيد ، وقتل الحاجب خصروان وسيره إلى كسرى ، واجتماعه بعبلة وهى سبية بعد أخذ العطايا من الملك كسرى ، وخلاص عبلة من الأعداء وذلك بعد قتله البطريق البدرموط عند كسرى ، وملتقاه بعبلة — والله أعلم . »

وهكذا نجد أن كل جزء من أجزاء سيرة عنترة فى هذا المخطوط تبدأ صفحته الأولى بالعنوان وتحته مثل هذا المختصر لما يحتوى عليه الجزء من الموضوعات وما يجرى فيه من أحداث .

وهذا المخطوط مكتوب بخط معتاد واضح ومنقوط ولكن بأقلام مختلفة الأمر الذى يدل على اختلاف كاتبيه . ولا يحدث هذا الاختلاف بين جزء وآخر، وإنما يحدث كذلك فى الجزء الواحد وعند منتصف الكلام — أى دون انتظار

لإنتهاء الصفحة أو حتى الفقرة . فالجزء الأول يتقاسمه ثلاثة أقلام مختلفة وبأجزاء غير متناسقة ، فالقلم الأول كتب العنوان والمقدمة حتى بداية ذكر تاريخ إبراهيم والنمروذ عن رواية وهب بن منبه ، ثم كتب القلم الثانى بعد ذلك نصف صفحة فقط أكملها القلم الثالث الذى استمر حتى نهاية الفصل . وقد تكررت هذه العملية — بغير تواتر — فى الفصول التالية حتى نهاية السيرة مما يدل على أن هذا المخطوط اشترك فى كتابته ثلاثة أشخاص — وربما أكثر — كان كل منهم يكتب وقتما تسنح له الفرصة وبالقدر الذى يستطيع .

والمخطوط مكتوب بالمداد الأسود عدا العبارات « قال الراوى أو قال الاصمعى » أو ما شاكل ذلك فإنها مكتوبة بالمداد الأحمر حتى الصفحة التاسعة والثلاثين من الجزء الأول حيث تبطل الكتابة بالمداد الأحمر ويترك فراغ العبارة شاغرا دون أى كتابة فيه . وتعاد الكرة بالنسبة لجميع الأجزاء إذ تستمر كتابة تلك العبارات بالمداد الأحمر لعدة صفحات قليلة يترك بعدها الفراغ شاغراً .

هذه الظاهرة — بالإضافة إلى ماسبق ملاحظته من تعدد كتاب المخطوط ، ثم عدم اهتمامهم سواء بتحسين الخط أو بإستقامة الأسطر وحسن تنظيم الصفحة. كل ذلك يدل على أن هذا المخطوط يفتقر إلى العناية والتنسيق اللذين كان يكتب بهما المخطوطات للخلفاء وعلية القوم ليحتفظوا بها فى خزائنهم . فأغلب الظن — إذن — أن هذا المخطوط كان لأحد القصاص يقرأ منه على الناس فى الحلقات التى يعقدها كل ليلة ، يبدو هذا من طريقة كتابته كما يبدو من آثار كثرة التناول على أوراقه وانطماس لون الحبر فى معظم أجزائه ، أما اشتراك أكثر من قلم فى كتابته بالطريقة التى أوضحناها فدليل على أن صاحبه القاص ليس هو كاتبه وإنما الذى قام بكتابته أناس، وربما اشتركوا معا وامتهنوا صناعة نسخ تلك المخطوطات كذلك الطبيب العنترى الذى حدثنا عنه ابن أبى أصيبعة ، ويدل على ذلك أيضا كثرة الأخطاء الهجائية فى المخطوط ناهيك بالأخطاء النحوية والصرفية والتعبيرية .

وينتهى الجزء الخامس والثلاثون — وهو آخر أجزاء السيرة — بهذه العبارة وكان الفراغ من كتابة هذه السيرة العجيبة ، الفائقة المطربة الغريبة، يوم الاثنين المبارك الموافق تسعة وعشرين من شهر جماد الآخر سنة ١٢٨٩ تسع وثمانين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب ، والله أعلم .

وعلى جانبي هذا الكلام الذى كتب على شكل هرم مقلوب ورد اسم مكتوب بأحرف أفرنجية وباللغة الفرنسية هو « السيد ا . على صادق »

Monsieur A. Ali Sadic

وإذا قارنا بين هذا المخطوط لسيرة عنترة وبين الطبعة التى بين أيدينا منها (طبعة المطبعة السعيدية) وجدنا اختلافا ظاهرا فى العنوان حيث تحرص النسخة المطبوعة على ذكر نوع السيرة وذلك بالنص على أنها السيرة الحجازية فيقول العنوان : سيرة فارس الحجاز ، أبى الفوارس عنترة بن شداد . وهى السيرة الفائقة الحجازية ، المشتملة على الأخبار العجيبة والأنباء الجليلة » . وثمة فرق واضح هنا كذلك بين المخطوط والمطبوع هو اسم عنترة الذى ذكر فى عنوان النسخة المطبوعة بالتاء (أى عنترة) بينما ذكر فى عنوان المخطوط بدونها (أى عنتر) .

والفرق الثالث هو أن كل جزء من أجزاء المخطوط كان يحمل تحت العنوان فهرساً مقتضبا لما احتواه من أحداث، أما النسخة المطبوعة فقد أحلت محل ذلك نبذة قصيرة عن عنترة نفسه تقول « وهو الفارس المشهور ، والبطل الجسور ، سيد الشجعان وقاهر الاقران عنترة بن شداد من شعراء الطبقة الأولى . وكان من أحسن الشعراء شيمة وأعلاهم همة وأعزهم نفسا وأقواهم بطشا وفتكا وكان مع هذه الشجاعة التى ضربت بها الأمثال لين العريكة سهل الأخلاق شديد النخوة رقيق الشعر ، وقد عمر تسعين سنة ومات مقتولا : وفى سيرته من آثار البطولة وآيات الشجاعة مالا يندثر بل يبقى على مر الأيام وتدوم سيرته مادامت

العصور . وفيها يجد القارىء من الوقائع والحروب معارك مسترسلة فى ميادين القتال » .

وتتواتر هذه المقدمة — متكرره بنصها — فى أول كل مجلد من مجلدات هذه الطبعة من السيرة عدا المجلد الثانى الذى ترد فيه عبارة اخرى تتفق مع السابقة نهجا ومعنى وتختلف معها فى اللفظ والاطناب .

فاذا انتقلنا إلى صلب السيرة وجدنا أن النسخة المطبوعة تكاد تطابق النسخة المخطوطة انطباق الحافر على الحافر — كما يقول قدامى البلاغيين — فمنذ «البسملة» التى فى أول كل منها حتى نهاية السيره ينطبق النصان عدا تحوير بسيط يبدو فى استبدال لفظ بلفظ أو زياده عبارة قصيرة فى النسخة المطبوعة عما فى المخطوط هى فى حد ذاتها مرادفات لغيرها بحيث لا تحيل معنى أو تضيف جديدا .

ومع ذلك فان الاثنين لا يتفقان فى التقسيم ، فبينما يشتمل المخطوط على خمسة وثلاثين جزءا كل جزء فى مجلد فان هذه الطبعة من السيره تشتمل على خمسة وخمسين جزءا فى ثمانى مجلدات ، الأمر الذى يجعل نهايات الفصول فى كل منها غير متحده مع ما فى الآخر . ولكن ليس لهذا الخلاف أهمية كبيره بالنسبة لسيرة عنترة بالذات لأن كاتبها الأول لم يفصل بين فصولها وينتهى بالكلام فى كل فصل عند نهاية يمكن السكوت عندها ليبدأ الفصل الجديد بموضوع جديد ، ولكنه «التزم فى آخر كل فصل أن يقطع الكلام عند معظم الأمر الذى يشتاق القارىء إلى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به إلى مثل ما انتهى الأول ، وهكذا إلى نهاية القصة. »[1] ومعنى هذا أن السيرة متصلة فى الحالين وأن هذه الوقفات التى تقسمها إلى فصول تأتى فى أى مكان فلا تحدث خلافا طالما أن السياق العام مستمر ومترابط فى القصة بأكملها .

---

(١) شعراء النصرانية — لويس شيخو ص ٨٨٢

وتتفق النسختان فى المقدمة — لفظا بلفظ — بما فى ذلك تلك العباره التى تذكر أن من رواة هذه السيرة العالم العلامة عبد الملك بن قريب الأصمعى (ناعتة أياه بعدة أوصاف ، ومعللة سبب تسميته بالأصمعى) ، ومنهم أيضا أبو عبيده، وجهينة ، والبلخى ... الخ. أما الخاتمة فان النسختين تختلفان اختلافا بينا وخطيرا فالنسخة الخطية أثبتت تاريخ إنتهاء كتابتها بعام ١٢٨٩ﻫ بينما أثبتتــه النسخة المطبوعة على أنه عام ٤٧٣ ﻫ ، ثم أضافت إلى ذلك زعمين كبيرين جمعتهما جملة واحدة هى « قال مؤلف هذه السيرة الحجازية — وهو الأصمعى رضى الله عنه كان الفراغ من تأليفها يوم الجمعة المبارك فى أواخر جمادى الثانى سنة ٤٧٣ من الهجره فى أيام الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد العباسى » .

وليس هنا مجال إثبات أن الأصمعى لم يكتب سيرة عنترة وإنما هو فقط أحد الرواه — أو المصادر — التى استقى منها كاتب السيرة مادته التاريخية (فقد أثبتنا ذلك فى مكان آخر) ولكن من العسير أن تمر هذه العبارة التى تقرن عام ٤٧٣ ﻫ بالأصمعى وبالرشيد ، إذ أنه من التواريخ الثابتة وفاة الرشيد عام ١٩٣ﻫ ومن التواريخ الإحتمالية وفاة الأصمعى عام ٢١٠ﻫ (أو على الأصح بين عامى ٢٠٨ و ٢١٠) وعلى ذلك فانه لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون الأصمعى هو الذى كتب هذه النسخة من السيرة وانتهى منها عام ٤٧٣ﻫ كما لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون ذلك قد حدث أبان خلافة الرشيد العباسى .

يضاف إلى ذلك أن العبارة السابقة تنعت هذه النسخة من السيرة باسم «السيرة الحجازية » ، ونحن نعرف أن هناك ثلاثة أشكال لسيرة عنترة هى السيرة الحجازية ومقرها الأساسى مصر ، والسيرة الشامية ومقرها الشام ، والسيرة العراقية ومقرهـا العراق . لهذا فان الأقرب إلى التصور أن تكون السيرة التى ينشئها الأصمعى — أكبر رواة الدولة العباسية — وهو فى بغداد مقر الخلافة ، وبأمر

من الرشيد ... هى السيرة العراقية وليس السيرة الحجازية كما تنص على ذلك الخاتمة .

لكل هذا فانه يمكننا فى بساطة أن نرفض هذا التاريخ الذى ورد فى طبعة السيرة وأن نرفض معه اسم الأصمعى كمؤلف لها واسم الرشيد كآمر بالتأليف لنقرر أن هذا الجزء (وهو الخاتمة) مدسوس على النص الأصلى بدليل تطابق السيرة المطبوعة مع النسخة المخطوطة التى أنهت السيرة دون تحديد نوعها — أحجازية هى أم عراقية — ودون تحديد اسم مؤلفها ودون ذكر للرشيد فيها ، وعنيت فقط بتحديد تاريخ إنتهاء كتابتها وهو يوم الاثنين المبارك الموافق تسعة وعشرين خلت من شهر جماد الآخرة عام تسع وثمانين ومائتين بعد الألف من الهجره النبوية . أما النص المطبوع فجعله يوم الجمعة المبارك فى أواخر جمادى الثانى سنة ٤٧٣هـ . وهنا يفلتنا التقارب بين النصين والتحريف المتعمد الذى أدخل على النص المطبوع إذ استبدل يوم الاثنين بيوم الجمعة — يوم العيد الأسبوعى لدى المسلمين — وعمم تاريخ اليوم فجعله أواخر جمادى الثانى بدلا من تحديد المخطوط له باليوم التاسع والعشرين من جماد الآخر . أضف إلى ذلك أن شهر جماد الآخر معروف منذ أول التاريخ الهجرى بهذا الاسم وأن تلقيبه بجمادى الثانى لم يحدث إلا فى عصور متأخره مما يؤكد تأخر تلك التسمية كثيرا عن عام ٤٧٣ هـ

لكل هذا — وحيث أننا لم نعثر بمصر على نسخة كاملة مخطوطة للسيرة سوى هذه — فاننا نكاد نجزم بأنها هى الأصل الذى أخذت عنه هذه الطبعة إلا أن الطابع أراد أن يعزز قيمة بضاعته بنسبتها إلى الأصمعى وبتأخير تاريخ كتابتها وباقحام الخليفة هرون الرشيد فيها ، فتخبط بين التواريخ والأسماء والحقائق فانفضح أمره . وعلى ذلك فان هذا المخطوط هو أصل السيرة الحجازية المطبوعة والمنتشرة بمصر .

* * *

وفى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية نسخة مصورة (ميكروفيلم) للجزء الثالث من سيرة عنترة بن شداد منقولة عن مخطوط موجود بمكتبة أحمد الثالث باستامبول تقع فى ثمانية وثمانين ورقة وكتبت عام ٨٤٨ هـ بقلم تعليق وبدايتها: « الحمد لله سبحانه ، قال الأصمعى: ونزلت عليهم البوائق، وحقت منهم الحقائق، وتضاربوا بالسيوف على العواتق فقطعت منهم العلائق، وتطاعنوا بالرماح فكانوا للدروع خوارق، وتضاربوا بالسيوف فكانوا كالصواعق فلم يرى إلا رمح خارق وسيف بارق وفارس شاهق والخصم لخصمه معانق والشجاع فى الدم غارق ، والقنا عليهم قد مد على الفرسان سرادق ، فسبحان العظيم الخالق، الحاكم بالقنا على الخلايق. قال الراوى: ولم يزالوا كذلك حتى زادت بهم الحرق، وكثر القلق وعظم الخنق وتراشقوا بالنبال فى الحدق وتناثرت الرؤوس مثل الورق — قال — هذا وعنتر قد مزق الكتايب المتطابقة ، وطعناته كالقضا سابقة، وقد بحسامه كل درع وطارقة ، ونثر جماجم الأبطال الملاحقة . فلما اتسع المجال ، أظهر الأهوال ، وخطف بحسامه مهج الأبطال ، وأبصرت عساكر العساف الأهوال . قال الراوى : بينما هم كذلك وعنتر يهمهم ويضحك على الأعداء يجول ، وقد جندل الأبطال عرضا وطول ، إذ بمالك ابن الملك زهير وهو ينادى ، يا أبا الفوارس الحقنى من الهلاك ، وخلصنى من الإرتباك » .

فاذا بحثنا عن هذه الفقره فى النسخة المطبوعة من سيره عنتره وجدنا أنها ليست بداية الفصل الثالث وإنما تتأخر عن ذلك حوالى اثنتى عشره صفحة ، وأن نصها هو « ... وقد حقت الحقائق ، وعمل السيف فى المفارق، وزاد القلق وكثر الخنق ، وجرى الدم، وسلت السيوف ، وقطعت الرؤوس ، وكان يوما عبوس. هذا وعنتر قد فرق الكتائب ، ونثر الجماجم : واتسع المجال ، ونظرت أهل اليمن شيئا ما كان لها على بال . قال الراوى : وبينما عنتر يجول ، وإذا بصوت مالك وهو ينادى ، يا أبا الفوارس الحقنى قبل الهلاك »[1] .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ١٧٣

والنظرة الأولى إلى هذين النصين تظهرنا على مدى ما بينهما من فروق . فمن حيث الكم نجد أن فقرة المخطوط تربو على ضعف فقرة المطبوعة إذ تبلغ الأولى أربعة عشر سطرا بينما لاتزيد الثانية على ستة أسطر . ومن حيث اللغة نجد أن المخطوط قد كتب بلغة فصحى سليمة فى معظمها أما لغة الكتاب فقد تحللت كثيراً من قواعد النحو والصرف .

ويلفتنا هنا أمران ، أولها أن كاتب المخطوط قد أوضح الكلمات بالشكل وعنى عناية خاصة بشكل الكلمة الأخيرة من كل جملة منها إلى الوقوف عندها حتى تتناسق السجعات . ويظهر فى صورة المخطوط (وهو صورة فوتغرافية غير ملونة) اختلاف بين لون المداد الذى كتبت به حركة الحرف الأخير وبين المداد الذى كتبت به الكلمات وبقية الشكل ، وأغلب الظن أن مداد الكلمات من اللون الأسود بينما مداد حركة الحرف الأخير من اللون الأحمر ، والدليل على ذلك أن لون هذا الأخير يشبه لون المداد الذى كتبت به كلمات « قال الأصمعى » و « قال الراوى » وهذه الكلمات تكتب عادة باللون الأحمر مثلما فى المخطوط الكامل الموجود بدار الكتب المصرية . أما النسخة المطبوعة من السيرة (التى بين أيدينا الآن) ومثلها نسخة الطبعة الشامية فإنها جميعاً غير مشكولة الكلمات ، وربما كان سبب ذلك صعوبة اصطناع الشكل فى الطباعة لاسيما لتلك الطبعات الشعبية ، ولكن الأهم من ذلك هو أن نسخة المخطوط الذى رجحنا أخذ هذه الطبعات عنه — وهو مخطوط دار الكتب — يخلو تماما من شكل أى كلمة من كلماته .

أما الأمر الثانى الذى يلفتنا إلى فروق ما بين النصين فهو أسلوب الكتابة الذى يبدو رهينا لماحا حسن التصوير والترتيب فى المخطوط ، بينما يظهر التفكك وعدم التناسق والربط فى أسلوب الكتاب . فصاحب المخطوط يذكر أنه قد « نزلت عليهم البوائق وحقت منهم الحقائق » ، ويفسر لنا ذلك بأنهم « قد تضاربوا بالسيوف وتطاعنوا بالرماح ، أما ضرب السيوف فقد نتج عنه تقطع العلائق ، وأما طعن الرماح فقد خرق الدروع . وأصبح المنظر العام للمعركة هو برق السيوف وخفق الرماح وتعانق الفرسان وسط بحر من الدم وتحت سرادق

من ظلامة الغبار وبين رءوس تتناثر مثل الورق . هـذه اللوحة المعبرة لصورة المعركة التى رسمها قلم صاحب المخطوط ضاعت معالمها وانطمست خطوطها وبهتت ألوانها عندما صار اختصارها فى الـكتاب المطبوع إلى بضع كلمات مرصوصة هى « جرى الدم وسلت السيوف وقطعت الرءوس » .

ولو أننا سرنا فى هذه المقارنة النقدية بين المخطوط والـكتاب لوجدنا اطراد ظاهرة الخلاف الواضح بين أسلوب التصوير القصصى فى كل منهما ولاقتنعنا بأن السيرة التى بين أيدينا مطبوعة ليست هى القصة التى كتبهـا ذلك الفنان العربى القديم وأن ما أدخله عليها النساخ والذواة من تحريف وتصحيف وتغيير قد بعد بها كثيراً — من حيث الأسلوب على الأقل — عن النص الأصلى الذى كتبه صاحبه .

وهنا يعن لنا أن نتساءل: هل مست تغييرات الرواة تلك الأحداث والأشخاص مثلما فعلت بالأسـلوب والألفاظ ، أم أنها حافظت على المبنى والمعنى واقتصر التصرف على الأسلوب والـكم ؟

وللإجابة على هذا التساؤل نستكمل نص المخطوط وهو : « قال أبو عبيدة : وكان مالك قد حل فى قبائل مسعود بن معاد الـكلبى وجرى بينهم قتال شديد ، ما عليه من مزيد ، حتى كلت السواعد عن القتال ، وقد تقهقرت رجال مالك وضاق عليها الحال ، وأدركه مسعود ابن معاد الـكلبى ، وكان هذا الفارس جبارا من الجبابرة ، معروفا بين الفرسان بالشجاعة الباهرة ، فقتل من فرسان بنى عبس ثلاثة فرسان ، المعروفين بالضرب والطعان ، وضايق على مالك ابن الملك زهير فى الميدان ، وأكربه فى الجولان ، وقد طلع عليهم الغبار إلى الأعناق ، ونظر مالك المنية بعينيه ، فزعق من وسط جنبيه ، وصاح لعنتر بذلك الصوت والزعاق وقد بلغت روحه إلى التراق ، حتى يخلصه من ضيق الخناق . فلما سمعه عنتر عدل إليه وقاربه ، وفرق الفرسان من جوانبـه ، وصار يطعن فى الصدور ، وينزل الدم من أنابيب النحور ، وقد طلب مسعود بن معاد ، وقفز إليه بالجواد

وقد أظهر العناد ، وأراد أن يطعن مسعودا بن معاد ، فرآه محترزاً لنفسه، فطعن جواده فى قلبه ، ووقع مسعود عن مركبه ، ومن حلاوة الروح قام على قدميه ، ولم يحس بثقل الحديد الذى عليه ، وهرول بين يديه ، ودخل بين الخيل الذى له وعليه ، وهو لا يصدق بالنجاه من عظم ما بدأ له حين كبكبه بطعنته ورماه » .

فالواضح من هذا النص أن الذى كان يحمل على مالك بن زهير هو مسعود ابن معاد ، وأن عنتره حين هاجمه، لم يقتله وإنما ترك له فرصة الفرار من الميدان. أما النص المطبوع فيقول : « وكان مالك قد حمل فى مقابلة العساكر فأدركه عنتر ، ولما لحقه رأى عسافا ظافرا على مالك ففاجأه عنتر وحمل عليه ، وأراد عساف أن يجول مع عنتر وإذا بأبى الفوارس تأخر عنه وتمطى فى رمحه وطعنه »[1] .

وواضح من مقارنة النصين أنهما يختلفان فى سير الأحداث وفى اصطناع الشخصيات والأسماء اختلافا بينا . فبينما يذكر المخطوط أن مهاجم الأمير مالك كان يدعى مسعود بن معاد تذكر النسخة المطبوعة أنه عساف نفسه ، وبينما يرسم المخطوط لوحة لقتال عنتره مع مسعود يصور فيها الكثير من مظاهر الفروسية وفنون القتال ينهى الكتاب المطبوع ما بينهما بطعنة واحده نجلاء ، وأخيراً فان المخطوط يترك لمسعود فرصة الهرب ليبنى عليها أحداثا أخر فيما بعد أما الكتاب المطبوع فيسرع بقتل عساف لينهى الموقعة كلها وينصر بنى عبس على بنى مازن .

وهكذا نجد أن فروق ما بين هذا المخطوط القديم وبين الطبعات الحالية للسيرة تشمل — إلى جانب الأسلوب — شخصيات الرواية وأحداثها، الأمر الذى يجعل من الضرورى بذل جهود صادقة لمحاولة العثور على نسخة كاملة من السيرة يكون تاريخ كتابتها أقرب ما يمكن إلى تاريخ تأليفها ، حينئذ سوف نجد بين أيدينا إحدى روائع التأليف القصصى العربى القديم .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ١٧٣

الفصل الثانى

طبعات السيرة

ما أن خرجت سيرة عنترة للناس حتى نجحت نجاحا منقطع النظير فى الاستحواذ على أسماع أبناء الشعب جميعا والحصول على تقديرهم لها تقديرا ارتفع فى كثير من الأحيان عن مجرد الاعجاب بها كعمل فنى ممتاز وبلغ درجة جعلت حضور حلقات قاص هذه السيرة كل ليلة فريضة واجبة . فى هذا الوقت الذى لقيت فيه سيره عنترة ذلك النجاح العريض بين أبناء الشعب ، أعرض عنها الأدباء الرسميون وأغفلها مؤرخو الادب وأنكرها رجال العلم والدين إذ اعتبرها بعضهم من أعمال السوقة بينما عدها آخرون رجسا من عمل الشيطان[1] . ولهذا ظلت المراجع العربية وكتب الأدب والتاريخ غفلا من ذكر عنترة وسيرته .

ولكن الشعب الذى تلقف هذا العمل الفنى المتجاوب مع مشاعره ووجداناته لم يأل جهدا فى تداول هذه السيرة وفى تناقلها عن طريق النسخ . وقد زاد اقبال الناس على مخطوطاتها تلك إلى درجة كبيرة دفعت بعض النساخ إلى التخصص فى نقل سيرة عنترة وحدها وأصبح امتهانهم لهذا العمل صفة تطلق عليهم أخذت - مع مرور الزمن - قوة اللقب وأضيفت إلى أسمائهم مثلما حدث لابن الصايغ الطبيب الذى لقب بالعنترى لأنه اشتغل فى أول حياته بنسخ سيرة عنترة بن شداد[2] .

---

(١) ابن كثير جـ ٩ ص ٣٣٤

(٢) عيون الابناء فى طبقات الاطباء - لابن أبى اصيبعه جـ ١ ص ٢٩٠

وقد انتشرت سيرة عنترة فى جميع أرجاء البلاد العربية على اختلاف بيئاتها وظروفها الاجتماعية والسياسية الأمر الذى دفع نساخ كل اقليم إلى اجراء بعض التغييرات فيما ينسخون وذلك بتعديل أو حذف ما يرونه غير ملائم لبيئتهم والاطناب فيما جاء مناسبا لها . لهذا عندما عرفت سيرة عنترة طريقها إلى المطبعة جاءت فى أشكال ثلاثة يختلف كل منها عن الآخر باختلاف الاقليم الذى طبع فيه ، وان كانت تلك الاختلافات تمس الشكل الخارجى والكم دون أن تصل إلى أسس بناء السيرة سواء من حيث الشخصيات أو الأحداث أو أسلوب العرض القصصى . وكان أوضح مظهر من مظاهر الخلاف هو وجود مقدمة فى طبعة وعدم وجودها فى الأخرى أو بسط بعض التفصيلات فى واحدة واجمالها أو اغفالها فى غيرها . وليست تلك الفروق أمرا يستحق عقد مقارنة بين طبعات السيرة المختلفة ، ومع ذلك فلابد من الابقاء على ذلك التقسيم الثلاثى لطبعات السيرة حيث اختص كل قسم منها باقليم من أقاليم النهضة الثقافية العربية وحمل اسمه فكانت « السيرة الحجازية » و « السيرة الشامية » و « السيرة العراقية » .

والسيرة العراقية على قلة انتشارها وندرة وجودها ـ تكاد تكون صورة طبق الأصل من السيرة الشامية بحيث يمكن اعتبارهما ـ دون تحرج ـ أصلا واحدا طبع فى مكانين مختلفين[1] ، وفى هذه الحالة نكتفى عند المقارنة بذكر السيرة الشامية لتدل على السيرة العراقية بالتبعية ونقف أمام السيرة الحجازية . حينئذ نجد ان هذه الأخيرة تمتاز على السيرة الشامية بمقدمة طويلة تناول فيها المؤلف موضوع خلق العالم منذ بدايته حتى قبيلة عبس وملكها زهير بن جذيمة ، بينما تغفل السيرة الشامية كل هذا وتبدأ بزواج الملك زهير مباشرة .

وبعد ذلك تتحد السيرتان اللهم إلا من زيادات أسلوبية طفيفة نجدها فى السيرة الحجازية دون أن يكون لها قرين فى السيرة الشامية فإذا ما كانت النهاية

---

(١) دائرة معارف الاسلام ـ م . هارتمان ـ مجلد ١ ص ٣٦٢

وجدنا خاتمة السيرة الحجازية ليس لها مثيل فى السيرة الشامية الأمر الذى يدفعنا إلى القول بأن السيرة الشامية إن هى إلا مختصر للسيرة الحجازية[١] وانها ليست أصلا وإنما مأخوذه عن السيره الحجازية التى هى الأصل . يعزز هذا الرأى أن ناشر السيره الشامية يذكر فى صدر طبعته أنه أخذ السيره عن أصدق رواياتها وانه قام باختصارها وتهذيبها واسقاط ما لم يتفق مع ذوقه وأهدافه ، وجود وحور ما استطاع حتى تجىء القصة خليقة باقبال أهل المطالعة والذوق السليم . يضاف إلى ذلك أن طبعة بيروت لسيره عنتره التى ظهرت عام ١٨٦٩/١٨٧١ ثم تلك التى ظهرت عام ١٨٨٣/١٨٨٥ نسبت كل منهما تأليف السيرة إلى يوسف بن اسماعيل المصرى[٢] مما يدل على ان سيرة عنتره وضعت فى مصر وبذلك تكون السيرة الحجازية هى الأصل الذى أخذت عنه السيرتان والتوأمتان الشامية والعراقية .

وقد ظهرت أولى طبعات السيره الحجازية فى القاهره عام ١٢٨٣ هـ مقسمة على اثنين وثلاثين جزءا ، تلتها طبعة ثانية عام ١٢٨٦ هـ ، أما الثالثة فكانت عام ١٣٠٧/١٣١١[٣] ، بينما كانت الطبعة الرابعة فى عام ١٣٣١ هـ[٤] .

والسيره الشامية ظهرت أولى طبعاتها فى بيروت عام ١٨٦٩/١٨٧١ م[٥] وكانت مشتملة على مائة وأربعة وخمسين كتابا فى ستة مجلدات[٦] وظهرت الطبعة الثانية عام ١٨٨٣/١٨٨٥[٧] . بينما ظهرت الطبعة الثالثة عام ١٨٩٣/١٩٠١ .

---

(١) المرجع السابق
(٢) معجم المطبوعات العربية ـ يوسف سركيس جـ ٨ ص ١٣٨٧ ط سنة ١٣٤٧ .
(٣) تاريخ الادب العربى ـ كارل بروكلمان جـ ٢ ط سنة ١٩٤٩
(٤) السابق ملحق جـ ٢ ط سنة ١٩٣٨
(٥) دائرة المعارف البريطانية مجلد ٢ ص ١٤
(٦) معجم المطبوعات العربية جـ ٨ ص ١٣٧٨
(٧) تاريخ الادب العربى ـ كارل بروكلمان ـ ملحق الجزء الثانى سنة ١٩٣٨ .

وقد اعتمدنا فى بحثنا هذا على الطبعة القاهرية الحديثة للسيرة الحجازية (وهى طبعة المكتبة السعيدية) ، كما اطلعنا على طبعة بيروت عام ١٨٨٥ وذلك عند المقارنة بين السيرتين الحجازية والشامية .

ولما كانت سيرة عنترة تعتبر شعبية التأليف شعبية التناول - ونعنى بالشعبية هنا بعدها عن الأدب الرسمى وحرمانها من اهتمامات أدباء الدولة الذين يطلق عليهم المجتمع هذا الاسم ، لذلك فانه لم يكن غريبا على الاطلاق أن تصدر جميع طبعاتها فيما بعد بشكل يمكن أن نطلق عليه كذلك اسم « طبعات شعبية » ونعنى بالشعبية هنا ضعف إمكانيات الطباعة ، ثم فى المكان الأول عدم توافر أسس التحقيق العلمى لتلك الطبعات ، بالإضافة إلى عدم العناية وتحرى الدقة فى نقل النص أو تصحيح الأخطاء. أما نظام الطبع وجودة الورق فليس لهما مكان إلى جوار ماسبق .

ومع ذلك ، فليس من شك فى أن هذه الطبعات — رغم جميع العيوب التى يمكن أن توصف بها — قد حفظت لنا صلب السيرة العنترية بشكلها العام ، وحمته من الضياع بانقراض الرواه الذين يشتغلون بقصها على الناس ، كما جنبتها الكثير من التضارب والتعارض الذى قد ينشأ من الاعتماد على ذاكرة هؤلاء الرواه إذا لم يكن هناك نص مطبوع .

وهذا لايعنى — من ناحية أخرى — أن مابين أيدينا من طبعات السيره هو النص الذى كتبه مؤلفها ، فالدراسة المقارنة لمخطوطى دار الكتب وجامعة الدول العربية أظهرتنا على أن الأول — ذا التاريخ المتأخر والذى اعتمدت عليه معظم الطبعات — يختلف عن الثانى اختلافات جوهرية من حيث لغة الكتابة والأسلوب والكم ، الأمر الذى يدل بوضوح على أن السيرة الأصلية قد وجدت فى شكل مغاير — من وجوه كثيره — لذلك الذى تظهر به طبعاتها الحالية .

لهذا فان أول خطوة يجب أن يرنو اليها القائمون على تخطيط مستقبل حياتنا الثقافية هى محاولة البحث الجدى بغية الحصول على مزيد من المخطوطات الكاملة لتراثنا القديم حتى نستطيع الوقوف على الصوره الحقيقية التى أنشئت عليها تلك الأعمال الفنية ، وأن نؤرخ لحياتنا الأدبية تأريخا سليما. وهذا الجهد لا يستطيعه الأفراد بقدر ما تطيقه الهيئات وأجهزه الدولة المعنية بأمر الثقافة .

مختصرات السيرة

عادت سيرة عنتره إلى الظهور فى عصرنا الحديث بصوره جديده ليست هى إعادة طبع السيرة كاملة ، كما أنها ليست أعمالا أدبية مستقلة ومستوحاه من السيرة ولكنها شيء بينهما يمكن أن نسميه « اقتباسات من السيرة » أو « مختصرات للسيرة » .

وهذا الأعمال نلتقى بثلاثة منها تختلف عن بعضها البعض اختلافات بينة تبعا للغرض الذى وضعت من أجله . أولها — حسب التسلسل الزمنى — وضع لغرض تربوى كجزء من القراءات الحره للمدارس الثانوية ، وقدمه تحت عنوان « عنتره بن شداد » الأساتذه : حسن جوهر ومحمد أحمد برانق وأمين أحمد العطار وقد قدم المؤلفون لكتابهم بمقدمة عن القصة ، مفهومها ، وأقسامها ، وطرق اخراجها ، ومكانتها بين فنون الادب ، ومدى تأثيرها فى المتلقى . ثم خصوا قصة عنتره بالحديث على اعتبار أنها أطول القصص العربية وأعظمها حتى أنها لتعتبر الياذه العرب ، وتحدثوا عن تضارب الاقوال فى مؤلفها ، ثم عن أقسامها وأبطالها وأهدافها حديثا مختصرا يناسب عقلية الصغار ، ورجحوا أنها وضعت بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى (أى حوالى عام ٣٨٠ هـ) دون ابداء الأسباب .

أما القصة نفسها فقد اخرجوها فى ثلاثة عشر جزءا تتضمن حياه عنتره وحده أى دون المقدمة التى فى السيره الحجازية ، ودون الامتداد الذى يصور حياه عنتره بعد وفاته — كما أنهم حاولوا وضع القصة فى قالب يوائم الغرض التربوى الذى من أجله اقدموا على هذا العمل ، فحافظوا — ما أمكنهم ذلك — على الشكل العام للسيره بأحداثها الكبرى وهيكلها الخارجى مع اسقاط كثير من المناظر المكرره

للمعارك والأحداث الخارقة التى تجافى المنطق (مثل معارك الجن والسحر) أو تجافى الذوق الرقيق (مثل انتقام عنتره من قتلة أبنائه وصور ذبحهم وحرقهم) . ولكن الأهم من هذا وذاك هو أن المؤلفين أعادوا صياغة القصة اعادة كاملة ليضعوها فى اسلوب عربى سليم بعيد عن الالفاظ العامية والاسلوب المحرف ، وكرد فعل طبيعى ظهر فى اسلوبهم شىء من المغالاة فى تحرى الرصانة واختيار الالفاظ بحيث أصبح اسلوب السرد أعلى كثيرا من مستوى التلاميذ من أجلهم وضع الكتاب .

وكما اغفل المؤلفون المقدمة (التى تتناول خلق العالم حتى عنتره) ،والامتداد الذى يتناول حياة ابناء عنتره خلال الإسلام) ، اغفلوا كذلك جميع الاشعار التى وردت فى السيرة ومعها فقرات كثيره من الحوار ومن تعليق الراوى على الاحداث . ولعل أخطر شىء قاموا به فى هذا الصدد هو محاولتهم تحوير بعض المفاهيم والمضامين التى وردت فى السيرة لتلائم عقلية التلاميذ الصغار وكى لا تستعصى على فهمهم وذوقهم جميعا فكان عملهم هذا عكس ما ظهر فى اسلوبهم . وقد تضافر الاثنان (تحوير مضامين الاحداث مع التزام التزمت اللغوى) على البعد بالقصة عن الغرض المنشود منها ، فأصبحت لا تلائم الصغار كما أنها لا تصلح للكبار لافتقارها إلى سلاسة الاسلوب القصصى الذى ييسر للتلقى عملية الاستمتاع بالاحداث وتخيلها والانفعال بها دون ان يحول بينه وبين ذلك لفظ رصين معجمى او اسلوب متزمت قوى ، لأن الاسلوب فى العمل القصصى وسيلة لا غاية بينما هو فى هذا الكتاب المدرسى اصبح غاية اساسية عمد اليها المؤلفون مع استعارة بعض احداث سيره عنترة الاصلية . ولهذا حدث فى عملهم الانفصال بين الشكل والمضمون واصبحت قصتهم لا هى بالعمل الادبى المحقق لذاته الفنية المستقلة ، ولا هى بالكتاب المدرسى المحقق لاغراضه التربوية .

* * *

يلي هذا العمل الدرسي — في الترتيب الزمني — عمل صحفي استغل سيرة عنترة ليقدم إلى جمهور الصحافة رواية من « روائع القصص العالمي » ، أصدرتها دار الهلال تحت عنوان « عنترة بن شداد - تأليف يوسف بن اسماعيل من أدباء الدولة الفاطمية » . وقد أعدها هذا الإعداد الصحفي الأستاذ طاهر الطناحي واهتم فيه إهتماما خاصاً بـ « توضيح بعض المواقف بالرسوم الجميلة ، والعناية بالحوادث الغرامية »[١] ، وجعل الرواية في ثلاثة أجزاء يستقل كل جزء منها بحوادثه عن الأجزاء الأخرى بحيث يمكن تناوله مفرداً ، كما يحمل الجزء الثاني — والجزء الثالث تباعا — ملخصا للجزء الذي سبقه يستغرق صفحة وبعض صفحة . وكل جزء من هذه الأجزاء يبدأ بثبت لأسماء الشخصيات ، كما يحمل كل حدث من الأحداث عنوانا فرعياً مثيرا .

والملفت في هذه الطبعة الصحفية هو أنها أسندت تأليف السيرة إلى يوسف ابن إسماعيل دون أدنى مناقشة ، وأثبتت ذلك على الغلاف الخارجي بينما قدمت تعريفاً مقتضبا بالمؤلف هو أنه « أديب مصري في عهد العزيز بالله الفاطمي ، وكان واسع الرواية في أخبار العرب كثير الأحاديث والنوادر » . ثم يعترف الناشر بأن يوسف بن اسماعيل هذا وضع روايته في ثماني مجلدات لا يقل كل منها عن ستمائة صفحة بينما قدمها هو في ثلاثة أجزاء كل منها حوالي مائة وخمسين صفحة .

ومن الطبيعي أن يلعب هذا الاختصار الصحفي دوره في إختيار المواقف — أو اللقطات — على الاساس الذي وضع لذلك وهو الإهتمام بالمواقف الغرامية ومحاولة جعل كل جزء من الرواية يكاد يستقل بنفسه ويستطيع الوقوف بمفرده لهذا فقد بدأ التفكك واضحاً في الرواية بصفة عامة وظهر عدم الترابط لا بين الاجزاء فحسب وإنما بين الفصول في الجزء الواحد ، فضلا عن أن جميع هذا العمل الصحفي لم يتناول سوى المرحلة الاولى من مراحل السيرة الاصلية (ونعني بها مرحلة

---

(١) العدد ١٠١ من روايات الهـلال ص ١١ .

التكوين) — وهى المرحلة التى تتناول حياة عنترة منذ بدئها حتى نجاحه فى الزواج من عبلة ، وحتى فى هذه المرحلة فقد أهمل كفاحه فى سبيل تعليق قصيدته على الكعبة إهمالا تاما .

فالجزء الأول يبدأ بعنوان صحفى مثير هو « الطفل الذئب » ويقتطف من السيرة شيئاً عن شداد وزبيبة ومولد عنترة ثم يقفز إلى افتتانه بعبلة ليوصلنا إلى عنوان مثير آخر هو « الفارس العاشق » حيث تتركز جميع الاهتمامات حول هذه العملية الغرامية الى أن يعود عنترة من أرض العراق بالنوق العصافير ، إلا أن مالكا — أبا عبلة — يهرب بابنته من الديار .

أما الجزء الثانى فانه يبتعد كثيراً عن عنترة وقصته ليركز أضواءه على قصة غرامية أخرى بطلاها النعمان والمتجردة — بنت زهير بن جذيمة ملك عبس ، أما عنترة فإنه لا يزال يسعى وراء عبلة . وينتهى هـذا الجزء بمقتل الملك زهير وإنتقام عنتره له[1] ويبدأ الجزء الثالث[2] بحرب داحس والغبراء ثم بزواج عنترة من عبلة وبعد ذلك يأخذ فى تعداد الفرسان الذين لقيهم عنترة بادئا بدريد بن الصمة ثم عمرو بن معد يكرب ، فالسليك بن السلكة ، وفى النهاية ينتقل عنترة إلى بلاط قيصر حيث يظهر على جند الروم ويعود إلى عروسه عبلة منتصراً .

وهكذا نجد أثر الصحافة واضحاً فى هذا العمل الذى تناول سيرة عنترة ، فالتحقيق معدوم ، والتدقيق متروك ، والاختصار مخل ، والاعتماد مركز على الاثارة سواء فى الموضوع أو الرسوم أو العناوين ، أما الاختيار ونقل الأحداث فبعيد عن الصدق العلمى — وقد تضافرت كل هذه العوامل لتجعل من الطبعة الصحفية للسيرة مسخاً مشوها وعملا بعيداً كل البعد عن حظيرة الأدب والفن والصدق فى النقل والنشر جميعاً .

* * *

---

(١) العـدد ١٠٣ من روايات الهلال

(٢) العـدد ١٠٥ من روايات الهـلال

وأحدث الأعمال التي تتناول سيرة عنترة بن شداد خرجت من بيروت في أعقاب مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد بالكويت عام ١٩٥٩ وناشد الأدباء عامة أن يعملوا على تعزيز البطولة وحفز شباب العرب على التضحية والبذل في سبيل الحرية والخلود ، فاستجاب لهذا النداء الاستاذ عمر أبو النصر وقام باعداد سيرة عنترة وتنسيق أخبارها تحت عنوان « عنتر .. بطل العرب وفارس الصحراء » .

وقد اختار الأستاذ عمر من السيرة الأصلية الأحداث — واللقطات — التي تتفق مع ما يهدف إليه ، فبدأ بزواج الملك زهير من تماضر ، ثم انتقل إلى شداد وزبيبة وأنجالها لعنترة ، وبعد ذلك قفز إلى حبه لعبلة إذ ظهرت قوته وشجاعته، ثم ذهابه في طلب النوق العصافير من المنذر ، فاتصاله بالفرس ونصرته أيام بطريق الروم ، وعودته إلى أهله محملا بالأسلاب والهدايا . ولكن عبلة تصده فيخرج إلى الصحراء هائماً حيث يلتقي بالفرسان فارساً فارساً ثم بقبائل العرب قبيلة قبيلة ثم بأهل فارس فأهل اليمن ، وأهل الشام . وأخيراً يعود ليتزوج من عبلة . وبعد ذلك أجمل المؤلف مبارزاته مع دريد بن الصمة وذى الخمار إلى أن وصل لمقتله على يد الأسد الرهيص .

ويمتاز هذا العمل — على سابقيه — بأن كاتبه إعاد صياغة عباراته في لغة سليمة سهلة مع المحافظة على روح النص ومعناه في الأجزاء التي وقع عليها اختياره ولكنه لم يحاول أن يربط بين تلك الأجزاء بل اكتفى بضمها إلى بعضها البعض فجاءت وكأنها مقتطفات من السيرة الأصلية لا تتوافر لهـــا الوحدة الروائية ولا البناء القصصي .

* * *

وهكذا نجد أن هذه الأعمال الثلاثة التي حاولت اختصار سيرة عنترة — أو تهذيبها على زعم البعض — بدت جميعاً — رغم اختلاف أهدافها — بعيدة كل البعد عن روح السيرة الأصلية ، غير واعية للبناء القصصي الذي أبدعه المؤلف

القديم لها . فالطبعات الحديثة الثلاثة سواء تلك التى كان هدفها تربويا أو التى كان هدفها صحفيا أو التى قصد بها الحماس وتعبئة الشباب، فأنها جميعاً لم تهتم من السيرة الأصلية إلا بالجزء الأول فقط (وهو مرحلتا التكوين والفروسية) ، وهذا الجزء من السيرة — كما يتبين فى دراسة شخصية عنترة — يكاد يعتبر مقدمة للقصة، حاول المؤلف فيها أن يكون طبيعياً ومنطقيا حين يتناول حياة بطله منذ البداية ثم يأخذ فى تطوير شخصيته وتدميتها نماء تدريجيا تحت وقع أحداث معينة بحيث يبدو هذا النماء غير شاذ ولا مستبعد . لهذا فإن ذلك الجزء من السيرة يعتبر مرحلة تقديم لشخصية البطل فقط بينما تتلوه عدة مراحل تمثل كل مرحلة منها طوراً من أطوار حياة البطل ، وهدفا من أهداف السيرة ، كما أنها جميعاً تتمشى مع أسس التأليف القصصى عند العرب من تجريد وملحمية واسطورية وغيرها ، أما مرحلتا التكوين والفروسيه فلا تزيدان عن كونهما فترة ولادة الشخصية وتحديد ملامحها وتبيان سماتها واتجاهات تطورها .

وربما كان السبب الأساسى لذلك هو أن أولئك الذين قاموا باختصار السيرة وإعادة طبعها لتحقق غرضاً معينا ابتغوه وجدوا أن هذا الجزء وحده من السيرة هو الذى يحقق أهدافهم . فأصحاب الطبعة المدرسية اعتبروا أن عقلية التلاميذ أصغر من أن تستوعب المواقف الدرامية والصور الملحمية التى فى المراحل المتقدمة من السيرة وأصحاب الطبعه الصحفية سعوا وراء الإثارة وجذب القراء — انصاف المتعلمين — فصوبوا كل سهامهم نحو الأجزاء الغرامية من السيرة بإعتبارها أسرع السبل وأيسرها إلى قلب هؤلاء القراء، أما صاحب الطبعة الأخيرة فاختار الجزء التاريخى المنطق، الطبيعى التسلسل، الواضح الأهداف ليتلافى الارهاصات الاسطورية والتأويلات البعيدة الاحتمال التى ربما تعارضت مع الحقائق التاريخية والمفاهيم المنطقية .

والدليل على ذلك أن جميع من قاموا بإختصار السيرة واختاروا لعملهم هذا الجزء الأول منها فقط ، أغفل — ثلاثتهم — فيما تناولوا جانبا هاما كانت السيرة

الأصليه قد أولته عناية فائقة واعتبرته الوجه الثانى من أوجه الفروسيةواستكمال البطولة ونعنى به جانب التميز الشعرى . فعلى الرغم من إستناد هـذا الجانب إلى أسس تاريخية لاتقل ثبوتا عن الحقائق التى استندوا إليها فى رسم حياة عنترة وتصوير شجاعته ، حيث أنهمن الثابت تعليق قصيدتهعلى الكعبة ضمنالمذهبات، إلا أن الصورة القصصية التى رسمها مؤلف السيرة الأصلية عن هذا الجانب من جوانب الفروسيةلم تستقم مع منطق الأحداث بالشكل الذى يساير التفكير الواقعى الحديث، ولم تقم على تحقيق الأهداف التى هدفوا إليها ـ رغم إختلافها فى الأعمال الثلاثة ، بالإضافة إلى عدم إعتبارهم لطبيعة التأليف القصصى الذى يضحى بحقائق التاريخ ومنطق الأحداث فى سبيل اخراج صور روائية . لذلك فقدأ ... وا جميعاً اغفال هذا الجزء من السيرة الأصليةإغفالا تاما دون حتىمحاولة تحويره ليلتقى مع ما هدفوا إليه .

وليس أدل على بعد مختصرى السيرة عن التأليف القصصى وإقامة أعمالهمعلى أسس غير فنية من اغفالهم تلك اللمحات البارعة التى لجأ إليها مؤلف السيرة الاصلية ليقيم عليها شخصية بطله الروائية ، وينميها ويطورها ، ويعدها لمواجهة البناء الفنى لعمله القصصى . فمؤلف السيرةكان على علم بأنه سوف يقدم فى سيرته بطلا لاكالابطال تتسم الكثير من أفعاله باللامعقولية والاغراق فى الخيال ، ولهذا أوضح لنا ـ منذ اللحظة الاولى ـ أن بطله تسنده قوةغيبية ليحقق أغراضاً سماوية ، ثم استكمل له عدة قتال عجيبةتناسب هذا الغرض وتتمثل فى فرس معم مخول يسابق الظليم دفعفيه عنترة كل ماغنمه آل عبس منأسلاب وسلمه سيفا مصنوعا من شهاب أسقطته القصصية السماء ، هذه اللمحات البارعة التى تدل على توفر المواهب القصصية لدى المؤلف،اعتبرها مختصرو السيرةتهاويم بعيده عن الواقع والمنطق فأغفلوها ـ كما أغفلوا الكثير من أمثالهم ـ الامر الذى جعل بطلهم يبدو شاذا ويظهر فى صوره مفاجئة لم يمهد لها التمهيد الروائى اللازم . ولهذا فقدت أعمالهم أحكام البناء الفنى وأصبحت مجرد سرد لمقتطفات من تاريخ عنتره .

وهناك لمحات أخرى ناجحة قدمها مؤلف السيرة الأصلية على أساس أنها دعامات قصصية قوية ولكن مختصرى السيرة أغفلوها كذلك، إما لإعتقادهم أنها لاتتلاءم مع أهدافهم أو لعدم التفاتهم إليها . فمثلا يوضح مؤلف السيرة الأصلية نقطة التقاء شداد بزبيبة مؤكداً امتناعها على غيره من الفرسان المغيرين — بعكس ماكانت تسير عليه عادات الجاهلية وذلك ليثبت صحة نسب عنترة ، ثم يعود المؤلف ليفيض فى وصف أوجه الشبه بين عنترة الوليد وبين أبيه شداد ، ويعود مرة ثالثة ليصف لنا جلسة حكيم العرب التى أصدر فيها حكمه بالصبى لشداد مستنداً إلى أدلة مادية ومنطقية . كل ذلك ليؤكد المؤلف نقطة واحدة هى صحة نسب عنترة ، أما مختصرو السيرة فقد أغفلوا كل هذا رغم لزومه لإقامة البناء القصصى ، ورغم أنه مكون هام من مكونات المرحلة التى اختاروها من السيرة .

وغرام عنترة بعبلة لايقف مستقلا فى السيرة وإنما هو يمثل جانبا من جوانب كفاح البطل وصراعه من أجل استكمال حريته وبناء شخصيته وبلوغ المكانة التى يصبو إليها . ويكاد مؤلف السيرة الأصلية أن يفصح معلنا أن هذا الغرام ليس غاية فى حد ذاته وإنما هو وسيلة إلى غاية ، بدليل أن عنترة نسى غرامه لها حين فاز بفرسه « الأبجر » ، وأنه ضاجع غيرها من النساء لينجبهن أطفالا ، ثم هو لم يحتمل منها السخرية به فكان يتركها مغضبا ويذهب ليهيم فى الصحراء صائداً ومحاربا . أما مختصرو السيرة فقد فصلوا جميعاً غرام عنترة بعبلة عن السيرة — التى هى وصف تفصيلى لحياة بطل بكل مكوناتها ومقوماتها — وجعلوا مسألة الغرام هذه شيئا قائماً بذاته ولذاته دون أن تكون له أى علاقة بالتكوين النامى لشخصية عنترة ، بل أن صاحب الطبعة الصحفية جعلة الهدف الرئيسى — وربما الوحيد — للقصة التى قدمها .

من هذا يمكننا القول بأن من قاموا بإختصار السيره حديثاً لم يوفقوا فى فهم الأسس الروائية التى بنيت عليها ، ولم يصلوا إلى اللمحات الفنية التى فيها ، ولم

يقفوا على روح السيرة — كفن من فنون الأدب العربى — ، كما لم يراعوا تكامل البناء القصصى الذى اصطنعه مؤلف السيرة الأصلى ، وربما لم يدرسوا العمل الذى يزمعون إختصاره دراسة كافيه تعينهم على إخراج قصة مناسبة منه لا تقل — من حيث القيمة الفنية — عن العمل نفسه ، وإنما كان للتسرع وبساطة الاخذ ، بالإضافة إلى الاغراض المستترة والواضحة ، أثر كبير فى تشويه تلك الاعمال وظهورها بمظهر يقل كثيراً فى الدرجة والقيمة عن السيره الاصلية .

ترجمات السيرة

لم تعرف الآداب الغربية فن القصة إلا منذ عهد قريب ، إذ كانت نشأة ذلك الفن شرقية وكان مهد القصة الأول هو أرض العرب ، يقول المستشرق جوستاف ليبون : « العرب هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية . . وترى فى روايات العرب — مع قلة اعتنائهم بنفسية الأشخاص — فوائد كثيرة لإشتمالها على ضروب من المغامرات العجيبة . . وقد جعل العرب بخيالهم الساطع كل شىء لمسوه فهم الذين لا نظير لهم فى الفن »[1] .

وعندما انتقلت هذه الثروة الفنية إلى أوروبا فى ركب الحضارة العربية حظيت بقدر كبير من الاهتمام ، وعمل كثير من المستشرقين على نقلها إلى لغتهم . وقد كان لسيرة عنترة نصيب من هذا الاهتمام بدأه عام ١٨٢٠ الانجليزى تاريك هاملتون Terrik Hamilton فترجم إلى لغته الثلث الأول من السيرة ونشره فى أربع مجلدات تحت عنوان « عنتر . . قصة حب بدوية »[2] Antar .. A Bedween Romance .

وتلى ذلك ترجمة فرنسية لمعظم أجزاء السيرة قام بها المستشرق هامر برجستال Hammer Pirgastall ، ثم اتبع ذلك بتلخيص لسيرة عنترة معتبرا إياها مثالا لقصص الحب والفروسية عند العرب نشره فى المجلة الآسيوية عام ١٨٣٨[3] .

---

(١) حضارة العرب (مترجم) ص ٤٤٨
(٢) دائرة المعارف البريطانية مجلد ٢ ص ١٤
(٣) Victor Chauvin ; Bibliographie des Ouvrages Aranes Part. 3 p. 113

وقد أثار عمل برجستال هذا انتباه أدباء فرنسا آنذاك ولفتهم إلى الفن القصصى الذى لدى العرب ، فأقدم كثير منهم على ترجمة أجزاء - أو تلخيصها - من سيرة عنترة بن شداد بما لا يزيد عما فعله هامر ، نذكر منهم : —

١ — كوسين دى برسيفال A. Caussi de Perceval وقد خص عنترة وسيرته بفصل من كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » وذلك فى عام ١٨٣٦ .

٢ — بيرون M. A Perron .

وقد نشر فى المجلة الآسيوية مقالين عن عنترة وسيرته أحدهما عام ١٨٤٠ . والآخر عام ١٨٥٠[١] .

٣ — أما الشاعر الفرنسى الذائع الصيت « ألفونس دى لامرتين » A. de Lamartine فقد اطلع على سيرة عنترة إبان زيارته للشرق فخصها بفصل فى كتابه الذى ألفه عن تلك الرحلة واطلق عليه اسم « رحلة إلى الشرق »[٢] ثم دفعه إعجابه بتلك القصة البطولية إلى إعادة الكتابة عنها فى مجلة التمدن La Civilisateur عام ١٨٥٤ تحت عنوان « عنتر أو التمدن الرعوى » Antar, au la civilisation Pastorale وبعد ذلك بحوالى عشر سنوات إعاد نشر هذا المقال منفصلا عام ١٨٦٤[٣] .

٤ — كتب المستشرق دوفيك L. Marcel Devié ملخصا للسيرة نشره تحت عنوان « حوادث عنترة بن شداد » صدر فى باريس عام ١٨٧٨ .

وغنى عن البيان أن جميع تلك الترجمات والتلخيصات لم تعن بنص السيرة بحيث تنقلها إلى اللغات الأخرى نقلا سليما ملتزما لأسس الترجمة الأدبية حيث

---

(١) السابق ص ١١٤

(٢) Voyage en Orient—Tome 2. P. 471 (Paris 1911 —

(٣) Chauvin. P. 114 —

أن الذى لفتهم إليها واستحوذ على إعجابهم فيها هو القصة نفسها ــ أى الأحداث والوقائع بحكم غرابتها وطرافتها ، ثم التركيب الهيكلى للقصة والقدرة على الربط بين تلك الأحداث ربطا روائياً متسلسلا ومقيما لبناء قصصى سليم .

وكان الاعجاب بقصة الحب فى السيرة أقوى من الإعجاب بقصة الصراع البشرى فيها ، ولهذا فقد اختار معظم أولئك المترجين القسم الأول منها فقط، وهو ذلك القسم الذى يحكى غرام عنترة بعبلة والجهود التى بذلها فى سبيل الفوز بها واعتبروا أن ما أظهره البطل من ضروب الشجاعة والاقدام فى سبيل تحقيق الهدف العاطفى يكفى للدلالة على الناحية البطولية فى القصة ، ولم يفطن أى منهم ـ أو لعلهم تغاضوا ــ عن اعتبارها قصة متكاملة من نوع « السيرة » التى تحكى الحياة الكاملة لشخصية البطل بجميع أطوارها ومراحلها ومكوناتها ومقوماتها . ولهذا فإن أحدا منهم لم يطلق على ما قام بترجمته من عنترة اسم النص المترجم وهو سيرة عنترة » ، وإنما اختاروا لها أسماء جديدة تعبر جديدة تعبر عن الناحية العاطفية وحدها وتدل على قصة الحب الذى كان بين عنترة وابنة عمه عبلة .

ولما كان هؤلاء المترجون قد اختاروا جزءا فقط من السيرة ، ثم قاموا بترجمة أحداثه وحدها دون التزام النص ودون اهتمام بالأسلوب اللغوى للأصل يضاف إلى ذلك قيامهم بتحويرات فى معظم تلك الترجمات لجعلها تتلاءم مع الذوق الأوربى الأمر الذى يجعل نسبة التحرر فى تلك الأعمال أكثر من نسبة الالتزام . لكل هذا يمكننا فى غير تحرج اخراجها من حظيرة الترجمة لنص عربى واعتبارها إما أعمالا أدبية غربية قائمة بذاتها قد استقت فكرتها الأساسية من قصة عنترة ، وإما نقلا لطرفة من طرف الشرق إلى لغة من لغات الغرب دون أن يكون ذلك ترجمة لنص أو لجزء من نص ، والواقع أن الناظر فى تلك الأعمال سوف يجد أن معظمها ينطبق عليه هذا التعريف الأخير . ومعنى ذلك أن الصلات المباشرة تكاد تكون معدومة بين تلك الأعمال الغربيةوبين الأصل العربى اللهم إلا تلك الصلة المعنوية التى توحى بالقيمة الفنية للأثر العربى بحيث وقع عليه الاختيار باعتباره الأفضل .

من هذا يتضح أن دراسة مثل تلك التراجم بغية الوصول إلى معلومات أوفى عن الأصل العربى المنقولة عنه لن توصل إلى الغرض المنشود منها وذلك لأنها ليست ترجمات كاملة وليست دراسات مستقلة وإنما هى نقل لمعنى الأثر العربى إلى لغة أجنبية ، مثلها فى ذلك مثل تلك الفصول التى كان يكتبها الدكتور طه حسين ملخصاً بعض المسرحيات العالمية والروايات الأجنبية واعتاد أن ينشرها تباعاً فى الجرائد والمجلات أو يجمع عددا منها بين دفتى كتاب ، فمن المحال الادعاء بأن تلك الفصول تعتبر ترجمة للمسرحية العالمية أو الرواية الغربية وتبعاً لذلك فإنها لا يمكن أن تساعد على دراسة الأصل .

لهذا آثرنا ألا نطيل فى السعى وراء تلك الترجمات أو الملخصات الأجنبية لسيرة عنترة اعتقادا بأنها لن تضيف جديدا ، وحرصاً على دراسة النص نفسه فى لغته الأصلية التى أنشىء بها .

الفصل الثالث

تاريخ سيرة عنترة بن شداد

تنتهى الطبعة الحجازية لسيرة عنترة بن شداد بهذه العبارة : « قال مؤلف هذه السيرة الحجازية — وهو الأصمعى رضى الله عنه — كان الفراغ من تأليفها يوم الجمعة المبارك فى أواخر جمادى الثانى سنة ٤٧٣ من الهجره النبويه ، فى أيام الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد العباسى ، وقد أرشدنى إلى تأليفها رغبته فى سماع قولها ونثرها ونظامها . وقد جمعت ما عندى من الأوراق مما سمعته عن سيرة عنترة بن شداد المشهور فى سائر الآفاق ، وأضفت إليه ما رأيته بعينى ، ورتبت القوافى على بعضها بحسن نظام من غير زياده ولا نقصان ، وانتقيتها من زبدة الكلام . وهذه السيرة الحجازية قد رويتها بروايات قوية عن الحمزه وعن أبى طالب وعن عمرو بن معد يكرب وعن حاتم طى وعن امرىء القيس الكندى وعن حازم المكى وعن عبيده وعن عامر بن الطفيل ، فإنه بعد عنتره تداولت أفعاله على ألسن العرب ، فالذى رأيته وسمعته صرت أكتبه عندى بالأوراق ، من أشعار ومن أفعال ، والذى ما رأيته ولا سمعته فهو ترتيب القوافى على بعضها ، والله أعلم بالصواب »[1] .

هذه العبارة تكاد تكشف عن نفسها وتكاد تنطق بأنها موضوعة ، لأن الأصمعى لا يمكن أن يكون هو مؤلف هذه السيره بأى حال من الأحوال . ورغم ورود هذا النص الصريح فى نهاية الطبعة التى بين أيدينا من السيرة ،

---

(١) السيرة مجلد ٨ ص ٣٥٢

مقرراً أن الأصمعى هو مؤلف السيرة ومحدد سبب تأليفها والطريقة التى اتبعها المؤلف فى ذلك ثم تاريخ انتهائه منها ، رغم كل ذلك ، فإن أحدا من الباحثين لم ينخدع بما جاء فى هذا النص وإنما قرر الجميع أن هذه العباره لم توضع إلا للتستر وراءها حتى تضفى على السيرة صبغة الجد ، وتدفع القارىء إلى منحها شيئاً من الاهتمام والتقدير يتناسب وشهرة الأصمعى ، ثم ليقبل عليها الناس باعتبارها عملا من أعمال كبير رواة العصر العباسى سمير الخليفة هارون الرشيد .

وجميع الباحثين الذين رفضوا هذا النص لإقتناعهم بعدم صحته اكتفوا بأن أشاحوا بوجوههم عنه دون أو يحاولوا تبرير رفضهم له . فالمستشرق الفرنسى « هيرت » يكتفى بأن يقول : «أن إسم الأصمعى موضوع للتستر وراءه »[1] — والأب لويس شيخو لا يرفض النص فحسب ، وإنما يقدم لنا مؤلفا آخر لسيرة عنترة[2] ، ويتابعه فى ذلك باحثوا العربية منذ الزيات وجرجى زيدان حتى الآن[3] — أما المستشرق « هامر بيرجستال » فيدعى اكتشاف مؤلف سيرة عنتره — وهو بالطبع غير المؤلفين السابقين[4] .

يقول صاحب كتاب الأدب القصصى عند العرب : أن ما فى السيرة من أخطاء نحوية وصرفية ، وما فيها من ضعف فى الأسلوب يبلغ بها — بعض الأحيان — حد الاسفاف يحملنا على الحكم أن مثل هذا الأسلوب يختلف اختلافا بينا عن أسلوب الأصمعى[5] ، والواقع أن هذا الدليل الوحيد الذى يستند إليه الأستاذ موسى سليمان يبدو سطحياً وواهنا بحيث لا يمكن الاعتماد عليه فى تقرير مثل هذا الرأى العظيم الخطر ، ولكننا إذا ما بحثنا قليلا عثرنا على أكثر من دليل قوى يكاد يجزم بأن الأصمعى ليس هو مؤلف سيرة عنترة بن شداد .

---

(١) شعراء النصرانية جـ ١ ص ٨٨٢

(٢) أصول الادب للزيات ص ٢٤١ والهلال مجلدة ص ٧٣٠ وفارس بنى عيسى للقرشى ص ٦٨ ثم روايات الهلال العدد ١٠١

(٣) الجريدة الآسيوية سنة ١٨٣٨ ص ٣٨٦

(٤) موسى سليمان ص ٩٥

(٥) السيرة مجلد ١ ص ٥

وأول أدلتنا أن كاتب هذا التذييل فى نهاية السيرة نسى أن إسم الأصمعى ذكر قبل ذلك مرات عديده — فى سياق القصة — على اعتبار أنه مصدر رواية حدث واحد من أحداثها ، وإلى جانب اسم الأصمعى ذكرت أسماء رواة عديدين كمصدر لأحداث أخر . فكاتب السيره يذكر مثلا أن مقدمة السيرة مأخوذه عن وهب بن منبه[١] . وفعلا نجد أن هذه الرواية ذكرت بصوره مشابهة فى كتب : التيجان ، وعبيد ، والسيرة وهى الكتب الثلاثة التى رواها ابن هشام عن وهب بن منبه :

ومؤلف سيرة عنترة قد لا يرجع الحادثة الواحدة إلى راوية بعينه ، وإنما ينسبها إلى اثنين أو ثلاثة وربما كان الاصمعى واحدا منهم ، كأن يقول : « قال الاصمعى وأبو عبيده»[٢] . وقد ينسب تأليف السيره نفسه إلى غير الاصمعى حيث نجد مثل هذه العباره : «قال نجد مؤلف تلك العبارات»[٣] أو يرجع الرواية أى رواية الحادثة — إلى نص معروف من نصوص الاصمعى مثل : « قال الاصمعى فى تاريخ العرف والمورود »[٤] — ثم هو بعد كل هذا — أو على الاصح قبل كل هذا — قد بدأ السيره بسرد أسماء الرواه الذين أخذ عنهم فقال « إن من رواة هذه السيره العجيبة ، المطربة الفائقة الغريبة ، فصيح ذلك الزمان المتكلم على ما مضى من أحاديث العربان الاولين فى ذلك الزمان ، العالم العلامة ، عبد الملك بن قريب الاصمعى ، رحمه‌الله‌تعالى ، الذى كان من المعمرين ، والذى عاش عمرا طويلا ، جاهلية وإسلاما إلى ان أدرك الخلفاء والامويه وغيرهم . ومما ذكروا أنه ما سمى بالاصمعى إلا لانه ليس له شحمتا آذان ، غير ان رأسه كانت صومعة وآذانه خرقين فى الصدغين لا غير وكان فصيح ذلك الزمان وعالما

(١) السيرة مجلد ١ صفحة ٥
(٢) السيرة مجلد ١ صفحات ١١٩ ، ١٤٩ ، ٢٢٤ وغيرها
(٣) السيرة مجلد ١ ص ١٢٠
(٤) السيرة مجلد ٧ ص ٣٣٤

فى دين الاسلام ،وهو من جملة من روى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول : « سمعت رسول الله يقول كذا وكذا » . ومن جملة من روى هذه السيرة العجيبة ايضاً ابو عبيده ، وجهينة بن المثنى اليمنى ، والبلخى ، وحماد ، وسيار بن قحطبة الفرازى ، والكاهن الغسانى الثقفى ، وابن خناش النبهانى . وكل منهم روى ما شهد وما سمع عمن يوثق به عن حضر وقائع العربان »(١) .

فكانت سيرة عنترة يذكرها هنا — صراحة — أن الأصمعى ليس إلا واحدا من الرواه العديدين الذين أخذ عنهم أحداث قصته . فتأليفها اذن ليس للأصمعى لأن وضعه فيها مثل وضع أبى عبيدة وجهينة والبلخى وسيار وغيرهم .

يلفتنا هذا النص كذلك إلى أن السيره كتبت بعد وفاة الأصمعى . فالكاتب يطلب له الرحمة من الله ، ثم هو ينساق وراء هذا الشعور أو يستمر يطلب له الرحمة كلما ورد ذكره فى السياق(٢) ولا يدل النص على أن السيرة كتبت بعد وفاة الاصمعى نقلا عما ذكره عنه ، ثم يدعى أنه عاصر الجاهلية والاسلام فالامويين ، وهو بعد ذلك يذكر تلك العصور بشكل يوحى بوجود فرق زمنى بعيـــد بينه وبينها .

وهكذا نجد أن ما جاء فى أول سيرة عنترة يهدم ما جاء فى آخرها ويثبت — بما لا يدع مجالا للشك — أن الأصمعى ليس هو مؤلفها . وفضلا عن ذلك فان الأصمعى من أشهر ادباء القرن الثانى للهجرة ، وابعد الرواة صيتا واغزرهم مادة، ثم هو بعد كل هذا من خاصة الرشيد وأقرب فرد فى حاشيته الأدبية اليه ، فلو أنه كان حقا مؤلف هذه السيرة ، ولو أنه وضعها بناء على تكليف من الخليفة الرشيد . لذاع هذا الأمر وانتشر وللأت أخباره جميع كتب التاريخ والأدب .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٤
(٢) السيرة مجلد ١ ص ٤

ولكن لم يذكر واحد من المؤرخين — قدماء ومحدثين — أن الأصمعى ألف سيرة عنترة بن شداد .

ليس هذا فحسب ، بل أن النظرة الأولى إلى ثبت الكتب التى نسبت إلى الأصمعى — أو التى روى عنه اجزاء منها — تدل دلالة قاطعة على أن صاحبها بعيد كل البعد عن التأليف القصصى بالمعنى الدقيق لهذا الفن من فنون الأدب ، فى الوقت الذى تدل السيرة ومافيها من بناء فنى سليم على أنها من صنع رجل متمرس فى هذا الفن ، طويل الباع ، له تجارب متعددة سابقة — وربما لاحقه — من الأعمال القصصية . فمؤلفات الأصمعى التى ذكرت فى كتب مثل « وفيات الاعيان لابن خلكان والفهرست لابن النديم » والتى رتبها الدكتور عبد الجبار جومرد فى ثبت طويل بحيث أربت على الخمسين مؤلفا[1] تدل اسماؤها جميعا على بعد موضوعاتها عن التأليف القصصى — أو حتى السردى — فهى تدور حول الأجناس والخراج والخيل والشاة والفرق بين الإنسان والحيوان والوحوش والنبات والشجر والنخيل والكروم والإبل وخلق الانسان . فهى — بصفة عامة — كتب لغة أكثر من أى شىء آخر . وحتى كتابه « النوادر » الذى يدل اسمه على قربه من التأليف القصصى — أو السردى — يقول الأنبارى أنه ليس كذلك ولكنه كتاب فى اللغة[2] . أما القسم الأدبى من تأليف الاصمعى فمعظمه الشعر مثل الاصمعيات والقصائد الست ورجز العجاج وشرح عدد من الدواوين الشعرية القديمة .

والنظرة العابرة فى الموجود من كتب الأصمعى تدل دلالة قاطعة على أن صاحبها كاتب وليس قصاصا ، وأنه يتمسك بالواقع العلمى والتاريخى ويبعد كل البعد عن التخيل والتصور والتأليف الروائى .. وليس أدل على ذلك من انكاره

---

(١) الاصمعى ص ٢١٧
(٢) نزهة الالباء ص ١٠٥

وجود مجنون ليلى « قيس بن الملوح » ثم التعقيب على قصته بقوله : « فى بنى عامر عدة مجانين فى الحب صنعتهم أخيلة الرواة والشعراء منهم قيس بن الملوح[1] » وهذا النص لا يدل على بعد صاحبه عن التأليف القصصى فحسب ، بل أنه يكاد ينطق بمقته لهذا اللون من التأليف وعدم الاعتراف به . وسيرة عنترة مؤلف قصصى يلعب الخيال فيه دورا كبيرا مما يجعل مجرد القول باحتمال نسبتها إلى الأصمعى أمرا بعيدا عن الحقيقة وعن العلم بطبائع الأشياء .

لكل هذا فاننا نجزم بأن سيرة عنترة ليست من وضع الاصمعى وإنما هى من تأليف شخص آخر سواه . وقد سبقنا كثيرون إلى هذا الاعتقاد كان آخرهم الدكتور عبد الجبار جومرد[2] ، غير أن أحدا منهم كما سبق أن ذكرنا — لم يحاول تبرير رأيه أو تدعيمه بالادلة والاسانيد .

ومع ذلك فاننا لا نستطيع أن ننكر أنه كان للأصمعى دور كبير فى سيرة عنترة بن شداد — أو بمعنى أدق — فى تقديم المادة العلمية والتاريخية التى استخدمها كاتب السيرة . ففى زمن الاصمعى (الذى ولد عام ١٢٣ هـ وتوفى عام ٢١٧هـ) كانت الاخبار تعتبر مرحلة من مراحل نشوء علم التاريخ ، فكان مما جمعه الاصمعى من الروايات والاخبار ما يصلح أن يكون مادة تاريخية مثل ذكر الوقائع الحربية والمغامرات والاحلاف ثم الغزوات فالفتوح ، ومنها ما يدخل فى سير الملوك والولاة والقواد وغيرهم من الشخصيات الرسمية والشهيرة ، ومنها مايعتبر جزءا من حياة الشعراء والادباء وأحوالهم كما أنه روى بين هذا وذاك أخبار كثيرة تكشف عن جوانب من أخلاق القبائل والجماعات العربية[3] ، فهو مثلا يحكى عن حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وعن داحس والغبراء بين عبس

---

(١) نزهة الالباء ص ١٣٧
(٢) الاحمص ص ٣٢٥
(٣) وفيات الاعيان — لابن خلكان جـ ٢ ص ٣٤٩

وذبيان ، وعن أبطال بنى عبس أمثال زهير بن جذيمة وقيس بن زهير وعنترة ابن شداد . وتحدث عن فارس بنى جشم — دريد بن الصمة — وعن عشقه للشاعرة الخنساء بنت عمرو[1] ، وعن ربيعة ابن المكرم وعامر بن الطفيل[2] ، ونقل أخبار العدائين الصعاليك أمثال عروة بن الورد والسليك بن السلكة ، ثم روى أخبار حاتم الطائى ونقل مناقشته للنابغة الذبيانى[3] ، كما روى بعض المعلقات — إن لم يكن كلها — واهتم اهتماما خاصا بشعر عنترة فروى معظم ما قاله فى المغازى والحروب حتى أصبح اسم الاصمعى مقرونا بأشعار هذا البطل العبسى واخبار غزواته[4] .

من هذه المادة التاريخية الخصبة التى خلفها الاصمعى استقى مؤلف سيرة عنتره موضوع قصته وعناصرها وأحداثها وأسماء شخصياتها ، ثم صاغ كل ذلك فى قالب روائى فيه خيال وفيه تفنن وفيه بناء قصصى سليم . وبذلك يمكننا القول بأن المادة العلمية والتاريخية فى سيرة عنترة يرجع الفضل فيها — أولما يرجع — إلى الاصمعى ، أما الصورة الروائية للسيرة فانها — دون أدنى شك — ليست للاصمعى وإنما هى لشخص متأخر عنه زمنيا اطلع على تراث الاصمعى واستغله فى صياغة روايته القصصية .

فاذا كان الاصمعى ليس هو مؤلف سيره عنترة بن شداد ، فمن يكون مؤلفها اذن ؟ .

يجيب على هذا السؤال المستشرق « هامر بيرجستال » فى المجلة الآسيوية[5] قائلا : « ان واضعها هو أحد اطباء وشعراء العراق المشهورين المسمى بأبى المؤيد

---

(١) الاغانى جـ ٩ ص ١٢
(٢) الاغانى جـ ١٥ ص ١٤٦
(٣) الامالى للسقالى جـ ٣ ص ١٥٢
(٤) الاغانى جـ ٣ ص ١٨٩
(٥) سنة ١٨٣٨ ص ٣٨٦

ابن الصايغ والملقب بالعنترى » . ويسوق هامر دليله على ذلك من قول عابر جاء على لسان ابن أبي أصيبعة « صاحب كتاب عيون الانباء فى طبقات الاطباء » هو أن العنترى كان فى أول امره يكتب أحاديث عنترة العبسى فصار مشهورا بنسبته اليه[1] وتعتقد برجستال أن هذا الذى وصل اليه يعتبر كشفا أدبيا عظيما حتى أنه ليفاخر به مفاخرة عريضة — أو بمعنى آخر — يعتبر أن هذا الدليل الذى ساقه دليلا قاطعا لا يقبل المناقشة أو الجدل .

وعلى الرغم من أنه لا يمكن إيجاد صلة ربط بين « أحاديث عنترة » وبين « سيرة عنترة » لما بين اللفظين من اختلاف واضح فى المضمون والمفهوم ، فان أبا المؤيد هذا طبيب عراقى عاش فى القرن السادس الهجرى وهو زمن متأخر جدا بحيث يصدر فيه كتاب لا يعرف صاحبه ولا ينشر فى حينه منسوبا لكاتبه، أضف إلى ذلك أن احداث السيرة وطريقة معالجتها — لاسيما فيما يتعلق منها بالعراق — تدل دلالة قاطعة على أن كاتبها لا يمكن أن يكون عراقيا ، بل — على العكس من ذلك — شخص يشعر نحو العراقيين بشىء من النفور وعدم التقدير . ولهذا فليس من المستساغ أن يكون كاتب السيرة عراقيا ولا ان يكون منبت السيرة هو أرض العراق .

والنص السابق يذكر أن العنترى كان فى اول امره يكتب احاديث عنترة ، أى انه كان فى بدء حياته الثقافية — والسيرة — كما سبق أن أشرنا — عمل فنى متكامل لا يخرج إلا على يدى كاتب قدير متمرس وليس عن حدث فى أول عمره لم يلبث أن ترك الادب إلى مهنة أخرى هى الطب .

وربما كان الاقرب إلى التصور هو استيحاء هذا النص فى إتجاه آخر مؤداه أن سيرة عنترة كانت قد وجدت فعلا فى عصر أبى المؤيد ، وأنها كانت تذاع فى

(١) عيون الابناء لابن أبى أصيبعه ج ١ ص ٢٩٠

الناس على شكل كتيبات أو صحائف مسلسلة ، وأن الناشئين من النساخ كانوا يتكسبون بكتابة تلك الصحائف وكان من بينهم ابن الصايغ هذا . ثم أن هؤلاء النساخ كانوا لا ينقلون النص الاصلي للقصة وإنما كانوا يغيرون فيه بعض الشيء لاعتبارات اقليمية وسياسية وغيرها وعلى ذلك فان تلك الصحائف يمكن أن تكون هي الأصل الاول الذى تجمع بعد ذلك تحت اسم « السيرة العراقية » مقابل الصحائف التي كانت بمصر والحجاز على أساس أنها « السيرة الحجازية ». فاذا ما اعتبرنا هذا الرأى أرجعنا اليه الخلافات الطفيفة التي نجدها بين السيرتين الشامية (ومثلها العراقية) وبين الحجازية .

ومهما يكن من أمر فان أبا المؤيد بن الصائغ الملقب بالعنترى لا يمكن ان يكون هو مؤلف سيرة عنترة بن شداد كذلك ، وان هذا الكشف الذى ادعاه المستشرق برجستال ليس لهما يؤيده وان كان النص الذى اورده لابن ابي اصيبعة يفيد فى استنتاج امور هامة منها :

١ ــ أن سيرة عنترة بن شداد ظهرت فى الوجود قبل القرن السادس الهجرى.

٢ ــ أن السيرة كانت تذاع فى الناس كتابة (فى صحائف) ولم يكن أمرها قاصراً على سماع الرواة .

٢ ــ أن سيرة عنترة فى هذا الوقت كانت موجودة فى العراق كما كانت موجودة فى مصر والحجاز .

٤ ــ أن نسخ السيرة كان عملا مربحاً يفى بنفقات دراسة الطب الباهظة وهذا دليل على سعة إنتشارها وعلى اقبال الناس عليها .

أما الأب لويس شيخو فيذكر فى كتابه « شعراء النصرانية » شخصاً آخر باعتباره واضعاً للقصة إذ يقول : « نشأ بمصر من أفاضل الرواة الشيخ يوسف ابن إسماعيل كان يتصل بباب العزيز فى القاهرة ، فاتفق أن حدثت ريبة فى دار العزيز لهجت الناس بها فى المنازل والأسواق ، فساء العزيز ذلك ، وأشار إلى

الشيخ يوسف أن يطرف الناس بما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث . وكان الشيخ يوسف واسع الرواية فى أخبار العرب ، كثير النوادر والأحاديث ، وكان قد أخذ روايات شتى عن أبى عبيدة ونجد بن هشام وجهينة اليمانى الملقب بجهينة الأخبار وعبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعى وغيرهم ، فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس ، فأعجبوا بها واشتغلوا عما سواها . ومن تلطفه فى الحيلة أنه قسمها إلى ٧٢ كتابا ، والتزم فى آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند معظم الأمر الذى يشــتاق القارىء إلى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه ، فإذا وقف عليه انتهى به إلى مثل ما انتهى الأول ، وهكذا إلى نهاية القصة . وقد أثبت فى هذه الكتب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها ، غير أنه لكثرة تداول الناسخين لها فســدت روايتها بما وقع فيها من الاغلاط المكرورة بتكرار النسخ(١)

ورغم أن الأب لويس شيخو لم يقدم بين دعواه هذه أى دليل ، فإنها مع ذلك تكاد تكون أقرب الروايات إلى الصحة إذا ما نظرنا إليها بعين فاحصة تحكم بالمنطق وبطبيعة الأشياء ، وتعتمد على دراسة النص نفسه وملابساته المختلفة . ولسنا نعنى بذلك القصة التى رواها الأب لويس بتمامها وتفاصيلها، وإنما نعنى مجملها وما تحمله من معان أولها : أن كاتب السيرة فرد واحد . فنحن نقر هذا الرأى على أساس أنه عين الصواب وليس يهمنا أن كان هـذا الشخص هو يوسف بن إسماعيل أو غير يوسف بن إسماعيل ، وإنما المهم هنا هو أن كاتب السيرة شخص واحد وليس عدة أشخاص كما يذهب كثير من الباحثين سواء منهم من اعتبر أن أول مظهر من مظاهر الأدب الشعبى أن يكون قد نشأ على الزمن كإنتاج مشترك لكثير من الأشخاص وربما فى كثير من الأجيال ، وبما أن سيرة عنترة من الأدب الشعبى فيجب أن يصدق عليها هذا الاعتبار ويتحتم أن يكون

---

(١) شعراء نجد والحجاز والعراق للقسم السادس ص ٨٨٢

قد أسهم فى انشائها أكثر من شخص . أو من اعتمد منهم على ضخامتها وعلى مافيها من أطناب ومن أخطاء ليستدل على أن سبب ذلك هو اشتراك أفراد عديدين فى وضعها .

والذى نود أن نؤكده هو أن كاتب سيرة عنترة فرد واحد ولا يمكن أن يكون أكثر من فرد بأى حال من الأحوال . والدليل على ذلك يكمن أولا فى فى البناء القصصى الممتاز الذى نلاحظه فى السيرة (والذى أفردنا له فصلا كاملا)، ففيها تسلسل الأحداث تسلسلا سليما من أول فصولها حتى الفصل الأخير ، ثم الاحالات التى يلجأ إليها الكاتب ، ففى الفصل الأول مثلا يقدم لنا زبيبة — أم عنترة — ويبرر عدم انقيادها لبقية الفرسان الذين أسروها مع شداد بقوله : « وقد أنكرت منهم تلك الأحوال لأنها من نسل قوم كرام ، وسوف نذكرها فى تأصيل نسبتها ، ونذكر سبب غربتها وفرقتها . ولكن نذكر كل شىء فى مكانه — بعون الله وسلطانه — إذا ما وصلنا إليه . »[1] ويستمر فى كتابة سيرته الفصل تلو الفصل حتى يصل إلى الفصـــل الرابع والثلاثين حيث ينتقل بفارسه إلى بلاده الأحباش ليقوم بسلسلة من مغامراته هناك فيفى المؤلف بوعده ويذكر لنا نسب زبيبة وأصلها وسبب غربتها قائلا : « وكانت أم عنترة — زبيبة — بنت النجاشى ملك الحبشان ، وكان ملك الحبشان قد زوج أمها بالملك بسام ، وهو أبو الملك همام ، وان الملك النجاشى هو جد زبيبة من الأبوين ، ونسبهم إلى حام بن نوح عليه السلام ، وقد غدر بزبيبة الزمان وحكم عليها القادر أن تقع فى يد العربان ، وأرسلها إلى بنى عبس وعدنان ، وأخذها شداد وأتت منه بعنتر ، وجرت هذه القصة بأمر مكون الأكوان ، الذى هو كل يوم فى شأن »[2] .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٧٦
(٢) السيرة مجلد ٥ ص ٤٠٢

فالقصة التى يرتبط فيها الفصل الأول بالفصل الرابع والثلاثين ، والتى يجيء فى مجلدها الأول إشارة لما سوف يرد فى مجلدها الخامس ، هذه القصة لا يمكن إلا أن تكون قائمة على أساس بنائى سليم ومتكامل ، ولا يمكن إلا أن تكون لكاتب واحد يكتبها وفق فكرة موضوعة وأصل منهجى . فهذه الإحالة والربط بين الأحداث ظاهرة نلمحها فى سيرة عنترة من أولها إلى آخرها وبشكل متكرر متواتر يقطع بأنها عمل قصصى سليم البناء وصادر عن كاتب واحد واع لما يصنع .

ويلفتنا هنا أن معظم السير الشعبية الأخرى لم يذكر لها مؤلف سواء فى صلب السيرة أو فى الروايات التى أثرت عنها الأمر الذى ربما أشار من بعيد إلى الإعتراف بأن تلك السير ألفت على يد أكثر من كاتب وفى أوقات متفاوتة بحيث يمكن أن نطلق عليها اسم « الأدب الشعبى » طبقاً لذاك المفهوم . أما سيرة عنترة فقد اتفق الجميع على وحدة مؤلفها سواء فى نص السيرة أو فى الروايات التى دارت حولها ، ولم يتناول الخلاف سوى شخصية هذا المؤلف ، حيث يدعى نص السيرة أنه الأصمعى بينما يرشح الرواة لذلك يوسف بن إسماعيل أو أبا المؤيد. فالجميع متفقون على وحدة المؤلف ولم يعترض الأب لويس شيخو إلا على النساخ الذين اقحموا خيالاتهم ورغباتهم للتزيد والتظرف والحصول على رضى العامة[1]. وهذا الاعتراض سليم ومقبول ، يثبته قصة ابن الصايغ سالفة الذكر ، كما يثبته اختلاف نصوص السيرة ما بين حجازية وشامية وعراقية ، وتثبته أخيراً سعة إنتشار سيرة عنترة ومدى ألف الناس لها فى جميع الأمصار وتعلقهم بها .

ومهما يكن من أمر فإن سيرة عنترة كانت قصة متكاملة مكتوبة يقوم النساخ بنقلها كما يقوم القصاص بقراءتها من تلك الصحائف التى نقلها القصاص عن الأصل الذى دفع به إليهم مؤلفها . وهذا يؤيد — إلى حد ما — نص

(١) شعراء النصرانية جـ ١ ص ٨٨٢

الأب لويس شيخو عن أن يوسف بن إسماعيل كان يكتب فصول قصة عنترة ويوزعها على الناس ، وأن الناس شغفوا بمطالعتها ولم يفتروا عن طلبها مما دفع النساخ الى اتخاذ نسخها مهنة مربحة وحتى تخصص بعض النساخ فيها ولقبوا باسمها.

وفى الطبعة البيروتية للسيرة الشامية نص للمؤلف يقول فيه : « أما السبب فى تأليف هذه السيرة العجيبة . والقصة الفريدة الغريبة ، فهو انى رأيت الناس قد أكثروا فى تلفيق الروايات السقيمة ، واشتغلوا بالغيبة والثلب والنميمة ، فأحببت أن أجمع الأحاديث الصحيحة ، واشغل بها الناس عن سوء العشرة القبيحة »[١] .

وهذا النص لا نريد منه الآن سوى التدليل على فردية كاتب السيرة الذى يذكر صراحة أنه هو وحـــده مؤلفها ، بمعنى انه كتبها طبقا لخطة قصصية موضوعة وأنه استقاها من احاديث صحيحة حدد لنا فى السياق رواتها مع ذكر اسم كل منهم قرين الخبر المأخوذ عنه ، فإذا كان الخبر مرويا عن اكثر من واحد ذكرهم المؤلف جميعا . اما إذا اراد ان يربط بين روايات الرواة بأحداث مؤلفة نص على ذلك صراحة بعبارة : قال المؤلف »[٢]

كل هذا يجعلنا نقطع بأن سيرة عنترة بن شداد ليست — كما يدعى البعض — اشتاتا من اقاصيص وروايات متفرقة تداولتها الألسن على مر العصور ثم جمعت فى كتاب على اساس واحد هو انها جميعا تدور حول عنترة بن شداد وإنما هى قصة متكاملة حاوية لجميع معالم القصة العربية ، بل ولكثير من مفاهيم القصة فى النقد الحديث من وحدة الموضوع وسلامة البناء ونماء الشخصيات والحبكة والمضامين الدرامية وغيرها . وليس هذا قاصراً على سيرة عنترة وحدها ولكنه يكاد يتواتر فى جميع قصصنا الشعبى إذ نلمحه فى سيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن والأميرة ذات الهمة وغيرها .

---

(١) طبعة المطبعة الادبية سنة ١٩٠٢ ص ٤
(٢) السيرة مجلد ١ صفحات ٨٥ ــ ١٠٨ ــ ١٢٨ وغيرها

فإذا حاولنا ان نستشف شخصية كاتب سيرة عنترة من خلال عمله القصصي وجدنا ان هذا الشخص تتوفر له خصال اربع هي :

١ — خبرة واسعة بأخبار العرب وايامهم وحروبهم ووقائعهم ونوادرهم واحداثهم وتاريخهم وعاداتهم وطباعهم . ثم هو خبير كذلك بأشعارهم واقوالهم، مما يدل على ان هذا الشخص كان واسع الثقافة غزير القراءة ، له نظرة عميقة مدققة فى تراث المكتبة العربية آنذاك ، كما ان له معرفة جيدة بالشعر والقوافى.

٢ — تدل معالجة كاتب السيرة لتاريخ البلاد غير العربية من فرس وروم وسودان وأحباش وغيرهم على خبرة واسعه بأحوال تلك الأمم وتاريخها وعادات أهلها وربما لغاتها كذلك ، كما تدل معالجته للأديان المختلفة من مسيحية ويهودية وبوذية وغيرها على انه خبير كذلك بتلك الأديان عليم بموقف الاسلام منها ، فنحن مثلا نجد انه لا يمنع بطله (عنترة) من دخول الكنائس بينما هو يمتنع عن ادخاله بيوت النار . وهذا يدل على خبرة بالثقافات الأجنبية — إلى جانب الثقافة العربية — وعلى معرفة بتعاليم الأديان المختلفة ، كما يدل على معرفة بموقف الاسلام من تلك الأديان وموقف العرب من تلك الشعوب .

٣ — سبق أن أوضحنا خبرة هذا المؤلف بالنفس البشرية ومعرفته بأحوال جمهور المتلقين الذين دفع اليهم بعمله القصصى فلقى أعظم النجاح مما يدل على عمق دراسات هذا الكاتب وحسن تمرسه واتساع دائرة تجاربه وخبرته بالنفس البشرية .

٤ — عملية بناء مثل هذا العمل الأدبى تحتاج ولا شك إلى كاتب متفنن له حاسة قصصية وموهبة روائية وتمرس طويل فى هذا الفن من فنون الانشاء الأدبى وتجارب عديدة فى مثل هذا العمل .

هذه الخصال الأربع التى تتوفر لكاتب سيرة عنترة تحدد شخصيته الفنية ، أما أسلوبه فيكاد يحدد مكان كتابة السيرة — أو على الأصح — أصل كاتبها والاقليم الذى ينتسب اليه ، فالألفاظ المصرية والاصطلاحات التى كانت منتشرة

فى مصر آنذاك تنتشر لا فى السيرة الحجازية (المطبوعة فى القاهرة) وحدها ، وإنما فى السيرة الشامية كذلك ثم فى السيرة العراقية ، الأمر الذى جعل الدكتور فؤاد حسنين يقول: « ان وطن السيرة هو مصر»[1] . وهذه التعبيرات المصرية لم تنتشر فى السيرة فحسب وإنما وجدت كذلك فى الشعر المنحول على عنترة (كما سبق أن بينا) مما يعزز نص الأب لويس شيخو الذى ذكر فيه ان مؤلف السيرة هو الشيخ يوسف بن اسماعيل المصرى الذى كان يتصل بباب العزيز بالله الفاطمى الذى حكم بين عامى ٣٦٥ و ٣٨٦ هـ ، وهو ثانى الخلفاء الفاطميين بعد المعز لدين الله الذى فتح مصر وأنشأ فيها الدولة الشيعية .

ولكن كتب الأدب والتاريخ لا تذكر لنا شيئا عن يوسف بن اسماعيل هذا ، ولا تدرجه ضمن كتاب العزيز أو تورد ما يؤيد علاقته به . فإذا تقدمنا مع نص الأب لويس شيخو وجدناه يقول بأن سبب تأليف السيرة هو وقوع ريبة فى قصر العزيز لهج الناس بها فى المنازل والأسواق فشاء العزيز أن يشغلهم عنها فأشار على الشيخ يوسف أن يطرفهم بكتابة هذه القصة .

ولكن كتب التاريخ كذلك لا تحدثنا عن ريب حدثت فى قصر العزيز ، بل انها على العكس من ذلك تصور لنا العزيز بالله باعتبار انه المدعم الحقيقى للدولة الفاطمية وان عصره كان قمة حكمهم ، فقبل ذلك كان أبوه — المعز لدين الله — يسعى لانشاء الدولة الفاطمية ويجاهد فى ارساء دعائمها ، وبعده جاء ابنه الحاكم بأمر الله الذى بدأ يميل بحكم الفاطميين نحو النهاية ، وهكذا كان عصر العزيز هو عصر القمة للدولة الفاطمية . يضاف إلى هذا ان العزيز لم يكن من الخلفاء سكان القصور وطلاب المتع وإنما قضى معظم سنى حياة حكمه فى توسيع رقعة دولته وفى قمع حركات المناهضين له . ففى تلك الفترة التى لم تزد على العشرين عاما ضم العزيز بالله إلى ملكه كلا من حمص وحماه وشيراز وحلب والموصل

---

(١) قصصنا الشعبى ص ٧٧ .

واليمن(١) ، وفيها أيضا واجه ثورة القرامطة ثم ثورة افتكين التركى الذى كان قد استقل ببلاد الشام ، ومات العزيز وهو فى حربه مع القرامطة(٢) . فاحتمال وقوع الريب فى قصر مثل هذا الرجل احتمال بعيد بعض الشىء .

وسيرة عنترة ، لو أنها وضعت حقا بأمر الخليفة لحظيت برعايته ولاحتفى بها الفاطميون ودعاتهم ولاتخذوها وسيلة من وسائل نشر مذهبهم وبسط سلطانهم وتأثيرهم على العامة .

يقول الدكتور محمد كامل حسين : ان فن السير — وهو ذلك الفن الذى يعد من فنون التاريخ — كان له شأن كبير فى الحياة الفكرية لمصر الاسلامية، فابن الداية كتب سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه أبى الجيش ، وابن زولاق كتب سيرة الاخشيد وسيرة ابنه وسيرة كافور وسيرة المعز لدين الله وسيرة العزيز . ثم حدثنا الدكتور محمد كامل حسين بعد ذلك عن سيرة جوهر الصقلى وسيرة المؤيد للشيرازى(٣) .

وجميع أصحاب هذه السير — كما نلمح من أسمائهم — ليسوا بمصريين ، بل وربما ليسوا بعرب كذلك ، ولكن وجود سيرهم يدل على أن عمل السير أمر لم تكن تمنعه التعاليم الشيعية ولا يقف أمامه الخلفاء الفاطميون وإنما كان على العكس من ذلك وسيلة من وسائل تعريف الشعب بخلفائه الجدد وبكبار رجال دولته ، كما كان لونا من ألوان دعايتهم المذهبية . فنحن نجد ابن النديم فى كتابه الفهرست يعدد لابن مسعود العياشى — أحد فقهاء الشيعة — ما يقرب من المائتى كتاب ثم يضيف قائلا : « ومما صنفه من رواية العامة كتاب سيرة أبى بكر ، وسيرة عمر ، وكتاب سيرة عثمان ، وكتاب سيرة معاوية »(٤) .

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى لحسن ابراهيم حسن جـ ٣ ص ٢٥٧ .
(٢) السابق جـ ٣ ص ٢٥٩ .
(٣) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٣ .
(٤) الفهرست لابن النديم ص ٢٧٧ .

إذن فهذا هو المجال الذى يستطيع المصريون أن يفروا اليه هربا من وطأة الشيعيين وتضييقهم الخناق على تعاليمهم السنية ، وتعويضا عما يلقونه من عنت الفاطميين الذين أتوا اليهم من بلاد المغرب . فعلى منوال سير الخلفاء الأعاجم ورجال دولتهم الأجانب ، راح المؤلف المصرى المتفنن يضع سيرة من طرازها تحمل نفس المضامين التاريخية وتتفق معها فى المنهج البنائى العام وفى طريقة العرض ، وفيما عدا ذلك فانها تتجه أولا إلى المشرق لتختار بطلها من هناك — ذلك البطل الذى هزم المغاربة وفتح بلاد شمال افريقيا ، وهو بعد ذلك ليس بملك ولا ابن ملك - مثل خلفاء الفاطميين الذين ألهوا أنفسهم واعتبروا سواد الشعب عبيدا - وإنما هو عبد حقيق حطم قيود عبوديته وسار ليذل بشجاعته أعتى ملوك الأرض من فرس وروم وأحباش وهنود .

وسواء قصد مؤلف سيرة عنترة إلى هذه الأهداف التعويضية التى حملها لها ضد الحاكم المستبد ، أم انها ظهرت دون قصد منه ، فالذى لا شك فيه هو ان السيرة كانت تحمل الراحة النفسية والرضى الوجدانى لذلك الشعب المغلوب على أمره مما دفعه إلى الاقبال عليها بحب وشغف تغلغل فى أعماق النفوس وتوارثه الأفراد جيلا بعد جيل حتى العصر الحديث » .

لهذا فاننا نعتقد أن سيرة عنترة بن شداد كانت من أوائل السير الشعبية ، وانها وضعت فعلا فى أوائل العصر الفاطمى ، وربما ألفها يوسف بن اسماعيل - أو غير يوسف بن اسماعيل — ولكن ليس بأمر الخليفة العزيز ولا لخدمة الفاطميين .

واختيار عنترة بطلا لهذه القصة الشعبية لم يكن مجرد اختيار عابر ، وإنما كان اختيارا له أسبابه وأهدافه ، وطبقا لأغراض سياسية واجتماعية ونفسية . ويضيف الدكتور فؤاد حسنين — إلى ما سبق — سببا آخر أعم وهو ان هذه السيرة الشعبية « أريد من تأليفها تثقيف الشعب وتعليمه تاريخه القومى ليتبصر

فى ثقافته ويتعصب لقوميته »[1] .

وهذا القول لا يتعارض مع ما سبق أن ذهبنا اليه ولكنه أعم منه إذ يقصد به السير الشعبية على وجه العموم ومن بينها سيرة عنترة ، وهو بالنسبة لهذه السيرة أوضح مما فى السير الأخرى .

لكل هذا فاننا نعتقد أن سيرة عنترة بن شداد قد وضعت فعلا بمصر فى تلك الفترة من تاريخها التى وقعت فيها تحت سيطرة حكام من غير أهلها وفرضت عليها تعاليم ومذاهب تختلف عن تعاليمهم ومذهبهم . وقد لقيت هذه السيرة كل الرواج لدى الشعب المتلقى فى الوقت الذى لقيت فيه كل اعتراض واهمال من المؤرخين والدارسين المرتبطين بالسلطات الحاكمة .

ولا يهمنا بعد ذلك ان كان مؤلفها هو الشيخ يوسف بن اسماعيل أو غير الشيخ يوسف ، وإنما الذى يهمنا هو تأكيد وحدة مؤلفها ، وانها عمل روائى متكامل لكاتب متفنن وضعه تحت الحاح انفعالات وجدانية معينة ولتحقيق أهداف بذاتها وطبقا لخطة منهجية موضوعة وسليمة من حيث البناء القصصى .

---

(١) قصصنا الشعبى ص ٤٤ .

الفصـــل الرابع

مقدمة السيرة الحجازية

تنفرد السيرة الحجازية بفصل طويل يصل إلى حوالى السبعين صفحة ،وهذا الفصل يضم تمهيدا روائيا للقصة ، وهو تمهيد تبدو اصالته واهميته بما يحمل من سمات عرفت عن الروايات العربيه ، ذلك أنه يحدد موقف بطل القصة — او صاحب السيرة — من التيارات التى تتحكم فى بيئته وعصره ودوره فى هذه التيارات بما يخلق للبطل رسالة معينة لها سمة دينية وتبدو تفسيرا طبيعيا يقدمه مؤلف السيرة بين يدى هذه الرواية . ذلك انه يذكر ان المحدثين والمخبرين ذكروا أمر العرب الشجعان فى الجاهلية وما عكفوا عليه من عبادة للأصنام وتقديس للأوثان ، وما كرسوا حياتهم له من منافسة على الشهرة والنفوذ ... « وكان كل منهم يريد ان يكون مامثله أحدعلى وجه الارض ، ويقهر شجعانها بالطول والعرض ، وكانوا لا يخافون الله ولا يراقبونه ولا يخشونه ولا يحترمونه[1] » .

فهذا هو المهاد البيئى والإجتماعى الذى ظهر فيه عنترة شجاعا لا يقل عن أى منهم شجاعة إن لم يزد ، يتحرك فى اطار اسطورى يجعله سيفا مسلطا على اعناق هؤلاء الفرسان جميعا ، وكأنما يتعمد الكاتب أن يخلق المواقف القصصية التى تجعله يلتقى بأشهر ابطال الجاهلية واعتاهم متجاوزا فى هذا كثيرا عن الترتيب الزمنى والحقائق التاريخية ، وعنترة دائما منتصر ، وهو دائما قاتل لخصمه .

---

(١) السـيرة ص ٤

وهنا يبدو بوضوح اهمية هذا المهاد الذى رسمه المؤلف لانه يحدد الهدف الذى من أجله يعيش عنتره ، وينتصر عنترة . يقول : « ولما أراد الله سبحانه وتعالى اهلاك أهل تجبروا وتكبروا اذلهم الله تعالى وقهرهم بأقل الاشياء عليه واحتقرهم لديه ، وكان ذلك غير عسير عليه . وذلك بالعبد الموصوف بأنه حية بطن الواد ، الذكى الفؤاد ، الطيب الميلاد ، عنترة بن شداد . الذى كان فى زمانه شرارة خرجت من زناد ، فقمع الله به الجبابرة فى زمن الجاهلية ، حتى مهد الارض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية[1] » .

فعنترة اذن فارس له دور بين ابطال الاسلام ، وهو فارس يضرب بسيف الإيمان ويحارب اعداء الله الكفار الذين افسدوا الجزيرة قبل الإسلام واصبح من المحتم ان يزولوا حتى لا يقفوا أمام محمد عليه السلام حجر عثرة دون نشر الدعوه الإسلامية ، وفتح القلوب أمام الدين الجديد .

وعنترة بهذا فارس — وإن كان جاهلى المولد والحياة — إلا انه يمت بسبب كبير إلى الإسلام . وحسبك من سبب ان يكون هو السيف والذى يمهد الارض قبل ظهور الدين الجديد .

البطل فى هذه الرواية يتفق إذن مع ابطال العرب جميعا فى رواياتهم التى دونت فى العصور الإسلامية من ناحية الهدف . وهذه السمة لابد أن تتوفر فى كل بطل إسلامى . ففى السير التى تشابه سيرة عنتره نجد سيف بن ذى يزن مثلا يخرج من اليمن وقبل ظهور المرحلة التاريخية التى عاش فيها عنترة بزمان طويل ليدافع عن الاسلام بمعناه المطلق ؛ وهو المعنى العربى الذى يربطه بدين ابراهيم الخليل والحنيفة ذاتها . وكاتب سيرة سيف يوضح هذا بصراحة . فسيف يقتل كل مشرك وكافر يعترض طريقه ، ويعيد الناس بالسيف إلى الإسلام . والظاهر بيبرس

---

(١) السيرة ص ٤ ـ ٥

فى سيرة الظاهره يحارب الصليبيين وينصر دين الإسلام — وهو هنا دين الاسلام بمعناه الخاص — على الكفرة الذين يريدون بأرضه الشر .

بل أننا نلمح هذا فى السير التى عرفت عن العرب قبل الإسلام ودونت فى عصور متأخره . ولعل أوضحها فى هذا المعنى ما نراه فى الحكايات التى يرويها وهب بن منبه مثلا فى كتابه « التيجان » عن الصعب بن ذى مراصد ذى القرنين الذى خرج ليقتل الكفار فى شرق الأرض ومغربها ، والذى اجتاح العالم بأسره بجيوشه حتى وصل إلى أرض الشياطين وأرض الملائكة ، يقتل كل من كفر ، ويعيد إلى الإيمان بالله كل من صادف من بشر . يقول وهب : « فسارا (أى ذو القرنين والخضر) يريدان مطلع الشمس يدعوان إلى الإيمان ، ولا يأتيان على أمة الا آمنت أو هلكت ، حتى بلغا المحيط من عجز الأرض تحت بنات نعش ، فأصابا فيها أمما من بنى يافث بن حام واوشابا من بنى سام ، فلم يزل يحملهم على الإيمان ، فمن آمن نجا ، ومن صرف عن الحق حمله على السيف[1] » .

وتتكرر هذه الظاهرة فى جميع الشخصيات البطولية التى يعرفها الأدب العربى فلابد أن يكون البطل دائما مدافعا عن حق ، وأن يكون هذا الحق على علاقة بالدين وعنترة ليس ملكا من ملوك الجاهلية الأولى حتى نقول أنه كان يدافع عن دين الدوله ، كما أن عنتره ليس من قوم يصح أن يكونوا على علاقة بدين من أديان الجزيرة المعروفة حتى يرتبط اسمه بهذا الدين ، بل أن عنترة كان يعيش فى الفترة التى سبقت الاسلام وهى فترة برزت فيها صور الالحاد وعدم التمسك بالتقاليد الدينية الأولى والانصراف إلى عبادة الأصنام مما يجعل من عنترة بطلا وثنيا لولا هذا الهدف الواضح الذى شاء مؤلف السيرة أن يربط به عنترة ربطا واضحا ليساير التقليد العام فى الأبطال الاسطوريين من ناحية ، والعرف العربى

---

(١) التيجان ص ٩٧ ط حيدر اباد .

العام الذى يريد من البطل دائما أن ينصر حقا ويهزم باطلا من ناحية أخرى، بل وليساير الروح الاسلامية التى تملأ قلوب من يروى لهم هذه السيرة ويربط بين بطله وبين نفوسهم وقلوبهم برباط من التعاطف والود ، إذ يجعل من بطله مقدمة قوية لظهور الإسلام للبطولات التى تمت بعد ذلك وظهرت فى الاسلام .

ومؤلف السيرة — بهذا التحديد — قد نفى عن بطله شبهة القسوه التى لامبرر لها ، وشبهة العنف التى قد تجعله بغيضا إلى قلوب المتلقين، كما غطى بلباقة تلك العوره التى يحسها كل مسلم فى بطل غير مسلم وهى أنه لم يعرف الإسلام. وصل المؤلف إلى كل ذلك بأن وضع لبطله هدفا يساير جميع تلك العوامل ويتجاوب معها فتجد الاحداث بعد ذلك تجاوبا فى قلوب الناس . ثم هو أيضاً قد وجد لنفسه مايبرر به الاعمال الخارقة التى كان عنتره يأتى بها ، ذلك أنه مؤيد بقوه خفية تفتح أمامه الطريق وتنصره فى وقت اشتداد الازمة وتعيد إليه قوته الذاهبة إذا ما اشتدت المعركة ، وترمى بهيبته فى قلوب أعدائه . تلك القوه الخفية الخارقة هى التى كرسته لهذه الغاية وجعلت منه « اقل الاشياء » التى قهر الله بها الكافرين وقمع الجبابره فى زمن الجاهلية « حتى مهد الارض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية » .

وعنترة هنا يكتسب صفة ثانية من صفات البطل الاسطورى العربى وهى مسانده القوى الخفية . فمن الواضح أن أبطال العرب الاسطوريين أمتازوا دائما — إلى جوار مالهم من قوه بدنية — بمساندة قوى خيرة غير محدودة بماللقوى البشرية من حدود . فنحن نرى ذا القرنين تأتيه الاخبار فى أحلامه بما يفتح له آفاق الغد فيعلم مايجب عليه أن يقوم به من أعمال ، وهو أيضاً تقف إلى جواره شخصية خالدة هى شخصية « الخضر » عليه السلام تشرح له ماغمض عليه من أمور وتؤيده بعلم غيبى يفهم كل شىء ويحيط بكل شىء . وسليمان الحكيم كذلك تؤيده — حسب رواية القرآن الكريم نفسه — قوى الجن والرياح وتسخر له الجمادات والحيوانات ، ويخضع له كل مخلوق — ظاهر ومستتر — على ظهر

الأرض أو فى باطنها . ونرى فى قصة سيف بن ذى يزن صراعا بين قوى الخير وقوى الشر يمتد — لا بين بنى الإنسان فحسب — بل بين الجن الخير والجن الشرير ، وبين أصحاب السحر والكهانة من خيرين وشريرين . والخيرون بالطبع - فى كل هذه القوى - يؤيدون سيفا .

أما بطلنا عنترة فالقوة التى تؤيده ليست بهذا الاغراق فى الغيبية ، وإنما هى قوى تتركز فى ظاهره واحدة هى قدرته العجيبة على الإستمرار فى الحرب ليل نهار دون ما كلال أو ملال . فإذا أحس الكاتب أن المتلقى بدأ يعجب من صمود عنتره الطويل هذا قال — وكأنما هو يهمس فى أذنه — « وكان عنترة يتميز بهذه الظاهره ، أيده بها الله سبحانه وتعالى ، وهى أنه كلما أوغل فى الحرب إزداد نشاطا وقوة وقدرة على مواصلة الحرب ، وكأنما هو لم يبذل فيها جهدا قبل هذا » . فعنترة إذن مؤيد بقوه غيبية تسانده وتساعده على تحقيق الغايات التى كرسه الله من أجلها وهى القضاء على الكافرين .

إلا أن كاتب سيره عنترة يصر على التمهيد لظهور بطله والحديث عن أهله وقبيلته قائلا : « ولكننا لا نذكرهم حتى نذكر حديث سيدنا إبراهيم عليه أفضل الصلاه والتسليم ، وبعد ذلك نذكر الاصل والفرع ، ونصلى نحن وأنتم على صاحب السنة والشرع ، وماجرى له مع النمروذ بن كنعان لعنة الله وغضبه عليه ، وكيف أراد أن يلقى خليل الرحمن فى النار ، كيف جعلها الله عليه بردا وسلاما ، وكيف أهلك الله النمروذ بأضعف الاشياء عليه . ونذكر حديث سيدنا اسماعيل ، على نبينا وعليه أفضل الصلاه والسلام وأتم الرضوان من الملك المنان . ونذكر من يتفرع من أهل العرب الشجعان ، وما تفرع غيرها من قبائل العرب . وبعد ذلك نذكر كل قبيلة وعربها وفرسانها وشجعانها وماتم لهم فى زمن الجاهلية من القيل والقال »[١] .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٥

ومؤلف السيرة فى هذا إنما يرفع نسب بطلة إبراهيم ، ويشير إشاره ضمنية إلى أن مايجرى لعنترة من أحداث إنما هو إمتداد لما جرى لإبراهيم ، وهو يختار من حياة إبراهيم موقفاً بذاته يقف عنده وقفة طويلة ذلك هو موقفه من النمروذ بن كنعان كأنما ليجسد موقف الأبطال من قوى الشر والكفر . وهو أيضاً يربط — من حيث النسب — بين عنترة والقبائل التى سبقته إلى إسماعيل ثم إلى إبراهيم . وتحديد النسب للبطل عامل من أخطر العوامل بالنسبة للبطل الاسطورى العربى ومؤلف سيرة عنترة يذكر نسب بنى عبس بذكره لنسب ملكها فيقول : « وكان اسمه زهير بن جذيمة بن رواحة بن بغيض بن عبس بن ذبيان بن قيس بن خزاعة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . » وشداد أبو عنتره واحد من هذه القبيلة . وهذه القبيلة التى تنتهى بنسبها عند عدنان واحده من قبائل العرب التى ترتبط بهذا النسب ثم ترفعه إلى اسماعيل ومنه إلى ابراهيم فعنترة بهذا إذن عربى يتصل نسبه بأبى العرب اسماعيل وبالنبى العربى الأول ابراهيم .

وإذا كان من سمات البطل العربى الأسطورى أن يدافع عن رسالة ويرفع شعلة حق ، وإذا كان من سمات البطل العربى أن تؤيده قوه خفية — وهى لابد أن تكون قوه خيرة — ، فان من سمات البطل العربى كذلك أن يكون عربى النسب واضح الأبوه أبا عن أب حتى ابراهيم . وربما كان ذلك لأن العرب شغفوا بتحديد أنسابهم وأقاموا علما كاملا يحفظ لهم ذلك هو علم الأنساب الذى كان من أوائل العلوم التى ظهرت فى بداية الاهتمام بالرواية فى صدر الاسلام ، ومن أشهر من ألف فيه زياد بن أبيه والنسابة البكرى . ومؤلف السيرة يحس منذ البداية بأن بطله المهجن الأم ، الأسود الوجه ، يقف عند هذه النقطة موقفا ضعيفا . ولهذا نراه يحاول منذ اللحظة الأولى أن يعالج هذه المشكلة بل انه ليجعلها لا تغيب عن باله فى كل فصل من فصول روايته الطويلة .

ففى مطلع السيرة نراه يدمج نسب عنتره فى نسب قبيلته ، ثم يدمج نسب قبيلته

فى نسب ملكها ، ثم يرفع هذا النسب فى سلسلة تصل به إلى غايته . فاذا ما كانت أحداث الفصول الأولى أحسسنا مدى الجهد الذى يبذله المؤلف ليبرز هذا الجانب من الصراع فى شخصية عنتره ، ولا يقدمه لنا بطلا أسطوريا خارق الأفعال إلا بعد أن ينتهى روائيا من اقرار هذه النقطة والوصول بها إلى الحل المنشود . فعنتره فى الأجزاء الأولى من السيره يصارع صراعا مريرا فى سبيل اتصال نسبه بأبيه . وهو — حتى يحقق هذه الغاية — ليس إلا فارسا عاثر الحظ يحاول أن يتغلب على ما يواجهه من مشكلات النسب ومشكلات اللون فهو فى هذه المرحلة ذاتى الصراع . فاذا ما تغلب على تلك المشكلات وحظى بصحة النسب ، استطاع الكاتب بعد ذلك أن يبدأ فى تقديمه لنا بطلا أسطوريا يحقق لقبيلته ولقومه وللعرب جميعا انتصارات باهرة ، ويخرج ليؤدى الغاية التى رسمها له المؤلف وهى أن يزيل الجبابره والكفار من طريق الرسالة المحمدية .

عنتره إذن عربى النسب ونسبه يرتفع فى وضوح إلى جد العرب جميعا ابراهيم وقد يكون فى هذا شرف يكفى البطل ، ولكن المؤلف يحس بأن هناك نقطة تحتاج هى الأخرى إلى حل قبل أن يصل ببطله إلى المكانة الأسطورية . تلك النقطة هى أمه زبيبة الجارية الحبشية . ويرجىء المؤلف الحديث عن هذه النقطة، ويظل منها على وجل ، حتى ينتهز فرصة المعارك بين عنتره والأحباش ليكشف لنا عن مفاجأته الكبرى وهى أن زبيبة كانت ابنة ملك الأحباش . وبذلك يتصل نسب عنتره إلى حام كما اتصل من قبل حتى سام ويصبح عنتره شريف النسب عاليه من ناحية أبيه الذى يتصل نسبه واضحا إلى ابراهيم ومنه إلى آدم ، وشريف النسب عاليه من ناحية أمه كذلك وهى التى كانت مطعنا يوجه اليه — بعد أن أوصلها المؤلف فى حذق بأعلى رأس فى السود — فلن يضير عنتره أن يكون سبطا لملك الأحباش كما كان يضيره أن يكون ابن أمة سوداء مجهولة النسب .

بهذا تغلب مؤلف السيرة على كل ماقد يقف حائلا دون اكمال الشرط الثالث من سمات البطل الروائى العربى وهو شرط اتصال النسب ورفعته . وبعد ذلك

يستطيع ان يقدم لنا فارسه — الذى تحققت له سمات البطل العربى الأصيل — ويجعل منه نموذجا للفارس العربى .

والواقع ان ما تكلفه المؤلف فى هذه المقدمة التى تنفردبها الطبعة الحجازية من السيرة إنما يحقق للبطل كل هذه السمات ، ويمهد لظهوره تمهيداً طبيعياً من الناحية الروائية . فيبدأ بذكر معارك الإيمان ضد مظاهر العسف والكفر والطغيان منذ آدم ، ويحكى لنا قصة إبراهيم مع النمروذ بن كنعان بادئا بذكر آباء النمروذ الذى هو من اولاد « كوش بن حام » الذين تتمثل فيهم صفات التجبر والطغيان . فاخو كوش ـ زاغور ـ جبار لايطيقه أحد ، وكوش نفسه أشد قوة وتجبراً ، يسىء ويخرب ويقتل وينهب بل انه ليخادع كذلك .

وهذه السمات لا توضع هكذا عبثا ، وإنما يحدد بها المؤلف — بطريقة تقريرية مرة ، وخلال احداث روائية مرة اخرى — مواقف الأمم حول العرب وسماتهم ليبين فضل العرب عليهم وهو الفضل الذى يؤكده عنترة بحروبه الكثيرة التى يهزم فيها الأحباش مرة والفرس مرة والروم مرة ، ويجعل من سمات الفارس العربى سمات لا مثيل لها ، هى جماع الفضائل ، وهى فى الوقت ذاته المثل الأعلى ... يقول مؤلف السيرة : « وكان الملك فى اولاد سام ، والتجبر فى اولاد حام ، والفتوة والنبوة فى اولاد يافث . »[1] ويقسم الكتاب بعدذلك الامم إلى اما كنهم محددا بهذا قيمة العرب ومكانهم ، كما يحدد لهم ايضا موقفا نفسيا معينا من الأمم الأخرى يجعلنا نتقبل انتصارات عنترة بتجاوب نفسى قد مهد له المؤلف بما اثبته فى هذه المقدمة من سمات للعرب لا يجاريهم فيها غيرهم من الامم .

والمؤلف يقص علينا قصة إبراهيم والنمروذ كاملة . فبعد ان افرد فصلا كاملا عن بعثة ابراهيم وما جرى له من أحداث ، قدم لنا صوره روائية رائعة لحكايته مع النمروذ ، ولتلك الحروب التى ثارت بين جيوشهما ، وكيف صنع

---

(١) السيرة مجلد ر ١ ص ٥

ابليس المنجنيق للنمروذ ، وكيف قطع الله نسل البغال لأنها كانت تحمل الحطب للنار التى أوقدوها لحرق ابراهيم ، ثم يمضى المؤلف مع ابراهيم فى رحلته إلى الشام ثم إلى مصر ثم إلى الحجاز ، ويروى كيف تزوج ابراهيم من هاجر القبطية ولعله يقصد المصرية — ثم يحكى لنا قصة هاجر وابنها اسماعيل فى أرض الحجاز ، وكيف أيد أهل اليمن اسماعيل حتى غدا أبا العرب ، ثم قصة ذبح اسماعيل وكيف افتداه الله ، ويذكر بعد ذلك زواج اسماعيل وتملكه على تلك البلاد . .. وكان من أولاد اسماعيل « قيدار » فيحكى المؤلف ما جرى له مع يعقوب بن اسحق - وهو ابن عمه — ثم يحكى كيف تزوج قيدار وظل يتعاقب نسله إلى زمان معد بن عدنان ، ورزق معد ولدا فسماه نزار ، ورزق نزار أربعة أولاد فكانوا ايادا وربيعة ومضر وانمار .

والجزء الأول من هذه القصة — وهو ما يتعلق بموقف ابراهيم والنمروذ ثم بحكاية ابراهيم مع هاجر — يغلب عليه سمة المصادر اليهودية . فإذا تقدمنا قليلا فإن تلك الأجزاء من حكاية إسماعيل وفدائه تكاد تكون تفسيراً لآى من القرآن الكريم . وعندما ينتقل إلى الحديث عن الجزيرة العربية نراه يميل إلى نصفة اليمنيين ، ثم هو يفرق فى أولاد اسماعيل بين اسحق — والد يعقوب ومن تلاه من بنى اسرائيل — وبين قيدار وولده نزار جـــد النبى عليه الصلاة والسلام .

هذه الرغبة الملحة فى القصص عن الأنبياء وعن الجزيرة العربية قبل الوصول إلى سيرة بطل الرواية إنما هى تحديد لأماكن الأبطال الذين سيأتى ذكرهم بعد ، وهى أيضاً تمهيد لظهور الإسلام الذى يريد المؤلف أن يجعل من عنترة حامياً من حماته وممهدا لظهوره وليس من عجب أن تروى هذه الأجزاء كلها عن « وهب بن منبه » . فمعروف أن وهب يعتبر من أقدم رواة سير الأنبياء فى الجزيرة العربية كما يعتبر من أمهر رواة القصص . ووهب من أصل يهودى ، وهو أيضاً يمنى ، ومن هنا جاءت التأثيرات اليهودية كما جاءت التأثيرات اليمنية .

ووهب من رواة المغازى بعد الإسلام ، فهو إذن اسلامى الثقافة إلى حد ما ، ومن هنا بدت بعض أجزاء روايته وكأنها تفسير لآى القرآن حول هاجر والبيت الحرام وقصة الفداء .

وليس من شك فى أن التفسيرات الأسطورية التى يقدمها الكتاب لهذه القصة — قصة ابراهيم — تحمل من الخصب والأصالة ما يجعلنا نشك فى أن كاتب السيرة قد نقلها نقلا عن وهب من بعض كتبه التى لم تصل إلينا ، خاصة وأنه يردد بين فقرة وأخرى الاحبار ، وكعب الأحبار من أشهر رواة القصص الجاهلى .

مؤلف السيرة فرق إذن بين أولاد نوح ووضع لكل منهم سمة من السمات ثم استمر بعد ذلك حتى فرق بين أولاد ابراهيم بن سام لجعل قيدار من ناحية وجعل اسحق فى ناحية . ثم استمر بعد ذلك أيضا ليفرق بين أولاد قيدار حينما يصل منهم إلى نزار فيجعل أولاد نزار أربعة هم : أياد وربيعة ومضر وانمار وكلهم أولاد نزار بن معد بن عدنان .

والمؤلف فى هذه الوقفة يحاول أن يقسم الأصول العربية التى تكون الشعب العربى إلى سمات أربع لحين تأتى الوفاة نزارا يجمع أولاده ويوصيهم بأن يفضوا رقعة معينة تحوى وصيته بعد موته وأن يعملوا بما جاء فيها ، فإذا ما اختلفوا فليقض بينهم الملك الأفعى بن الجرهمى ، فلما مات وفتحوا الرقعة وجدوا مكتوبا فيها أن الخيل والسيوف والرماح وآلة الحرب والكفاح لأياد ، أما الغنم والجمال والابقار فهى لانمار ، والخيل الشقر والقباب الحمر لربيعة ، بينما النعم والعبيد والإماء فلمضر . واختلفوا فقصدوا إلى الأفعى ليحكم بينهم ، وإذا بهم فى الطريق يقفون موقفا قصصيا يريد منه المؤلف أن يكشف لنا عن سمات أخرى تفرقهم . . . يكشف عنها هذه المرة ببيان ملكاتهم . أما الحادثة فهى أنهم وجدوا أثر بعير كأنه شارد وإلى ناحية الماء الذى بين أيديهم وارد(١)

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٥٤

فقال ربيعة : أن الجمل أهوج . وقال مضر : وأنا أقول أنه أعور . فقال انمار: وأنا أقول أنه أزور . وقال أياد : وأنا أقول أنه أبطر . وحين يصل إليهم صاحب البعير يحكون له صفاته فيتهمهم بسرقته ، ويسيرون جميعاً إلى الأفعى الجرهمي ليحكم بينهم .

فإذا ما وصل أولاد نزار بن معد إلى الملك الأفعى أدخلهم إلى دار الضيافة وأحضر لهم الطعام خروفا مشويا وخبزا أبيض وخمرا وبعد أن أكلوا ودارت الخمر برءوسهم قال ربيعة : ما أطيب لحم هذا الخروف لولا أنه رضع من كلبة . وقال مضر : ما أطيب هذا الخمر لولا أن كرمه مغروس بجانب جبانة . وقال أياد : ما أطيب هذا الخبز لولا أن عاجنته كانت حائضا . وقال انمار : إن صاحب هذا الزاد ينسب إلى غير أبيه .

وسمعت جارية ما دار بينهم من حديث ونقلته إلى الملك فغضب واحضرهم ومعهم صاحب الجمل . وحكى له الأعرابي قصة جمله الذى تاه وعرفه بصفاته هؤلاء الاخوة ، وحين سألهم كيف عرفوه برروا له هذا الذى وصفوه تبريرا يكشف عن مواهب كل منهم . أما من قال عنه أنه أعور فقد لاحظ أن البعير أكل النبات من جهة واحدة ، ومن قال أنه أزور أى مخلوع الحنك — فقد لاحظ أن مكان أكله متعفش ، أما من قال عنه انه اهوج فقد لاحظ ان مشيه ليس مستقيما ، اما من قال انه ابتر فقد لاحظ ان روثه كتل والجمل ذو الذنب يفرق روثه بذنبه .

وهكذا انتهت القصة الأولى وخرج الرجل صاحب الجمل بينما بدأ الافعى يسألهم عما قالوه عن طعامه . وقد اثبتت إجاباتهم جميعا دقة ملاحظتهم وعرف الملك الافعى أنهم صدقوه فى استنتاجاتهم وحكم بينهم بأن يرضوا بما قسم أبوهم . وبهذا أكد المؤلف ما أراد أن يؤكد من سمات للعرب جميعا وهى

سمات الذكاء ودقة الملاحظة وسرعة البديهة ، وكما اوضح ما بين هذه الأصول العربية من فروق .

ثم أفرد المؤلف بعد ذلك الحديث عن مضر ، وخص بالذكر ربيعة ومنها ذلك الحى الذى منه عبس وهو غطفان — أكبر أحياء ربيعة ، وخص من أولاد مضر بنى عبس ، فبدأ بذكر ملكهم الأكبر جذيمة وما استطاع أن يحققه من مال وقوة وبأس ، وراح يرسم لنا صورة قصصية لعصر ذلك الملك وما امتلأ به من حروب أدت فى نهاية الأمر إلى مصرعه على يد الملك الرباب . ثم تولى من بعده ابنه عمرو ، فابنه زهير . وكأنما يحكى المؤلف سلسلة تاريخ بنى عبس متتبعا فى هذا التاريخ أخبار ملوكهم من خلال أخطر الحوادث التى مرت بحياتهم وراسما فى نفس الوقت صورة كاملة لما تحلى به ملوك عبس من شجاعة وقوة ، وما اتصف به فرسانهم من جلد على القتال ومهارة فيه . فإذا ما وقف المؤلف عند زهير فهو يشير إلى ما وصل إليه من عز وسؤدد وذلك بمحاولته أن يبنى بيتا إلى جوار الكعبة ، وما نهاه الناس عن ذلك إلا لخوفهم أن يلقى جزاء بغيه إذ ينافس بيت الله الحرام .

والمؤلف بهذه الإشارة يدلل على ماكان لزهير من مكانة كبيرة فى الجزيرة العربية : ثم يمضى يرسم لنا حياة زهير وما امتلأت به من مظاهر القوة والدهاء ذاكرا قصته مع زوجته تماضر التى امتلأت هى الأخرى بفنون المكر والخداع والحيل ، وكأنه هو يريد أن يضيف إلى أمجاد زهير الحربية أمجاداً أخرى فى أصالة الرأى وحسن التدبير .

ويذكر المؤلف أصول هذه القبيلة وهم : بنو عبس ، بنو زهير ، وبنو قراد ، وبنو زياد . وهو يعنى بالأصول هنا أكثر من عنايته ببطون القبيلة . فإذا ما ركز اهتماماته بعد ذلك على بنى عبس ورسم لنا صورة كاملة لها ولسماتها ، ركز الحديث على بنى قراد ومنهم شداد وأخوه مالك واخوه زخمة الجواد ، وما ذلك إلا لأن الأمير شداد هو أبو فارسه وبطل روايته عنترة .

فالتسلسل الروائى إذن عند الكاتب سليم ومنطقى ومعقول، وهو لا يبدا بحديثه عن عنترة قبل أن يربط فارسه بسلسلة كاملة من الامجاد الحربية تبدأ بأبيه شداد بن قراد وتشمل بنى عبس وتتصل بمضر وبنزار ومنه إلى قيدار ثم إلى اسماعيل فابراهيم . وهو لا يكتفى بمجرد التقرير ، وإنما يرسم صورا قصصية كاملة تحمل السمات الاجتماعية والذاتية للمكان والناس جميعاً ، والكاتب لا يغفل فى حديثه عن أولاد نزار التقسيم الجغرافى أيضا ، « فضر له مكان أبيه ، وربيعة له أرض العراق ، وأياد له ملك اليمن ، أما انمار فله أرض الشام . . . وسميت عرب ربيعة القرس لاجل حسن حالهم وملبوسهم ، وعرب اياد قحطان ، وعرب الشام بنى غسان ، وعرب الحجاز بنى عدنان »[1] فكأن عرب الحجاز — وهم المضريون — هم الذين خصوا باسم بنى عدنان الذى هو جد ابيهم نزار . ومن مضر هؤلاء — لا من غيرهم — كان بنو عبس .

وإذا كانت السيرة الشامية — ومثلها السيرة العراقية — لا تعنى بهذا الجزء، إذ أنها تبدأ بتسليط الضوء على شداد مباشرة ، فان السيرة الحجازية بذكرها له قد حققت — من الناحية الروائية — عدة أهداف هى :

١ — رفع نسب صاحب السيرة إلى الجد الأكبر للعرب .

٢ — ربط كفاح صاحب السيرة — من حيث الهدف والغاية — بأشرف ما يذكر من كفاح أجداده الذين لا يذكرون فى كتب السيرة والأخبار إلا بكفاح له علاقة بالدين . وبذلك فهو يحقق لهذه السيرة الهدف الدينى المنشود .

٣ — استطاع الكاتب أن يرسم لنا صورة قبيلة بطله فى اطار يبين مكانها من العالم العربى آنذاك ، بل ومكانها من العالم المعروف حول الجزيرة العربية ، بما يحمل هذا المكان من علاقات هى الود حينا ، وهى العداء أحياناً ، وهى صلات

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٤

النسب والقربى للجد الأعلى فى حالة ، وهى صلات العداء والقطيعة منذ التاريخ الأول فى بعض الأحيان .

ومن كل ذلك يمكننا القول بأن هذا الجزء الأول من السيرة ليس إضافة وإنما هو أصل أغفل من السيرة الشامية لسبب أو لآخر ، ولكنه بغير شك موجود فى العمل الأصلى لأنه أقرب إلى طبيعة الروايات العربية التى تحب دائماً أن تبدأ كل سيرة بخلق العالم — ان أمكن — أو بأقرب الأحداث ارتباطاً بها إن تعذر البدء منذ خلق العالم .

وقد جمعت هذه المقدمة كل السمات المميزة للرواية العربية مما يدل على أن لكاتبها الماماً واضحة بهـــذا الفن وبتاريخ الكتابة الروائية العربية ، وان له صلة وثيقة بتلك الروايات — قديمها وإسلامها ومعاصرها — ، فرجوعه إلى وهب بن منبه ، ورجوعه إلى كعب الاحبار وإلى عبد الله بن عباس ، بل ونسبته الكتاب إلى الأصمعى ، كل ذلك فيه من الدلالات ما يجعلنا نقطع بأنه قد اطلع على أعمال وهب وعلى أعمال ابن اسحق وأعمال غيرهم من الروائيين العرب .

ووهب يبدأ كتابه « التيجان » (وهو الكتاب الوحيد المحقق والمطبوع له) بداية مشابهة ، فهو يبدأ منذ خلق العالم وخلق الأرض والسماء ثم خلق آدم . وعن وهب — وعلى منواله — سارت فئة كبيرة من الكتاب مثل الثعلبى (صاحب كتاب الانبياء المسمى بالعرائس) إذ يبدأ أيضا بخلق الارض من الماء معتمدا فى رواياته على وهب بن منبه وعلى غيره . أما ابن اسحق فيبدأ السيرة النبوية من مكان شبيه وقريب من هذا ، إذ يبدأ بذكر النسب ابتداء من آدم ، ويتسلسل فى هذا النسب حتى يصل إلى النسب القريب ، ثم يبدأ بعد ذلك فى الحديث عن عدنان وما تفرق من القبائل من ولده :

وهذا الاغراق فى الابتعاد ببدء القصة أو السيرة تقليد أخذه مؤلف سيرة

عنترة عن الـكتاب القدماء امثال وهب بن منبه وابن اسحق وغيرهم . وربما اغفلت السيرة الشامية هذا الجزء من الـكتاب لانه تـكرر — ويتـكرر — فى كثير من الأعمال المشابهة . وربما دخل عامل الحذف لحسب عند النقل ، أو ربما كان لهذا أسباب أخرى تتعلق إما بالنساخ وإما بعقلية المتلقين ، أو أوضاعهم الاجتماعية ، إلا أنه من المؤكد أن هذا الجزء يدخل فى صميم السيرة وليس مضافاً إليها ولا هو فضول وزيادات .

الباب الثالث

حول السيرة العنترية

الفصل الأول

مكان السيرة العنترية

كلمة سيرة تطلق فى تراثنا على أعمال كثيرة تتفاوت من حيث دلالاتها الاجتماعية ، كما تتفاوت من حيث لغتها التى تصل إلى العربية الفصيحة مرة ، وإلى العامية مرات ، ثم هى مزيج منهما فى كثير من الأحيان . غير أنها جميعا تتفق فى مظهر هام يعكس قيمتها كعمل فنى . هذا الالتقاء هو شعبية التلقى الذى جعل من تلك الأعمال — التى سميت سيرا — متعة شعبية يحظى بها غير القارئين عن طريق المنشد أو الشاعر ، كما يحظى بها القارئون عن طريق نسخها المختلفة التى تدون وتطبع فى أكثر من مكان .

والتعريف العلمى المعاصر لكلمة « سيرة » يحدد مكانها بين التاريخ والأدب. فهى تاريخ من حيث تناولها لحياة فرد له أهميته كموجه للأحداث فى عصره ، أو جماعة لعبت فى تاريخ الشعب أو الانسانية دورا ذا أثر . وهى أدب من حيث كونها تحمل انطباعات مؤلفها وتتلون بثقافته ووضعه الاجتماعى وموقفه من الحياة . أى أنها ليست عملا علميا تاريخيا يعتمد على الوثائق الثابتة القيمة المحققة الوجود ، ثم ينهج إلى مناقشتها ومقابلتها ببعضها لاستخلاص الحقائق المجردة التى لا تهم من الناس إلا أصحاب العلم والدراسة العاملين فى نفس الميدان، بل هى قد لا تعنى على الاطلاق بهذا التمحيص والمناقشة ، وقد تختار أضعف الأقوال بما يتفق دون غيره مع موقف المؤلف ووجهة نظره وهذا يؤكد ذاتية السيرة كعمل ، وليست الذاتية من العلم فى شىء وإنما هى إلى الأدب أقرب وبه ألصق .

وحين نحدد السيرة بهذا المفهوم نجد اننا لا نبتعد كثيرا عما تحت أيدينا من سير أسميناها « السيرة الشعبية » وتقف على قمتها سيرة عنترة . ويمكننا بالتالى أن نقول أن شاعرنا الشعبي ومتلقينا الشعبي وقد أسميا هذه الأعمال بالسيرة لم يخطئنا فى كثير أو قليل .

فسيرة عنترة بن شداد ليست ثبتا تاريخيا لأحداث حياة الفارس الشاعر العربى عنترة بن شداد وليست تتبعا لمراحل حياته المختلفة ذلك التتبع المبنى على الوثائق التاريخية ولا الأحداث التى ثبتت صحتها فحسب ، كما انهذه السيرة ليست تتبعا لحياة بنى عبس — قبيلة عنترة — وحدها وبنفس الطريقة التى يهمها تحديد المنازل التى نزلت بها جغرافيا ، وتحديد الشخصيات التى لمعت فيها تاريخيا . وعنترة بن شداد — شاعر المعلقات — لم يلعب فى تاريخ الجزيرة العربية ولا فى تاريخ الأمة العربية ذات الدور الهام الخطير الذى يجعله أجدر من غيره من أصحاب السيف أو أصحاب القصيد الذين عاصروه أو الذين تشابهوا معه فى الظروف التاريخية بحيث ينفرد وحده بهذه السيرة بينما لا يحظى الآخرون إلا بنتف من الأخبار متناثرة فى كتب الأدب والتاريخ ، وكذلك قبيلة عبس ليست هى الأخرى بدعا بين القبائل ، وليست أهم مثلا من قبيلة قريش التى شع منها نور النبوة ، لتنفرد وحدها بمثل هذه السيرة .

فسيرة عنترة إذن — وربما مثيلاتها من السير — ليست أعمالا تاريخية يقصد منها وجه التاريخ وحده ، وإنما هى سير بالمدلول العلمى المعاصر . هذا ما تثبته النظرة الأولى . ولكن .. أصحيح أن سيرة عنترة — أو سيرة الظاهر بيبرس ، أو سيرة سيف بن ذى يزن أو سيرة ذات الهمة تشابه من حيث المنهج وطريقة التأليف تلك الأعمال التى أطلق النقاد المعاصرون عليها اسم « السيرة » ؟

حقيقة الأمر أن هناك نقاط التقاء وهناك مجالات للفرقة . ويوم أطلق كاتبو هذه السيرة الشعبية — ومتلقوها — اسم السيرة عليها لم يكونوا يعرفون المفهوم العلمى الحديث لهذا المصطلح ، بل ان أصحاب هذا التفسير العلمى الحديث

لم يكن أدبهم قد بدأ بعد ، ومع هذا فنحن نناقش هذه القضية على الرغم مما قد يبدو فيها من اعتساف إذ أن تطبيق المدلول المعاصر على أعمال لها ظروفها التاريخية ، ولها تلقائيتها الفنية ، أمر لا شك فيه من القصر والتعسف قدر كبير.

بيد أن سيرنا الشعبية هذه تتفق مع المصطلح الحديث فى انها تحوى حديثا عن شخص أو عن جماعة عرفهم التاريخ فعلا وقاموا فيه بدور ما - ان لم يكن ظاهرا عند المؤرخ صاحب النظرة العلمية ، فهو واضح تمام الوضوح عند منشىء السيرة الذى ربما كرس حياته من أجلها ، وعند متلقى السيرة الذى احتفى بها كل الاحتفاء — كما ان العنصر الذاتى فيها واضح تمام الوضوح فنحن نلمح كاتبيها يختارون مما عرف من أحداث التاريخ ما يعضد القضية التى يتبنونها دون النظر أو المفاضلة أو المناقشة . فالاختيار هنا اختيار المتفنن لا اختيار الدارس .

من هنا كان القاء ، وبعد ذلك يأتى الخلاف . فالسير الشعبية لا تكتفى بالأحداث التاريخية كأساس للحديث عن صاحب السيرة وقومه ، بل هى تتجاوز الحقائق التاريخية إلى خلق المواقف والأحداث وتخيل مجالات الحركة لصاحب السيرة ودفعه فيها ليؤثر التأثير المطلوب الذى قد لا تنتجه الأحداث التاريخية الثابتة .

وهناك ما هو أكثر من هذا . . إذ قد يدخل كاتب السيرة من الشخصيات ما لم يعرفه التاريخ ويجعل لها من الأدوار ذات الأهمية ما يؤثر فى سير الأحداث. وهو فى بعض السير لا يكتفى بالشخصيات البشرية التى تسير تصرفاتها ضمن الاطار الانسانى المعقول ، بل جعل لشخصياته مظهرا لقوة ما فوق البشرية بحيث يرسم صورة الانسان الأعلى الذى لم يتحقق فى التاريخ حتى الآن والذى تتسم تصرفاته وأعماله باللامعقولية والمبالغة والافراط فى الخيال. وقد يتجاوز المؤلف ذلك إلى رسم شخصيات لا تمت إلى البشرية بصلة كأصحاب الخوارق فى سيرة الظاهر بيبرس ، وملوك الجان أصحاب القدرة على الحركة والتشكل واتيان الخوارق فى سيرة سيف بن ذى يزن ، ثم الكهان وأصحاب السحر والغيلان من

المزيج المشوه والمسخ بين البشرية وخوارق الطبيعة كما فى سيرة عنترة .

هذا كله يجعل السير الشعبية تخرج عن المعنى العلمى الاصطلاحى المعروف لكلمة « سيرة » إلى مايقترب تدريجيا نحو اصطلاح حديث آخر هو اصطلاح « الرواية ». فالرواية عمل يجمع بين ذاتية الفنان وبين موضوعية التناول أكثر مما يجمع أى عامل آخر من الأعمال الفنية، والرواية تقدم على أحداث وشخصيات لها امتداداتها فى التاريخ سواء أعاصر أو بعد ، ولهـا فى نفس الوقت حرية الذات المنشئـة فى الاختيار مما عرف من أحداث تاريخية ، وفى رسم الشخصيات لا لتطابق التاريخ وإنما لتطابق مفهوم الروائى وارادااته ، كما انها تخضع خضوعا تاما لرغبة صاحبها فى ربط الأحداث بالشخصيات ربطا يتمشى مع منطق الحياة البشرية ان شاء ، أو يفوق هذا المنطق ويخرج عليه ان أراد .

فمن ناحية الشكل إذن تصبح هذه الأعمال أقرب إلى الروايات منها إلى السير إذا ما حاولنا أن نطبق المضامين العصرية لهذه الاصطلاحات . والأدب المعاصر قد عرف العمل الروائى وقسمه إلى ثلاثة أقسام هى: رواية تاريخية — ورواية خرافية — ورواية واقعية . فالأولى هى الرواية التى تستمد أحداثها من شخصيات تاريخية دون التزام ما بالتاريخ نفسه. والثانية روايات تستمد وجودها من افتراضات يتخيلها المؤلف كرحلة إلى القمر ومواقف من أهل هـذا القمر أو وصف لبيئته ، أو كرحلة إلى باطن الأرض مع حيوانات خرافية يتخيلهـا الـكاتب . أو هى ان لم تفرط هذا الافراط فانها تتحدث عن انسان بشرى يأتى بالخوارق فى المناطق البدائية من العالم ويحقق فـكرة الانسان الأعلى . أما الثالثة فهى تلك الروايات التى تستمـد أحداثهـا من المعقولية والمطابقـة لمنطق الحيـاة والتعرض لمجتمع الـكاتب نفسه بالنقد والمناقشة والوصف والتحليل .

وإن كانت سيرة كسيرة الظاهر بيبرس تجمع بين النوعين الثانى والثالث من هـذه الروايات ، كما تعيش سيرة كسيرة سيف بن ذى يزن فى اطـار النوع

الثانى وحده ، فان سيرة عنترة بن شداد تجمع بين النوع الاول والنوع الثانى معا.

ونحن نلمح ان النوع الثانى من هذه الروايات — أى الرواية الخيالية ذات الأحداث الخارقة — يكاد يكون هو القاسم المشترك الأعظم فى جميع أنواع هذه السير ، الأمر الذى يدفعنا إلى مناقشة هذه السير من وجهة النظر الروائية طبقا لاصطلاحها الحديث .

الذين يخرجون هذه السير من اطار الرواية يعتمدون على مفهوم ضيق لمعنى الرواية ويضعون أمامهم نماذج معينة للأعمال الروائية الكبيره ويطلبون تطبيقها على ما هم بصدده تطبيقا حرفيا . فحين يفعلون ذلك تخرج السير الشعبية من خضوعها لهذا المصطلح - كما يخرج معها كثير من الأعمال الادبية الاخرى - فهم يشترطون فى الرواية التاريخية شروطا تتجاوزها هذه السير ، إذ نلحظ دائما انها لا تتجاوز التاريخ فحسب وإنما تعتمد اعتمادا كبيرا على الخيال المغرق و لهذا السبب أبعدوها عن حظيره الرواية .

وقد فضل البعض تسميتها باسم « الاسطوره » ، كما أطلق عليها البعض الآخر اسم « ملاحم » . فهل هذه السير الشعبية أساطير ، أو هى ملاحم ؟

يقول العلامة « جريميه » : « إن قصصنا الشعبى عباره — فى الواقع — عن بقايا الاساطير والملاحم التى سادت فى العصور القديمة جدا ، وان كانت قد أهملتها الطبقات الخاصة إلا ان العامة احتفظت بها بعد ان كيفتها بيئتها الجديده ...

ولكن هذا الكلام يجب ألا يؤخذ بنصه على تلك السير التى تحت أيدينا لأنها ليست بقايا وأشتات متفرقة تعيش فى أذهان الناس وينقلونها محرفة البطل أحيانا ، ومحرفة الاحداث أحيانا ، ومحرفة المدلول أحيانا أخرى — كما تشهد فى حكايات جحا واشعب مثلا — وإنما هى أعمال متكاملة نستطيع أن نقول انها اعتمدت على القصص الشعبى بعض الاعتماد وأقامت عليه أعمالا روائية كبيره تخرج من حيز الاساطير إلى حيز آخر نحاول أن نحدده .

والواقع أن الاساطير تحقق ذلك الارتباط بين البطل الاسطورى وبين الالهة والـكائنات ذات القوة الخارقة . . . « فنحن نجد بطل الاساطير يتعامل مع كائنات غريبة هى مزيج من الالوهية والإنسانية والحيوانية فى وقت واحد . بل نجده يتعامل مع قوى الطبيعة التى تصور هى أيضا تصويرا حيويا . فالبحار والانهار والاشجار العظيمة ليست مجرد أشكال من الماده . بل أن لها أرواحا وهذه الارواح هى على الارجح ما سميت بعد بالآلهة . الانسان الذى يموت لا ينفصل تماما عن هذا العالم . بل يعيش فى عالم الموتى الذى هو امتداد لعالم الاحياء . وربما عاد إلى عالم الاحياء فى صوره احداحفاده أو فى صورة حيوان أو نبات أو حتى جماد تقدسه القبيلة وتنسب اليه »[1] .

ولعلنا نلمح بهذا تشابها كبيرا بين سيرة عنترة وبين الأسطورة . فعنترة يتعامل مع الجن ومع القوى الغيبية شأنه فى ذلك شأن أى بطل من أبطال السير الشعبية . وعنترة حين يموت يظل ممتدا على هيئة أولاده وأحفاده وتنسب اليه القبيلة وتنصر بسيفه حتى بعد ان يوارى فى قبره ، بل إن كاتب سيرة عنترة شاء أن يجعل فى اختياره لاسم ابنته « عنيتره » رمزا واضحا لهذا . إلا أن ذلك لا يعنى سوى مجرد التشابه الذى يدل على احتفاظ هذه السير بالـكثير من خصائص الأسطورة تماما كما احتفظت التراجيديا اليونانية بأصول من الأساطير اليونانية دون أن يعتبر أحد أن هذه التراجيديات هى أساطير .

ويعتبر (فريزر) أن عصر السحر ـــ أى عصر الإنسان البدائى . أو عصر الأسطورة ـــ شبيه بعصر العلم . أو هو على الأصح يعد عصر العلم عودا إلى عصر السحر ، إذ أن كليهما يقوم على الإيمان بما فى الظواهر الطبيعية من نظام دقيق . . فمثلا الطقوس تؤدى إلى سقوط المطر كما أن الحرارة تحول السائل إلى بخار[2] .

---

(١) البطل فى الادب والاساطير ـ الدكتور شكرى عياد ص ٧٤ ـ ٧٥

(٢) James G. Frayzer. — The Golden Bough, p. 824

ولهذا قامت عدة نظريات تبحث فى الأسطورة . فأتباع هوميروس اليونانى يعتبرون الأسطورة تاريخا متنكرا . بينما يعتبرها فرويد نوعا من المرض العقلى أو النفسى ولذلك فإنه يطبق على تفكير الإنسان البدائى — صاحب الأسطورة نفس القوانين التى وجدها فى الأحلام والأمراض العصبية . إلا أن كل هذه التفسيرات تقوم على استبعاد الأسطورة من المنطق العقلى . ونحن فى الفن لا يهمنا المنطق العقلى فى شىء كما لا يهمنا الصدق الواقعى ولا مطابقة الأحداث لقانون السبب والمسبب. فعلى الرغم من أن الأسطورة تقترب من العلم من حيث ربط السبب بالمسبب . إلا أنها لا تخلو من قسط كبير من البدائية فى التفكير والبدائية فى التعبير . فهى قد نشأت معاصرة للسحر ومن هنا جاء تعريف الأسطورة بأنها « الجزء القولى المصاحب للطقوس البدائية »[١] .

فهذا التعريف يربط بين الأسطورة وبين أفعال السحر المرتبطة بالدين عند الشعوب البدائية . أو بمعنى آخر يربط الفن هنا بالعمل . ويشايع هذا القول كثير من باحثى الانثروبولجى والدراسات القديمة حتى ليقول فريزر : « لعلنا لا نخطىء إذا افترضنا أن كثيرا من الأساطير التى لا نعرفها الآن إلا على أنها أساطير كان لها فى وقت ما جانب فى السحر . او بعبارة أخرى أنها كانت تمثل كوسيلة للايجاد الفعلى للأحداث التى تصفها بلغة فعلية . وكثيرا ما تموت الاحتفالات بينما تظل الأساطير حية فيبقى علينا أن نستنتج الأحتفال الميت من الأسطورة الحية»[٢] .

والدراسات الأنثروبولوجية مازالت تعتمد على الطقوس فى تفسير موضوعية الأساطير ومنطقها . أما السير العربية التى تحت أيدينا — وخاصة سيرة عنترة فليس لها أرتباط ما بالطقوس ولا بالسحر . فالسحر عنصر يعتمد عليه الروائى

---

(١) البطل فى الادب فى الاساطير للدكتور شكرى عياد ص ٨٥
(٢) المصـدر السـابق

للاثارة وليس سببا غيبيا للأحداث وإنما هو مظهر من مظاهر القوى الخفية التى يصارعها البطل فى سبيل إقرار الخير[1] . وطول سيرة عنترة — التى تقع فى ثمانى مجلدات كبيره — تنفى عنها صفة الأسطوره . كما أن تطور الاحداث فيها حسب منطق خاص يعرفه المؤلف . وظهور هذا المؤلف فى أكثر من مكان ظهورا سافراأومستترا . إلىجوار الاعتمادعلى أحداث تاريخية ثابتةوشخصيات معروفة . كل ذلك يخرج بعنتره — كما يخرج بغيرها من السير . عن اندراجها تحت اصطلاح الأسطوره . فكاتبسيره عنتره حين كتبها لم يكن يعيشفىعصر حياة العرب البدائية وإنما كان يكتبها والحضاره العربية المتشابكة المكونات فى قمتها . ولهذا فنحن نرجح الرأى الذى سبق أن قلناه فى بداية بحثنا هذا حول الاساطير من أن هذه السير استمدت بعض مادتها مما تبقى من اساطير ولكنها ليست هى نفسها اسطوره من الأساطير .

فاصحاب تسمية الأسطوره إذن — الذين حاولوا أن يطلقوها على هذهالسيرة لما شاهدوا من إعتمادها على الخيال الذى يصل إلى حد الأغراق أحيانا — ليسوا على صواب .

ويفضل الدكتور عبد الحميد يونس تسمية هذه السير باسم « الملاحم »[2] . والواقع أن هذه التسمية تكاد تكون — من حيث النظره الاولى — اقرب التسميات إلى هذه السير . فشعراء الملاحم قد اغترفوا من معين الاساطير واستباحوا التغيير فيما اخذوه منها إلا أنهم وضعوا لانفسهم حدودا وقواعد جعلت من الملاحم فنا مقرر الاصول والانواع . فعناصرالملحمة معروفةوهى تقوم على الخرافة ، وشخصية البطل ، والدور الذى يقوم به الابطال الإلهة — أو الآلهة الابطال — ففى الالياذه مثلا يتدخل الآلهة بقدرات خارقة لينصروا

---

(١) الهلالية فى التاريخ والادب الشعبى

(٢) الهلالية فى التاريخ والادب الشعبى .

فريقا على فريق ، أو ليعجزوا فريقا عن الحرب ويمكنوا منه الفريق الآخر . كما تنصر الآلهة أثينا لاوديسيوس ضد بوسيدون رب البحر . وكما يتحيز زوس كبير الآلهة للاكيان ضد الطرواديين وارادة البطل غالبا ما تتفق مع إرادة الآلهة فاخيل عند هوميروس تتفق إرادته مع إراده الآلهة وتشترك الآلهة معه فى إثبات فضله . وهكذا نجد أن البطل الملحمى أقرب الناس شبها بابطال سيرنا الشعبية . فعنترة بن شداد فى السيرة العنترية — كما يصرح كاتبها — مؤيد بقوه خارقة خفية تجعله لا يتعب من كثره الصدام بل أنه يزداد قوة على الحرب كلما طال به الوقت فى حومة الميدان . وحين يموت ابنه الغضبان على يد الجن يمده الجن الخير بجيوش وأبطال يحارب بها عدوه من الجن الشرير الذى قتل ولده ، كما أنهم يعطونه سيفا مطلسما يفعل فى الجن فعل السيوف الحديد فى البشر ، ثم نحن نراه يحمل تميمة بذاتها تجعله يقاوم السحر ويبطل مكائد السحرة . وارادة عنترة تتفق مع إرادة الآلهة التى تريد أن تمهد الارض لظهور محمد برسالته السماوية ، فجعلت من سيف عنترة إداة مسخرة للقضاء على كل الجبابرة الذين يعيشون فى الجزيره ويمكن أن يعيقوا الرسالة المحمدية .

وفى هذا يقول الدكتور فؤاد حسنين : « اساطيرنا — بالرغم من تنوعها — تدور حول فكرة واحدة هى إمكان السمو بالإنسان وابلاغه مرتبة الآلهة فيحيا الحياه الابدية بعد أن كتب عليه الموت وحرم نعمة الخلود . ولذلك كانت بطولة أساطيرنا وملاحمنا غير قاصره على الآلهة ، إذ شاركهم فيها نفر من بنى البشر الذين بلغوا — أو كادوا يبلغون — مرتبة الآلهة ، فانتقلوا من الحياه الفانية إلى الحياه الباقية حيث يحيون حياه الاطهار فى جزيرة الابرار »[1] .

إلا أن الملاحم اليونانية — وهى أقدم الملاحم وأكثرها تكاملا . تختلف مع السير فى هذه الزاوية . فأبطالها يقفون فى بعض الاحيان أمام ارادهالالهة،

---

(١) قصصنا الشعبى — ص ٢٦

ويتغلبون على قوتها الخارقة أحيانا ، ويدخلون معها فى معارك أحيانا أخرى . ويكاد هذا أن يكون هو الفرق الاساسى بين الملاحم والسير الشعبية ، فبطل السيرة لا يقف اطلاقا أمام الإراده الآلهية بل أن هذه الإراده تنفذ وتتم وأن تعارضت مع إرادة البطل ، والبطل أمامها عاجز مشلول . ولعل بيت الاحزان الذى قضى فيه عنترة جزءا من عمره حزنا على من ماتوا من أبنائه وأخوته هو الدليل على عجز البطل فى السيرة أمام قدرة الآلهة .

وهناك ظاهرة أخرى لها أهميتها وهى أن سيرة كسيرة عنترة بن شداد لا تحمل مضمون الالهة الجاهلية . فآلهة العرب القدماء (كاللات ، العزى — ومناه ، وهبل) لا تكاد تبين على الاطلاق لا بشخوصها ولا بآثارها . وإنما مضمون الآلهة هنا مضمون إسلامى يجعل من الآلهة شيئا واحدا هو الله الذى لا يستطيع أن يجسده فى السيرة وإنما هو يرينا فقط مظاهر إرادته . . فالبطل منصور إن شاءت أن هذه الإراده تنفذ وتتم وإن تعارضت مع إرادة البطل ، والبطل حدده الله من قبل فى اللوح المستور ولن يغير شىء ، ولن تغير إرادة هذا الذى سطر فى مبدأ الكون . ولهذا فان بطل السيرة لا يمكن أن يرقى — من ناحية القدرة — إلى البطل للملحمى الهم إلا فى سيرة واحدة هى سيرة سيف بن ذى يزن الذى استعاض عن شخصيات الآلهة فى الملاحم اليونانية بشخصيات خارقة القدرة كالجن وأولياء الله ، كما نلمح شبها بهذا فى سيرة الظاهر بيبرس . إلا أنهم جميعا يتحركون فى دائرة محدودة تقع ضمن دائرة أوسع تتحكم فيها إرادة أعلى مما يجعل هذه الظاهرة فى سيرة سيف أشبه ما تكون بالقصة الخرافية التى تستعين فى تسيير حوادثها بالخوارق منها بالملحمة التى يتصارع فيها الآلهة مع الأبطال أو الأبطال مع الآلهة .

وهذا فى الواقع فرق جوهرى ، لأن العمل الفنى ليس شكلا فحسب ، ولذا لا يكفى مجرد ظهور القوى فوق البشرية لمساعدة أبطال السيرة حتى نضمها إلى

حظيرة الملحمة . فالمضمون الملحمى مهم فى تسمية أى عمل من الأعمال باسم الملحمة وقد رأينا أن هذا المضمون لا يتوافر فى سيرنا الشعبية ، وبالأخص فى سيرة عنترة ، التى تتقلص فيها هذه القوى الغيبية فلا تكاد تؤدى دورا حقيقيا فى الصراع الدائر فى السيرة .

والملحمة عمل شعرى يعتمد على الإنشاد ، ولعل ماوجده الدكتور عبدالحميد يونس فى سيرة كتغريبه بنى هلال مثلامن إعتماد كبيرعلى الشاعر المنشد فىالرواية أى فى سرد الأحداث — وفى المواقف — أى فى الحوار ما ايد عنده التقارب بين الملحمة وبين السيرة ، إلا أن باقى السير تكاد تختفى فيها هذه الظاهرة . وسيرة عنترة بالذات تتم روايتها نثرا ، ولا يكاد الشعر يدخل فيها إلا فى مواضع محددة هى الترنم عند الحرب وعند الحب وفى المسامرة . وقد يكون الشعر رفيق طريق أو عزاء حزين أو طبول حرب ولكنه على أية حال ليس أساسا فى السيرة ، ولو أنه حذف منها كلية ما نقصت شيئا .

وهذه الملاحظة تحدد لنا أشياء كثيرة . فهى تحدد أولا أن الملحمة شكل شعرى يقف أمام الشعر الغنائى مثلاأو الشعرالمسرحى ، ولكنها لا تقارن بعمل نثرى مثل السيرة فهذا ميدان وذاك ميدان . واطلاق أسم الملحمة على عمل نثرى تجوز كبير لا نقره فليس معنى أن الباحثين فى الأدب العربى لم يصلوا بعد إلى صور من الملاحم الشعرية التى عرفها الأدب الغربى أن نسمى الاعمال النثرية بهذا الاسم الوافد علينا وأن تنقله من ميدان الشعر إلى ميدان النثر . وإنما الاقرب — وقد لاحظنا تلك الخلافات الواضحة بينالملحمة من ناحية المضمون ومن ناحية الشكل وبين سيرنا الشعبية — أن نجنب أنفسنا هذا الخطأ فندع ما للشعر وما للملحمة ونقرر فى بساطة أنالسيرة الشعبيةفن آخر يختلف عنالملحمة فى المضمون وفى الشكل .

ونحن فى تحليلنا لشخصية عنترة وجدنا أنه مر بعدة مراحل . فهو يقترب

من البطل الاسطورى فى مرحلة ، ويشابه البطل الملحمى فى مرحلة أخرى ويكاد فى بعض المراحل يقترب من بطل التراجيديا عند اليونان ، ولكنه فى آخر الامر جماع هذا كله مما لا يمكن معه أن نطلق عليه سوى تسمية واحدة هى « بطل السيرة » .

ليست السيرة إذن — وليست عنترة على وجه التمثيل — سيره بمعناها الاصطلاحى الحديث ، كما أنها ليست أسطوره بمفهومها عند الانثربولوجيين ، ثم هى ليست ملحمة بمفهومها عند اليونان ، ولكنها كما لاحظنا تقترب كثيرا من الرواية . فهى مره شبيهة بالرواية التاريخية ، وهى مرة قريبة الشبه من الرواية الخيالية ، وهى فى مره ثالثة قريبة من الرواية الواقعية . وقد قلنا عن سيرة عنترة بالذات أنها تجمع بين النوعين الاول والثانى ، فهى تاريخية لأنها تتحدث عن شخصيات بعد العهد بينهم وبين تاريخ كتابة السيرة ، وتستمد أحداثها — كما هو واضح — من كتب التاريخ . وهى خيالية لانها لا تحترم منطق التاريخ ولا منطق الاحداث . ونستطيع أن نلمح هذا فى عنترة عند مشهد تعليق القصيده على الكعبة إذ يجمع المؤلف شعراء المعلقات جميعا دون ما اعتبار للفروق الزمانية ولا للظروف المكانية ، ولا لمنطق الحدث نفسه من تعذر وقوع مثل هذا اللقاء حتى لو توافر الشرطان السابقان . كما يبدو هذا أيضا فى عدم إحترام الحقائق الجغرافية فعنترة يسير من الحجاز إلى اليمن إلى الحبشة دون ما عائق من بحر . أو أن جيش الهند يصل إلى الجزيرة برا وعلى ظهور الخيل وذلك عن طريق جنوب الجزيره العربية .

هذا إلى جوار المظاهر الخارقة مثل قدره عنترة الغريبة . وبراعة شيبوب المذهلة وسرعته الفائقة مما لا يستقيم مع منطق الطبيعة البشرية . وإذا كان من الجائز فى الرواية التاريخية عدم الخضوع لمنطق التاريخ . فان باقى التحليلات التى استباحها المؤلف لنفسه لا تتفق اطلاقا مع الرواية التاريخية . إلا أن السيره تسير مع الرواية التاريخية فى تسلسل الحدث ونماء الشخصيات واستقلال كل

شخصية عن الاخرى . وارتباط هذه الشخصيات والاحداث جميعا بمضمون واحد يحقق هدفا بذاته عند الكاتب كما يتفق معه فى محاولات تحليل وتعليل الاحداث والوقوف عند البيئة ووصفها . ثم فى الاعتماد على المشاعر الإنسانية فى تسيير الاحداث وإظهار قوى الشر فى تصارعها فى قطاعات متعاقبة نامية تصل إلى القمة فى أن يضع المؤلف حلها بين يدى القارىء .

هذا هو وجه الشبه . وقد كان ذاك هو وجه الخلاف . ولهذا فاننا نفترض أن السيرة أقرب إلى الرواية التاريخية من حيث الاداة التى هى النثر ومن حيث الشكل وهو القص . ومن حيث المضمون وهو الصراع . إلا أنها تختلف آخر الامر فيما بينا من فروق .

ولما كانت السيره أسبق فى الظهور من الرواية . لهذا فاننا نعتبر السيره أصلا للرواية فى شتى صورها وبشتى أنواعها . ونستطيع — ما دامت السيره هى الاسبق — أن نجعلها رواية لا تاريخية ولا خيالية ولا واقعية (وهى الاسماء التى عرفت عندما تقادم العهد بالرواية وتطورت وتخصصت) إنما يمكننا أن نسميها « الرواية الام » أو « الرواية السيره » وتصبح عنترة إذن رواية من نوع السيرة يغلب عليها الطابع التاريخى .

الفصل الثانى

شخصية عنترة فى السيرة

سيرة عنترة تعتمد اعتماداً كلياً على شخصية أساسية تعتبر مركز الصراع فى الرواية والبؤره التى تتجمع عندها خيوطها والمؤلف يتناول أحداث الحياة فى الجزيرة العربية — وفى غير الجزيرة العربية — بما له علاقه بهذه الشخصية ، فهو يذكر من الأحداث المعرفة تاريخياً ما له ارتباط بعنترة — إما مباشرة وإما بطريق غير مباشر — كأن تكون مرتبطة بالأطراف المكونة لحياة عنترة كقبيلته وأمته وأصدقائه وحلفائه ، وهو يؤلف من الأحداث مالم يورده التاريخ إذا كان فى هذه الأحداث ما يكشف صفحات من بطولة عنترة وشخصيته ودوره.

فإذا استهوت المؤلف حادثة تاريخية أو شخصية من شخصيات التاريخ ولم يكن لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بعنترة المهم إلا الصلة المكانية (أى الوجود فى الجزيرة العربية) فإن المؤلف لا يتردد فى تطوير هذه الأحداث روائياً ليخلق فيها مكاناً لعنترة وليضعه بين الأبطال التاريخيين المعروفين الذين أسهموا فى تلك الأحداث ، وكأنما يريد لبطله أن يشترك فى كل حدث جدى يتفق وطابع الفروسية الذى وسمه به ، وألا يفوت عليه مجداً من الأمجاد التى حصل عليها العرب وإن افتات فى ذلك على الحقيقة التاريخية مرة وعلى الترتيب الزمنى مرة بل وعلى التعذر الجنسى والمكانى مرات .

فشخصية عنترة إذن هى المحور الأساسى الذى تدور حوله السيرة . والواقع ان اختيار هذه الشخصية لم يكن عبثاً من المؤلف فان فى الأسس الأولى لمكونات هذه الشخصية من الناحية التاريخية — التى تواترت صفاتها على ألسنة الرواة —

ما يصلح تماماً كأساس يعتمد عليه المؤلف فى بناء الشخصية النموذجيةالتىيريد منها ان تحقق له عدة أهداف تتصل بالفنية الروائية من ناحية وتتصل بنفسية الجمهور المتلقى من ناحية أخرى ، كما تتصل بفهم عام للحياة العربية والتقاليد العربية. ولسنا نستطيع أن نعرف ما إذاكان المؤلف قد حقق هذه الأهداف التى رمى إليها ، ولا أن نكتشف حقيقة هذه الأهداف إلا إذا درسنا تلك الشخصية — أى شخصية عنترة — من واقع عمل المؤلف الروائى نفسه — أعنى من خلال السيرة . فالشخصية التى ينقلها إلينا تاريخ الأدب بمصدريه : الأخبار والشعر : لا تعطينا الا جزءاً من الصورة التى نجدها فى السيرة . هذا الجزء هو الأساس الأول الذى بنيت عليه الشخصية الروائية ، والواقع أن معرفتنا بهذا الجزء يضع أيدينا على أول الخيط ويجعلنا نستطيع ونحن نعرف من أين بدأ المؤلف — أن نسايره فى عمله وهو ينمى الشخصية ويطورها معتمداً على الأساس الأول الذى نعرفه .

القراءة النقدية الفاحصة للسيرة تجعلنا نطمئن مبدئياً إلى أن شخصية عنترةقد تطورت فى يد المؤلف على عدة مراحل تمثل كل مرحلة منها هدفا من أهداف التأليف كما تمثل تمثلا للشخصية نامياً مع نمو فكرة للمؤلف وتطورها ، إلا أننا نلاحظ أن كل مرحلة من هذه المراحل لا يمكن أن يصل إليها المؤلف إلا بعد المرور بالمراحل السابقة حيث أن كلا منها وليد التطور الذى يحدث فيما سبقها من مراحل .

ونحب أن نشير هنا — قبل تحديد هذه المراحل وبدء الحديث عنها — إلى مقدمة السيرة — التى تنفرد بها الطبعة الحجازية — حيث أن هذه المقدمة التى تسبق ميلاد عنترة بازمان طويلة هى فى واقع الأمر المدخل الطبيعى للحديث عنه. فالمؤلف يحاول أن يكون طبيعياً ومنطقياً حين يتحدث عن بطله ، والشخصية فى يده لا تنمو جزافا وإنما هى تنمو تحت واقع أحداث معينة بحيث يبدو هذا

النمو طبيعياً متوقعاً وغير شاذ . لهذا كانت تلك المقدمة الطويلة التى بدأت منذ أقدم الجدود لعنترة وظلت تنحدر تدريجياً حتى تصل إلى أبيه وتقف بنا عند حادثة إلتقاء أبيه بأمه . فالمؤلف قبل أن يركز الأضواء على هذا يملؤنا إحساساً بما يمكن أن ينتظر المولود الذى سيكون نتيجة لهذا اللقاء من مصير ومن حياة . وهذه الطريقة الطبيعية فى السرد وفى التأليف هى التى جعلت من عنتره — رغم اسطورية شخصيته التى تبدو بعد قليل من أحداث السيرة، بالإضافة إلى ما اعتمد عليه المؤلف من شخصيات عرفها التاريخ ، ومن أحداث اشتهرت فى كتب الأخبار — وكل هذا كان المهاد الطبيعى للمراحل التى مرت بها شخصية عنترة والتى تحددها فى خمس مراحل هى :—

١ — مرحلة التكوين .

٢ — مرحلة الفروسية ، أو المرحلة الذاتية .

٣ — المرحلة الاسطورية .

٤ — المرحلة الملحمية .

٥ — المرحلة التجريدية ، أو مرحلة الامتداد .

١ — مرحلة التكوين

نستطيع أن نقول أن هذه المرحلة هى فترة ولادة الشخصية بكل ملامحها وسماتها وأنها مرحلة تقديم هذه الشخصية للمتلقى ، ففيها تكمن الجذور الأولى لكل ما سنلمح من سمات تبدو واضحة فيما بعد . فنحن نحس — منذ اللحظة الأولى — أن بنى عبس ليسوا قبيلة كالقبائل ، وإنما هم قوم غزو وأرباب سيف وفاتكو صحراء ، وهم كرام يكثر الطارقون عليهم ، ثم هم يقرون هؤلاء الضيفان بالغزو والغارة على أموال العربان كما هى العادة فى الجزيرة العربية كلها وكما هى العادة عند فرسان هذه القبيلة بالذات . نلمح هذا كله متمثلا فى تلك الغارة التى خرج فيها عشرة فرسان من بنى عبس — على رأسهم شداد — ليسوقوا أمامهم ألف ناقة ترعاها أمة سوداء لقبيلة بنى جديلة . فاذا ما ساقوا النياق وتلك الأمة وولديها ، طلع عليهم أبطال بنى جديله ودارت المعركة بين قبيلةبنى جديلةبأكلها وبين هؤلاء الفرسان العشرة . وتنتهىالمعركة نهاية لهاما بعدها إذ ينتصر فرسان بنى عبس العشرة على القبيلة التى هاجموها فى عقر دارها وأخذوا ألفا من نياقها .

ويصل بنا المؤلف بعد ذلك إلى لقاء بين تلك الأمه — التى هى زبيبة — وبين الأمير شداد بن قراد وسط الصحراء وقد انتصر على حماتها وملك الأمة وأولادها . ويقف المؤلف لحظات عند مقاومة هذه الأمة لباقى الفرسان الذين أرادوا أن ينالوا منها ما نال شداد فيقول : « فأرادوا أن يفعلوا مثل فعله ، واتبعوه فى أمره ، فلم ترض تلك الأمة لهؤلاء الرجال ، ولم تطعهم على ذلك الفعل والاعمال ، بل هربت من بين أيديهم فى الرمال ، وقد أنكرت منهم تلك الاحوال ، لأنها من نسل قوم كرام — وسوف نذكرها فى تأصيل نسبتها ونذكر

سبب غربتها وغرقتها ، ولكن نذكر كل شيء في مكانه بعون الله وسلطانه[1].

هذا الموقف الذى أطال فيه المؤلف لم يأت عبثا ، ففيه خيوط كثيرة نجد لها إمتداداتها على طول السيرة ، كما أن لها أهميتها فى تحديد شخصية الوليد الذى سيأتى نتيجة لهذه الحادثة . فالأمة السوداء تخالف العرف الذى تواضع عليه العرب فى معاملاتهم للأماء . وهى تأتى من التصرفات ما هو خليق بالكرائم والنساء الحرات . إذ هى أسيرة فى يد أمير يعدها بالزواج. وهى أمام بطل منتصر رأت بلاءه وشدة بأسه . وأمام كل هذه العوامل تخضع له خضوع المرأة لمن يملكها بحد سيفه . وخضوع المرأة أمام مظاهر الفتوة والبأس .

إلى هنا وكل شيء يسير سيره الطبيعى كمألوف العادات والتقاليد العربية . ولكن الذى لم يكن طبيعياهو أن تنكر تلك الأمة — وهى وحيده أسيره — على باقى الفرسان أن يقربوها . كما أن الذى ليس طبيعيا كذلك هو أن يؤيدها شداد ويطلب من باقى زملائه أن يعتبروها من نصيبه . فيحفظ بذلك المؤلف للمولود صحة نسبه إلى أبيه . ويحفظ له كرامة أمه التى أشار إلى أصالة نسبها . وكأنما يريد المؤلف أن ينبهنا إلى أن الاب رجل غير عادى وأن الام امرأة غير عادية وأن هذا اللقاء بين الاثنين لقاء غير عادى كذلك وبالتالى فالمولود الذىهو حصيلة هذا كله لن يكون وليدا عاديا .

وتحمل زبيبة . ثم يأتى حين ولادتها — « فلما كان تلك الليلة أخذها الطلق كما يشاء خالق الخلق . فما زالت من أول الليل تصرخ إلى وقت السحر. فولدت مولودا ذكر وهو أسود أدغم مثل الفيل . معبس الوجه مفلفل الشعر كبير الاشداق مكدر المناغس متسع النهر صلب الدغائم والعظام كبير الرأس . إلا أن أعطافه ومناكبه شداد . وخلقته تشبه خلقة ابيه شداد»[2] .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٧٦
(٢) السيرة مجلد ١ ص ٧٧

وبهذه اللمحة الناجحة يقدم لنا المؤلف الوليد الجديد الذى يغدق عليه من الصفات ما ينبىء بوليد غريب ليس ككل وليد . فإذا ما خرج إلى العالم فانه يهمهم ويدمدم ويزوم إذا ما منع عنه الرضاع . ويقطع كل يوم قماطا جديدا حتى ولو كان من حديد . ويقلع أوتاد الخيام ولما يبلغ من العمر عامين. ويعافر مع الكلاب فيقتل صغارها . ويضرب الصبيان صغارهم وكبارهم . حتى إذا ما بلغ ثلاث سنوات ندم باقى الفرسان العشرة على أنهم تركوا مثل هذا الوليد لشداد وزعموا أن امه كانت به حاملا حين لقوها فضمه إلى نصيب شداد ظلما لأن الذى وقع فى نصيب شداد هو الام وابناها الكبيران فقط . ودار القتال بين الفرسان حتى وصل أمره إلى سمع الملك زهير فاستدعى الطفل ليشهده. وهنا يقدم المؤلف ارهاصا جديدا لهذه الشخصية حين يرمى له الملك قطعة لحم فيسبقه اليها كلب فيجرى الطفل الصغير الذى لم يبلغ الرابعة من عمره وينتزع قطعة من اللحم من فم الكلب ثم يقبض على شدقيه ويشقهما شقا ويعود إلى الملك وأصحابه وهو يأكل قطعة اللحم فيوصى الملك بأن يحتكم الفرسان إلى قاضى العرب الذى يحكم به لشداد لما بينه وبين الصبى من شبه فى الخلقه .

كل هذه المقدمات ترسم لنا ما ينتظر هذا الطفل من غد ، كما ترسم لنا أمراً له خطورته ودلالته فى القصة إذ يعتز به أبوه ويقاتل باقى الفرسان من أجل نسبته إليه ، ويصل الأمر إلى الاحتكام للملك مرة وإلى قاضى العرب مرة وكأنما يريد المؤلف بهذا الاصرار أن يؤكد لنا — منذ اللحظة الأولى — حق عنترة فى النسب ، وكأنما هو أيضاً يشير إلى كل ماكان له دور فى تكوين شخصية عنترة كسواد لونه وقبح خلقته وتوحشه وقوته الخارقة .

فإذا ما تقدمنا قليلا شاهدنا عنترة الصبى يقتل ذئبا ويعود برأسه إلى أبيه ، وفى نفس الوقت يأسر شيبوب — أخو عنترة من أمه زبيبة — ثعلبا ويسوقه أمامه وسط الخرفان فيقول شــــداد لزبيبة : « اعلمى أن أولادك شياطين ،

فلا تفارقيهم أجمعين خصوصا عنترة فلا تبعدى عنه ليلا ولا نهارا »[١] .

ويظل المؤلف ينقل لنا سورا متتالية لمحاولة عنترة تعليم الفروسية وطعن الرمح والتحكم فى الخيل ، ويقدم لنا فى نفس الوقت صورا لشيبوب وهو يختلق من الأحداث ما يستر به أفعال أخيه مبعدا فى الحيلة والخداع . ثم لايلبث المؤلف أن يقدم لنا موقفا قصصيا يحدد شخصية عنترة وخلقه حينما يواجه « داجى » عبد « شاس بن زهير » وهو عبد ضخم كبير يمنع النساء من ورود الماء قبل مال شاس ، ويهين الكبيرات منهن . فيستفز هذا عنترة ويجعله يقف أمام العبد فيلطمه العبد لطمة تغيبه عن الصواب (إذ كان طفلا صغيرا) ، فلما أفاق عنترة هجم على العبد وقتله بيديه ، فهاجت عليه العبيد وتجمعوا وتجمعوا حوله . ويجذب عنتره عصا من أحدهم ويخلع عباءته فيلفها على يده ليستتر بها من الضرب ويواجههم وحده فلا يقدرون عليه . ويشهده فى هذا المنظر الأمير مالك بن زهير فيعجبه أمره ويخلصه من العبيد ، ولما عرف حكايته مع عبد شاس أعجب به وأجاره .

وهكذا يكشف لنا المؤلف عن شهامة عنترة ونجدته ودفاعه عن الحق ، كما يكشف لنا عن قوته وشدة مراسه فى الحرب ، ثم هو بعد ذلك يحدد لنا مكان أعدائه ومكان أصدقائه منذ البداية .. فهو قد قتل عبد شاس وحظى باجارة مالك . ويصل المؤلف بالأمر إلى ذروته حين يعجب زهير الملك بما فعل عنترة ، وحين تقبل عليه ابنة عمه عبلة لتشهد أمره وتسمع حكايته .

وتدخل قصة الغرام فى هذه المرحلة لتكمل الصورة التى ترسم صراع عنترة ومعركته مع الحياة . فهو عاشق محب ، ومن يهواها هى ابنة عمه التى تربت فى خيام أبيه يخدمها هو كعبد من العبيد المكلفين بأمر تلك الخيام وساكنيها ، والفتاة بعد مرموقة مطلوبة ، لها واحد من أكرم رجالات بنى عبس يحبها

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٨٢

ويوم زواجها هو الربيع بن زياد الذى يحس قلبه العاشق بما بينها وبين عنترة من حب ينمو مع الزمن . ويعقد المؤلف الموقف حين يدس عبد من عبيد الربيع لعنترة عند أبيه الذى يضربه ويشد وثاقه ، وحين يتخلص عنترة من قيوده يبحث عن هذا العبد ويقتله ثم يقصد إلى صديقه مالك بن زهير ليجيره فيجيره مرة أخرى . ومن هنا يبدأ العداء سافراً بين عنترة والربيع وتتأكد مكانة عنترة وسط العبيد فيخافونه ويخشون بأسه ، كما تتأكد مكانته عند الأمير مالك الذى يحبه الحب كله .

ويتآمر شداد مع بقية أعمام عنترة على قتله فيطلعون عليه فى البرية وهو وحيدا ، إلا أنهم ما أن يقتربوا منه حتى يجدوه فى صراع مع أسد مهول . ويحسبون أن نهاية عنترة قد قربت إلا أن عنترة يرمى بسيفه بعيدا ويلاقى الأسد عارى اليدين فيقتله ، ثم يوقد النار ويسلخ الأسد ويأكل لحمه كله بينما أعمامه ينظرون . فيقول عمه زخمة الجواد : « والله من يكون له مثل هذا ويفرط فيه فلا يكون عاقلا »[1] .

ويعود شداد وأخوته ليخرجوا مع رجال الحى فى غزوة من غزواتهم بينما يظل العبيد — ومنهم عنترة — مع النساء . وفجأة يهجم على ديار بنى عبس فرسان من بنى غطفان فيتصدى لهم الصبي عنترة — ذو الأربعة عشر ربيعا — فيقاتلهم ويهزمهم ويسترد الاسلاب ويخلص النساء .

من هنا تتمكن محبة عنترة من قلب عبلة ، ويتأكد اطمئنان نساء القبيلة إلى حماية الصبي الاسود . وحين تعود القبيلة من غزوها ويعرفون ما حدث يتأكد مكان عنترة بين فرسان بنى عبس ، كما تتأكد مكانته كشاعر إذ تحفظ امرأة شداد ما قاله من شعر حين لقى الفرسان ويصل أمر هذا الشعر إلى الملك زهير فينشده ما قال ويطرب له هو والحاضرون .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٩٩

وتتكرر المعارك التى يظهر فيها فضل عنترة وقدرته ، بينما حبه يتمكن يوماً بعد يوم من قلوب أصدقائه ، وبغضه والحسد له يتمكنان يوماً بعد يوم من قلوب أعدائه ، فيرتب الأمير شاس والربيع بن زياد كمينا لقتل عنترة ويلتقى هذا الكمين بفرسان أتوا ليأخذوا ثأرا لهم عند عنترة ، فيتحدون جميعاً ضده ، ويهاجمونه وهو فى طريقه على رأس موكب نساء بنى عبس ، وتعده أم عبلة بأن تحقق له الزواج من ابنتها إذا ما هو أنقذهم من المغيرين ، فيلقهم وحده ويهزمهم ويولوا الادبار هاربين .

وهكذا يقدم لنا المؤلف صورة جديدة لعنترة المدافع عن النساء المستضعفات ، والذى يواجه المؤامرات والحروب بقلب ثابت وجنان هادىء وبقدرة الفارس الصنديد ، وهو يقدم لنا أيضاً صوراً من تلك المؤامرات وقد تكاثرت على عنترة من أعدائه وحاسديه ، كما يقدم لنا أيضاً عدة صور من حيرة عنترة بين حبه لابنة عمه وبين وضعه القلق كعبد من العبيد ليس له حق فى التمتع بما يتمتع به الأحرار من زواج بما يحبون وتقدير لما يقدمون من أعمال ويظهرون من فروسية . ويعرض لنا المؤلف صور المعارك يحمى فيها عنترة الذمار ويصون الأعراض والمال ، وهو قبل كل معركة منها يحصل على وعد بتحرره والاعتراف به ولداً لشداد ولكن عندما تنتهى المعركة وتنكشف الغمة بفضل سيفه وقوته يخلفون وعدهم ويتحللون من تعهداتهم .

والمؤلف هنا ينجح نجاحا كبيراً فى تحديد الموقف تحديداً واضحاً . فعنترة يحصل فى كل يوم على ما يؤكد مركزه ، إلا أنه فى تقدمه هذا يحصل أيضاً فى كل يوم على مزيد من بغضاء فرسان القبيلة وحقدهم وحسدهم . وشداد لا يستطيع الإعتراف به لأن القبيلة لا تشاء على الاطلاق إلا أن تضع عنترة فى مكان العبيد رغم كل ما يقدمه لها من حماية ورفعة شأن . وعبلة تحب عنترة حبا أكيداً واضحاً ولكنها تقف منه موقف الفتاة العربية التى لا تملك إلا أن تأتمر بأمر أهلها ، وأهلها يعدون حين الحاجة وينسون بعد انقضاء هذه الحاجة . وعنترة يقف أمام هذا كله حائراً غاضباً متألماً .

فالموقف إذن قد تعقد تماماً وتبلورت كل دوافعه وظهرت جميع أطراف الصراع فيه . وكان لا بد للمؤلف أن ينتقل بالموقف كله — وبشخصية بطله — نقلة أخرى بعد أن دخل الأمر بين عنترة وبين أبيه فى نوع من النجاح إذ تأكد عنترة من أمه أنه ابن شداد ، فيذهب إلى أبيه مطالباً أباه أن يلحقه بنسبه مطالبة علنية وهو سكران سكراً بيناً . فيثور شداد بل وتصل به الثورة إلى حد الرغبة فى قتل عنترة لولا تدخل أمرأته .

ويترك عنترة أبيات أبيه هائجا هائما على وجهه فى الصحراء فيلتقى عياض ابن ناشد فى كوكبة من الفرسان يريدون الغزو . ويريد عنترة الإنضمام إليهم وهنا تثور مسألة النسب مره أخرى وبطريقة أكثر مساسا بفروسيته ، ذلك أن العرب كانوا يعطون العبيد الذين يشتركون فى المعركة ربع سهم من الأنصبة ، وأراد عياض أن يكرم عنترة فاقترح اعطاءه نصف سهم لما له من شجاعة وبطولة ، ولكن عنترة أصر على أخذ سهم كامل فقال له عياض . « لقد انصفت فى مقالك ، وأنت تستأهل أكثر من ذلك ، لأجل حسن فعالك . وإنما نحن نخاف من معيرة العرب ، من بعد منها ومن اقترب ، إذا نحن قسمنا لابن الأمة مثل ابن الحرة . »[1] فيتنازل عنترة عن طلبه موافقاً على أخذ نصف سهم ويرحل مع عياض فى هجوم على إحدى قبائل بنى قحطان ، وهناك يهزم عنترة الفرسان ، ويلتقى بالحارث بن عباده اليشكرى الذى يركب مهره مشهوره يقع عشقها فى قلب عنتره فيحاول اللحاق بالفارس ولكنه يعجز . ويكلف الفرسان عنتره أن يسوق الغنيمة — احتقارا له — فيسير بها وهو غضبان وهم من ورائه على بعد كبير ، ويلتقى فى سيره بالفارس والفرس مره أخرى فيحاول عنتره أن يستهدى الحارث اليشكرى جواده « الأبجر بن النعامة » ، وتتم المساومة بينهما على أن يسترد الحارث أسرى بنى قحطان وما لهم من أموال على أن يأخذ عنتره الأبجر . ويلتقى فرسان بنى عبس بعبدهم وقد راحت من يده الغنيمة التى غنموها ، فيهجم

(١) السيرة مجلد ١ ص ١٣٥

عياض وفرسانه على عنتره الذى سرعان ما ركب الأبجر وواجههم ، ويخاف منه الفرسان فيلاينونه ويصالحونه ويعودون خاسرين .

وبينما هم فى طريقهم يلقون عروسا فى هودجها يحميها رجال ملك كبير من ملوك اليمن ، وهرب الحراس — بعد موقعة لم يشترك فيها عنترة — وقصدوا فى فريقين إلى أبى العروس وإلى زوجها . أما عنتره فقد اقترب من بنى عبس — وكأنما ليسقيهم الكأس حتى الثمالة — وطالبهم بنصيبه من هذه الغنيمة الجديدة، ورفض بنو عبس وشرعوا رماحهم لحربه وإذا بأبى العروس يحضر بعد أن أبلغه الفرسان الهاربون بما حدث ، فيلجأ بنو عبس إلى عنتره ليحميهم ، ويرد عنهم عنترة شر أبى الجارية الذى يولى أمامه مدحوراً ، ولكنهم ما أن ساروا قليلا وقد اطمأنوا حتى يهجم عليهم زوجها — وهو فارس مشهور — إلا أن عنتره يقتله كذلك مسجلا لنفسه نصراً كبيراً على فارس كبير .

وتتكرر الأحداث بعد ذلك وقد أخذت جميعها طابعا واحداً هو أن بنى عبس يقعون دائما فى مآزق لا يجدى فيها حسامهم ولا رماحهم فيتقدم عنتره وينقذهم منها . فمرة نراه يفك أسر أبيه وأعمامه جميعا بعد أن وقعوا فى يد قبيلة كانت تطلب الإنتقام منهم ،ومرة يدخل فى مغامرة دامية من أجل صديقه مالك ابن زهير ، ومرة ينصر أخا مالك هذا فى الرضاع لأنه كان يحب فتاة وجاء ليتزوجها فارس مشهور من بنى مازن ليس مثله فارس ، فينتصر عنتره لقصة الحب انتصاراً لا دافع له سوى ما يحسه هو نفسه من حب وحرمان .

ويتقدم المؤلف بعد ذلك ليدخل عمارة — أخا الربيع — فى القصة. فعمارة يريد أن يتزوج عبلة ، ومالك أبوها موافق على ذلك رغم كثرة الوعود التى أزجاها إلى عنتره فى أكثر من موقف ، وهو يريد من هذا الزواج المدبر أن ينهى تلك العلاقة التى بين ابنته وبين عبد أخيه . وتقف عبودية عنترة دونه فى الوقوف أمام عمارة . وهو صاحب مكانة كبيرة فى القبيلة حتى أن مالكا —

أبا عبلة — يلطم عنتره حين يعترض طريق عماره ، وما أن يرى العبيد هـذه البادرة من مالك حتى يهجموا على عنترة ولا ينقذه من أيديهم سوى قدوم مالك بن زهير . هـكذا يدب الخلاف فى القبيلة وتحدث الفتنة الكبرى التى يتدخل فيها الملك ، وتتشابك القضية حين يهين شداد عبده ، فيخلع عنترة ثياب الفرسان ويعود إلى رعى الأغنام بعد أن هزم فى هذه الجولة هزيمة منكرة .

فدعوة عنترة إذن التى أراد أن ينال بها نسبه ومكانه بين الفرسان قد فشلت، فلا هو نال حريته ، ولا هو نال حبيبته ، ولاهو حقق مكانته من القبيلة ،وإنما غدا المذموم المدحور من كل ناحية . وتصل عقدة النسب هنا إلى قمتها بعد أن عجزت أمامها جميع الأقوال والأفعال ، فيقف عنترة مستسلما يقول لأبيه : « يامولاى .. أفعل بى ما تريد ، وأحكم على حكم الموالى على العبيد ، والعبد ماله غير مولاه ، أن أبعده أو أدناه ، وأنا أشهد على نفسى إنى من اليوم فصاعدا قد امتثلت أمرك ، ولا أقصر عن خدمتك ، ولا أفارق رعى الجمال ، وأكون على حفظ أموالك واعيا ، ولا أركب جوادا ولا أجرد حساما مع الأبطال ، ولا أنطق بالشعر أبدا ولو شربت كاسات الردى مع الأنذال »[1]

وتصل القصة إلى قمة من قممها ، وإلى نقطة يتحول عندها مجراها حين تخرج القبيلة فى غزوه من غزواتها تاركة بعض فرسانها لحماية الحى ، فيهاجمهم عدد كبير من الفرسان لا طاقة لهم به ويهزمهم هزيمة لا يجدون لهم خلاصا منها إلا فى عنترة الذى كان يقف بعيدا بين العبيد حيث أرادوا هم أن يقف . ويأبى عنترة أن يترك مكانه إلا بعد أن يستلحقوه ويشهروا نسبه بأبيه ، ويظهر منهم الذل والتقصير فيجيبونه إلى ما طلب ويشهدون الناس على أنه من ولد شداد ، حينئذ يسرع عنترة فيكشف عنهم الغمة وتنتهى المعركة وقد غدا عنترة فارسا من

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ١٨٧ .

فرسان بنى عبس وابنا معترفا به لشداد بينما مالك — فى حمى القتال — قد وافق على زواجه من ابنته عبلة .

وهنا ينتهى الصراع من أجل النسب ، ويبدأ صراع جديد من أجل تثبيت حقوق عنترة التى حصل عليها وذلك لأن أعداءه أخذوا يلجئون إلى الحيلة والغدر بعد أن أعجزتهم القوة . فعمارة الوهاب يكترى فرقة من الصعاليك يقودها عروة بن الورد لقتل عنترة ، إلا أن هذه المكيدة تنتهى بتثبيت مكان عنترة بين الفرسان إذ ينضم اليه عروة وفرسانه ويصبحون من أعوانه وأجناده .

ويقع عمارة أخوه فى أسر ذليل ومعهم الأمير شاس الذى ناصب عنترة العداء منذ اليوم الأول ، ولا ينجيهم من هذا الذل سوى ذل أكبر منه وهو أن يكون مخلصهم عنترة . ويصانعه الكل بعد أن أحسوا بأن سلاح الغدر لن يصلح معه كذلك .

ويلجأ مالك — أبو عبلة — إلى حيلة أخرى ليبعد بها عنترة ، تلك هى أن يطلب منه مهرا لعبلة ألفا من النوق العصافير التى لا توجد إلا عند الملك النعمان وهو ملك كبير لن يقدر عنترة — كما قدروا — على هزيمة جنده . إلا أن هذه المسألة إنما تعتبر خطوة جديدة نحو تثبيت الأمجاد التى حصل عليها عنترة ، وفرصة له وقد أصبح حرا بين الأحرار وقائدا لعروة وفرسانه ، أن يصبح كذلك ذا مال وذا مركز حين يحارب جند النعمان وحين يلقى الفرسان فى بلاط كسرى وحين يرد هزيمة النعمان إلى نصر وحين ينقذ أموال كسرى ، فيسير ذكره وتتحقق له من معالم الفروسية ما لم يكن من الممكن ان يتحقق بغير هذه الرحلة الخطيرة التى خرج فيها باحثا عن مهر عبلة من النوق العصافير فعاد بالنوق والشهرة والمجد واعتراف العالم كله بما له من مكانه بين الفرسان .

والمؤلف فى هذه المغامرة يربط لنا بين الجزيرة العربية وبين ما حولها من امم ربطا واعيا ، فهو حينما وضع عنترة — البدوى الجلف — وسط بلاط

كسرى صور لنا معالم تلك الحضارة المترفة حين يحارب جند النعمان وحين يلتقي الفرسان في بلاط كسرى وحين غدر ملوك الفرس بالملك المنذر ، ملك الحيرة كما يعرض لنا صورا من معارك عنترة ضد فرسان « فارس » ارهاصا بما سنراه من معارك لعنترة مع اشد فرسان الامم واقواهم .

وفي هذه الرحلة يتعرف عنتره بعمرو بن نفيلة وزير المنذر — « وهو من جلة المعمرين المنتظرين لظهور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لانه قد عاش خمسمائة عام »(١) كما يظهر في القصة أيضا عبد المطلب — جد النبي — وتسنح الفرصة لعنتره فيلتقي بفرسان الروم كما التقى بفرسان العجم ، ويرد عنتره على كسرى ماله وتصبح قصة حبه لعبلة هي حديث البلاطين ، ويقول له كسرى : « وحق النار يا عبسي لو أعطيتك ملكي لكان أقل قليل في مقابلة فعلك الجميل ، فإن عطاءنا ينفد ومديحك لنا يبقى ، فتأن واطلب ما يكفيك فلعلنا على بعض فعالك نكافيك »(٢) .

وفي هذه الرحلة أيضا يجمع المؤلف بين فارس العرب — عنترة — وبين فارس اسطوري له كيان وقيمة في الاساطير الفارسية ، ذلك هو رستم . وتتم بين البطلين الاسطوريين مصارعة تنتهي بهزيمة رستم واقراره بالفضل لعنترة فارس العرب .

وبينما عنترة عائد إلى دياره ، إذا به يلتقي بعبلة لقاء رائيا وسط الصحراء حيث يجدها تبكي وتنوح لأن أباها وأخاها قد أسرهما فارس من بني كنانة وعرض أن يطلق سراحهما نظير زواجه من عبلة فوافقاه وحملاها معهما في طريقهما إليه ، فيلقاهم عبد من بني الريان يأسر البنات ويتمتع بهن ثلاثة أيام ثم يسلمهن للعبيد الذين معه فإذا ما شبعوا منهن يذبحونهن ويشوونهن ويأكلونهن . ويلتقي الفارس الكناني — الذي رام زواج عبلة — بهذا العبد من بني الريان لقاء

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٢٥٨
(٢) السيرة مجلد ص ٢٨٧

مخيفاً فيقتله العبد ويأسر مالكا وابنه اللذين حاولا الهرب منه ولحقا بقافلة لعمارة الوهاب ولكن العبد أدركهم وأسرهم جميعاً .

هذا اللقاء الروائى بين عنترة وعبلة الذى جسد فيه المؤلف كل ما يمكن أن يلحق بها وبأهلها — بل وببنى عبس جميعاً — من ذل وهوان إذا ما تخلى عنهم عنترة يمثل القمة فى المرحلة الأولى من مراحل حياة البطل . فعنترة الذى خرج ذليلا حقيراً عاد فارساً شهيراً ، وبنو عبس ومعهم عبلة الذين غادرهم عنترة أسياداً يعود ليجدهم فى موقف لا يحسدون عليه بعد أن انتقلوا من ذل إلى ذل وأصبحوا يساومون على حياتهم بنسائهم . ويمهد هذا الموقف لنصر جديد يحرزه عنترة على كل أعداء عبلة ، ويقضى على ذلك العبد الباغى فيقتله هو ومن معه من عبيد .

إلا أن المؤلف لا يختم هذه المرحلة الختام السعيد قبل أن يقيم الحجة على أعداء عنترة من بنى عبس كما أقامها على عبلة وأبيها وأهلها ، فيدفع بعمارة إلى محاولة جريئة لاختطاف عبلة إلا أنها تنتهى نهاية مريرة إذ يقع هو وهى معا فى الأسر ولا يخلصهم منه إلا عنترة بعد أن حاول الربيع — أخو عمارة — إنقاذ أخيه فوقع هو الآخر فى الأسر ولم ينقذهم من هذا الذل سوى عنترة الذى هزم الفارس وعاد بعبلة وأهلها إلى خيامهم .

رغم هذا كله ، ورغم ما حقق عنترة من نصر تلو نصر ، ورغم ما أصاب بنى عبس من ذل أثر ذل ، إلا أن المؤلف أخذ يطيل فى هذا الجزء من روايته اطالة تبدو متعمدة وكأنما هو يريد أن يبنى فوز عنترة بعبلة على أسس متينة لا مجال للشك فيها . فالمناوؤون لعنترة يجتمعون عليه ويرفضون حقه فى ابنة عمه ، ويخرج عنترة من ديار عبس مقرراً ألا يعود وفى الطريق يلتقى بمغامرة لها ما بعدها إذ ينقذ امرأة وبناتها من الأسر بعد أن يقتل الباغى الذى أسرهن ويعود بهن إلى ديار بنى الحارث — حيث كانوا يقطنون — رافضا أن يأخذ على جميله أجراً .

أما بنو عبس فيفرحون لهجرة عنترة ، ويستعد مالك — أبو عبلة — لزفاف ابنته إلى عمارة وكأنما لاعهد هناك بينه وبين عنترة ، يؤيده في ذلك الأمير شاس ، غير أن الملك زهير يقف من الأمر موقفاً آخر إذ يغضب من ذلك غضبا شديداً ويأمر مالكا أن يرد إلى شداد مال ابنه الذى جاء به مهرا لعبلة كما يأمر بعمارة فيجلد أمام الجميع بينما يفقد شاس في احدى الغزوات ويقع أسيرا بين يدى واحد من بنى الحارث .

وفى الأسر يضطر شاس — حين يفتخر عليه بنو كندة بأمرىء القيس ابن حجر — أن يذكر لهم أمر عنترة مفاخراً به وبشعره . ويتصادف أن تكون المرأة التى افتخرت عليه من بنى كندة هى نفس المرأة التى أنقذها عنترة — وبناتها — من الأسر ، فترسل سراً رسولا إلى عنترة يخبره بوقوع ابن ملكه أسيراً وتعمل على تخليص شاس من الأسر . حينئذ يقول شاس لنفسه : « هذه فعال عنترة معى ومع سائر الناس وهو ابن الأمة ، فكيف تفعل أنت بعنده ياشاس وأنت ابن حرة مكرمة »[1] ويصل عنترة إلى شاس فى الوقت المناسب لينقذه من الموت .

هذا الجانب من جوانب الكفاح والصراع الذى يقدمه المؤلف فى الجزء الأول من روايته يبين بجلاء أزمة العبودية التى حاول عنترة أن يخلص منها مقدما فى سبيل ذلك كل جهد ، كما يبين أن عبلة كانت تسبب له من مجالات الصراع الشيء الكثير . فقد سمع بها فارس من فرسان العرب يدعى « روضة » فأراد أن يغير على بنى عبس ليأسرها ويتزوجها ولكن عنترة يلتقى به ويأسره . ويقف بنا المؤلف عند هذا الموقف ليقدم لنا جانبا آخر من جوانب شخصية عنترة ويرينا مقدار ما يمتلىء به قلبه من رحمة وحنان إذ يضعف — بعد أن أسر روضة — أمام أمه وأخوته الثلاث حينما طلبن منه أن يفك أسره فلان قلبه وأطلق سراحه .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٣٨٨

ويعود عنترة بشاس وهو على شفا الموت إلى بنى عبس ويصبح من اللازم على مالك أن يزوجه من عبلة ، ولكن مالكا كانت لا تزال فى جعبته أشياء فهو يطلب من عنترة أن يأتيه بفارسه شهيرة هى « الجيداء ابنة زاهر » لتقود ناقلة عبلة عند الزفاف وكأنما أراد أن يرميه فى مهلكة أخرى إذن أن الجيداء كانت ابنة عم خالد بن محارب وهو من أكبر بيت فى بنى زبيد و « كان أبوه محارب بن جيشان يقرب إلى معد يكرب فارس بنى زيد أبى سيدنا عمرو صاحب رسول الله صلى عليه وسلم » .[1]

فالمؤلف يجمع فى هذه المغامره الجديدة بين فارس عربى مشهور كمعديكرب وبين عنترة ، كما ينتهز هذه الفرصة ليحكى لنا قصة الحب التى بين خالد بن محارب وابنة عمه الجيداء .

ويأسر عنتره الجيداء بعد ان كان خالد قد أسر عبلة . وبعد فترة تقع عبلة فى أسر بسطام فارس بنى شيبان فيأسره عنترة ويسير به إلى ديار بنى شيبان لتخليص عبلة إلا أنه يجد بنى شيبان وقد وقعوا فى أسر فارس جبار فيتحالف هو وبسطام ويخلصون عبلة وأخت بسطام من أسره .

وخطوة بعد خطوة تزداد قيمة عنتره كفارس وتزداد شهرته فى أرجاء الجزيره العربية التى يقطعها من شمالها إلى جنوبها فى مغامرات لا نهاية لها سعيا وراء تخليص عبلة . فمالك أبوها يتهرب من عنتره باستمرار وهو بهذا يوقع نفسه وابنته فى الشدائد التى لا يخلصهم منها إلا عنترة الذى يزداد فرسانه وأتباعه باطراد ، أما عمارة وأخوه الربيع فيصل بهما التآمر إلى حد رشوة أحد القتلة المحترفين ليقتل عبلة بعد أن أعجزهم قتل عنترة . وتنتقل المغامرات مرة أخرى إلى أرض النعمان بن المنذر حيث يستطرد الكاتب فى سرد قصة النعمان مع المتجردة ابنة الملك زهير حينما هرب الربيع إلى أرض النعمان وأخذ يغريه بها .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٤١٩

ويتجمع أصحاب المؤامرات على عنترة من كل ناحية (بنو زياد وبنو فزاره) إلا أن عنتره يتمكن من إقامة الحجة عليهم ويثبت ختلهم ومكرهم ويدور القتال بالفعل بين بنى عبس وبنى فزارة (الذين استأجر الربيع عبدهم بشارة ليقتل عبلة) . ويأسر عنترة الربيع واخاه عمارة ويحملهم إلى الملك زهير ولكن الفتنة تقع بين بطون عبس فتفرق بينهم . وكحل لهذه الفتنة ينفصل بنو قراد ويخرجون من مضارب بنى عبس ، بينما يرسل المرسل الملك النعمان اخاه « الملك الأسود » ليقتل عنترة ويأسر قبيلة بنى عبس إلا ان عنترة هو الذى يأسر الملك الأسود ويقضى على جيشه كما يأسر الفارس العربى معد يكرب الذى يعمل للنعمان مما يضطر الملك النعمان إلى ان يفدى اخاه وفارسه بعبلة التى كان قد هرب بها إليه بنو زياد . ويتحرج موقف النعمان بعد أن تصل إلى كسرى اخبار عجزه عن ملاقاة عنترة وقتله فيرسل إليه بقائده « خذوا » الذى عزله ووضع مكانه اخاه الملك الأسود .

وكما اثبت المؤلف دالة عنترة على بنى عبس اجمعين فإنه يحاول كذلك ان يثبت له هذه المكانة على جميع فرسان العرب المشهورين ، ثم على أكبر ملوك العرب فى تلك الفترة وهو النعمان . وبعد ان مهد عنترة لنفسه الجزيرة العربية بتغلبه على اشهر فرسانهم من أمثال معد يكرب وذى الخمار — الذى كان يقارن بألف فارس — ودريد بن الصمة شيخ العرب، تجتمع جيوش العجم ومعهم جيش العراق بقيادة الملك الأسود لمهاجمة عنترة وبذلك تصبح المعركة هى معركة العرب ضد العجم لاسيما وان دريد بن الصمة قد انضم إلى عنترة واتحد معهم كبار فرسان الجزيرة مما سهل عليهم هزيمة جيش العجم وتمكنوا من إعادة النعمان إلى ملكه .

ويعود عنترة من أرض العراق منتصراً محققا ما اراد من إقرار فرسان له بالأولوية والبطولة ليجد ان قبيلته كلها — كما فيها الملك زهير — قد اسرت فيخلصهم عنترة : ويموت الملك زهير فيتولى مكانه ابنه قيس بن زهير الذى تربطه صلة النسب بالربيع وبنى زياد .

وتنتقل القصة إلى بلاد اليمن لينصر عنترة محبا وقفت الأحداث بينه وبين حبيبته ويثبت عنترة فى هذه الرحلة مكانته فى الجنوب كما أثبتها من قبل فى الشمال ، وفى هذه المرحلة من القصة يوضح المؤلف مكان عنترة عند ملك بنى عبس الجديد ، كما يذكر انتصاره على بنى زياد وبنى حذيفة الذين تمادوا فى عداوته ، ثم يلتقى عنترة بالفارس القبطى « مقرى الوحش » فيأسره عنترة ويصبح هذا الفارس الكبير أحد أعوانه — وتدور الدائرة على بنى فزارة بعد قتلهم للأمير مالك ابن زهير — صديق عنترة وأخى قيس ملك عبس الجديد — فيقضى عليهم بنو عبس .

وتستقر الأمور لعنترة بعد أن أذل جميع أعدائه وتبوأ مكان الصدارة فى الفروسية غير منازع ، إلا أنه لا زال فى قلبه من عبلة حرقة ، وهنا يقول الملك قيس لعنترة فى وليمة نصره : « وحق البيت والكعبة الغراء ، وأبى قبيس وحراء لا أقبل كلام إنسان ، حتى تدخل عبلة على حامية عبس وعدنان »[1] وبدأت القبيلة تستعد لزواج عنترة وفى هذا لزواج يتم تتويج عنترة ملكا على الفرسان إذ يقدم عليه جميع المشهورين من فرسان العرب بالهدايا وبالشعر يمدحونه فيه ويقرون بفضله .

وقد شئنا أن نتتبع تطور شخصية عنترة فى هذه المرحلة خطوة خطوة حتى نحس بذلك المجهود الذى استطاع المؤلف بواسطته أن يجعل من اللقاء السعيد قمة يقف عندها عنترة ، وقد تمهدت الأرض تحت أقدامه مرشحة إياه للمهمة التى أعلن عنها المؤلف فى صدر كلامه وهى تطهير الأرض من الجبابرة الكافرين أمام الرسالة المحمدية . والواقع أن عنترة ما أن يصل إلى هذه القمة إلا وقد انعقدت له ألوية النصر فى مجتمعه الخاص وفى مجتمعه العام بعد أن قتل من المحاربين كل من وقف فى طريقه ، وبعد أن اكتسب من الحروب التى خاضها

---

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٣١

فى شمال الجزيرة وجنوبها خبرة صقلته وجعلته صالحا للمرحلة الثانية من مراحل حياته فى تسلسل روائى طبيعى بعيد عن التعسف والتضارب بحيث تستطيع بعده أن تتقبل عنترة على أساس أنه المثل الحى لنموذج الفارس العربى الكامل ، فقد مر علينا فى سيرة حياته وفى أحداث كفاحه ما يجعلنا نطمئن إلى كل ما سوف يأتيه من أفعال بعد ذلك . وقد استطاع عنترة أن يتغلب على عقدة النسب إذ أرغم بشجاعته وقوته جميع الناس على الاقرار بأصالته وبفضله كما أرغم أباه وقبيلته أن تفخر بنسبته إليهم وتوج كل هذا النصر بزواجه من من إحدى حرائر بنى عبس ، وبين الاعتراف ببنوته لشداد وبين زواجه من عبلة مرحلة كان لا بد للمؤلف أن يقطعها على حذر ذلك أنه لا يريد لبطله أن يحصل على حقه اغتصابا وعن كره من الناس وإنما شاء أن يجعل حقه هذا عن رضى كامل وبإقرار واعتراف من الجميع .

وبطلنا فى هذه المرحلة (مرحلة التكوين) بطل ذاتى ، بمعنى أنه يعبر — كفرد — عن مشكلات خاصة به ويصارع فى سبيل التغلب على صعوبات تعترض طريقه ، هذه الصعوبات هى وليدة نظام اجتماعى سىء يعيش فيه العرب ويسبب للكثيرين من أفراده التفسخات والعقد النفسية نتيجة لما فيه من طبقية وارستقراطية تقسم الناس إلى ألوان وأجناس ، وتجعل للصفات الجسدية (كاللون والشكل) ومن الصفات الوراثية (كوضع الأم الاجتماعى) أهمية تفوق تلك الخصائص الذاتية التى تؤهل الفرد فى المجتمع السوى للحصول على ما يريد .

هذه المرحلة ذاتية كذلك لأن قصة الحب فيها تشغل الجانب الأكبر من اهتمام المؤلف كما تشغل الجانب الأكبر من اهتمام البطل حيث تصبح هى مدار اهتمامه وشغله الشاغل الذى يملأ حياته بكل ألوان الجهاد والكفاح .

هناك دافعان إذن يتحكمان فى شخصية بطل هذه المرحلة ، أحدهما دافع ينبع

من وضعه الاجتماعى والثانى دافع ينبع من علاقة الحب ، والدافعان معاً يثبتان ذاتية البطل كما يثبتان ما فيهما من ضيق أفق الهدف بحيث نستطيع القول بأن عنترة فى هذه المرحلة عربى عادى يسعى وراء هدف ذاتى حين يحققه تنتهى القصة . ولكن هذه المرحلة فى السيرة تعتبر مرحلة ولادة للبطل الأسطورى الذى يواجه أشياء فوق الأحداث وأقوى من العقبات وأبعد من مواصفات اللون والجنس والتقاليد وأحد من كل قيد يربط البطل بمشكلات ذاتية تحدد معالمه . أى أن عنترة بحصوله على المكانة الاجتماعية والزوجة العربية قد انفلت من قيود ضيقة كانت تحد من حركته وتجعلها تسير فى نطاق ضيق ليبدأ فى المرحلة الجديدة شيئاً جديداً سوف نراه فيما بعد .

وهذه المرحلة الذاتية من حياة عنترة تعتمد إلى حد كبير على ما نقلته كتب الأخبار وكتب الأدب مع ما عرف عن حياة عنترة — الشاعر العبسى — من معالم رئيسية تحدد معالم شخصيته وتروى قصة كفاحه ، إلا أننا نحس أن هذا الجزء الذى يرتبط بالتاريخ قد تناولته يد تعرف هدفها فخلقت حوله من الأحداث والمواقف ما يبلور الحقيقة التاريخية تدريجا لتكون تمهيدا لظهور بطل أسطورى أشبه ببطل الملاحم وأقرب إلى شكله العام من حيث أهدافه ودوافعه .

وليس من عجب أن اختار المؤلف هذه الشخصية بالذات من بين مئات الشخصيات التى تذخر بها كتب التاريخ والأدب ، اذ أن الأهداف التى يسعى اليها عنترة ليتحرر تكاد ترمز — الى حد كبير — الى أهداف المجتمع العربى فى التحرر من ربقة التقاليد الخاطئة والنظم التى تحد من انطلاقه وتطوره . والذاتية التى يعيشها البطل فى هذه المرحلة تكاد تمتزج امتزاجا بموضوعية واضحة المعالم هى صراع المجتمع العربى كله ، وهذا المزج يأتى طبيعياً وبلا تعسف بحيث لا نكاد نحس به اطلاقا فضلا عن أنه يحقق لهذه المرحلة من الرواية سعة الأفق ورحابة الميدان .

ويضغط المؤلف فى حذق وبراعة على تحديد معالم المجتمع العربى من خلال شخصية بطله علالا الدوافع والأسباب التى ترسم حركته سواء فى علاقته الداخلية — بين أفراده هو — أو فى علاقته الخارجية مع الأمم المجاورة سواء ما هو عربى الأصل منها وما هو أجنبى عنها تماما . وحين ينتهى المؤلف من هذه المرحلة يكون قد رسم لنا اطار المجتمع العربى رسما دقيقا وحدد العلاقات الحقيقية فيه مبررة بواقع البيئة مرة وبواقع التاريخ مرة وبواقع ما يجيش فى هذه الجزيرة آنذاك من محاولة للتجمع واحتلال مكان مناسب على خريطة العالم .

ورغم احداث الرواية المتشابكة فى هذه المرحلة الا أننا لانخطىء خلالها صورة دقيقة للمجتمع العربى قبل الاسلام ، كما لا نخطىء خلالها صورة لما كان فى الجزيرة العربية آنذاك من ارهاصات بظهور دعوة توحد قبائلها وتواجه الأمم المجاورة . ونحسب أن شخصية عنترة كانت هى المهاد الطبيعى الذى أعطى المؤلف فرصة تحديد العلاقات بين العرب والمناذرة وبينهم وبين الغساسنة ثم بينهم وبين اليمنيين من ناحية ، كما أعطاه الفرصة ليحدد العلاقة بين الجزيرة العربية وبين امبراطوريتى الفرس والروم المتاخمتين لها .

وقد أطلقنا على هذه المرحلة اسم « مرحلة التكوين » لأنه فيها تكونت شخصية البطل ، وفيها تكونت معالم البيئة ، كما أن فيها تحددت العلاقات بين جميع الاطراف المكونة للرواية .

ولسنا نريد أن نترك هذه المرحلة قبل أن نشير إلى النماء التدريجى الذى عمد إليه المؤلف : فهو يقدم من الحوادث ما يبرر كل تطور جديد فى شخصية بطله ، بل هو يعقد الاحداث ويجعلها تتشابك حتى يجعل من نصر بطله قيمة حقيقية فى تطوره . كما أن مزجه لقصة الحب بقصة المجد يدل على براعة روائية إذ قد أمكنه أن يعكس كل تطور جديد فى شخصية البطل على قصة الحب ، وأن يحدد معالم معينة فى شخصية هذا

الفارس تصبح بعد ذلك سمات ملازمة له ، فقلبه العامر بالحب هو الذى دفعه إلى رفع سيفه دفاعا عن كل قصة حب وأن يتخذ موقفاً معيناً أمام النساء المستضعفات فيدافع عنهن وينصرهن ويساعدهن دون ثمن أو غاية .

وهكذا تسلمنا هذه المرحلة — فى طبيعة ويسر — للمرحلة التالية لما وقد تبلورت فى أذهاننا شخصية عنترة كمثال للفارس العربى فى خلقه وفى تصرفاته وفى دوافعه .

مرحلة الفروسية أو المرحلة الذاتية

لسنا نقصد حينما نسمى هذه المرحلة من مراحل تطور شخصية عنترة باسم « مرحلة الفروسية » أن نجرد المرحلة السابقة لها من هذه الصفة ، ولكننا نقصد أن شخصية عنترة فى هذه المرحلة قد تبلورت بعد أن تخلص من جميع الدوافع الذاتية التى كانت تتحكم فيه من قبل لتحل محلها دوافع أخرى تحدد تقاليد الفروسية العربية . فهذه المرحلة تعتبر تصويرا لسمات الفارس العربى فى الجزيرة العربية بكل مقوماتها ، كما أن البطل فيها مؤيد بقوة غيبية حددها الكاتب قائلا « إن الله عز وجل أسكن فى عنترة بن شداد سرا خفيا لا يعلمه إلا الله اللطيف الخبير ، وكان من عادته أنه يقاتل الفارس إلى أن يحل به التعب ، فاذا انفصل منه وتأخر قليلا — قد رباع أو ذراع — رد الله عز وجل عليه قوته وضاعفها فيرجع إلى خصمه ويأخذه من الميدان أسيرا أو يتركه قتيلا »[1] .

ويحدد المؤلف فى هذه المرحلة الفرسان الذين التقى بهم عنترة فأسرهم أو قتلهم بسبعين جبارا من جبابرة الفرسان مثل ذى الخمار — فارس بنى حمير — وصهره دريد بن الصمة ، ومثل زيد الخيل ، وعامر بن الطفيل ، ومعد يكرب الزبيدى وعمه خالد بن محارب ، ومثل عمرو بن العامرى الذى كان يعتبر فى ذلك الزمان « فارس من كفر » ، ومثل جبار بن صخر وعمرو بن ضمرة الغسانى وعمر بن العقاب فارس بنى كنده ، ومثل معاوية بن النزال ومسعود بن مضاد ، ومثل عقريب السواحل فارس جزائر البحار ، ومثل حجار بن عامر وسليكة بن سلكة وإياس بن قبيضة وانس بن مدركة الخثعمى ومسحل بن طراق وأبى الأشبال وطود الأطود وعبد زنجير وعبد هياف . وهؤلاء الفرسان لا يوجد مثلهم فى

---

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٥٠

مشارق الأرض ومغاربها ، فكان عنتره بن شداد يأسرهم أو يقتلهم أو يجز نواصيهم . ومثل هذا فعله مع الملك الأسودوجون والرميم المسعور وفاز القضاعى وقيصر ملوك الافرنج ، وصافات صاحب بلاد الظلمات ، وكسرى ، ومثل ملوك أرض خراسان وبيوت النار الحية والمملكة الفارسية . وقد أسر عنتره ووردشاه وظالم وعروه والحارث بن ظالم واللقيط بن زراره ... « قال الراوى ياساده - لو شرحت ذلك وذكرت قصة كل منهم لسكت الكتاب ، وكل اللسان عن الجواب . وكانت صفة عنتره فى ذلك الزمان كزناد خرج منه نار فهد الله سبحانه به الأرض ، فسبحان من خلقه وسواه وأعطاه»(١) .

اكتملت للفارس العربى عدة الجلاد ومميزات الفروسية مما يذكرنا بسمات الفارس المعروف فى القرون الوسطى فى الأدب الأوروبى . فله سيف عزيز عليه يقطع كل شىء ولا يتلم حدة شىء ذلك هو «الضامى» الذى صنع من قطعة من شهاب سقط من السماء ، وله فرس لا يدركها فرس تسابق الريح وتفهم مواقف الحرب والنزال وتألف صاحبها أشد الألف ، يتحير من رشاقتها وسرعتها ومهارتها الفرسان تلك هى « الأبجر » ، وله رفيق أتقن الحيلة وبلغ من الذكاء الغاية ووصل القمة بين السلالين ، أسرع من الريح إذا جرى وأمهر من الشيطان إذا تنكر ذلك هو أخوة « شيبوب » . وله رفقة سلاح يلازمونه فى معاركه ويحاربون تحت رايته مثل عروة بن الورد وصعاليكه ومثل صديقه الفارس الكبير مقرى الوحش . وله عزوه ينتسب اليها وقبيلة يعرف بها تنتصر له وينتصر لها تلك هى قبيلة عبس . وله حبيبة يناديها حين يخلو به الطريق فى الصحراء وينطق باسمها عند موطن النزال ويحارب من أجلها فى سبيل أشرف المثل وارفع الغايات تلك هى عبلة زوجته وابنة عمه .

ماضيه إذن ملىء بقصص البطولات والإنتصارات ، وحاضرة يحمل كل

---

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٥١

مميزات الفروسية التي عرفتها المدنية في فترة من الفترات كظاهرة إجتماعية لها أهميتها ، واسمه أصبح رمزا للكمال حتى أنه غدا مقصدا لكل طالب شهرة يريد أن يصيب من لقاء عنترة ذيوعا في الاسم ورفعة في القدر. ونحن نلمح تلك الظاهرة في بداية هذه المرحلة حين يفاجئه في ليلة عرسه فارس عنيد اسمه « العقاب » فيقتله عنترة .

ويبدأ عنترة أولى رحلاته بعد الزواج على شرف الفروسية إذ يخرج هو ورجاله ليعيدوا إلى صديقه مفرى الوحش حبيبته مسيكة من بلاد الشام . كان مفرى الوحش قد خرج يبحث — مثل عنترة — عن الف من النوق العصافير هي المهر الذى طلبه ابوها ، إلا انه اثناء غيابه احبها غدير بن الملك الغساني وخطبها من ابيها الذى رفض فقرر غدير ان يخرج في خمسمائة فارس ليسبي الفتاة . وهنا يصل عنترة ومفرى الوحش وتدور المعركة بين فرسان غسان وفرسان الحجاز الذين قتلوهم ونكسوا اعلامهم وعاد عنترة بصديقه وحبيبته إلى ديار بنى عبس .

ولكنهم ما ان يصلوا إلى بنى عبس حتى يجدوا الديار خالية . فقد عرف النعمان بهلاك بنى فزارة فارسل جيشه ليقضى على بنى عبس اما قيس وقبيلته فقد هربوا يحتمون بالجبال ولحقهم عنترة . واخذ النعمان يؤلب القبائل على عبس بينما اخذ الشر يقع تدريجيا بين بنى عبس وبين القبائل التى تجاورهم في الجبال حتى إذا ما حاول احد فرسان تلك القبائل اغتصاب فتاة عبسية قتله مفرى الوحش بينما قتل عنترة فارس بنى حذيفة لغدرهم بعبس التى بدات تتحرك نحو اليمن .

وهنا نجد مغامرتين متتاليتين لا هدف لهما إلا إقرار الحق ونصرة المظلوم والانتقام من الغادرين . ونلاحظ انه في حالة مفرى الوحش يجابه عنترة بن الحارث ذاته ويقتله دون خوف من منزلته ولا منزلة ابيه ، وفي حالة الفتاة العبسية يجابه عنترة بنى ريبال كلهم حفظا لشرف فتاة عبسية .

ويستمر بنو عبس في هروبهم من وجه النعمان إلى ان يجاوروا قبيلة بنى

سعد وكان لبنى سعد فارس مشهور هو معاوية بن النزال الذى يرسل جاسوسة تستطلع أخبار بنى عبس فترى عبلة وتنقل للفارس أوصاف حسنها وجمالها فيهيم بها ويحتال لخطفها بعد أسر الملك قيس وبعض أشراف بنى عبس بواسطة الغدر والخيانة فتدور الحرب بين بنى سعد وبنى عبس حتى يهرب الفارس اليمنى ورجاله هكذا نجد أن المعارك تدور هنا لا بين عنتره ومعاوية وإنما بين الشماليين والجنوبيين لا سيما بعد أن اتصل معاوية بملوك بنى تميم وحاول أن يعقد حلفا ضد بنى عبس ، ولكن المعركة تنتهى بهزيمة فرسان بنى تميم ومصرع معاوية . وتتجمع القبائل اليمنية كلها ضد بنى عبس ولكن النصر يستمر حليفهم على ملوك اليمن وفرسانها .

يحاول المؤلف بهذه القصة أن يؤكد فضل فرسان الحجاز على فرسان اليمن ، فهم — رغم قلتهم — ينقلون من نصر إلى نصر بفضل عنتره الذى يحقق للشماليين نصرا كبيرا على الجنوبيين . ويستمر زحف بنى عبس حتى يصلوا إلى نهاية بلاد اليمن ويواجهوا بلاد السودان .

والواقع أن رحلة بنى عبس هذه تذكرنا برحلات كثيره فى قصصنا الشعبى تحقق للقبيلة المهاجره نصرا تلو نصر وكأن فارسها يجوب الآفاق بحثا عن المغامرات وذيوع الصيت واقرار الأمم له بالفضل والغلبة .

وتتكرر القصة مرة أخرى .. قصة غرام ملك جديد بعبلة ، وغدر جديد يقع على بنى عبس من جراء هذا الغرام ، وهزيمة جديدة تصيب القبيلة الغادرة وكأنما يريد المؤلف أن يجعل من عنترة فارسا كبيرا لا يشق له غبار فى رد الغدر الذى يتمثل فى ملوك القبائل ورؤسها ومترفيها ، كما أراد أن يجعل من عبلة رمزا للجمال تذل أعناق الرجال بحسنها كما أذلهم زوجها بشجاعته .

وهنا تظهر أولى صور السحر ، إلا أنها تتكسر عند أقدام عنترة الذى تحميه

قوة أسطورية منه . ويتجمع الملوك فى شبه حلف ضد بنى عبس إلا أن عنترة يقتلهم ملكا فى أثر ملك . وحين يصل الموقف إلى تأزمه بين بنى عبس وبين قبائل اليمن الذين تجمعوا واتحدوا عليهم يظهر الملك عمرو بن هند — أخو النعمان — فى جيش لجب يفصل بين المتحاربين ذلك أن الملكة المتجرده — زوجة النعمان وأخت الملك قيس ملك عبس — اقنعت زوجها النعمان برد غربة عبس فيوفد أخاه لإعادتهم ويرحل الجميع عائدين بعد أن يكون عنترة قد حقق فى بلاد اليمن نصرا كبيرا للشماليين .

وفى طريق العودة يتعرض لهم الفارس الشهير، ذو الخمار ، أثناء غياب عنترة ولكنه ينهزم أمام عددهم الكبير ، كما تتعرض لهم قبيلة بنى عامر ولكن هذا اللقاء يسفر عن مؤاخاة فارسهم عامر بن الطفيل لعنترة بعد أن أقر بفضله وقال لمن يحاجه فى أمره : « قد رأيت من كرم نفسه وطيب أصله وشجاعته ما لم أر مثله من بشر مع ما رأيت أنت من شجاعتى التى لا يحتاج معها إلى خبر . وان كنت تقول له نسب فإن نسبه حسن فعله وأدبه»[1] .

ويرحل عنترة وأهله إلى أرض عامر بن طفيل حيث يلتقى بفارس آخر هو عمرو بن ود العامرى ويستمر القتال بينهما يوما وليله وينتهى بالحلف كذلك إذ يقول هذا الفارس : « قد بشرنى الكهان أنى أعيش إلى زمن النبى العدنانى المبعوث بأشرف الأديان ، أحارب فارسه المشهر للايمان وقد كفانا ما لقينا من الحرب وتحيرت من أفعالنا الشجعان ، ولا بيننا ثأر ولا كشف عار . وأنا مقر لك بالفروسية والشجاعة والحمية وغرضى أن اتخذك صاحبا رفيقا وركنا وثيقا عند نوائب الزمان وطوارق الحدثان لأنك أوحد الزمان ، وقد يكفيك قولى بين هذه الفرسان ما عدت أركب حصانا ولا أضرب بحسام ما دمت أنت فى العصر والأوان إلى أن يظهر النبى العدنان الذى دينه ينسخ الأديان ويكسر الاصنام».

---

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٤٣٦

ويلتقى عنتره بالحطيئة — الشاعر المشهور — الذى يخبره بأن أخاه عامرا قد وقع فى أسر فارس شديد البأس هو زيد الخيل بن المهلهل النبهانى ، فى الوقت الذى تتجمع فيه نساء بنى عبس باكيات بين يدى عنتره بعد أن غادر ديار عبس مغاضبا — شاكيات من شدة وطأة دريد بن الصمة وأهله من هوازن على فرسان عبس حتى كادوا أن يفنوهم فيسرع عنترة بملاقاة دريد وأسره ثم يثنى بزيد الخيل الذى يفتدى نفسه مقسما بأنه لن يعود إلى حمل السيف فى وجه عنترة .

وهكذا لم يعد أمام عنترة من الفرسان المشهورين أحد إلا لاقاه وهو يصطنع الكرم مرة والشهامة مرة والحزم مرة ، ولم يبق أمامه سوى « ذو الخمار » الذى عاد فى تلك الأثناء لإنقاذ دريد بن الصمة ويلتقى الفارسان فى موقعة رهيبة انتهت بأسر ذى الخمار . وكان يشرف على هذه الموقعة الملك عمرو بن هند - أخو النعمان الذى حضر على رأس موكب المتجردة — زوجة النعمان — لزيارة قومها العبسيين .. فيصلح عمرو بن عبس وهوازن إلا أن ذو الخمار يصر على مبارزة عنتره قبل الصلح ويبرر طلبه قائلا : « ما قلت كلامى هذا على سبيل البغى ، ولكن أنا أبين لك قصدى بهذا الكلام وهو أننى فى هذا العام كنت معولا على الحج إلى بيت الله الحرام وأعلق لى قصيدة من شعرى حتى تسجد لها ملوك الاقطار ويعلو بها قدرى عند سادات العرب . والآن فقد أصبحت مأسوراً وما بقيت اعتمد على أمر من الأمور إلا أن قهرت هذا الجبار وتشهد لى العرب بعلو المرتبة والإقتدار » .

وهكذا نشهد مبارزة — مثل مبارزات القرون الوسطى — تدور بين فارسين فى حفل رهيب بحضرة عمرو بن هند وفرسان القبيلتين الذين يقضون ليلتهم فى سهر وشرب ومنادمة إلا أن هذه المبارزة لا تتم فى حينها بسبب مرض ذى الخمار ، كأنما أراد المؤلف أن يطيل من أمد ذلك الصراع الذى يقوم به عنتره فى الجزيرة العربية ليصبح فارسها الأول ، وليترك فى نفس عنترة هدفا كبيراً جديداً يقول عنه لبنى عمه : يابنى عمى : ما ذو الخمار إلا فارس همام لا يوجد مثله فى

الأنام ، وما سار إلا وقد ترك فى قلبى ناراً وكلاما . فقال له مقرى الوحش : يا أبا الفوارس ما هذه النار والكلام ؟ أبديه لنا ولا تخفيه . فقال ذو الخمار لما كان بحضره أخى الملك النعمان والملك قيس والفرسان قال لهم أنه قبل أسرى له فى ذلك العام كان أراد أن يعلق له قصيدة على البيت الحرام ويترك سادات العرب يسجدون لها فزعا من رمحه والحسام ، وها أنا أقدر منه عليها ولا تدلى ، أما أبذل روحى فيها وأترك لبنى عبس شرفا يبقى من بعدى »[١] . ويهول له مقرى الوحش هذا الأمر الذى يريد أن يقدم عليه إلا أن عنترة يصر على هذا الغرض الذى جعله هدفا له فى حياته الجديدة .

والواقع أن هذه الحياة — كما رأينا حتى الآن — ترسم لنا شخصية لفارس لا هم له إلا حيازة قصب السبق فى مضمار الشرف كما يفهمه العربى . فهو كحامل سلاح يلقى فى حومة النزال أشهر الفرسان وينتصر عليهم . فمغامرات عنترة فى هذه المرحلة من حياته تذكرنا بمغامرات الفرسان فى القرون الوسطى فى القصص الانجليزى والفرنسى معا . ومجموعة التقاليد التى تقدمها هذه المرحلة تشبه كذلك تلك التقاليد التى نراها فى قصص « سير والتر سكوت » وغيره من الروائيين ، إذ يعيش البطل على حصانه متنقلا فى البحث عن المغامرات التى ترفع من شأنه ، وفى السعى وراء الأبطال لمنازلتهم والتغلب عليهم . وإذ يقيم الأمراء والملوك حلبات المصارعة ومجالات المنازلة بين الفرسان يشهدها جمع كبير من الناس ليحكموا أى الفرسان أفضل . وإذ يعيش الفارس على ذكر اسم محبوبته — أو سيدته — التى يخوض المخاطر فى شرفها . وفى نفس الوقت يرسم لنا هؤلاء المؤلفون مجموعة من التقاليد الخلقية عن الفارس تجتمع فيها الشهامة والنجدة واغاثة الملهوف وقتل المعتدين والغاصبين مهما علت مكانتهم وسمت منزلتهم ، والدفاع عن النساء المستضعفات والأخذ بأيديهن ونصرهن دون طمع فى أجر أو مثوبة .

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ٩

الا أن مؤلفنا يقدم لقارسه شيئا جديداً هو ألصق الظاهر بمعنى الشرف ورفعة الشأن عند العربي ، ذلك الشيء هو التفوق فى عالم الشعر والوصول الى قمة ما يطمح اليه شاعر من مجد ورفعة ، إذلك أن الشعر كان سمة من سمات العرب يفخرون به قـــدر فخرهم بالشجاعة ويعتزون به قدر عزهم بالنسب واصالة الآباء والجدود .

وقد قدم لنا المؤلف بطله شاعراً منذ اللحظة الأولى ، الا أنه ما أن ينتهى من رسم صورته فارسا مشهوراً لا يخضع الا لمقتضيات الفروسية . حتى يبدأ فى وضع هدف جديد فى حياته هو تعليق قصيدة على الكعبة ليركع عندها سادات العرب ويصل صاحبها — وقبيلته — الى ما لم يصل اليه إلا القليلون من الفرسان الشعراء ، ويصبح ذكر حبيبته على كل لسان فى الجزيرة العربية وفى غيرها من البلاد التى يقصد أبناؤها الى الكعبة للدين أو للتجارة أو لهما معا .

والمؤلف هنا يستند الى حقيقة تاريخية لا شك فيها وهى أن عنترة العبسى واحد من أصحاب المعلقات ، والواقع أن هذه هى الحقيقة الوحيدة التى تقف وسط خضم الأحداث الروائية التى يقدمها المؤلف بين يدى هذا المجد الذى يحاول عنترة أن يصل اليه فنحن ما نلبث ان نجد امامنا صورة جديدة للون من الوان الحياة العربية لم يمن المؤلف من قبل بتقديمها وابرازها ، تلك هى صور الجلسات الأدبية الحافلة بالمناظرات الشعرية والمعارضات القولية . فنشهد جلسة للربيع ابن زياد ينشـــد فيها قصيدة يتحدى بها عنترة وغير عنترة ، فيقول عنترة على السليقة : « هذه القصيدة التى لا يقدر احد يعمل منها بيتا او بيتين ولا ينظر شكلها ، ولكن اسمع منى على البادية ما سمح به الخاطر وما تبديه السرائر ، وما كانت به الضمائر ، فى وقتنا هذا الحاضر ، قصيدة مثلها اصحاب القصائد بالمعلقة على البيت الحرام ، ولا ينال احد غيرى هذه الطبقة من سائر الأنام . ثم ان عنتر ترنم وجعل ينشد ويقول.. » (١) — ويورد المؤلف قصيدة يعارض

(١) السيرة مجلد ٤ ص ١

فيها عنترة قصيدة الربيع ، ويدخل عامر بن طفيل فينشد هو الآخر قصيدة يعارض بها الربيع ، وينشد عروة بن الورد قصيدة رابعة ، ويدخل مقرى الوحش بقصيدة خامسة ، ويختم عنترة المجلس بقصيدة أخرى فيقر له الجميع بالفصاحة والبيان ، حينئذ يقول عنترة مخاطبا عروة : « يا أبا الأبيض : فمن يكون هذا المقال مقاله ، وهذا القتال قتاله ، ما يصح أن يعلق له قصيدة على البيت الحرام ، ويفتخر بها على الخاص والعام »[١] .

ولا يقوم عنترة من مجلسه هذا حتى يقبل عليهم رجل يجرى ويخبرهم بأنه جاء من البيت الحرام وأنه سمع عبد المطلب يعظ أهل مكة ويخبرهم أن زمان النبي قد أهل ، ثم يذكر لهم أنه قد اشتعل قلبه بهذا الذى سمع فرأى حين نام رؤيا يقول فيها : « كأنى واقف قدام هبل ، وهو الصنم الأكبر الذى على الركن اليمانى ، وكأنى سألته عن هذا الرجل الروحانى ، وقلت له : يامولاى متى يكن ظهوره ؟ وفى أى مكان ينتظم سروره ؟ فقال لى : إذا اينعت نخلة يثرب ، ووقع الجوع والغلاء فى بلاد المغرب ، وأنشق ايوان كسرى وخرب ، ووقعت الوقعة العظمى ، وعلق قصيدته فارس بنى عبس الأدهم ، وأجل سفك الدماء فى الحرم وذلت له رقاب الفرسان من العرب والعجم ، واتته الهدايا من ملوك اليمن»[٢]

ويظل المؤلف واقفا عند هذا المشهد ليصور لنا ما دار فيه من كلام، وكيف غشى على عنترة ، وقوى امله فى تعليق القصيدة ، فيطلب هذا الرجل منه أن يصحبه معه هذا العام ليحقق ما رأى فى المنام . ثم يصف لنا المؤلف موقف أعداء عنترة وموقف أصدقائه من هذا الذى اعتزمه .

ويترك المؤلف هذه الجلسة الأدبية التى طالت ليعود إلى وصف حياة عنترة الفارس الذى يخوض معارك كثيرة لينقذ فرسه « الأبجر » الذى سرقه السلال « المختلس بن ناهب » ، وهنا يقف المؤلف ليرينا تطوراً جديداً حدث فى شخصية

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ١٥
(٢) السيرة مجلد ٤ ص ١٧

عنترة ، فبعد أن كانت عبلة هى المدار الأول لأحداث حياته، نجده فى هذه المرحلة يسلو بها بسيفه وحصانه كما يجب أن يفعل الفارس . يقول عنه مؤلف السيرة .. « وما نام تلك الليلة ، ولا التفت إلى عبلة ، لأنه كان يحب جواده أكثر من حب عبلة ، وقد ذكروا أن عبلة عنده أعز من روحه التى بين جنبيه»[1]

ويرسل الحارس بن الوهاب — ملك الشام — بجنود ليقتصوا من عنترة الذى قتل ابنه ، فيتجمع بنو عبس وينضم اليهم بنو غطفان وتبدأ المعارك بين العرب والنصارى كما رأيناها من قبل بين العرب والمجوسيين . وعلى الرغم من قتل رئيس الغساسنة « كافر بن فاجر » إلا أن جيشه العظيم العدد يتمكن من أسر فرسان عبس جميعا — بما فيهم عنترة — . وأخيرا ينتصر بنو عبس بحيلة من ملكهم قيس الذى اشتهر باسم « قيس الرأى » لمهارته وحذقه .

ويأتى لقاء آخر بفارس آخر ذلك هو عمرو بن معديكرب الزبيدى — وهو من فرسان الاسلام المعروفين — فيقف بنا المؤلف عند هذا الفارس ليحكى لنا تاريخ حياته وقصة غرامه بلميس التى يحبها فارس عنتره عروة بن الورد . كما يلتقى كذلك بسليك بن سلكه الذى كانت تسميه العرب « غول البر » ويتوالى لقاء عنترة بالفرسان بينما ذو الخمار لا يزال يسعى لعقد مبارزة بينه وبين عنتره إلا أن الظروف كانت تحول بينهما دائما . وهنا تظهر «غمره» وهى فارسه سوداء أشتهر امرها وتمكنت من أسر ذى الخمار والعباس فارس قبيلة دريد بن الصمة صديق عنتره . ويقف المؤلف من هذه المعركة عند صوره مهمة فى تاريخ الفروسية العربية إذ يصور لنا اصرار غمره — وقد اسر رجالها ذا الخمار بالتكاثر والعدد الكبير — على أن تأسره فى مبارزة متعادلة القوى حتى تثبت فروسيتها ويشيع اسمها ، فكانت تطلق سراحه كل صباح وتعطيه خيلا وعدة جلاد وتقضى النهار

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ٢١ .

معه فى مباراه طويلة ، وتؤدى هذه المعركة الفردية بين الفارس والفارسة إلى غرام ينشأ بين الاثنين فيعودان إلى ديار أبيها ، ويقول لها ذو الخمار : «بحق من افنى عاد دعينى اتفرج على قتالك مع عنترة ، فان اسرتيه فأحكمى فى رقبته ، وإن وقعت فى يده خرجت اليه وقضيت شهوتى من برازه . وإذا بانت طبقتى من طبقته وعرفت ذلك فأنا آمر صهرى دريد باطلاقك واطلاق من معك من الاسارى وعدنا من دياركم بسلام»[1] . وتوافق غمره على هذا الاتفاق وتسير على رأس جيشها للقضاء على فرسان بنى عبس. فاذا ماكان الليل وتحارس الجيشان خرجت غمره تدور بالخيام — لتحرس قومها — ، وخرج عنتره يحرس فرسانه فيلتقى الاثنان مصادفة ويأخذان فى الحرب دون ان يعرف احدهما الآخر ويستمر القتال بينهما طوال الليل والنهار الذى يليه ثم يتحاجزان فتره ليستريحا فتخفف غمره ثيابها حينئذ يعرفها عنتره ويشغل بجمالها فاذا ما التقيا بعد ذلك اسرها بينما هو مأسور بجمالها .

وهنا يعود بنا المؤلف إلى تقاليد الفروسية العربية ونشهد قصة شداد وزبيبة تتكرر من جديد ، إلا ان غمره لا تمكن عنتره منها إلا إذا قدم لها صداقاهو سيفه واطلاقها من الأسر . ولكن غمره ما ان تعود إلى جيشها حتى تحاول الغدر بعنتره ، وينقذه اخوه شيبوب من هذه الهجمة الغادره بحيلة من حيله فتسرع غمره بالهرب .

وهكذا تنتهى هذه المغامره بتغير كبير فى شخصية عنتره الذى نراه يترك وراءه جنينا فى احشاء غمره وقد عاد إلى طبيعة الفارس المغامر الذى لا يعرف إرتباطا قدر ارتباط الساعة ، اما قصة عبلة فتنزوى لتترك مكانا لمغامرات مشابهة تجعل من عنتره غازيا للرجال والنساء معا .

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ٢١

والمؤلف لا ينتهى من هذه المغامره حتى يدخل عنتره فى مغامره جديده ، ذلك ان الغساسنة ارسلوا جيوشهم إلى الجزيره العربية لجعلها مسيحية تدين بدينهم بينما تحالف بنو عبس مع بنى فزاره — اعداء عنتره — وانضموا إلى جيوش الغساسنة للقضاء على عنتره . وهنا نلمح تغييرا آخر فى موقف عنتره الذى يحارب قومه — عبس — لأول مره بعد ان حالفوا كل اعدائه واستجلبوا جندا من خارج الجزيره لقتاله . وهذا التحول معناه ببساطة ان فارسنا قد تحذر — إلى حدما — من قيود القبيلة واصبح يخضع اول ما يخضع لحكم اللحظة الراهنة فيأخذ مكانه بين من يظاهرونه مهما كانوا ، كما يأخذ مكانه ضد من يعادونه من اى قبيلة كانوا .

ويناصر شيخ العرب دريد بن الصمة عنتره فى جهاده ضد النعمان الذى يحكم بأمر كسرى ، ويصف لنا المؤلف لقاء الجيشين وصفا تفصيليا بما فى ذلك من بطولات وخدع قتال وغدر وخيانة من بعض العرب أنفسهم (يمثلهم سنان) الذين استدعوا جيش الحارث بن المنذر ملك النصرانية ووعده بالنصر وبالثأر لولده بدر الذى قتله مقرى الوحش . ويلتقى جيش العراق بجيش الشام ، وفى اللحظة الحرجة ينادى بنو فزارة بالصليب ويغدرون بعبس وجيش العراق منضمين إلى جيش الحارث النصرانى فينتصر ويتقدم فى الجزيرة مستوليا على القبيلة أثر القبيلة مما يجعل عنترة يقول : « وحق ذمة العرب الكرام ، إن قعدنا عن عبدة الصلبان تملكوا البيت الحرام ، وحرموا على العرب المسير اليه ، ورموا الأصنام من عليه ، ويتغير ما نحن عليه من الأحكام ، وربما يطالبون منا الخراج والعداد ، ويستخدمون الرجال والأولاد »[1] .

لم تعد المعركة إذن بين عنترة والفرسان كل يريد لنفسه رفعة الشأن ، وإنما

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ٢٠٥

أصبحت المعركة بين النعمان والحارث ، أو بين العراق والشام . وهى صدى للمعركة بين كسرى وقيصر ، أو بين الفرس والروم . عنتره فى هذه المعركة يمثل دور الجزيرة العربية التى هى هدف كل هذا الصدام ، والتى تريد أن تخرج من المعركة محافظة على كيانها واستقلالها . فعساكر العراق جاءوا ليهزموا عنترة ودريد. ودريد هذا هو المعمر الذى تجتمع عنده كل الصفات التى تؤهله لأن يكون رمزا للعرب وقيادتهم ، ووقوفه إلى جانب عنترة إنما ليثبت الحق الذى يدافع عنه عنترة ضد جيوش العراق ومن حالفوهم من الأعراب ، ويأتى جيش الشام لنشر النصرانية فيحطم جيش العراق ويسير متوغلا فى الجزيرة العربية . بينما يستعد عنترة ودريد ومن انضم اليهم من الفرسان للوقوف أمام هذا الطوفان النصرانى .

ويترك المؤلف عنترة فى جزيرته العربية ليحكى لنا معركة بين كسرى وقيصر اجتمع فيها الأفرنج والروم بقيادة قيصر وحاصروا كسرى وحليفه النعمان ومن معهم من فرسان العرب أمثال ذى الخمار (الذى قصد إلى ديار النعمان بعد أن يئس من زواج غمرة إذ استخفت عن الانظار حينما بدأ الحمل يبين عليها) وحجار ابن عامر وعمرو بن معد يكرب اللذين حينما شاهد ملك الشام قتالها قال : «وحق الملك الجبار ، إن فرسان هذه الارض لم يقع عليها عيار ، ولو أن معى عشرة منهم ينصرون دين المسيح لكنت فتحت بهم سائر الأمصار » .

ويصف لنا المؤلف معركة الأيام التالية وكيف أسر ذو الخمار وعمرو بن معد يكرب ، بينما ذهب كسرى إلى بيت النار ليقدم لها العبادة ويطلب منها النصر وفى هذه الأثناء كان عنترة قد تمكن من الظهور على جيش النصارى وتعقبهم إلى بلاد الشام حيث خلص الأسارى وهدم الكنائس مما اضطر الملك الحارث إلى طلب الصلح من كسرى ليسرع إلى بلاد الشام ويواجه غزو عنترة لها . ولكن

عنترة يهزم جيش الروم هزيمة منكرة ويخلص أخا الملك النعمان من الأسر ويأخذ الرهائن من الروم .

ويحتفى كسرى بدريد وعنترة وبعد هذا النصر الذى أحرزه له ، فيصلح بين عنترة وذى الخمار ويخلع عليهم ويقيم لها مجالس السمر وحلبات السباق والبراز التى استمرت أياما التقى فيها ذو الخمار بجميع الفرسان فهزمهم ، وأخيرا وقف أمام عنترة وأشار اليه برمحه طالبا منازلته أمام كسرى ومن معه من ملوك . ويظهر عنترة على ذى الخمار ، ولكن سرعان ما يعلم أن الحارث قد عاد بجيوشه فيسير بنو عبس لملاقاته تاركين عنترة فى بلاط كسرى حيث يسمع بأمر حاتم الطائى .

وهكذا نرى أن المؤلف يمهد لشيء جديد فى حياة عنترة ، فهو بعد أن أثبت فضل الفرسان العرب على جميع الفرسان الآخرين — وبعد أن هزم جيوش النعمان مرة ، وجيوش الروم والافرنج مرة ، وبعد أن أثبت فروسيته التى لا تقارن وذلك بهزيمته لذى الخمار ، نرى المؤلف يحاول أن يدخل فى حياته عنصرا جديدا بهذا الذى سمعه عن حاتم الطائى وقصة كرمه وحياته مع الجارية المشهورة التى جمعت بينه وبين زهير بن أبى سلمى والنابغة الذبيانى وعبيد بن الأبرص وظلت تختبرهم واحدا اثر آخر إلى أن وقع اختيارها على حاتم وعزمت على الزواج منه .

ثم يحكى لنا المؤلف بعد ذلك قصة أسر حاتم جاريته مارية على يد فارس عربى يدعى عتبة ، ويلقاهما عنتره فيخلصها من ذلك الفارس الذى ما أن يعرف أنه يواجه عنتره الفارس الذى شاع ذكره حتى يلقى سلاحه . ويعجب حاتم بعنتره فيستضيفه لحضور عرس أخته ويصحبه إلى ديار بنى طيء ، وهكذا يتم اللقاء بين أشهر كرماء العرب وأشهر فرسانهم .

فالمؤلف — كما نرى — يحاول أن يجمع بين أبطال التاريخ العربى المعروفين

وبين فارسه وأن يجعل له أفضالا عندهم تزيد من قدره وترفع من ذكره وتؤكد مكانه بين مشهوري الجزيرة العربية . كما يحاول المؤلف أن يخلق في القصة امتدادات يقدم لنا فيها جيلا آخر من فرسان العرب يرعاهم عنتره ويقودهم ؛ ذلك أن شيبوب يكتشف أخا لعنترة يدعى « مازن » وهو فارس كبير يعيش مع أمه مجهول النسب ، كما يكتشف قيس بن زهير إبنا مجهولا لأخيه مالك يدعى « مجيد » ، أما زوجة مقرى الوحش فتضع ابنها «سبيع اليمن» . ثم يحكى لنا المؤلف قصة حب «مجيد بأسماء» والدور الذى لعبه عنتره فيها وأسره لميسره — ذلك الفارس الذى وقف فى طريقهما — حتى قال له الملك النعمان حين علم بالقصة « يا أبا الفوارس ، وأنت مرامك ما تزال واقفا على حوائج العشاق وجمع شمل الحبائب بعد الفراق»(١) .

ويذهب النعمان إلى مكة ليفسر مناما رآه على سطيح الكاهن ، وهنا يلتقى بعبد المطلب الذى يريد ان يفسر مناما رآه هو الآخر . اما منام عبد المطلب ابن هشام فتأويله ظهور محمد عليه السلام ، وتأويل منام النعمان كان تحذيرا من غزو يقوم به العجم على أرض العرب . ويقص عنتره مناما رآه قبل منازلة «ميسره» ذلك الفارس الذى تعرض لمجيد وحبيبته أسماء ، فكان تأويل المنام ان ميسره هذا هو ابن عنترة من امرأه مجهولة من اولئك اللائى اعتاد ان يقع عليهن فى غزواته .

يموت كسرى ويتولى بعده ابنه « خداوند » الذى تغريه حاشيته بالمتجردة زوجة النعمان وبابنته الرباب فيسير بجيشه قاصدا الحيره لأخذهما ، وحين يطبق عسكره على النعمان وجنده يظهر فارس لينقذهم هو « هانى بن مسعود الشيبانى» بطل موقعة ذى قار المعروفة وذلك بعد ان التقى بعنتره فتبارزا ولكن اثناء قتالهما عرف بقصة النعمان فأسرع لنجدته .

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ٣٨٨

ويظل المؤلف يحكي لنا قصة المعركة بتفاصيلها وأحداثها وما دار فيها من مبارزات وشد وجذب حتى تنتهي بهزيمة جيش خداوند ، ويسير هانيء مع الملك النعمان إلى ذي قار حيث تجتمع قبائل العرب مع النعمان استعدادا للجولة الثانية — إن شاء خداوند — بينما جمع ابن كسرى الجيوش من كل البلاد الخاضعة له وارسلهم بقيادة أخيه « شيرسان » حيث تدور موقعة ذي قار الشهيرة ، وعلى الرؤوس تلوح نبوءة لسطيح الكاهن تقول ان العرب سينتصرون على الفرس حين ينادون في المعركة قائلين « يا آل محمد » فقد آن ظهور النبي العربي .

وينتصر العرب بفضل بلاء هانيء بن مسعود وبفضل صيحتهم « يا آل محمد » أما عنتره فلم يشهد هذه الموقعة لأنه كان قد خرج مغضبا من قبيلته بعد خلاف بينه وبين ملكها قيس ، وبينما هو في الطريق إذا بكمين أعده له بنو فزاره بالإشتراك مع عدوه اللدود الربيع بن زياد فيقع أسيراً هو ورجاله .

ويترك المؤلف عنتره في الاسر ليحكي لنا كيف ان شهرة هانيء في موقعة ذي قار حفزت ذا الخمار على مبارزته ، وتساوت كفة الفارسين كما تساوت جراحهما، إلا أن أصحاب ذي الخمار أخذوهما إلى كسرى الذي احتال على هانيء ووسطه في الصلح مع النعمان وأرسل معه وزيراً من وزرائه مخلعة للنعمان . وتنطلي الخدعة على النعمان الذي ما أن يحضر لكسرى حتى يسلط عليه فيلا يصرعه فيسرع هانيء إلى الحيره ليحمل أهـــل النعمان على الهرب من وجه كسرى ، فترحل زوجته — المتجرده — إلى ديار عبس محتمية بأخيها الملك قيس بن زهير .

أما عنترة فيستمر في شرب كأس الذل في أسر بني فزارة إلى أن تهاجم جيوش كسرى وحلفاؤه مدينة دمشق فتطلق ابنة الحارث سراح عنترة ورفاقه وسرعان ما يخلص عنترة دمشق من الغازين ، وبذلك يعود إلى الحارث ملكه على يد أسيره الذي يعترف هو وبنو فزارة بفضله وفروسيته ورياسته .

وتأتي الأخبار باستعداد كسرى للسير بنفسه إلى بلاد العرب للقضاء على

فرسانهم فيهرع الجميع إلى مكة ليتشاوروا مع الشيخ عبد المطلب ويتفق الجميع على البحث إلى كل فرسان العرب ليجتمعوا يداً واحدة ضد الفرس . وهنا يقف بنا المؤلف وقفة شعرية طويلة يلقى فيها الفرسان جميعا — ومنهم عنترة — بأشعارهم وقصائدهم .

وتبدأ المعركة بين جيش الفرس وقد انضم إليه ذو الخمار وبين جيش العرب بقيادة عنترة . وتكاد هذه المعركة أن تكون قمة المعارك التى خاضها فارسنا إذ تمثل موقفه مدافعاً عن العرب ضد الفرس . يقع ذوالخمارأسيراً فى يد عبدالمطلب وذلك ببركة الكعبة والرب الذى يحميها بينما يصاب عنترة بكثير من الحراب ويقع فى الأسر كما وقعت عبلة من قبل ، وينقلان مع بقية الأسرى إلى عاصمة كسرى وهناك تستحوذ عبلة على عقل « أردشير بن كسرى » فيظل يحتال عليهاإلى أن تقتله بعد أن خدعته وأوهمته أنها قبلت أن تكون له ، إلا أن الملك قباز - أخا اردشير — يحميها من الإنتقام طمعا فىملك أبيه فيطلق سراح عنترةورجاله الذين يسرعون إلى ميدان المعركة ويهجمون على كسرى ويتمكن هانىء من قتله وبذلك تنتهى هذه المعركة بين الفرس والعرب .

وتبدأ مغامرة جديدة لعنترة مع فارس أسود مجهول اسمه « غصوب » كان يأسر النساء أثناء عودتهم من أسر كسرى مع شيبوب . ويفر هذا الفارس من وجه عنترة إلا أن قلب عنترة شعر بشىء من الحيرة والبلبلة تجاه هذا الفارس .

هذا الموقف يكاد يكون قمة من القمم التى يصل إليها عنتره فى حياته ، فهو يزيل ملكا ويقيم ملكا آخر . إلا أن قصة المعلقة تعود مرة أخرى لتصبح حديث المجالس فى بنى عبس . ويترك عنتره لعبلة اختيار القصيده التىيعلقها بينما يكتبها عروه بالفضة والذهب . ويسرع الجميع إلى مكة لعرض الأمر على الشيخ عبد المطلب الذى يعدهم بالنصر . وعندما ينتهى الحج يجمع الشيخ عبد المطلب

الحجاج ويقبل عنترة بين فرسانه كما يقبل ملوك العرب واليمن ثم شعراء المعلقات .

ويقف المؤلف طويلا عند هذا المجلس يصفه بدقة وعناية إذ يعرض عبد المطلب ما يريده عنترة من تعليق قصيدته على الكعبة ، فيعترض اليمنيون ويثور بنو عبس على اعتراضهم فيحمل الجميع السلاح وتوشك المسألة أن تنذر بالحرب إلا أن عنتره يتصدر المجلس وقد ركب حصانه وسل سيفه وطلب منهم أن يصاولوه فى ميدان القتال . ويلتقى عنتره بالفرسان فارسا فارسا فيقتلهم واحدا أثر الآخر ، بينما يصف لنا المؤلف لقاءه بكل منهم فى دقة وعناية . ويخشى شعراء المعلقات على الفرسان من القتل فيتقدم طرفة بن العبد قائلا : « يا أبا الفوارس ، ما أنت إلا قد كملت بالشجاعة ، ولكن قد بلغنى إنك رجل معلول النسب ، ولولا ذلك كنا قبلناك وسمعنا ماقلته من شعرك ، وفى فصاحتنا أدخلناك ، ولكن أنت تعرف سنة العرب .. أنها ما تدخل تحت أمر حتى تغلب »[1] . ويقرأ طرفة بن العبد معلقته لعنترة ثم يشتبكان فى معركة قوامها السيوف فيأسره عنتره . وتتكرر نفس القصة مع جميع أصحاب المعلقات .. كل منهم يقرأ معلقته على عنتره ثم يدور بينهما براز ينتهى بأسره ، وبذلك اجتمع عند عنتره كل أصحاب المعلقات مصفدين فى الأسر .

ويثور الأمر بين اليمنيين والشماليين فى معركة طاحنة يظهر فيها بين فرسان اليمن ذلك الغلام الأسود « غصوب » الذى يأسر كل فرسان الحجاز فيخرج إليه عنتره وهنا يكشف لنا المؤلف القناع عن هذا الفارس فإذا به ابن عنتره من غمره ، فيقول عنتره : « وحق من ادار الفلك الدوار ، خالق الليل والنهار ، لو أردت قتل هذا الفارس الكرار ماكان ثبت فى يدى ساعة من نهار ، وأنا قد خطر فى قلبى خواطر فطلبت أسره ولم أطلب قتله »[2] .

---

(١) السيرة مجلد ٥ ص ١٤٨
(٢) السيرة مجلد ٥ ص ١٨٩

ويعتبر المؤلف هذا الحدث مهما غاية الأهمية إذ يجعل لعنتره امتدادا زمنيا . وتتطور المسائل بين عنتره وهانىء بن مسعود فيلتقيان فى مبارزه كبيره امام المجتمعين ، وهما تاره يتبادلان الشعر وتاره يتبادلان القتال ، وتنتهى المعركة بإقرار كل منهما لأخيه بالفروسية فيتعانقان فى ود ويقول هانىء ابن مسعود بطل موقعة ذى قار للشيخ عبد المطلب امام كل الفرسان المجتمعين : « يا ايها السيد عبد المطلب ، وافضل من ضرب فى البيد وتد ، ومد طنب ، اشهد على إنى قد اقسمت بالرب العظيم ، وزمزم والحطيم ، ان عنتر فارس الزمان ، واثبت منى جنان ، واخبر بمداراة الفرسان . ولقد عفا عنى مرارا كما تعف الرجال عن النسوان »[1] .

وهكذا يصل عنتره إلى قمة الفروسية ، ويقر له أشهر الفرسان المعروفين بالغلبة وعلو الشأن ، ويرتفع نسبه إذ يظهر له ولد من اكبر الفرسان هو غصوب بينما يستعد للنصر الأدنى الكبير وهو تعليق قصيدته على الكعبة . فيسرع عنتره بفك أسر الشعراء اصحاب المعلقات ، يقف امامهم موقف الامتحان حيث يجعلون من أنفسهم لجنة تسأل عنترة فى أمر اللغة والشعر والمعارف العربية ، وتنتهى هذه اللجنة إلى صلاحية عنترة أديبا وحيازته على قمة الثقافة العربية — آنذاك — وبذلك تعلق قصيده على البيت الحرام ويصل إلى قمة ما يطمح إليه فارس عربى .

وقد كانت هذه الحادثة تستطيع ان تكون نهاية جيدة لقصة رسم حياة فارس من فرسان العرب ، إلا أن المؤلف لا يريد أن ينهى قصته عند هذا الحد ، ولهذا شخصيته . فاننا نعتبرها نهاية مرحلة من مراحل حياة عنترة ، ونقطة تحول فى هذه المرحلة من مراحل تطور شخصية عنترة تمثل — فى واقع الأمر — تحقيق مجموعة من الخصال والسمات لبطلنا العربى تكاد أن تجعله ملكا على

---

(١) السيرة مجلد ٥ ص ٢٠٨

الفرسان . وقد مهد له المؤلف لقاء مع مشاهير الفرسان فى تاريخ الجزيرة العربية ليدلل لنا على مكانة عنترة الجديدة التى استطاع فيها بفضل سيفه وبفضل فصاحته أن يحصل على ما لم يحصل عليه غيره من مجد وشهرة ، كما هيأ له المؤلف لقاء مع دولتين كبيرتين هما دولتا الفرس والروم فكان عنترة فى هذا اللقاء يمثل الجانب العربى دائما ويعلى من شأن الجزيرة العربية وملوكها ويثبت عاداتها وتقاليدها ويهزم اعداءها سواء كانوا من العراق والشام أو من الفرس والروم .

وعنترة — فى هذه المرحلة — يمثل الفارس العربى إذ تكتمل له مكونات الفارس وخصائصه . فهو يبارز من أجل الشرف ومن أجل الكرامة ومن أجل النجدة والمروءه وهو يخوض المغامره تلو المغامره ليربط قلوب المحبين بعضها ببعض وقد وجد فى ذلك شرفا له ومتعة . كما أن المؤلف يجعله يلتقى باليمنيين — الجنوبيين — فى معارك لسانية وأخرى حربية وكأنما ليثبت تفوق أهل الشمال على أهل الجنوب .

والمؤلف فى هذه المرحلة يعتمد على التاريخ إلى حد كبير ، ولكنه لا يعتمد على تاريخ عنتره نفسه — كما رأينا فى المرحلة السابقة — وإنما يعتمد على تاريخ الجزيرة العربية بأحداثها . فبينما كانت المرحلة الأولى صياغة روائية مبنية على الأحداث التاريخية لعنتره نجد أن هذه المرحلة رواية اسطورية لحياة العرب فى الجاهلية وما اضطربوا فيه من أحداث وما كان بينهم وبين الأمم المحيطة بهم من مواقف ، ثم ذلك الخلاف الذى كان بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وكذا مكانة الكعبة وقريش بين قبائل العرب ، وما دار بين اللخميين أهل الحيره والغسانيين أهل الشام من معارك وخلافات ، كما انها أيضا تصور مجالس الشعر عند العرب وأهمية هذا الفن فى رفعة شأن قائله وقبيلته وقومه .

هذه المرحلة إذن تعتبر قصة عنتره فارس العرب بينما كانت المرحلة الأولى تعتبر قصة عنتره فارس عربى . فهو إن حقق فى المرحلة الأولى نصرا على أعدائه

الذين يقفون أمام رغباته الذاتية من اعتراف بالنسب وزواج من عبلة ، فإنه فى هذه المرحلة يتغلب على أعداء الجزيرة ويحقق نصرا للعرب على العجم وعلى الروم كما يحقق للشماليين نصرا على أهل الجنوب .

وحين تنتهى هذه المرحلة يكون عنترة قد أشرف على قمة من القمم ، ثم يبدأ مرحلة جديده من مراحل تطور شخصيته تكاد المراحل أن تكون تمهيدا لها .

٣ - المرحلة الأسطورية

تبدأ هذه المرحلة بعد أن وقف المؤلف عند نهاية سعيدة تصلح ختاماً لقصة، فني الوقت الذى وصل فيه عنترة إلى قمة المجد وحقق جميع غاياته من صحة النسب والزواج بعبلة واقرار الفرسان له بالرياسة ثم تعليق معلقته على الكعبة. فى هذا الوقت بالذات يهرب عدوه القديم ذو الخمار من الأسر ويهاجم فرسان عنترة ويضرب هانىء بن مسعود ضربة مميتة مما يوقع الخلاف بين عنترة وصديقه دريد بن الصمة — نسيب ذى الخمار — فينفصل عنترة عن شيخ العرب الذى كان يجتمع حوله الفرسان ويجعلون من سيفه رمزا لقوة الجزيرة العربية.

وفى نفس الوقت يدس الربيع بن زياد عند عبلة فتجمع صويحباتها فى ليلة ويسكرن عنترة حتى يفقد صوابه، عندئذ تحاول عبلة اظهار دالتها عند عنترة فتطلب منه أن يقبل قدمها أمام الجميع، ويحس عنترة بما فى هذا الطلب من مذلة وتحقير فينصرف غاضبا ويترك الديار هو وشيبوب وحدهما.

وهكذا يفقد عنترة الصلة التى تربطه بعبلة — كما فقد من قبل الصلة التى تربطه بدريد بن الصمة. وبهذه الأحداث المتوالية يمهد المؤلف للمرحلة الجديدة فى تاريخ عنترة والتطور الجديد الذى يصيب شخصيته، إذ سرعان ما يهاجم فى فى الصحراء هودجا فيه فتاه وحوله عشرة فرسان فيقتلهم ويأسر الفتاة ويتزوجها غصبا ثم يتركها ويترك معها شيبوبا الذى أحب جارتها.

وفى الطريق يلتقى بنادبات بنى عبس يندبن ولديه ميسرة غصوب وكذا سبيع اليمن الذى هاجمهم ذو الخمار مع صديق جديد له هو « جبار بن صخر الاسرائيلى، فارس حصن خيبر، فأسرهم وعاد بهم إلى الحصن، وكان ذو الخمار قد انطلق قوة للشر يحدوه الحسد ويعتمل فى قلبه الحنق على عنترة وأولاده.

وينطلق عنترة إلى الكعبة ليحكي للشيخ عبد المطلب ما جرى من غدر ذى الخمار وفى طريق العودة يلتقى بيهودى يخلصه من الأسر فيعده اليهودى بالمساعدة لتخليص أولاده من حصن خيبر ويسبقه إليه حيث يتفق مع قائد الحصن على مكيدة يوقعون بها عنترة فى الأسر .

هذه — فى الواقع — هى المرة الأولى التى يجمع فيها المؤلف بين بطله وبين اليهود . ونحن نرى أنه يسم معركته معهم — منذ أولها بالصفة التى عرفها العرب عن اليهود وهى الغدر .

وتحضر غمرة وتستولى على الحصن وتخلص ابنها غصوب بينما كان عنترة قد نقل خارج الحصن فظل فى أسر اليهود الذين حاولوا مراراً الاستيلاء على الحصن من غمرة ،ولكنهم لم يستطيعوا ذلك سواء بالحرب أو بالخديعة ، وحينما علم قيصر بأسر عنترة سارع بإرسال جيش ليساعد « ميشا » قائد اليهود على استرداد الحصن ، ويشتد الأمر على غمرة ورجالها المحصورين فى الداخل ،ولكن عنترة يستطيع التخلص من الأسر بفضل غصوب فيسرع هو وأولاده ومعهم عروة وشداد وابنه مازن ويتسللون الى الحصن متخفين وراء أشجار انتزعوها من شعب الجبل الذى كانوا مأسورين فيه ، ويأسر عنترة من الحصن ثم يحرقه بما فيه ويخرج فى الظلام لمهاجمة الجيوش المتجمعة فيهزمهم وبذلك يكون قد انتصر على كل من اليهود والنصارى مجتمعين . .

ويعود شيبوب ليخبر عنترة بأن زوجته وزوجة عنترة التى أسرها فى الصحراء قد تاهتا منه . وفجأة يصل ذو الخمار وصديقه اليهودى « جبار » بعد أن هاجما بنى عبس وأسرا رجالهم وأحضروهم إلى الحصن . ويلتقى الفريقان فيقتل جبار اليهودى شداداً — أبا عنترة — بينما ينكسر ذو الخمار ويولى الأدبار . فيقتل عنترة جبارا اليهودى ويخلص عبلة وأسارى بنى عبس ، أما غمرة وغصوب فيسرعان خلف ذى الخمار ويأسرانه .

ويقيم عنترة مأتما لأبيه شداد الذى يتبادل الجميع الأشعار عند قبره ، وتقف سمية — زوجة شداد — على رأس القبر تذبح الأسارى اليهود واحداً

أثر واحد ، بينما تعتذر عبلة لعنترة عما بدر منها ، ويرسل عنترة إلى دريد بن الصمة يخبره بما بدر من ذى الخمار كما يخبره بأسره .

أما « سروة » زوجة عنترة التى تاهت من شيبوب مع جاريتها التى تزوجها هو فتصل إلى ديارها وقد بدا عليها الحمل كما بدا على جاريتها ، وتضعان معاً ، وتحاولان التخلص من الأمر فتنسبان الوليدين إلى الجارية — زوجة شيبوب — حتى لا ينكشف أمر القبيلة أمام الناس .

وتطلب غمرة — أم غصوب — من عنترة أن يذهب معها إلى بلاد السودان لتخلص أموالها . وفى هذه الرحلة يمرون بمغامرات كثيرة رهيبة فائقة الروعة — من الناحية القصصية ومليئة بأحداث الفروسية والشجاعة التى يتبارى فيها عنترة وأبناء غصوب وميسره وأخوه مازن وسبيع اليمن بن مقرى الوحش كما تمتلىء هذه المغامرات بسلسلة من الحيل التى يبديها شيبوب . ويستمرون فى تقدمهم يقتلون الملوك ملكا أثر ملك حتى تصل غمرة إلى بلدها .

هذا اللقاء بين عنترة وبين السودان لقاء جديد فى نوعه بالنسبة لمغامرات عنترة السابقة . أو هو بمعنى آخر لقاء بين الساميين والحاميين ، يصبح عنترة فيه قائد جيش عربى يغزو بلاد السودان . ويأسر عنترة ملكهم « لون الظلام » وينتهى الأمر بينهما على المصالحة ، ويقتل عنترة أعداء هذا الملك ويفرض سلطانه على باقى بلاد السودان . وفى هذه المغامرة أكثر من قصة حب يلعب فيها عنترة دور الفارس الذى يوفق بين الأحبة ، ويقضى على كل من يقف فى طريقهم ، كما أن المؤلف يستعمل فيها كثيراً من الألفاظ السودانية بحذق ولباقة .

ويلتقى عنترة بشخصية خرافية هى « الشيطانة داهية صاحبة حصن الغملم » وهذه الشيطانة من الجان وتحكم حصنا من عهد حام بن نوح . وتدور بين عنترة وبين هذه الشخصية الخرافية معركة عنيفة تنتهى بأن يدمر عنترة حصنها ويقتلها هى وابنها .

ويستمر عنترة فى توغله حتى يصل إلى بلاد الحبشة ، وهناك يلتقى بأخواله

كما يلتقى شيبوب بأهله فإذا به ابن الملك « غوار » أحد ملوك الأحباش ، فيتم الصلح بين عنتره والملك غوار ويبطل بينهما القتال . وكان ملوك السودان يدفعون الخراج لملك إسمه « الدهمار » ، ويأتى رسوله يطلب الجزية من أصحاب عنترة فيقتله عنترة وتقع الحرب بينه وبين الملك الدهمار ، فيأسره عنترة ويذهب ابنه غصوب ليقتله فيكتشف فيه علامة من الخرز يسأله عن سرها فيخبره غصوب أن أمه غمره قد أعطته إياها، وينتهى الأمر باكتشاف أن الملك الدهمار هو خال غمره — أم غصوب — ويتم الصلح بين عنتره والملك الدهمار .

وهنا نلاحظ أن المؤلف يؤكد علاقة العرب بالسودان والأحباش تلك العلاقة التى تقوم على النسب واختلاط الدم . إلا أن مغامرات عنتره فى هذا الجزء من العالم لا تنتهى عند هذا الحد إذ أن الملك الدهمار كان يعطى الخراج للملك النجاشى ، وهكذا كان لا بد من لقاء بين عنتره والنجاشى . « وكان الملك النجاشى وهؤلاء الملوك كلهم أولاد عم . وكانت أم عنتره — زبيبة بنت النجاشى ملك الحبشان ، وكان ملك الحبشان قد زوج أمها بالملك بسام وهو أبو الملك همام ، وأن الملك النجاشى هو جد زبيبة من الأبوين ونسبهم إلى حام بن نوح عليه السلام ، وقد غدر بزبيبة الزمان وحكم عليها القدر أن تقع فى يد العربان ، وأرسلها إلى بنى عبس وعدنان ، وأخذها شداد وأتت منه بعنتر »[1] .

وبذلك يثبت المؤلف نسب عنترة من أبيه وأمه ، ويؤكد علو شأنه إذ أن جده لأمه هو النجاشى ، فهو وإن كان عبداً فى اللون إلا أنه ليس عبدا فى النسب . ويعود عنترة من هذه الرحلة وقد حصل على مغنم شخصى كبير هو صحة نسبه ، والعلاقة التى تربطه بملوك الأحباش الذين وضعهم هو على عروشهم ثم بتحقيق فروسيته على كل فرسان السودان والحبشة لا سيما بعد قتله لفارسهم الأكبر « العبد زنجير » فى مبارزه دامت سبعة أيام كاملة .

---

(١) السيرة — مجلد ٥ ص ٤٠٢

والواقع أن هذه الرحلة لها اهميتها الكبرى فى رسم التطور الجديد الذى طرأ على شخصية عنترة ، فهو هنا أصبح رمزاً لعلو شأن العرب وإرتفاع أمرهم، وماهذه الرحلة فى بلاد السودان وفى بلاد الأحباش إلا دلالةعلى ما للعرب من قيمة كبيرة تجعل لهم السياده على غيرهم من الأمم. والحقيقة أن الجزيرة العربية — فى علاقتها مع الحبشة — كانت دائماً هدفاً للغزو من جانب الأحباش الذين فتحوا اليمن أكثر من مره وحاولوا غزو الحجاز ذات مرة . والمؤلف هنا يربط فى النسب بين العرب وبين الأحباش ،وهو فى مغامرات عنترة معهم لا يحط من قدرهم كفرسان وإن كان ينهى المسألة دائماً بغلبة عنترة العربى عليهم .

ويرجع عنترة من رحلته محملا بالغنائم والأسلاب ، ولكنه ما أن يعود إلى أهله حتى يكون قد ظهر فى الجزيرة فارس مهول من بنى كنانة يدعى « ربيعة بن المكدم » . وقد تمكن هذا الفارس من أسر عمرو بن معد يكرب وهزيمة ملوك اليمن والإستيلاء على مدنها ، كما تمكن من زواج هند بنت الملك قيس وهى الفارسة التى قتلت كل من تقدم لها إذ كانت تشترط منازلتهم فهزمها ربيعة وتزوجها . ويستمر المؤلف فى تصوير رفعة شأن ربيعة هذا وإزدياد خطره فى الجزيرة إلى أن يأسر دريد بن الصمة ثم يطلق سراحه لمقامه بين العرب ويفترقان على صلح وأخاء ، وقد تقدم ربيعة بين الفرسان درجات .

ويلتقى عنترة بهذا الفارس لقاء رهيبا يقف عنده المؤلف طويلا ليصف لنا ما لاقاه كلا الفارسين من أخيه كما يصف لنا ماأبداه كل واحد من فنون الحرب والقتال ، ثم يعرض لنا موقفاً لعنترة إذ ينكسر سيف ربيعة فلا يقتله وإنما يعطيه سيفاً آخر ليستمر فى القتال فيقع هذا الأمر من ربيعة موقعاً كبيراً ويتصالح مع عنترة مقرا له بالفروسية والشهامة ، ويطلق سراح عمرو بن معد يكرب . بينما يطلق عنترة سراح ذى الخمار لأنه وعد دريد بن الصمه بذلك . وهكذا يعود عنترة إلى التربع على عرش الفروسية العربية .

ويغدر بربيعة فارس اسمه « نبيشة » فيقتله . وتلجأ أم ربيعة وزوجته إلى عنترة الذى يطارد نبيشة ويقضى على كل قبيلة تجيره حتى يتمكن منه ويأسره .

ويعود عنترة بأسيره إلى قبر ربيعة حيث نشهد صورة غريبة للانتقام والأخذ بالثأر . فالأسير مكبل بالحديد يقف عند رأس القبر ، ونساء بنى كنانة يقبلن ضاربات بالدفوف والمزاهر وفى مقدمتهن أم ربيعة التى ما أن تقترب من عنترة حتى تضمخه بالزعفران ، ويتقدم عنترة من الأسير فيمدده فوق القبر ويذبحه ، ثم يقدم له شيبوب باقى الاسارى فيذبحهم بنفس الطريقة واحداً إثر الآخر ، ويقيم على قبر ربيعة عشرة أيام فى حزن وبكاء . ويحكى المؤلف أن أمه وزوجته وأخوته بقين على القبر يبكين بعد رحيل عنترة إلى أن متن جميعا ودفن فى القبر ولم تبق منهن سوى إحدى أخواته التى تزوجها عنترة .

وتبدو فى هذه الصورة مدى القسوة التى أصبح عنترة يجابه بها خصومه، ومدى العنف الذى أصبح يطلب به الإنتقام . كما تبدو فيها ظاهرة أخرى وهى أن عنترة قد زايلته طبيعة العبد الخائف المتردد الذى يخشى أن يقدم على أمر دون الرجوع إلى أصحاب الشأن فيه وأصبح يقضى فى كل أمر بنفسه دون وجل أو تردد .

وينتقل المؤلف بقصته بعد ذلك إلى بلاد فارس، حيث أرسل كسرى يستدعى عنترة وابنه غصوب ، ويقضى الضيفان أياما سعيدة فى بلاط كسرى إلى أن تأتيه الأخبار بأن الجزية التى يدفعها له قيصر قد اعترض طريقها فارس أسود يدعى « الغضبان » بعد أن قتل فرسان الروم . فيخرج إليه غصوب ولكن الغضبان يأسره . ويظل المؤلف يرسم لنا صورا من بطولة الغضبان وإعتماده على عبد معه اسمه « الخذروف » إلى أن يلتقى بعنترة ، فيتبادلان الشعر أولا ثم يستمر القتال بينهما عدة أيام إذ تتكسر فى أيديهما السيوف والرماح فيتصارعان بالأيدى . بينما تتم فى نفس الوقت معركة أخرى بين شيبوب وبين الخذروف — عبد ذلك الفارس — وأخيراً يتمكن عنترة من أسر الغضبان ويهرب عبده الخذروف الذى لايلبث أن يعود ومعه أم الغضبان لتكشف عن سره فإذا به ابن عنترة من سروة تلك الفتاة التى أسرها فى الصحراء وتزوجها ، وإذا بالخذروف بن شيبوب من جارية سروة التى تزوجها هو الآخر .

وهكذا يصبح لعنترة من الأولاد ثلاثة : الغضبان وغصوب وميسرة ، وهؤلاء يمثلون الجيل الجديد من الفرسان الذين يقتدون بالمثل الأعلى عنترة ، كما يمثل الخذروف إمتداد شيبوب، وبذلك أصبح لعنترة فرسان من صلبه ، يرافقونه في معاركه ويذودون عنه في فخر واعتزاز بأبوته ، ويتزعم الغضبان أخوته ويصبح الخليفة الطبيعي لعنترة .

ويعود المؤلف بنا إلى حروب طويلة يشترك فيها أبناء عنترة ليصف قدرتهم وفروسيتهم وتغلبهم على الملوك والفرسان ، محققين — تحت قيادة عنترة — النصر على قبائل الجزيره مرة وعلى ملوك اليمن مرة وعلى شداد الفرسان أمثال عفريت السواحل وسليك بن سلكة ، وعنترة في كل ذلك يجير من يستجير به ويحمي الطريق لقوافل العربان .

وينتقل المؤلف بقصته نقلة أخرى إذ يقع العداء بين أبناء عنترة وبين فارس اسمه « عبد هياف » ، فيستنجد هذا الفارس بصديقه الملك الأخضر ملك الهند والسند الذي يسير بجنوده نحو الجزيرة العربية . ومرة أخرى يجتمع العرب عند عنتره ليقاوموا هذا الغزو الأجنبي ، فيكونون جيشاً كبيراً على رأسه دريد بن الصمة — شيخ العرب — وقائده عنترة بن شداد فارس العرب .

ويلتقي الجيشان ، وتدور المعارك جماعية مرة وفردية مرة ، وأخيراً يقع عنترة في أسر عبد هياف ويشاع في جيش العرب أنه قتل ، فينكسر بنو عبس ، ويسير عبد هياف إلى كسرى وقد حسب انه انتهى من امر العرب ويتحصن كسرى وراء أسواره بينما يسير الغضبان وراء جيش عبد هياف كالمجنون يريد أخذ ثأر أبيه . وسرعان مايعيد العرب جمع صفوفهم ويذهبون لقتال جيش الهنود ، ويلتقي الغضبان بالملك الأخضر الذي يكادأن يظهر عليه لولا تدخل فارس أسود يفصل بينهما ويقتل الملك الأخضر ، وإذا بهذا الفارس هو عنترة الذي كان قد أصيب بجراح وطعنات ذهبت بلبه فتركوه بين القتلى ، ولكن بعض العربان أخذوه وطببوه ووجد عندهم شابين مال إليهما وسألهما عن نسبهما ،

فقالا له : أنهما ولدا عنترة من أخت ربيعة بن المكدم ، فأخذهما وسارا بهما لنصرة العرب على جنود الهند . وهنا يقول المؤلف : «ولما بلغ صاحب الرسالة عن عنترة وشجاعته وما فعل وما فتك فى الجاهلية قال : « والذى بعثنى بالحق نبيا لو كان عاش عنترة وأتى إلى وأسلم على يدى لسددت بهركننا فى الإسلام »(١).

فالدور الذى يقوم به عنترة هنا هو سد ركن فى كرامة العرب وهيبتهم ، إذ يلتقى عنترة بعبدهياف لقاء يفيض المؤلف فى وصفه وينهيه بالمصالحة بين الفارسين بعد أن عرف كل منهما قدر صاحبه — فيعترف عبد هياف لعنترة بالفروسية ويخلع عليه ، ثم يسحب جيوشه ويعود إلى بلده ، ويخلع كسرى على عنترة كذلك لما أحرزه من نصر .

هذه المعركة الجديدة فى حياة عنترة ترسم لنا لون العلاقة التى كانت تجمع العرب بالهنود ، فهى تحمل التوقير والاحترام من جانب العرب لحضارة الهند ، كما تبين فى نفس الوقت إعتداد العرب بأنفسهم وشجاعتهم ومقدرتهم على أن يتساووا مع تلك الحضاره العريقة . فعنترة هنا يمثل الشعب العربى كله فى اصراره وعزمه وشجاعته وبأسه ، فالنصر الذى يحرزه هو نصر صلح يحمل معنى الاقرار للعرب بالبطولة والمساواه .

وما أن تنتهى معركة عنتره مع الهنود حتى نشهد جيشاً آخر يزحف على بلاد العرب قوامه الأحباش والسودان قاصدين الأخذ بالثأر . ويصف لنا المؤلف هذه المعارك الجديده التى تتم طبقاً « لتكتيك » حربى خاص ،يقوم على الحصار وحفر الخنادق وترتيب الكمائن وإرسال دوريات الاستكشاف . وتنتهى هذه الغزوه بهزيمة الملك « يكسوم » ملك الأحباش . ويسير عنتره على رأس بنى عبس وراء فلول جيش يكسوم إلى بلاد الحبشه حيث يدكون الحصون ويقتلون الفرسان

(١) السيرة مجلد ٦ ص ٢٥٢

وفى بلاد الحبشة يصطدم عنترة بملك آخر يدعى « طود الاطواد » الذى يستنجد بأمه وهى فارسة شجاعة تقول عنها القصة . . أن أمها كانت جنية وأباها أنسى ، فتسير بجيشها فى البر والبحر إلى تلتقى بعنترة الذى يهزمها ويقتل ابنها طود الاطواد .

ويستمر عنترة فى سيره قاصداً بلاد الجزائر حيث ولداه فى الأسر ، فيفك أسرهما بينما يقع عروه بن الورد فى غرام فتاه يتزوجها فإذا بها « ودعه » أخت طود الاطواد التى قبلت هذا الزواج لتهرب من زواج لاتريده كان أخوها يريد أن يتممه ليخطب ود مارد مارق اسمه « سمور » . وتقبل أم طود الاطواد وتلجأ إلى السحر فتسلط منه على جيش عنتره ألوانا تحيرهم ، ولكن زوجة عروه — وهى ابنة هذه الساحره وتعلم علمها — تبطل سحر أمها . وينتصر جيش عنتره بعد قتل أم طود الاطواد ويعود الجميع إلى أرض بنى عبس مرة أخرى .

وما أن يصل عنترة إلى الحجاز حتى يعلم أن « المستوعر بن ربيعة البارق » قد أنزل قصيدته من مكانها فى الكعبة متحديا بذلك عنتره فيسير عنترة إليه ويقتله هو ومن ناصره من فرسان اليمن ويعيد القصيده إلى مكانها فى حفل رهيب دعا إليه جميع قبائل العرب ، وأقام لهم الولائم والأفراح .

وتكاد هذه أن تكون نهاية أخرى للسيرة ، فعنترة قد أصبح على رأس الجزيرة كلها يرد عنها الأعداء ويحمى أرضها وكرامتها ويمنع عنها الغزاه ، غازيا سواء جاء من الهند أو جاء من الحبشة أوجاء من بلاد الفرس ، أو بلاد الروم . وعنترة تلك الشخصيه التى تصل فى مثل هذه المرحلة إلى حد الرمز - يمثل فى مغامراته قمة الفروسية العربية من حيث السمات الشخصية ، ومن حيث السمات العامة . وهو كذلك يقضى على كل من يعارضه بمنتهى البطش والعنف ، فاذا ما أعاد قصيدته إلى مكانها على الكعبة ، فإنما يعنى ذلك تتويجا له على فرسان الجزيرة وشعرائها يكمل التتويج الأول الذى انتهت به المرحلة السابقة .

وهكذا تنتهى هذه المرحلة من مراحل تطور شخصية عنتره بسماتها وخصائصها التى تجعل من شخصية عنتره رمزاً أسطوريا بالمعنى الكامل ، وتجعل من أهداف

عنترة أهدافا موضوعية لاذاتية . والواقع أن عنترة فى هذه المرحلة — حتى من ناحية السن — يصل إلى درجة النضج الكامل ، ويأخذ مكان المربى والمشرف على فرسان جدد هم أولاده الذين يعتبرون إمتداداً طبيعياً لشخصيته وفروسيته.

وما تكاد هذه المرحلة تنتهى حتى نحس بأن عنتره قد وقف عند القمة فعلا، وأن الطريق الوحيد أمامه فى الحياه هو الإنحدار مره ثانية من السفح الآخر للقمة، وهذا ماسوف نتبينه بوضوح فى المراحل التالية من حياه عنترة .

٤ – المرحلة الملحمية

تبدأ هذه المرحلة بشيء جديد فى حياة عنترة ذلك هو قتل ابنه الغضبان على يد بعض فرسان الجان . بينما يهرب عنترة وجنوده من الوادى المسحور الذى يحميه هؤلاء الفرسان . وتبدأ مرحلة من الأحزان والرثاء والشعر الباكى على ابنه ، ويعيش عنتره فى بيت خاص اسماه « بيت الأحزان » حيث يقصده الأصدقاء معزين فى ولده . ويخرج عنتره بجيش مهول من بنى عبس ليبحث عن قاتل الغضبان بين الفرسان ، فيدور على القبائل قبيلة قبيلة، وكلهم ينضمون إليه فى البحث عن قاتل ولده ، ويتأكد عنترة أن قاتل ابنه ليس من العرب .

وهنا أيضاً تلتقى القصة بفارس بنى نبهان « وزر بن جابر » الملقب بالأسد الرهيص ، — وهو الذى سوف يقتل عنتره فى النهاية — فيحكى لنا المؤلف حياة وزر ومغامراته وطغيانه إلى الحد الذى دفعه — بعد أن هزم جميع الفرسان — أن يجعل من كبش له رسولا منه عند القبائل يدفعون له الجزية، كما أنه سبى أخت عمرو بن معد يكرب وتزوجها .

ويعلم عنتره بأمر الكبش الذى يذل العرب جميعاً، ويدس الربيع — كالمعتاد — عند عبلة فتهدد عنترة بالمقاطعة مالم يقتل الكبش ويأسر الأسد الرهيص . وتجمع الظروف بين عنتره ووزر فيأسره عنتره هو وقومه ولكنه يطلق سراح زوجته اكراما لأخيها عمرو بن معديكرب فتسرع « ريحانة » إلى أخيها عمرو وتوسطه عند صديقه عنتره فيطلق سراح زوجها اكراما لصديقه كذلك . ويسير وزر وفى قلبه حقد أسود ، جعله يضمر الشر . ويؤلب القبائل على عنتره . وما أن يخرج عنتره لإحدى غزواته حتى يهجم الأسد الرهيص على ديار عبس فيستولى عليهم ويأسر فرسانهم ويسبى نساءهم .

أما عنتره فقد ساقته المغامرات إلى أرض اليمن مره أخرى ، فيصول ويجول ويرسل أخاه شيبوب ليستطلع أمر بنى عبس فى الغياهب ، فيعلمه بما حل بهم على يد الأسد الرهيص فيسرع عنتره عائداً ليغزو بنى النبهان فيهزمهم ويأسر الأسد الرهيص مرة ثانية . وتسرع ريحانة — زوجة الأسد الرهيص — إلى أخيها عمرو بن معديكرب . وحين ينصب عنتره لوزر بن جابر خشبة ليصلبه عليها بعد أن أشفى نفسه بتعذيبه أشد العذاب ، يصل عمرو ليتوسط فى الأسد الرهيص مرة أخرى فيطلق عنتره أسيره اكراما لصديقه .

ويتعرض الأسد الرهيص بعد ذلك لأحد أبناء عنتره الفرسان ثم يتبعه بأسر شيبوب — أخى عنترة — ويخشى بنو نبهان — قوم وزر — سطوة عنترة فيطردونه من بينهم ، فيخرج الأسد الرهيص ليجمع كل القبائل المعادية لعنتره ولكنه مايلبث عند اللقاء أن يأسره عنترة مره ثالثة . وحينما يهم عنتره بقتل الأسد الرهيص يصل عمرو بن معد يكرب متشفعا كالعاده. فيقرر عنتره أن يطلق سراح اسيره ولكن بثمن رهيب ، وهو أن يسلبه نور عينيه ، وبالفعل يكحل عنترة عينى الأسد الرهيص برمح محمى ، ثم يطلق سراحه بعد أن يقرر له راتباً سنويا يغنيه عن التكسب . فيسير الأسد الرهيص وقد اشتعل قلبه حقداً على عنترة .

ويغدر بنو فزاره بغصوب — ابن عنتره — فيقتلونه ويسرعون بالهرب محاولين أن يستجيروا بقبيلة من القبائل إلا أن الجميع يخذلونهم. وما يلبث عنتره أن يلحق بهم ، ويأسر منهم عدداً كبيراً ينحره على قبر ابنه غصوب ويعود إلى بيت الأحزان مرة أخرى .

ويهرب من بقى من بنى فزارة إلى الملك الأسود — الذى تربطه بهم صلة نسب — فيرسل خطابا إلى الملك قيس بن زهير يأمره فيه بإرسال عنترة وولده ميسرة مأسورين اليه ، ويدبر قيس مؤامرة لأسر عنترة إلا أن عنترة يكشف أمرها فيقتل المتآمرين ويرحل عن ديار عبس مغضبا. وينضم قيس — بقبيلته —

إلى الملك الأسود الذى ينصبه ملكا على الحجاز واليمن ويتزوج من اخته المتجردة زوجه النعمان سابقا — فيسرع عنترة بمهاجمة قيس متخفيا ويستولى على أمواله، ثم يتقدم إلى أرض العراق للإنتقام من الملك الأسود، بينما يضطر الملك قيس إلى مصالحة عنتره، ويسير معه لحرب الملك الأسود فيغضب الملك الأسود، ويأمر بخنق المتجرده، ويستدعى ذا الخمار استعداداً لمواجهة عنتره وتدور المعركة رهيبة قوية حاسمة، يقف المؤلف عندها طويلا ليصف أطوارها وفصولها وليذكر قصة الربيع بن زياد الذى خان عنتره وأخذ يتجسس عليه لحساب الملك الأسود وأخذ يداريه ويتملقه وعنتره لا يظهر له أنه قد عرف بأمر خيانته. كما يقف المؤلف وقفة طويلة عند لقاء عنتره بذى الخمار مره أخرى، ثم مايلبث عنتره ان يأسره ».

واخيراً تحل الموقعة الفاصلة التى يخرج فيها الملك الأسود بنفسه ومعه الملك هامان احد ملوك الفرس. ويتمكن الملك هامان من اسر عنتره وصديقه عروه بن الورد ويرسلهما إلى الملك الأسود، ولكن عنتره يستطيع التخلص من الأسر بفضل الوزير عمرو بن نفيل — وزير الحيره واحد محبى عنترة — وبفضل حيل شيبوب، فيعود إلى المعركة فى الوقت المناسب، ويقتل الملك هامان، ويهزم جيش الملك الأسود الذى يسرع إلى كسرى مستنجدا، فيجيش له كسرى جيشاً بقيادة المرزبان بينما يتصالح عنترة مع ذى الخمار، ويخوضان المعركة معه فيهزمان جيش الملك الأسود مره ثانية.

ويحل بكسرى فى ذلك الوقت بلاء داهم ذلك أن عامله « شروين » قد امتنع عن دفع الخراج وأخذ يستقطع لنفسه الولايات، فيشير وزير كسرى عليه بأن يصالح عنترة حتى يقضى له على شروين. ويتم لهم ما أرادوا، إذ يذهب عنترة إلى شروين — الطامع فى ملك كسرى — فيأسره ويعود به فيخلع عليه كسرى ويكرمه ويصلح بينه وبين الملك الأسود.

هذه المعركة فى بلاد الفرس معركة لها دلالتها ، إذ تبدو وكأنما هى بداية النهاية ، فقد وصل الأمر بعنترة فيها إلى حد إقامة ملك كسرى ، بعد أن أوشك على الانهيار . كما يضع المؤلف فيها بذورا لعوامل الشيخوخة التى تدخل حياة عنترة ، ولعوامل تحطيم تلك الشخصية . فبعد أن فقد عنترة ولدين من أولاده لا يلبث صديقه بسطام أن يقتله فارس من بنى رميش ، فيسرع عنترة بأخذ ثأر صديقه فيقتل الملك الهيلقان — ملك بنى رميش — ويأسر الكثير من فرسانهم ليذبحوا قرابين على قبر القتيل ، بينما أخذ عنترة وهانئ وغيرهما من الفرسان يتبادلون القصائد فى رثاء بسطام .

ويتبع ذلك نكبة جديدة تحل بعنترة إذ يقتل صديقه عروة بن الورد على يد حسان بن ثابت فى ثأر له ، فيعود عنترة إلى أحزانه ويسرع إلى ديار حسان — فى بنى ضبيان ليخوض معركة ثأرية يأسر فيها ستمائة أسير يذبحهم على قبر صديقه وبعد ذلك لحق بحسان فقتله وعاد بالاسلاب ، ولكن بعد أن مات مازن فى هذه الموقعة ... « ولما حضر (عنترة) إلى الأوطان ، قام اليه الملك قيس والتقاه ،وفى أخيه مازن وصديقه عروة عزاه ، فشكره عنترة وأثنى عليه ، ومن شدة غيظ عنتره قطع الركوب والمنادمة ولزم بيت الأحزان على فقد عروة ومازن وما كان له من غصوب والغضبان ، فاستقام على ذلك مدة من الزمان »[1]

وكان لقعود عنترة فى بيت الأحزان أثره على القبيلة ، إذ قل مالها ، فاضطر ميسرة إلى الخروج على رأس فرسان عبس للغزو والسلب ،فيقعون على عروس من بنى طى كانت تزف إلى فارس من بنى كنده ، فيخاف الملك قيس أن تجتمع عليه القبيلتان ، ويطلب من عنترة إعادة الأسيرة وأسلابها ، ولكن عنترة يرفض ويخوض الحرب ضد القبيلتين — والملك قيس قد امتلأ رعبا وفزعا . وما أن

---

(١) السيرة ــ مجلد ٧ ص ٣٠٩

ينتصر عنترة حتى يقرر الرحيل نهائيا ، لما بدا له من خوف الملك قيس وماعاناه من دسائس الربيع وأخيه عمارة . فيدعو عنتره عمه مالكا ، ويسلمه أموال عبلة وأمواله ويخرج بمفرده قاصدا دمشق عند الحارث بن وهاب سيد بنى غسان .

سر أعداء عنترة برحيله ، ولكنه ما أن وصل حتى وجد معالم الحزن تسيطر على دمشق ، ذلك أن الحارث قد قتل ، فيحضر عنترة تتويج عمرو بن الحارث على ملك أبيه ، ويحظى عنده بمكانة كبيرة . وفى هذه الأثناء يتآمر الملك الأسود مع كسرى على غزو دمشق ، إلا أنهم ما يعلمون بوجود عنترة فى بلاط عمرو بن الحارث ، حتى يتراجعوا عن عزمهم .

وفى هذا الوقت، يطمع أحد الخارجين على قيصر — وهو فارس مشهور اسمه «هابيل» فى ملك عمرو بن الحارث ، استصغارا منه لشأنه وجهلا بمكانة عنترة . فيخرج اليه عنترة ويقتله ويجلس الحارث على ملكه . ويصل خبر ذلك إلى قيصر الذى يستدعى عنترة ، فيذهب اليه بمصاحبة عمرو بن الوهاب ومعهما شيبوب والخذروف .

ويصف المؤلف موكب عنترة فى عاصمة قيصر ، كما يصف تصرفات عنترة فى هذه المدينة التى تعتبر مركزا حضاريا جديدا بالنسبة لعنترة ، ويقف كذلك عندما دار بين عنترة وقيصر من حوار . . يقول عنترة لقيصر حين يسأله عن نسبه : « من بنى عبس الكرام الضاربين بالحسام ، المسمين بين الأنام بفرسان المنايا والموت الزؤام . وامى بنت الملك النجاشى سلطان الحبش والسودان ، وأبى سيد من بنى عبس وعدنان . وأنى أخذت بنت عمى عبلة وملكتها بالحسام المشطب، وادخلت روحى فى الحسب والنسب ، وتزوجت بابنة عمى ، ولكن ما تزوجت بها حتى قتلت خلقا كثيرا من أجلها ، والآن جميع الملوك والفرسان إذا سمعوا ذكرى يفزعون من شجاعتى ويخشون سطوتى »[1] — ثم يصف المؤلف بعد

---

(١) السيرة — مجلد ٧ ص ٣٣٦

ذلك حلبات السباق التى أقيمت ليظهر فيها عنترة مقدرته وفروسيته أمام قيصر كما يصف أفعال شيبوب والجذروف .

ويرسل قيصر إلى عنترة جارية رومية من سرارى الملك الخواص فيقبل عليها عنترة فى سكره ولكنه حين يفيق يغضب لأنه لا يريد من نسله أحدا فى بلاد الروم . وفى اليوم التالى تختفى هذه الفتاة ، إذ يخطفها فارس اسمه « كوبرت » ويبحر بها إلى دياره .

ويصل إلى قيصر رسول من الملك «الميان» ملك البحر والجزاير يطلب منه أن يرسل عنترة مقبوضا عليه ، ليأخذ منه ثأره وإلا فهو يهدد بفتح القسطنطينية فيعلن قيصر رفضه للتهديد ويجهز خمسمائة مركب حربية يقودها عنترة ومعه ولى عهد قيصر « الملك هرقل » ، بينما يسير الملك الميان بأسطوله لفتح القسطنطينية . ويلتقى الأسطولان فى البحر وتدور بينهما أول معركة بحرية فى السيره يصفها المؤلف وصفا دقيقا . وتنجلى المعركة عن هزيمة الليان ، بينما يستمر عنتره وهرقل فى طريقهما حتى ينزلا إلى البر . وتبدأ معارك عنتره فى بلاد الجزائر ، والأفرنج ينهزمون أمامه حتى يقتل ملكهم .

ويلتقى عنترة بجيش «سرجوان» ابن الملك الميان فيقتله ويهزم جيشه ويأسر قائده « كوبرت » . وذات مساء يخرج عنترة مع شيبوب فيلمحان ضوءا يتجهان اليه فيسمعان حوارا بين امرأتين موضوعه عنتره وأسره لكوبرت ، ويجد عنتره فى إحدى المرأتين «مريم» الجارية التى كان قيصر قد أهداها له ، فيقضى معها أياما سعيده بينما يقع هرقل فى غرام الملكة «ميرمان» ابنة الملك الليان ويتزوجها وبعد ذلك يرضى كوبرت بالصلح ويدعوهم إلى قصره حيث يلتقى عنتره بتمثال لفارس ضخم يركب فرسا كبيرا ، وهو موضوع بحيث يحمى المكان ... «فهو صوره من النحاس الأصفر قد احكمته حكماء اليونان ، من قبل هذا الزمان»[١]

(١) السيرة مجلد ٨ ص ٣٤

فيقف عنتره مذهولا أمام تلك القطعة الفنية يتعلم كيف تعمل .

وفى بلاد الجزائر يلتقى عنتره بجيش الملك الصافات فيقتله ، إلا أنه يجابه ظاهره غريبة عليه ، ذلك أن ماء يظهر ليحمى انسحاب جيوش الملك الصافات هو الماء المطلسم ، ولكن راهبا فى دير الصنم — الذى هو أقدم الاديره ، وراهبه أقدم الرهبان — يكتشف فى وجود عنتره — الفارس العربى — فى بلاد الجزائر مصداقا لما عنده فى الكتب عن أحداث ستتم آخرها عند ظهور محمد عليه السلام . فيعلم أن أوان هذا الماء المطلسم قد انتهى ، ويخبر هرقل بكيفية إزالته، فيكسرون الطلسم ويعبرون الماء ويستولون على البلاد ويضمونها إلى ملك قيصر .

وفى قصر الملك الصافات يلتقى عنتره بفرس غريب الشكل ، ما يكاد يقترب منه . وقد انتوى ان يركبه حتى يخاطبه الفرس ويخبره انه واقف فى هذا المكان منذ زمن طويل فى انتظار عنتره . ذلك ان هذا الفرس انهو إلا ملك من ملوك الجان ، فيخلصه عنتره من قيد بعد ان يعده بمساعدته فى اخذ ثأره من الجان الذين قتلوا ولده الغضبان . وتبدأ المعركة بين عنتره والجان بعد أن يزوده صديقه الجنى بسيف مطلسم يقطع فى الجان مثلما يقطع السيف العادى فى البشر ، ويأسر له الفرسان الثلاثة — من الجان — الذين قتلوا ولده الغضبان فيقتلهم عنتره بذلك السيف المطلسم .

ويقود عنترة جيوشه « إلى أقصى بلاد فلسطين والجزائر القبلية والبحرية والشرقية والغربية والمصرية »[1] — إلى أن يلتقى بملك الأندلس «جنطيائيل» الذى يمارس الحرب راكبا على ظهر فيل ، فيقتله عنتره ويفتح بلاد الأندلس . ويقف المؤلف وقفة طويله ، يصف لنا فيها حياه عنترة فى بلاد الأندلس ، كما سبق أن وصف حياته فى بلاد قيصر وفى قصرى كوبرت والصافات .

---

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ٦٨

ومن الأندلس يرسل هرقل كتبه إلى الملوك والحكام يأمرهم بالدخول فى طاعة قيصر « فلم تكن إلا مدة من زمان حتى أجاب صاحب برقة وصاحب تونس والقيروان ، كذلك هرمس صاحب الاسكندرية والديار المصرية »[١] . ويسير عنترة إلى هذه البلاد حتى يصل الاسكندرية ، وهنا يقف المؤلف وقفة طويلة ، ليصف موكب عنترة فيها . . « وهم يشقون الأسواق والحارات ، وأهل البلد قد علت منهم الزعقات ، وأكثروا من الصياح والضجات والناس صاروا من أعالى الأسطحة يتفرجون على شجيع عبس وعدنان »[٢] — بينما سار « المقوقس ابن الملك هرمس ملك الإسكندرية فى ركاب عنترة » .

ولكن ملوك مصر لم يقبلوا الخضوع لعنترة ، فسار إليهم وقتل الملك « هندراس » صاحب اهناس ، والملك « تدرس » صاحب دهشور والملك « سونحال » صاحب أشمون والملك « قراقيس » صاحب اخميم ، والملك « كردوس » صاحب أسوان ، وكذلك ملك النوبة ومن تحت يده من السودان ، وتنتهى المسألة بالصلح . . « وقد اختلطت الجيوش المصرية والسودان والافرنج وسائر البلدان »[٣] .

ويعود عنترة — عن طريق البحر — إلى قيصر حيث يفاجأ بأنه قد أمر بصنع تمثال له ولأخيه شيبوب وابنه الغذروف تكريما لهم وتعظيما . وبعد ذلك يعود عنترة إلى بلاد الشام ، حيث يجد عبلة فى انتظاره .

وأعمال عنتره فى هذه المرحلة تكاد تعكس — فى واقع الأمر — شيئين هامين . الشيء الأول هو الفتوح الإسلامية من فتح لمصر بأجزائها المختلفة ثم منها إلى طرابلس وتونس ومراكش فالأندلس ، وهى الفتوحات التى

---

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ٨٧
(٢) السيرة — مجلد ٨ ص ٩٠
(٣) السيرة — مجلد ٨ ص ١٠٥

وصفها المؤلف على أنها معارك يخوضها عنتره تحت لواء قيصر ملك الروم وفى هذه المعارك نلمح نوعا من التعاطف بين الفارس وبين الملتقين به من أبناء هذه البلاد ، إذ يحاول المؤلف أن يربطهم ببطله عنتره ، وذلك عن طريق خلق دور له فى بلادهم . والشيء الثانى الذى تعكسه هذه المرحلة هو مكانه الفارس العربى فى هذه الحضارات والمدنيات الكبيره ، فمن قبل وصف المؤلف لقاء عنتره بحضارة الفرس ثم بحضارة الهند ، ويكمل ذلك بحضارة الروم . وفى هذه المرحلة يدفع المؤلف ببطله فى رحلة طويلة هدفها تثبيت ملك قيصر كما سبق له ان ثبت ملك كسرى . ومعنى ذلك ببساطة — فى رأى المؤلف ان سطوة هاتين الامبراطوريتين لم تكن قائمة على مهارة كسرى وقيصر ، وإنما كان الفضل الأول فيها لفارس عربى . أضف إلى ذلك أنه بهذه الرحلات يثبت تفوق فرسان الجزيره العربية على جميع فرسان العالم المعروف آنذاك .

وندهش فى الواقع ، حين نجد المؤلف يدخل فى قصته لونا جديدا من البطولة لم يذكره لفارسه من قبل وهو اللون الأسطورى الفائق الخيال الذى يجعله يتغلب على الأرصاد والطلاسم وينتصر فى معاركه ضد الجان . والذى يجمع فيه بين انى الفوارس وكبار الكهان ممن لديهم علم الغيب ، كما يجعل هناك ارصادا موقوفة على اسم عنتره وهيأته . هذا اللون من البطولة الملحمية ، وارد فى كثير من السير العربية الأخرى مثل سيرة سيف ابن ذى يزن ، إلا انه فى تلك السير يظهر هذا الطابع من أول فصل فيها ، أما سيرة عنترة فإنه لا يظهر فيها إلا فى هذا المكان المتأخر جدا — وقد اوشكت السيرة على الانتهاء — وكأنما عنترة هنا قدتحول إلى بطل اسطورى كامل تؤيده قوى غيبية وتحرسه قدرات علوية تجعل من سيفه القدر الذى يزيل الممالك ويقيمها ، وتجعل منه خرافة تسير على جواد من القسطنطينية إلى اليونان إلى بلاد الأندلس فشمال أفريقيا حتى مصر وهو يحارب فى البر وفى البحر جميعا .

شيء آخر — نذكره على حذر — ذلك أننا نحس فى هذه المرحلةمن السيره

أصداء من العلاقات بين العالم العربى وبين الصليبيين وحماة الكنيسة. وقد يكون فى الأمر انعكاس للحروب الصليبية — فى امتدادها الواسع — وما كان بين الروم والمسلمين من معارك منذ العصر العباسى ، يفهم ذلك من إصرار المؤلف على أن يخوض ببطله كل بلد من البلاد التى تدين بالمسيحية ، واتصل بها المسلمون فى ذلك الحين . أو قد يكون المؤلف أراد أن يدل ببطولة فارسه العربى على المسيحيين والأقباط من أهل البلاد فجعل لقاء بينه وبين فرسانهم المشهورين دون أن يمس شعورهم إذ أن فارسه يسير تحت علم قيصر حاميا ملكه ودينه ضد أعدائه والخارجين عليه .

قد يكون هذا كله ، وقد يكون غيره ، إلا أن الشىء المؤكد هو أن شخصية عنترة بن شداد فى هذه المرحلة تختلف اختلافا كبيرا عن شخصية عنترة بطل الجزيرة العربية . ويعود عنترة إلى دياره مكللا بغار فوق غار ليجد أن بنى هوازن قد قتلوا الحارث — أخا الملك قيس — هو وزوجته . فيسرع عنترة للثأر وأخذ الأسرى ، ويتكرر مشهد ضرب رءوسهم فوق قبر القتيل . ولكن فى هذه الأثناء يموت ميسرة — ابن عنترة — فيدخل بيت الأحزان من جديد .ويقتل أيضا أخوه شيبوب على يد سلال من بنى ضهيبة فيبيدهم عنترة .

أما الربيع بن زياد واخوه عمارة فيدبران مكيدة للإيقاع بعنترة إلا انه ينجو منها بفضل صديق له هو « عمرو ذو الكلب » فيقتلهما .. ويهول الأمر على قيس وبنى عبس فيهجرهم عنترة ، ويذهب مع صديقه متجها نحو العراق إلى ان يصل إلى « بحر الفرات مقابل مدينة عانة[1] — ويتزوج عنترة من أخت عمرو ذى الكلب ويكاد ينسى بنى عبس الذين ما أن تعلم القبائل بأمر خلافهم مع عنترة ورحيله عنهم حتى يتكاثروا عليهم رغبة فى افنائهم ، ولكن

---

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ١٤٦

حينما يصل هذا الأمر إلى عنترة لا يستطيع إلا أن يسرع لإنقاذ قبيلته ثم يعود بعد أن يهزم أعدائهم ويؤمن إقامتهم .

ويرسل قيصر فى طلب عنترة ليعينه على خارج من أعدائه فيفعل ، وفى بلاد الروم تنتظره مغامرة غرامية إذ يستولى على قلب أخت ملك من ملوك الروم فيتزوجها ثم يتركها عائداً إلى بلاده . وفى طريق العودة تؤذن القصة على النهاية. فهناك ينتظره القدر على شكل الأسد الرهيص الذى يقدم وفى قلبه الحقد المرير وفى ضميره عزم أكيد على الأخذ بالثأر ، فيكمن لعنترة بجوار بعض الغدران، فإذا ما أقبل عنترة إلى الغدير — فى حاجة له — صوب وزر سهمه إليه — بعد أن كان قد أمضى تلك الفترة الطويلة فى المران على اطلاق السهم بارشاد السمع لا البصر فيطلق سهمه عليه ليصيب منه مقتلا ، ويموت الأسد الرهيص بعد اطلاق السهم مباشرة . أما عنترة فقد عرف أن هذه هى النهاية وأقبل عليه أهله يبكون فيوصى عبلة قائلا : « يا ابنة العم ، أقصدى أحد الرجلين إما ابن الطفيل وإما الأمير زيد الخيل ، فإن أحدهم يحميك ويرد عنك الأعداء ويقيك، فكونى لأحدهم أهلا ويكون لك بعلا . »(١)

ويحمل فرسان عنترة رحالهم ويسوقون أموالهم متجهين إلى ديار بنى عبس، وقد ركبت عبلة فرسه وارتدت رداءه وتقلدت سيفه فكان إذا ما طلع عليهم اعراب فى الطريق ، خافوا منها على اعتبار أنها عنترة إلا أنهم بعد لأى يكشفون الحقيقة ويهجمون عليها ، فتسرع إلى عنترة الذى يصرخ صرخته المعروفة ، فيهرب العرب الذين أرادوا الهجوم عليهم ، خوفا من عنترة ومهابة منه . ويلجأ عنترة إلى ترتيب آخر فيتحمل آلامه الآخذة فى الازدياد ، ويركب حصانه ويتقلد سيفه ويطلب من عبلة ومن معها من فرسان أن يسرعوا هم إلى ديار عبس ، بينما يقف هو — يغالب سكرات الموت — ليحميهم حتى لا يتعرض

---

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ١٧٦

لهم أحد . ويسرع الركب الخائف إلى دياره ، بينما يظل عنترة فوق جواده وقد فارق الحياة ، أما المهاجون فيقفون أمامه من بعيد ، لا يجسر أحدهم على الإقتراب منه . وبعد فترة يتحرك الجواد فيسقط عنترة عنه ويعرف المهاجون أنه قد مات فيدفنونه احتراما له . وتبجيلا بعد أن حمى عبلة وقبيلتها حيا وميتاً .

وهكذا تنتهى حياة عنترة ، وتنتهى معها هذه المرحلة التى ترسم لنا صورة اسطورية لفارس الطراد وحية بطن الوادى الأمير عنترة بن شداد . وهذه النهاية التى ترسمها يد القدر تبدو كأنها غير طبيعية ، رغم أن عنتره لم يصل إليها ، إلا بعد أن حقق فى حياته كل ما يريد من مجد ورفعة شأن وذيوع صيت ، فى بلاده وفى غير بلاده ، وإلا بعد أن شهد نهايات كثيرة لأكثر من قصة حياة ، وأكثر من قصة بطولة ، منها ما يمت إليه بنسب كأولاده ، ومنها مالا يمت إليه بنسب ، كالفرسان من أصدقائه وأعدائه . وحين يأتى الموت بعد هذا كله لا يبدو غريبا ولا مستهجنا إذ الموت هو النهاية الطبيعية لكل شىء ، وهو أكثر طبيعية عندما يحقق الإنسان كل الغايات من الحياه . ولكن المؤلف يريد أن يجعل من نهاية عنتره شيئاً مفجعاً لا يقل فى غرابته عن مولده وعن حياته فيحيط به أجواء اسطورية لا تقل فى غرابتها عما أحاط حياته .

ويمكننا أن نسمى نهاية عنترة نهاية درامية ، لأن عنترة يموت فيها من خلال ضعف من ذلك النوع ، الذى يحب كتاب الدرامة أن يخلقوه لأبطالهم ، أو من خلال « الهامارشيا » كما يسميها أرسطو ويشرحها الدكتور شكرى عياد بأنها الافراط فى خلة من الخلال افراطا يفوق الطاقة البشرية فتؤدى إلى مصرع البطل[1] ، والخلة هنا هى الشهامة ، فعنترة قد أسر الأسد الرهيص ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان يطلق سراح أسيره — رغم أثمه المتزايد —

---

(١) البطل فى الادب والاساطير .

حين يتوسط فيه صديقه عمرو بن معد يكرب ، وهكذا تؤدى هذه الشهامة المفرطة ، إلى وضع البذرة الدرامية لمصير عنترة ، أو تكون هى « الهامارشيا » أو سقطة البطل بالنسبة لعنترة . ونحن نلحظ ان عنترة — وان كان يصلح بطلا دراميا فى بعض أطوار حياته — أى فى الجزء الذاتى من السيرة — إلا أنه يغدو بطلا اسطوريا فى المرحلة التى بعد ذلك، اما فى المرحلة التى نحن بصددها الآن فيكاد يصبح بطلا ملحميا .

ونهاية عنترة يمكننا ان تسميها نهاية اسطورية كذلك ، فعنترة يموت فى الوقت الذى تصل فيه بطولته إلى القمة . وعلى الرغم من أن هذه النهاية تأتى وعنترة فى طور الشيخوخة — لا الشباب — إلا انه كان — فى الواقع — فى عنفوان نمائه ، ولعد أن يترك وراءه امتدادات جديدة تظهر فيما بعد فى ابنائه ، وولادة البطل فى الأساطير يسبقها موت البطل ، فالأساطير — التى هى وليدة طقوس وعبادات معينة عرفتها الشعوب البدائية ، حين عرفت عبادة البطل — كانت تقضى بموت البطل القديم قبل ظهور البطل الجديد ، وهذا الموت فى الاسطورة لا يأتى طبيعيا ، وإنما لا بد ان يكون قتلا . فعلى هذه الأسس يمكننا ان نسمى نهاية عنترة ، نهاية اسطورية .

ونحن نلمح فى هذه المرحلة نوعا من التطور فى شخصية البطل الذى اخذ الشكل التراجيدى أول الأمر ، ثم تحول إلى الشكل الاسطورى بعد ذلك . هذا التطور يجعـــل من شخصية عنترة ، رمزاً للأمة العربية فى كفاحها وانتصاراتها وعلاقاتها بالأمم من حولها ، كما يجعل من حياة عنترة انشودة حب، ولحنا صاخبا لكفاح طويل الأمد فى كل مكان من العالم المعروف آنذاك و لقاء منتصرا بأبطال جميع الأمم . وهذا يجعلنا نقول ، إن نهاية عنترة ، هى مزيج بين التراجيدية والاسطورة ، فإذا ما قارناها بالمراحل السابقة ، فإن هذه النهاية تبدو وكأنها نهاية ملحمية . وسيؤكد هذا الذى ذهبنا إليه ، ما سنراه فى المرحلة التالية ، وهى المرحلة التى تبدأ بوفاته .

٥ – المرحلة التجريدية أو مرحلة الامتداد

حين ينتهى عنترة، تنتهى إلى جواره الخيوط التى تربط بمجتمعه الخاص ومجتمعه العام ، فتتفكك كلها وتتهاوى بعد موت البطل الذى كان يربط بينها، وبذلك تنتهى زوجته كما تنتهى قبيلته . فعبلة تتزوج – كما نصحها عنترة – من عامر بن الطفيل ، ولكنها تكثر من المقارنة بينه وبين عنترة بحيث يبدو صغيرا ضعيفاً تافها، فيقتلها ليتخلص من هذه المقارنات ، وحينما يذهب أبوها وأخوها للمطالبة بثأرها يقتلهما كذلك ومعهما أمها ويقول المؤلف : « ومضت عبلة وأمها وأبوها وأخوها كأمس مضى ، ومابقى لهم ذكر بين الرجال ، فسبحان الله العزيز المتعال »[1] .

أما قبيلة عبس ، فإن حصن بن حذيفة وسنان بن حارثه يؤلبان عليهم القبائل ويهاجمانهم . وعلى الرغم من أن قيس بن زهير يتمكن من قتل حصن وسنان ، إلا أن قبيلة عبس تفنى عن آخرها ويهرب قيس بن زهير ليغدو وحيداً تائها فى الجزيرة العربية، يرمز إلى ماحل ببنى عبس لا تشرد فرسانهم فحسب وإنما هى تخلع ديارهم وتخفى آثارهم . يقول وهب بن منبه فى كتابه « التيجان» عند حديثه عن الحارث بن مضاض الذى تغرب ثلثمائة عام « ولقد كثرت فيه الأمثال ، وسار بغربته الصوت ، حتى ذكره حبيب بن أوس الطائى فى الإسلام فقال :

غربة تقتضى بغربة قيس بـ ... ن زهير والحارث بن مضاض
والفتى من تعرقته الليـالى ... فى الفيافى كالحيـة النضناض
صلتان : أعداؤه حيث كانوا ... فى حديث من ذكره مستفاض[2]

---

(١) السيرة – مجلد ٨ ص ١٨٧
(٢) ص ١٨٠ – ط حيدر أباد

والحارث بن مضاض تغرب وتاه فى الجزيرة العربية أثر اللعنة التى حلت ببنى جرهم فزالوا عن الوجود وأصبح الجراهمة من الأمم البائدة . وهذا الشعر الذى جمع بين قيس بن زهير فى غربته ، وبين الحارث الجرهمى إنما كان يشير إلى ماوقر فى نفوس الناس من شبه بين نهاية القبيلتين . أما القلائل الذين نجوا من بنى عبس فقد ذهبوا إلى مكة يحتمون بالبيت الحرام .

وهكذا حين يموت البطل وينهار كل شىء ، وكأنما كان بقاء الجراهمة موقوفا على بقائه ،فلما ذهب ذهبت كلها . ويكاد هذا — فى واقع الأمر — أن يكون بمثابة اسدال للستار على القصة بحوادثها ومغامراتها ووقائعها ، فعبلة وآل قراد قدماتوا ، وبنو عبس تشتتوا وضاعوا وملكهم تائه فى الجزيرة كالروح الهائمة . ولكن شخصية عنترة كانت قد وصلت معنا فى المرحلة السابقة إلى الشكل الملحمى ، وفى الملحمة يعيش البطل مرتبطا بتاريخ الأمة كجزء من مكوناته ، ورغم كل مافعله عنتره فى هذه الرواية الطويلة فإنه — بعد — لم يشترك فى الحدث الكبير الخطير الذى تم فى الجزيرة العربية ، ألا وهو ظهور الرسول عليه السلام وانتشار الدين الجديد . فكان لابد للمؤلف — كى يكمل الشخصية الملحمية لعنترة — أن يربط بينه وبين أحداث الرسالة فيما بعد . وهكذا تكون البداية بعد النهاية ، فيبدأ من جديد بعد أن أرغمه الواقع التاريخى على ذكر مصرع عنترة قبل ظهور محمد عليه السلام — بمحاولة خلق إمتداد لبطله يربطه بما حدث فى الجزيرة العربية من أحداث جسام .

ولما كان المتبع فى الأساطير أن موت البطل ، يمهد لظهور البطل ، فان المؤلف يستغل هذا الخيط ، ليقدم لنا مرحلة جديدة بطلها أيضاً عنترة وإن كان قد مات ، ويربط بين الأحداث التاريخية للجزيرة العربية وبين بطله ممثلا فى شخص أبنائه الجند الذين سيظهرون بعد ذلك ويلتقون بصاحب الرسالة . ولهذا فنحن نعتبر أن عنترة — رغم عدم وجوده الجسدى فى الرواية — موجود بالضرورة الروائية الملحمية وأن الإمتدادات التى نجدها بعد ، إنما تمثل إنعكاسا لشخصيته التى تتحقق فيها بأكثر من صورة وأكثر من شكل .

فالهيفاء — أخت عمرو ذى الكلب ، التى تزوجها عنترة قبل أن يموت — تلد فتاة تطلق عليها اسم « عنيترة » وتنشأ هذه الفتاة نشأة أشبه ماتكون بنشأة أبيها . وتظن عنيترة أن أباها هو عمرو ذو الكلب ، فتظل تتفرس وتسطو على الفرسان ، وتأتى من ضروب الشجاعة والاقدام مايذكرنا بأفعال عنترة ، فهى تلتقى ببنى حمير وبفرسان اليمن وتأسر الزرقاء . عمة ذى الخمار ، الذى أصبح بعد موت عنترة فارس الجزيرة العربية دون منازع ، ثم تلتقى بذى الخمار نفسه وتأسره ، وأخيراً يجهز المنذر جيشاً كبيراً للهجوم على بنى قضاعة — حيث كانت تعيش عنيترة — فتلتقى به مع خالها ذى الكلب وتهزمهم وتأسر الملك المنذر .

وكان أربعة عشر نفراً من بنى عبس قد فروا إلى المنذر ومعهم زهير ابن قيس ملكهم الجديد بعد قيس ، فلما شهدوا هذه المعركة ، ذهب زهير بن قيس إلى عمرو ذى الكلب ، يسأله فى المنذر ، لما يعرف من صداقة عمرو بعنترة فى حياته . فيرحب به عمرو ، ويتذكرون عنترة فيبكون ويترحمون ، وعنيترة لاتدرى من الأمر شيئاً . فيجد عمرو الفرصة سانحة ، ليخبر عنيترة بحقيقة نسبها ، حينئذ يعجب زهير أشد العجب ويقول : الحمد لله الذى اخلف علينا عنترة بن شداد حتى نرد كلنا من الأحياء والبلاد . »(١) — فتطلق عنيترة سراح الاسرى جميعاً وتنضم إلى أهلها من بنى عبس ، ثم تجمع من حولها الفرسان ، وتسير بهم طالبة ثأر أبيها عنترة .

وتتجه عنيترة أولا إلى ديار بنى عامر — حيث ماتت أمها — وفى الطريق يلتقون بجرير بن عنترة والخذروف بن شيبوب ، كما يرسل إليها دريد بن الصمة فرسانه ، ويعود الحال إلى ماكان عليه فى حياة عنترة ، فتأسر عنيترة عامر بن طفيل وفرسانه وتحطم دياره وتستعيد أموال عبلة وعنترة ، ثم تعود إلى ديار بنى عبس القديمة فتقيمها وتحييها ويحضر كبار الفرسان ومشهوريهم للتهنئة ، ثم يسألونها فى عامر بن طفيل فتستجيب لهم وتطلق سراحه .

---

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ٢٢٣

وكان زمن الرسالة قد أظل الجزيرة ، فما أن يخرج عامر بن طفيل من الأسر ، حتى يسرع على رأس فرسانه إلى مكة يريد قتل الرسول . وينزل مختفيا فى بيت أخت عبد الله بن سلول المنافق ، بينما ينزل الوحى على الرسول يخبره بالأمر ، فيستدعى عبد الله بن سلول ، ويذكر له أمر الفرسان الذين فى بيت أخته ،فيسرع هذا خائفا ويخرجهم من البيت وسلم أن الإعتداء من عامر بن طفيل من مكة . . . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الإعتداء من عامر بن طفيل ، فدعا عليه وابتلاه الله بغدة كغدة البعير فطلع له فى رقبته شىء يسمى الخرانيق حتى صار كالطبل العظيم ، ولم يزل حتى هلك ، فلعنة الله عليه »(١) .

ويعود بنا الحديث إلى عنيترة ومايدور فى بنى عبس من أحداث فنشهد زيد ابن عروة بن الورد وقد انضم إلى عنيترة فى الوقت الذى أحب فيه الرباب بنت الأمير عمرو ذى كلب وتزوجها . ويرسل المنذر إلى عنيترة يستنجد بها ضد فارس اسمه « الغضنفر » ، وأمه هى مريم بنت أخ ملك الروم و . « كان اسمر اللون وله سواعد شداد مثل العمد ، وكان الملك قيصر كلما رآه مال قلبه إليه واحبه ولكن كان فى بعض الأحيان طبعه ينفر منه لأجل سوادلونه دون الروم . ولما دخل فى قلبه الشك من أجل ذلك اللون الذى صار فيه قدمه على خمسة آلاف فارس من الروم — وهو دون البلوغ — وأرسله هو وأمه وجميع وأموالهما وذخائرهما إلى قلعة « برقعيد » ، وكانت هذه القلعة حد ملك قيصر من ملك الفرس ، وكان قيصر مراده أن يجعله فى تلك القلعة ليكون فى وجه العدو »(٢) .

ويحكى المؤلف صورا من حياة الغضنفر وبطولته وشجاعته إلى أن يصل للقائه بعنيترة،التى هبت لنصرة المنذر فيصف لنامادار بينهماوبين جيشيهما من حروب مهولة انتهت بأسر عنيترة له . فلما علمت أمه مريم بذلك ذهبت إلى عنيترة

---

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ٢٤٣
(٢) السيرة — مجلد ٨ ص ٢٤٣

وكشفت لها عن حقيقة الغضنفر ، فإذا به ابن عنترة من مريم الجارية التى تزوجها فى بلاط قيصر . فيلتقى الأخوان اللذان فرق بينهما الزمن ، ويسيرون جميعاً إلى ديار عبس . وفى الطريق يلتقى الركب بفارسين ، أحدهما اسمر والثانى أبيض فإذا بهما ياسر بن ميسرة بن عنترة ، وليث الميدان بن مازن أخى عنترة وينضم إليهم كذلك زحمة الجواد — عم عنترة — وسبيع اليمن بن مقرى الوحش وأسيد بن غصوب والديال بن الغضبان — ولدى عنترة — وبذلك يعود إلى بنى عبس غابر مجدهم .

وتسير عنيترة إلى الشام ؛ لترد عنها جيشاً غازيا جاء بقيادة « الجوافران » ابن الملك كوبرت ؛ وتدور بين الجيشين معركة يصفها المؤلف ؛ ويعكس لنا فى كل حادثة منها موقفا من مواقف عنترة القديمة . بينما يحمل القتال فى كل يوم إبنا جديداً من أبناء عنترة ينضم إلى الركب. ويبارز الجوفران جميع فرسان بنى عبس فيأسرهم ، بما فى ذلك عنيترة وأخوتها والخذروف ومن معه ويجمعهم فى ساحة القصر ليمثل بهم، فتشاهدهم أمه ، وتكشف عنهم كاشفة سرها الكبير وهو أن الجوفران ليس ابن كوبرت كما يعتقد ، ولكنه فى الحقيقة ابن عنترة الذى التقى بها فى بلاط قيصر قبل أن يتزوجها كوبرت . فيفرح الجوفران بهذا النسب ويقيم الأفراح وينضم إلى أخوته مقسما أن يثأر لابيه عنترة .

ويذهبون جميعاً قاصدين ديار بنى نبهان ، وفى الطريق يلتقون بجيش من السودان على رأسه الملك صفوان بن معدان — خال عنترة — فينضم إليهم . وهناك يخرج لهم فارس هو جابر بن وزر (ابن الأسد الرهيص الذى قتل عنترة فتبارزه عنيترة وتقتله ويقضون على قبيلة بنى نبهان برمتها ويأخذون أموالها ، وتستمر هذه الحملة التأديبية متنقلة من قبيلة إلى قبيلة وقد حمل بنو عبس عظام عنترة على جمل يسوقه الخذروف وجرير فى مقدمة الجيش وكأنما ليشهدوه على ثأرهم ... « هذا كله يجرى والجمل الذى عليه عظام عنترة واقف فى الميدان ، وكلما قتلوا قبيلة تأتى عنيترة وأخوتها الغضنفر والجوفران وينادون له : « يا أبانا ، ها قد أفنينا العربان وأبدنا الفرسان ، يكفى ما ترى

يا زين الشجعان والأسود ، فلم ينطق بلسان ، لأنه عظام بالية من سنين وأزمان .
فيقولون أن أبانا لم يزل غضبان ، سيروا بنا حتى نفنى بقية العربان[١] .

وبعد أن يخضعوا جميع القبائل يعودون إلى ديارهم ويرسلون الرسل إلى كل القبائل يطلبون حضور حفل دفن عنترة من جديد ، ويجلس أولاد عنترة ، يتلقون العزاء وتنحر الإبل على قبر عنترة الذى اجتمع عليه ابن كسرى بابن هرقل ، حيث قدم كل منهما يحمل العزاء فى عنترة بينما الفرسان يقولون الشعر فى رثائه .

ويحج عمرو مع عمه جرير إلى البيت الحرام ، فيعلمون بظهور النبى صلى الله عليه وسلم ويعودون إلى ديارهم ليقصوا لقاءهم بالرسول وكيف سألهم عن عنترة فأخبراه بما تم من أمره ، وأنهم جاءوا يحملون رسالة الإسلام إلى بنى عبس . فيدخل الجميع فى الدين الجديد ويقيمون إلى جوار النبى ويصبح جرير رسوله إلى القبائل يدعوهم إلى الإسلام ، ويرغب الخذروف فى الزواج من عنيترة فيزوجهما الرسول عليه السلام ، وتظل عنيترة تقاتل فى صفوف النبى عليه السلام إلى أن قتلت فى غزوة الأحزاب . . . وماتت شهيدة على السنة والكتاب ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحزن عليها وقال زملوها على ثيابها لتلقى الله وهو راض عنها يوم القيامة »[٢] — ويتآمر بعدها على بنى عبس عمرو بن أمية الصخرى ، يقود جيوش قومه تحت راية الإسلام ، ويموت أمراء بنى عبس وفرسانهم جميعا فى غزوات الرسول . أما الملك زهير بن قيس فقد ولد له ابن اسمه ياسر ، قتل فى غزوة من الغزوات فحكم بنى عبس من بعده ابنه عمار بن ياسر وهو الصحابى المشهور . وكل من كان من بنى عبس من زمن الجاهلية فإنه اتبع الاسلام ، وتركوا ما كانوا عليه من ضلال وشرب مدام ، ثم تقلبت الدهور

---

(١) السـيرة ـ مجلد ٨ ص ٢١٦
(٢) السـيرة ـ مجلد ٨ ص ٣٥٠

والأيام حتى شربوا كأس الحمام ، بعد أن نالوا ما نالوا من العز والمجد والرفعة[1]

وتنتهى هذه المرحلة ، وبانتهائها تنتهى السيرة . وعنترة — فى هذه المرحلة أيضا — هو الذى يحمل علم البطولة ويظهر فى أكثر من شكل وصورة . يظهر فى صورة عنيترة وفى صورة الغضنفر وفى صورة الجوفران ، وكأنما غدا رمزا ينعكس فى تجسيد يمثله أبناؤه ، ونشهده كالشبح ، وقد صارت عظامه محملة على جمل تتبع جيش بنى عبس ، وتحمل النقمة على كل من انتهز فرصة موته ، ليتطاول على قومه ، وسيوف أبنائه أمام الجمل — تضرب باسم عنترة وبقوة عنترة وببأس عنترة .

---

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ٣٥١

الفصل الثالث

البناء القصصي فى سيرة عنترة

الفن القصصى ليس مجرد سرد حكاية أو قص حادثة ، فكل إنسان يستطيع أن يفعل ذلك لأن أسلوب الحديث — الذى هو خاصة إنسانية عامة ومشتركة بين جميع البشر — يعتمد اعتمادا كبيراً على السير والقص ولكن هذا الذى يتداول على ألسنة المتحدثين فى كل مكان وفى كل حين ، لا يعتبر قصصا من ألوان الأدب — والقصصى لا يستوى حتى تتوافر له عناصر بذاتها هى الأسس التى يقام عليها بناؤه الفنى .

وأول هذه العناصر هو الموضوع الذى سوف يتخذه الكاتب مادة لقصته . فالناس جميعاً — ومن بينهم كاتب القصة — يصادفون فى حياتهم عددا لا حصر له من الأحداث والشخصيات — التى توحى بموضوعات قصصية — سواء بالالتقاء المباشر أو عن طريق المشاهدة أو القراءة أو السماع . ولكن هذه الموضوعات لا تصلح جميعاً كمادة للعمل القصصى ، وإنما على الكاتب أن يختار من بينها موضوعاً معيناً تتوافر له صفة الأهمية . ولا نعنى بالأهمية هنا أهمية الموضوع نفسه أو أهميته التاريخية أو الاجتماعية أو ما شاكل ذلك لأن الموضوع فى حد ذاته مهما كانت أهميته الخاصة ، لا يكفى لإخراج عمل قصصى فنى ، وإلا كان من السهل على كل إنسان أن يختار الموضوعات الكبرى ، ليتخذ منها مادة قصصية ، ومن ناحية أخرى نجد أنه لا يمكن أن تكون لجميع القصص التى تتناول الموضوعات الكبرى قيمة أدبية ، إذ أن القيمة لا تأتى

من الموضوع نفسه وإنما تأتى من أن الكاتب قد تعمق هذا الموضوع ونظر جوانبه المتعددة وبذلك أكسبه قيمة إنسانية خاصة . لهذا فإن الموضوع قد يكون فى أصله بسيطا وصغيراً ولكن القصاص ينظر إليه من وجهة نظر معينة فيرى فيه أهمية تجعله يتفوق عنده على كثير من الموضوعات الأخرى التى لها قيمة ذاتية كبيرة .

وهنا تبدو بوضوح أهمية عامل الاختيار الذى يقوم به القصاص فى انتقائه لحادثة معينة أو لشخص معين يتخذه موضوعا لقصته . وذلك لأن هذه الحادثة — أو الشخصية — كان لها وقع معين على وجدانه جعله يقف منها موقفا معيناً ويفلسفها فلسفة معينة ويتخيلها شيئاً له كيان ومعنى .

ولا يلزم أن يكون القصاص قد التقى بهذه الحادثة أو الشخصية التقاء مباشرا أو عاناها معاناة ذاتية . فنحن لا نستمد خبراتنا فى الحياة من هذا المعين وحده ، وإنما نحن نستفيد من تجارب الآخرين أكثر مما نستفيد من تجاربنا الذاتية . فمن القراءة والاطلاع مثلا نحصل قدرا من الخبرة . يعتبر أضعافا مضاعفة لما نحصل عليه بأنفسنا من خبرتنا الشخصية . لأن حياة الانسان محدودة بالزمان الذى يعيش فيه ومحدودة بالمكان الذى يتحرك فى نطاقه ومحدودة بالعوامل والظروف التى يمكنه أن يحصل عليها . ولهذا فإن خبرته الذاتية تكون محدودة ضيقة ؛ أما الخبرة التى يمكنه أن يحصل عليها من خلال تجارب الآخرين فإنها تكاد لا تحدها حدود . وكما تلفت الكاتب القصصى أشياء بعينها فى الحياة التى يعيشها فيتخذ منها موقفاً بذاته ويفلسفها فلسفة خاصة فكذلك تلفته أشياء بذاتها من ذلك الذى يقرأ عنه أو يروى له فيتخذ منها موقفاً بذاته ويفلسفها فلسفة خاصة ويجعلها ماده لعمله القصصى .

والانسان بوصفه كائنا حيا متفاعلا مع الحياه لا يستطيع أن يخلص نفسه تخليصاً تاما من قيود حاضره . ولهذا فإن عملية اختياره لموضوع قديم لا تخلو من تأثير واقعة على هذا الاختيار ؛ إذ لا بد أن يكون هناك عامل أو أكثر

يربط بين ما فيه الفنان حالياً وبين ما قرأه أو سمعه من قديم الاخبار فيمتزج الماضى بالحاضر مزجا شعوريا فى نفسيته المتفننة ويثيران — معا — الانفعال الذى يقوده إلى لحظة الابداع .

ومؤلف سيرة عنترة بن شداد قرأ تاريخ عنترة فلفته فيه أمور ؛ وقرأ شعر عنترة فلفته فيه أمور كذلك ؛ ثم سمع ما قيل عن عنترة من أحاديث وروايات فامتزج كل ذلك فى نفسه وأثار مشاعره وجعله يقف منه موقفا بذاته وبفلسفته فلسفة خاصة ثم يتخذه موضوعا لعمله الفنى الذى هو السيرة .

وربما التقى ما قرأه الكاتب عن عنتره بأشتات من الواقع مستقاه من من الظروف البيئية التى يعيشها ، فساعد ذلك على سرعة انفعاله بما قرأ وعاونه على أن يتخذ منه ذلك الموقف المعين وأن يفلسفه تلك الفلسفة المعينة . فعنترة يصور حلقات كثيره متداخلة فى سلسلة الكفاح الفردى والجماعى ثم الجنسى . فهو كشخص فرد يرسم أقوى صوره من صور الفردية . إذ ان كفاح ذلك العبد واجتهاده اوصلاه إلى قمة المجد . وكفاحه فى ذلك ليس كفاح عمل فحسب ، وإنما هو كفاح تواكبه الاخلاق القوية والخصال الحميده .

وتاريخ كتابة هذه السيرة . هو أواخر القرن الرابع ؛ الهجرى ؛ وفى هذا الوقت كان العالم الاسلامى يعيش فى فتره التقاء بالحضارات الاجنبية وبالدول الاوربية التى بدأت تحاول أن تجد لها متنفسا فى ثروات الشرق ؛كما أن القوى العاملة فى العالم — آنذاك — كانت قد بدأت تتبلور بعد الهزة العنيفة التى زلزلت الارض تحت أقدامها ؛ أثر الهجرة العربية الكبرى التى تمت فى الفتوح الاسلامية . وقد كان لهذا تأثير مباشر فى ظهور دعاوى الشعوبية من الداخل وغزوات الروم والعجم من الخارج ، كما أن العالم العربى فى ذلك الوقت كان قد وقع تحت سيطرة اجناس دخلت الاسلام من غير أبناء الجزيرة العربية وبدأت تلعب دورها فى الحياه العربية حاكمة وموجهة .

لهذا كله فإن اختيار المؤلف لشخصية عنترة بالذات كان يتوائم وظروف البيئة السياسية والاجتماعية التى كان يعيش فيها العالم العربى آنذاك. فعنترة عربى من الجزيرة العربية، والانتصار له انتصار لفضائل الشخصية العربية التى بدأت العصبيات الأخرى تبعدها عن مجالات التفوق، كما أن وضع عنترة كبطل أمام الروم مرة وأمام الفرس مرة بل وأمام الهنود والأحباش والسودان إنما هو محاولة لإثبات قدرة الشعب العربى على الوقوف أمام كل أعدائه المعروفين فى تلك الحقبة الزمنية التى كتبت فيها السيرة، وذلك عن طريق إثبات تفوق الجنس العربى على غيره من الأجناس. ويبدو أن كاتب السيرة كان عربيا، ويبدو أنه كان أيضاً من عرب الشمال، ولهذا نراه فى السيرة ينتصر لفضائل بنى عدنان على القحطانيين.

ففى سيرة عنترة بن شداد تظهر كل العصبيات التى كانت تتناحر على السلطة آنذاك، حيث تعكس لنا – انعكاساً تاما – موقف العدنانيين من القحطانيين، وموقف الحجازيين من اليمنيين، وموقف العرب من الفرس والروم وغيرهم من الأمم، بل أننا لا نعدو الحقيقة إذا ما قلنا أن العصبيات الصغيرة من قبائل الشماليين، كانت هى الأخرى واضحة ومنعكسة تماما فى سيرة عنترة.

لهذا يمكننا القول أن اختيار المؤلف لشخصية عنترة، كموضوع لسيرته الشعبية، لم يأت عبثاً وإنما كان الاختيار نتاجا طبيعيا لمقتضيات العصر والبيئة.

* * *

والقيمة الفنية لسيرة عنترة تكمن فى أن المؤلف حاول أن يستغل هذه الشخصية أكبر قدر من الاستغلال مع عدم تجريدها من سماتها البيئية والتاريخية المعروفة. ولهذا فقد كان جل اعتماده على حقائق التاريخ، التى جاءت فى كتب الأدب وكتب التاريخ، مما يتعلق ببطله وبالشخصيات التى عاشت معه وأثرت فيه، والأحداث الكبيرة التى شاهدتها الجزيرة العربية، ويمكن أن يفترض لبطله دورا فيها.

والمتتبع لأحداث السيرة يحس احساساً كبيرا ، أن المؤلف قد قرأ الأدب الجاهلى كله من شعر وخطب وأسجاع كهان ، كما أنه اطلع على كتب القصص التى عرفها العرب ، ووضع يده على كثير من الأساطير التى تناقلوها شفاها أودونوها وجمعوها فى كتب . وليس عبثا أن ينسب المؤلف سيرته إلى الأصمعى ، كما أنه ليس عبثا أن ينسب الجزء الأول منها (وهو مقدمة السيرة الحجازية التى تتحدث عن خلق العالم ومكان الجزيرة العربية ونسب بنى عبس) إلى وهب بن منبه ، كما أن المؤلف ، تعمد أن يدخل فى صلب سيرته شعر عنترة الحقيقى وكثيرا من الشعر الجاهلى الصحيح ، مثل المعلقات السبع وشعر عروة بن الورد والحطيئة وغيرهما .

وقد استغل مؤلف السيرة الكثير مما قرأ استغلالا كبيرا . .

١ — ففى الأحداث استغل دقائق حياة عنترة ، التى أثرت فى تاريخ الأدب من حبه لعبلة وموقف عمه مالك من هذا الحب ، وكذلك الشك فى نسب عنترة ، وموقف أبيه شداد من هذا الموضوع ، ثم المغامرات التى يعرفها التاريخ لعنترة فى جريه وراء النوق المصافير .

٢ — ويستغل المؤلف أيضاً أحداثا كبيرة عامة — إلى جانب استغلاله للأحداث الخاصة — كوقعة ذى قار التى حاول أن يخلق بين بطله وبين بطلها التاريخى (هانىء بن مسعود) نوعا من الصداقة القائمة على الاحترام المتبادل ، وذلك ليكسب شخصية بطله قيمة روائية كبيرة .

٣ — وقد استغل المؤلف الشخصيات التاريخية المعروفة دون النظر إلى التسلسل التاريخى للأحداث ، وذلك بحثا عن مكان لبطله بين الخالدين من أبناء الجزيرة العربية فى كل ناحية من نواحى الخلود . فمن ناحية الفروسية يخلق المؤلف المواقف التى يلتقى فيها بطله بمشهورى الفرسان العرب ، كذى الخمار وعروة بن الورد وهانىء بن مسعود وعمرو بن معديكرب وعمرو ذى الكلب وغيرهم .

ويتبع المؤلف طريقة متكررة فى تقديم هذه الشخصيات ، فهو يصف لنا نشأة البطل ثم شهرته ثم تغلبه على كل من يعاديه حتى يقر له جميع الفرسان بالشجاعة والتفوق ، وبعد ذلك يضع حوله هالات البطولة والفخار ، وأخيرا يجمع بينه وبين بطله عنترة لتثبت أهميته وقيمته وليسطر اسمه فى سجل الفرسان العرب المعروفين فى التاريخ ، حين يتغلب عنترة على أولئك الأبطال المغاوير .

وفى الحكمة يختار المؤلف ، أشهر الأسماء بين من شهد لهم تاريخ العرب بصواب الرأى ورجاحة الفكر كقيس بن زهير ودريد بن الصمة والشيخ عبد المطلب رأس قبيلة قريش ويخلق بينهم وبين بطله (عنترة) علاقات متينة تجعله أولا ، لايصدر فى تصرفاته إلا عن حكمة وصواب ، وتجعله ثانياً مرتبطا فى اذهان الناس بهذه الأسماء المشهورة فى هذا الميدان . ومن قبيل ذلك أيضاً ما فعله المؤلف من خلق لقاء بين بطله عنترة وبين اشهر كرماء العرب « حاتم الطائى » وجعل من أحداث السيرة مايجعل عنترة صاحب فضل على صاحب الفضل المشهود له فى كتب التاريخ .

أما فى الشعر ، فالمؤلف يحشد لبطله كل اسم مشهور فى ميدانه ؛ ويكفى أنه خلق له لقائين بشعراء المعلقات جميعا ؛ يمتحنونه فيهما ويجمعون على الاقرار له بالفضل فى الفروسية وفى العلم وفى الشعر جميعاً . كما أنه خلق لعنترة لقاءات أخرى بكثير من الشعراء المعروفين كعروة بن الورد والحطيئة وغيرهم .

٤ — وفى الأماكن استعرض المؤلف إمكانياته الكبيرة فى تنقل البطل بين مختلف أنحاء الجزيرة العربية ، ذاكرا اسماء منازل القبائل وأماكنها وموردا أسماء الجبال والوديان وأسماء المدن والقرى فى حشد ضخم يشى بسعة اطلاعه ومعرفته ، ثم هو يربط بطله عنترة بأسماء كثير من الاماكن التى ترتبط فى أذهان الناس بأحداث معينة مثل مكة والحيرة وبلاد الفرس بلدا بلدا وبلاد الروم المعروفة عند معاصريه وحتى حين يدخله مصر يجعله يلتقى بفرسان من الاسكندرية ومن الفيوم ومن الجيزة ومن غيرها من المدن المصرية المعروفة .

هذا الالمام من جانب المؤلف له أهميته القصوى من ناحية البناء الموضوعى للسيرة لأنه استطاع أن يكسب بطله رداء من الحقيقة القصصية التى تجعله شخصية مجسدة ، تعيش وتتفاعل مع شخصيات معروفة وتشترك فى أحداث معروفة وتتحرك فى أماكن معروفة ،فلا يصبح بذلك مجرد عمل تجريدى وإنما هو شخصية حية اكسبها المؤلف باطلاعه الواسع صدقا من لون خاص .

* * *

الكاتب إذن اختار شخصيته لأسباب معينة ، كما أنه حين اختار الشخصية ، درس الاطار الزمنى والمكانى الذى تتحرك فيه هذه الشخصية دراسة وافية ، وهو إلى جوار هذا قد درس شخصية بطله أيضاً دراسة وافية من الداخل ومن الخارج كذلك .

أما دراسته لها من الخارج فتتمثل فى هذا التقارب الكبير بين شخصية عنترة فى التاريخ ، وشخصية عنترة فى السيرة وخاصة فى المرحلة الأولى منها (وهى المرحلة التاريخية) فقد حدد المؤلف — لنفسه وللقارىء معا — الأشخاص الذين يكونون مجتمع عنترة الخاص ويلعبون الأدوار الأساسية فى حياته . وقد استقى المؤلف هذه الشخصيات — إلى حد كبير — من المعين التاريخى ، الأمر الذى اقتضى منه معرفة وثيقة ببطون عبس وأشهر رجالها ليحدد من منهم فى صف عنترة ، ومن منهم سوف يأخذ موقف المضاد ، وقدوصل بقسمته هذه إلى أولاد الملك زهير أنفسهم ، فجعل منهم من يعاضدون عنترة ، ومنهم من يعاونه ويتعصبون ضده .

ومن ناحية الوصف الخارجى كذلك وصف لنا المؤلف عنترةفىصورةفارس لايشق له غبار ، مهول الخلقة ، متين البنيان ، يجيد الطعن والضرب وأساليب القتال ، ويسود ميدان الحرب بشجاعة خارقة فائقة تبررها نشأة مستوحشة وملامح للقوة تبدو منه الطفولة ، إلى جوار البنيان الجسدى الذى يسهب المؤلف فى وصفه ، ولذلك فإن عنترة حينما يتحرك فى إطار بطولى ، لايبدو هذا شاذا

ولاغريبا ولامستهجنا ، وجمع له المؤلف أيضاً سمات الفارس العربى كما تعرفه الجزيرة العربية من شهامة وكرم ونجدة وجلد ، ووضع له ذهن المفكر العاقل الحكيم الذى يكتمل معه تكاملا بطوليا طبيعيا وذلك هو أخوه شيبوب الذى يستطيع بخفته وحيلته ولصوصيته أن يقدم على أعمال يعف عنها عنترة الفارس، ولكنها ضرورية لكسب المعارك والتفوق على الأقران .

فمؤلف السيرة إذن قد فهم المظهر الخارجى لبطله تمام الفهم ، وأعطى له من الامكانيات ما يتلاءم مع فهمه لشخصيته ودوره .

أما الدراسة الداخلية للبطل فيبدو أن المؤلف قد توافر عليها تماما وكرس لها جزءاً كبيرا من جهده ، لأننا رأينا فى دراستنا لتطور شخصيةعنترة فى السيرة أن المؤلف قد رسم حدود كل مرحلة من مراحل حياة عنترة رسما دقيقاً ووفر لها الإمكانيات لتطابق الواقع الروائى والصدق الفنى .

فالمؤلف حين يرسم شخصية عنترة فى مرحلة التكوين ، يضع يده على موقفه من المجتمع الخاص الذى يعيش فيه ، وموقف هذا المجتمع منه ، وما يسبب هذا الصراع من عقد عند البطل وعند مجتمعه على السواء ، فعنترة يقاوم الأصل فى مجتمع لايعرف الناس ، إلا بأنسابهم وأحسابهم ، وعنترة يقاوم ضعة اللون فى مجتمع بدائى ، يضع للون أهميته الكبرى ويرسم للسود مكانا بذاته فى آخر درجات هذا المجتمع — إن لم يكن خارجه — وعنترة يقاوم عاطفة الحب التى خرجت إلى العلن فى مجتمع يخشى على العرض خشية تفوق المعقول حتى أنه ليئد البنات خوف العار ، ويجعل من العاطفة المكشوفة المعروفة ، جريمة لاتغتفر وانتهاكا لمقدساتها .

فليس غريبا إذن أن يأخذ المجتمع الصغير نفسه موقفاً من هذا البطل فيقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق امنياته بتلقائيـة طبيعية ودون تعسف أو تـكلف من المؤلف .

وكاتب السيرة لاينسى فى هذه المرحلة أن بطلة بشر ، تقطع فيه الكلمة أكثر مما يقطع فيه السلاح ، ويؤثر فيه التجاهل أكثر مما تؤثر فيه المواجهة ، وأنه طالب حق يتمثل حقه مجسدا فى أشياء بعينها فيحاول أن يحطم الحواجز التى تحول بينه وبين هذا الحق . ومن خلال هذا الصراع تتبلورشخصية البطلوتزداد خبراته وتتأصل معرفته بالحياة وقدرته على مواجهة حقائقها.فإذا ماتغلب عنترة على هذه العقبات،كان هذا هو الايذان بمولد بطل له من الصفات النفسية والجسدية مايؤهله لأن يخوض المرحلة التالية من السيرة ، وكأنما يريد المؤلف أن يبرر لنا الصفات التى ينسبها لبطله تبريرا حدثياً لا تبريراً تقريريا ، فوقوفه عند كل مرحلة من مراحل الصراع ضد النسب أو ضد اللون أو ضد الحب إنما هو جلاء لمكونات بطله ،جلاء يستغل فيه أحداث هذا الصراع فى عمله القصصى من ناحية، ويمهد به لتكامل شخصية عنترة فيما بعد من ناحية أخرى .

وحينما ينتقل المؤلف إلى المراحل التالية من شخصية بطله لايهمل أثر المعارك الأولى التى خاضها والتصرفات التى تصرفها حيال الأحداث وحيال الناس ، فهو يرق لكل عبد يروم التحرر ، وهو ينصر بسيفه وبماله كل محب يريد أن يفوز بحبيبته ، وهو يؤيد بكل قوته ، كل طموح يريد أن يثبت نسبته .

ومؤلف السيرة لاينسى بشرية بطله حتى فى المراحل الاسطورية من حياته ، فيقف به أمام الموت عاجزا حزينا مشلول الإرادة لايملك إلا الدموع ، ويقف به أمام الثأر عاتيا جبارا لايرحم ولايلين ، ويقف به أمام الحب ضعيفاً وامقا اسيرا لهواه .

وهناك نقطة هامة فى موقف المؤلف من بطله فى هذه المراحل ، تلك هى أنه راعى التاريخ حين لم يذكر لعنترة أولادا من عبلة ولكنه راعى الفن ومقتضيات الاستمرار ، حين جعل له أولادا من غير عبلة ، وخرج من هذا المأزق بأن جعل مغامرات عنترة الغرامية — مع غير عبلة — مجرد لحظات عابرة لاتمحو حبه

لها ، ولاتغير من تعلقه بها . فكأننا بهذا الكاتب وقد استبطن شخصية بطله المعقدة فى التركيب وتمثلها وفهمها فأجاد فى عرضه لها وعرض مايصدر عنها من أقوال وافعال .

مؤلف سيرة عنترة إذن عرف لماذا اختار شخصية البطل ، ثم عرف كيف يدرس هذه الشخصية وكيف يفهمها ثم كيف يقدمها فى قصته . فشخصية عنترة ليست من الشخصيات الثابتة — أى غير المتغيرة — وإنما هى شخصية نامية تبدأ مع الكاتب مادة قابلة للتشكيل يضيف إليها كل حين جديدا وتتكامل بين يديه تدريجيا وتتطور خطوة خطوة ، بينما الكاتب يخلق لها العلاقات التى تربطها بالناس وبالأحداث ربطا طبيعياً ويخرجها من كل علاقة وقد إزدادت شيئا يقرب بينها وبين التكامل . ولهذا فقد قسم كاتب السيرة أحداثها تقسيما راعى فيه التاريخ ، وراعى فيه الأهمية كما راعى فيه بناء شخصية البطل . فنحن نراه يقابل بين عنترة — وهو طفل — وبين كلب متوحش ، فإذا ماكبر عنترة أصبح الكلب أسدا ، ولسنا فى حاجة بعد هذا لأن يخبرنا المؤلف أن بطله قد كبر وإزدادت قوته وشجاعته . وعنترة — فى أول أمره — يتزعم العبيد ، وعلى رأسهم أخوه شيبوب — ثم هو بعد ذلك يتزعم فرسان بنى قراد ، وعلى رأسهم أبوه شداد ، ثم هو يتزعم فرسان بنى عبس وعلى رأسهم زهير ثم ابنه قيس من بعده ، ولا يلبث عنترة أن يتزعم فرسان الجزيرة العربية بأسرهم ، وعلى رأسهم دريد بن الصمة وهانىء بن مسعود ، وليس المؤلف فى حاجة لأن يقرر لنا بعد هذا أن بطله قد أصبح فارس العرب لافارسا من العرب .

وإعداد عنترة فى أول الأمر ، عمه مالك ، وفى المرحلة التالية ، الربيع بن زيادة الزعيم العبسى الكبير ، ثم بعد ذلك واحد من أبناء الملك زهير — واخ للملك قيس — ثم يعاديه أشهر فرسان الجزيرة العربية وأكبر ملوكها ، فاذا مر بهذه المرحلة فالذى يعاديه هو ملك الغساسنة حينا وملك المناذرة حينا آخر ، وإذا بنا نجده — بعد قليل — يعادى قيصر الروم وكسرى العجم ، وقيل اليمن

ونجاشي الحبشة . وليس بالمؤلف حاجة بعد هذا لأن يقول لنا أن فارسه قد أصبح فارس العالم بأسره .

هذه الدقة فى الانتقال بالبطل من مرحلة إلى مرحلة تدلنا بوضوح على براعة الكاتب وفهمه لشخصية بطله ولنمائها ، كما تدلنا أيضاً على فهمه للأحداث وترتيبها وحين يعطينا الصورة التى يريدها لفارسه عنترة لانجد فيها غرابة ولاشذوذا ، ولانحس فى تقلبها بغضاضة أو استنكار ، وإنما نلمح آثار قدرة روائية خلاقة فاهمة تمام الفهم للعمل القصصى الذى يقدمه .

الشخصيات

وكما وفق المؤلف فى اختيار موضوع السيرة وفى رسم ملامح الشخصية الأساسية فيها — وهى شخصية البطل عنترة بن شداد — وفق كذلك فى اختيار بقية شخصيات السيرة بحيث تتناسب مع الاطار العام للموضوع من جهة ومع شخصية البطل ومراحل تطورها من جهة أخرى . فالشخصيات المكملة فى السيرة — سواء قصر دورها فيها أو طال — تسير جميعا فى خطوط متوازية مع شخصية البطل لتتفاعل معها فى نماء قصصى سليم ولتخرج لنا — فى النهاية — رواية متكاملة البناء .

وتنقسم شخصيات السيرة إلى قسمين متميزين ، فهناك شخصيات واقعية — أى معروفة تاريخيا — وهناك شخصيات خيالية اخترعها المؤلف ليكمل بها البناء القصصى . فموضوع السيرة موضوع تاريخى يصور حقبة معينة فى تاريخ الجزيرة العربية ، ومؤلف السيرة اختار لبطولتها شخصية تاريخية حقيقية عرف الناس صاحبها شاعرا وفارسا وعاشقا ، وتناقلوا أشعاره وأخباره ، لهذا فلابد أن تكون بقية الشخصيات المتعاملة معه فى السيرة شخصيات تاريخية حقيقية ، وأن تكون الأحداث التى تدور فيها تلك الشخصيات أقرب ما يكون الى الاحداث التاريخية الحقيقية خصوصا فى المرحلة الأولى من القصة التى تعتبر مرحلة تقديم لشخصية البطل .

ولما كان هذا البطل — كما يريد أن يقدمه المؤلف — إنسانا له وجود تاريخى ولما كانت هذه القصة هى سيرة حياته ، لهذا لجأ المؤلف إلى شخصيات التاريخ الحقيقى لعنترة ، واستعان بها ليستعملها فى المرحلة الأولى من السيرة استعمالا يكاد يطابق الواقع المعروف عنها تاريخيا . فأم عنترة زبيبة الحبشية ، وأبوه شداد ، وأخوه شيبوب وأعمامه ، ثم عبلة وأبوها وأخوها والربيع

خطيبها ، وسمية زوجة شداد . . كل أولئك يجب أن يظهروا فى نفس الأدوار الحقيقية التى أثيرت عنهم تاريخيا ، والتى وردت فى تاريخ حياة عنترة وما تدول حوله من روايات ، وقبيلة عبس بأفرادها الحقيقيين ، وملكها زهير بن جذيمة وقصة زواجه المشهورة وتآمره على بطون قيس عيلان برمتها ، ثم اصهار النعمان بن المنذر له . . كل ذلك يجب أن يبدو فى سياقه الطبيعى ليعطى للسيرة واقعها التاريخى المطلوب .

ومع أن المؤلف قد استقى تلك الشخصيات من التاريخ وحاول أن يجعلها تلعب نفس الدور الذى لعبته فى الحقيقة ، إلا أن طريقة عرضه لها وتعيين مواعيد ظهورها ، وتحديد علاقاتها ببطل السيرة ، يدل على أن المؤلف لديه حاسة قصصية سليمة ، تعرف كيف تحرك هذه الشخصيات فى اطار قصصى بعيد كل البعد عن السرد التاريخى المسترسل ، كما تعرف كيف تنمى الشخصية تدريجيا بحيث يتعرف عليها القارىء أولا ثم يتابعها بعد ذلك وهو مطمئن لما عرف عنها.

وعلى الرغم من أن دور معظم تلك الشخصيات ، يكاد ينتهى بانتهاء المرحلة الأولى من مراحل حياة عنترة — إذ تبدأ بعد ذلك مراحل تبعد تدريجيا عن واقع التاريخ — إلا أن المؤلف أجاد استغلال هذه الشخصيات فى بقية السيرة ، وشكلها فى مهارة لتلتقى مع الأحداث التى اصطنعها بعد ذلك ، ولتأخذ دورها القصصى على طول السيرة ، ثم لتعطى المضامين التى يهدف إليها ، كل ذلك مع الاحتفاظ لها بمعظم السمات الحقيقية التى أثرت عنها تاريخيا والتى أضفاها عليها فى المرحلة الأولى . . فشيبوب مثلا يستمر فى مصاحبة عنترة فى جميع مراحل حياته التالية ، سواء كانت أسطورية أو ملحمية ، ويشترك معه فيها بأعمال تحمل السمة المميزة له وهى الدهاء واصطناع الحيلة ، فهو الذى يتجسس ليأتى له بالأخبار ، وهو الذى يخادع لينقذه من الأسر بحيلة أو بأخرى ، ثم هو الذى يشترك معه فى الزواج أيضا فيتزوج من جارية الفتاة التى اقترن بها عنترة ، وذلك ليخلق المؤلف امتدادا لهما معا ممثلا فى الغضبان بن عنترة وصاحبه الخذروف بن شيبوب اللذين يحمل كل منهما شخصية أبيه ويلعبان دورا هاما فى المرحلة النهائية من السيرة .

ومثل هذا نجده فى شخصية ملك بنى عبس ، فزهير يؤدى دوره الحقيق مضافا إليه كثير من الإضافات التى يتطلبها البناء القصصى لشخصية عنترة ، فاذا ما أتى ابنه قيس من بعده لعب دورا قصصيا خالصا وشارك فى خلق المواقف الدرامية التى تنتقل بالقصة من مرحلة إلى مرحلة حتى تنتهى بالحقيقة التاريخية ، التى هى فناء قبيلة بنى عبس وخروج قيس بمفرده هائماً فى صحراء الجزيرة .

ولعل أجمل الشخصيات التاريخية التى صورها المؤلف تصويرا قصصيا ممتازا، وشاركت مشاركة فعالة فى إحكام بناء السيرة هى شخصية عبلة ، ومن أحاط بها كأبيها وأخيها وعشاقها وخطابها العديدين . فعبلة — بجمالها — هى التى تدفع عنترة إلى السعى وراء المجد والشهرة فى المرحلتين الأولى والثانية من السيرة ، وعبلة — بدلالها — هى التى تدفعه إلى ترك القبيلة مغضبا ، فى المرحلتين الثالثة والرابعة ، ثم أن الرغبة فى حمايتها والذود عنها هى التى بنت ذلك المشهد الدرامى الرائع الذى يختم به عنترة حياته .

وهكذا نجد أن مؤلف السيرة قد اختار لها شخصيات مكملة من تلك التى لها دور تاريخى حقيقى فى حياة عنترة ، حسب مقتضيات موضوع السيرة ، وأنه شكل هذه الشخصيات وطوعها ، لتعمل متساندة فى أحكام البناء القصصى لعمله الروائى مع محاولة الاحتفاظ لها بدورها المعروف تاريخيا وزمنيا .

وهناك شخصيات تاريخية أخرى لم يكن لها دور واقعى فى حياة عنترة بل وربما اختلفت معه — من حيث الوجود — زمنيا ومكانيا ، ومع ذلك فقد استعملها المؤلف وأوجد لها دورا فى روايته رغم استحالة حدوث ذلك تاريخيا. وربما كان هدف المؤلف من هذا العمل ، هو تأكيد الواقعية التاريخية لقصته باستغلال أسماء ذكرها التاريخ ، ووقرت فى أذهان الناس من ناحية ، ثم تحقيق الأهداف التى يريد أن يصل إليها بطله من ناحية أخرى ، وايهام المتلق بأن مايورده من أحداث تتسم بميسم الحقيقة ، وذلك إذا ما كانت الأطراف المشتركة فيها لها واقع تاريخى حقيقى .

فعنترة الفارس ، لكى يتبوأ مكان الصدارة فى الفروسية ، يجب عليه ان ينازل جميع الفرسان الذين عرفهم تاريخ الجزيرة العربية بصرف النظر عن مكان وجودهم وزمانه . ففى المرحلة الأولى من حياة عنترة نراه يلتقى بعروة بن الورد من فرسان العرب المعروفين تاريخيا وبرستم من فرسان العجم المعروفين تاريخيا كذلك ، ويصف لنا المؤلف هذا اللقاء وصفا قصصيا مطولا . وما أن تبدأ المرحلة الثانية من مراحل حياة عنترة — وهى مرحلة الفروسية — حتى يعدد لنا المؤلف أسماء سبعين فارسا من فرسان العرب والعجم والروم والأحباش — معظمها أسماء ذكرها التاريخ — ليقول أن بطله التقى بهم وقهرهم جميعا [١] .

وعنترة الشاعر لكى يحصل على امارة الشعر ويعلق قصيدته على الكعبة ، لا بد له أن يلتقى بجميع شعراء الجزيرة العربية لا سيما أصحاب المعلقات، ويجب أن يبزهم لا فى قول الشعر واتقان علوم العربية فحسب ، وإنما فى الفروسية واستعمال السلاح كذلك[٢] .

وعنترة الفاتح الذى يسير على رأس جيش وأسطول بحرى يفتح العالم بلدا بعد بلد ، يجب أن يلتقى بالملوك الحقيقيين لتلك البلاد . فهو بعد أن التقى بكسرى وقيصر اشرك معه « هرقل » — ابن قيصر — فى غزو جنوب أوروبا وشمال افريقيا ، ثم التقى بهرمس فى الاسكندرية وبالنجاشى فى الحبشة . ويقول الدكتور فؤاد حسنين على أن « حضرموت » فارس ايران المشهور الذى هزمه عنترة هو « بوهيمند Bohemund » الفارس المعروف تاريخيا ،[٣] وان « جوفران » ابن عنترة من مريم التى أهداها إليه قيصر هو فى الواقع أحد فرسان الحروب الصليبية المسمى « جودفراى Godfrey » [٤] .

---

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٥١
(٢) السيرة مجلد ٥ ص ١٤٨
(٣) قصصنا الشعبى ص ٧٥
(٤) قصصنا الشعبى ص ٧٦

ثم أن هناك جوانب أخرى للفروسية يجب أن يستكملها البطل عن طريق إتصاله بمنابعها التاريخية الحقيقية . فإذا ما أراد المؤلف أن يؤكد له صفات الكرم والشهامة ، جعل له فضلا على أشهر كرماء العرب « حاتم الطائى » عن طريق اتصال مباشر به . وإذا ما أراد المؤلف أن يؤكد لبطله الحكمة والقيادة الفكرية جعله صنوا لشيخ العرب دريد بن الصمة وصديقا له ، وإذا ما أراد أن يحقق له أخطر أهداف السيرة بتحديد مكانه من الدين الإسلامى ، وإيجاد دور له فى الرسالة المحمدية ، جعله يتصل اتصالا مباشرا بعبد المطلب — جد الرسول — ويشترك معه فى رد حملات الهنود والأحباش عن الكعبة ، وإذا ما أراد أن يجعل منه حاميا للجزيرة العربية ضد الغزوات الأجنبية أشركه فى موقعة ذى قار الشهيرة — عن طريق غير مباشر — فجعل من بطلها الحقيقى « هانىء بن مسعود » صديقا لعنترة وجنديا من جنوده .

فالمؤلف فى اختياره لهذه الشخصيات جميعا يعتمد على التاريخ ولكن بشكل يختلف عما اصطنعه فى الشخصيات السابقة ذات العلاقة التاريخية المباشرة بحياة عنترة ، والتى كان تاريخها الزمانى والمكانى يسمح بإتصاله بهم ، أما هذه الشخصيات التاريخية الجديدة فلا يربطها بعنترة أى رابط المهم إلا رغبة المؤلف فى استغلالها لتأكيد مفاهيم معينة ، وتحقيق أهداف يتطلبها البناء القصصى ، بالإضافة إلى محاولة زيادة الإقناع بما لروايته من واقع تاريخى .

ثم يستمر البناء القصصى فى نمائه ، بما يتطلب خلق شخصيات تناسب المواقف القصصية التى يوردها المؤلف دون أن يكون هناك أى إتصال بينها وبين الواقع التاريخى ، وهنا تتجلى براعة الكاتب فيما يظهر من قدرة فائقة على التأليف القصصى وحسن تفهمه لمقتضيات الخلق الدرامى . فهو حين قدم أحداثا تاريخيا ثابتة استغل فيها الشخصيات التاريخية الحقيقية التى لها إتصال بالبطل وبموضوع السيرة ، وحين قدم أحداثا قصصية لها علاقة بالشخصية التاريخية للبطل ، ولها

دور فى بناء تلك الشخصية ، وتطويرها ، استغل شخصيات تاريخية كذلك وان كان لا يربطها بالبطل الواقع الزمانى والمكانى ، أما حينما حاول تقديم أحداث قصصية درامية لا علاقة لها بالتاريخ ، وإنما أتت لمقتضيات البناء الفنى وحده اتجه فى اصطناعه لشخصياتها اتجاها آخر هو الاتجاه الرمزى الذى يؤكد المضمون الدرامى ، ويحقق قوة التأثير وينقل المشاعر الإنفعالية إلى المتلقى .

فامتداد عنترة — بعد وفاته — يجب ان يأخذ جميع السمات التى كانت له حتى يكون امتدادا طبيعيا وحتى يعطى التأثير المطلوب ، ولن يوحى بهذا الإمتداد أكثر من اسم يحمل سمات الإمتداد فى الأحرف والتركيب والايحاءات الصوتية . لهذا نجد أن المؤلف قد أطلق على ابنة عنترة اسم « عنيترة » ليعطى تشابه الاسم ايحاءات لتشابه الشخصية وتشابه الحياة . ومثل هذا يقال فى اختيار المؤلف للاسم الذى أطلقه على ابن شيبوب (أخى عنترة) والذى حمله جميع سمات أبيه بل وجعل دوره فى الرواية — بالنسبة لعنيترة — هو نفس الدور الذى كان يقوم به أبوه شيبوب لأبيها عنترة ، ولهذا فقد أطلق عليه اسم « الخذروف » .

وتتواتر فى السيرة هذه الأسماء الموحية التى تحمل الرمز الكامل لدورها الدرامى فى القصة ، فملك السودان اسمه « لون الظلام » (١) ، وقائد النصارى الذى أراد أن يهاجم الكعبة اسمه « كافر بن فاجر » (٢) ، والسلال الذى سرق الأبجر — فرس عنترة الأثير — اسمه « المختلس بن ناهب » (٣) ، وفارس الأحباش يدعى « عبد زنجير » (٤)، بينما يدعى أمير السواحل الجنوبية « عقريب السواحل » (٥) . أما الفرسان الذين هزمهم عنترة وهو فى أوج مجده الفروسى فنهم « محارب بن جيشان » ، ومنهم « معاوية بن النزال » ، فى حين أن صديق عنترة الحميم وزميله فى السراء وفى الضراء يدعى « مقرى الوحش » .

فاختيار المؤلف لهذه الأسماء الرمزية الموحية التى تكاد تحمل — فى ذاتها -

كل المعانى الدرامية التى يريد أن يحملها للحدث والتى هى فى نفس الوقت بعيدة عن الأسماء التاريخية المعروفة أتت لتدل على أن الكاتب يعطى هنا أحداثا غير تاريخية تخيلها هو واصطنعها ليكمل بها البناء القصصى وليستفيد منها فى تطوير شخصية بطله ورسم الصورة التى تصورها له ولأطوار حياته .

من هذا نستطيع — فى بساطة — أن نفرق فى سيرة عنترة بين الشخصيات التاريخية الحقيقية التى لعبت دورا أساسيا فى حياة البطـــل ، وبين الشخصيات التاريخية التى استعارها المؤلف ليكمل الصورة التاريخية له ويبرز سمات وملامح معينة شاء أن يضفيها عليه ، ثم بين الشخصيات المكملة التى انشأها المؤلف انشاء تخيليا استجابة لمقتضيات البناء القصصى واستكمالا للصورة الروائية التى أراد ان يرسمها لعنترة .

ولا يقتصر حذق مؤلف السيرة على حسن اختياره للشخصيات وعمق فهمه لأدوارها فى روايته التاريخية (حتى بمفهوم النقد المعاصر لها) وإنما يتعداه إلى حسن اصطناعه لتلك الشخصيات والسير بها فى نمـاء قصصى ممتاز . وقدوضحت لنا مظاهر هذا الحذق ، حينما تتبعنا نماء الشخصية الرئيسية فى الرواية — وهى شخصية عنترة — بحيث أمكننا فى يسر مسايرة الكاتب منذ أول خلقه للشخصية ثم تطوره بها حتى نهايتها ، وبعد ذلك فى امتداداتها وارهاصاتها . وقد تم له إحكام بناء تلك الشخصية بواسطة الخطوات المتعاقبة المتناسقة التى سار بها ، وبواسطة المراحل المتتالية والمتساندة التى اصطنعها بحيث كانت كل مرحلة من مراحل بناء شخصية عنترة ، تؤدى إلى المرحلة التالية لها أداء طبيعيا مقبولا ، كما كانت كل مرحلة من تلك المراحل تعتمد اعتمادا كليا على المرحلة السابقة لها وتتعاون معها لتقودنا إلى المرحلة التالية لها ، وهكذا .

والذى رأيناه فى بناء شخصية عنترة نجد مثله فى بناء معظم شخصيات السيرة ،

فاذا تتبعنا أى شخصية من تلك الشخصيات وجدنا أن المؤلف يقدمها لنا — أول الأمر — فى مكانها الطبيعى المناسب ، ثم يستمر ينميها نماء قصصيا سليما ومسايرا للبناء العام حتى يصل بها إلى القمة الدرامية ، دون أن نحس فيها بأى نقص أو إنحراف أو اهتزاز ودون أن يفقد الكاتب الخيط الذى يربط الشخصية بأحداث القصة (التى تبلغ نيفا وأربعة آلاف صفحة) مهما طالت الفواصل بين مواضع ظهور تلك الشخصية ومهما صغرت المواقف التى تظهر فيها . فشداد — أبو عنترة — الذى يأخذ دورا رئيسيا فى الفصول الأولى من الرواية ثم يستخفى إلى حين ، يظل محتفظا بشخصيته وبالسمات المميزة له حين يظهر بعد ذلك فى الفصول الأخيرة . ومثل هذا عروة بن الورد الذى يظهر ويختفى بين الحين والحين ودون حدوث أى اهتزاز فى شخصيته ودون أن ينسى المؤلف أى لمحة أو سمه من اللمحات والسمات التى أضفاها عليه من أول الأمر .

ولعل شخصية عبلة أن تكون هى الشخصية المثالية فى تبيان مدى كفاية المؤلف واتقانه عملية بناء الشخصيات وانمائها . فعبلة فى أول السيرة فتاة مدللة تستهوى الرجال وتقودهم إلى حبها وتبذر الشوك فى طريق ذلك الحب ، وهى الفتاة العربية التى تخضع لأوامر أبيها دون اعتبار لما يمليه عليها قلبها . وحينما يفوز بها عنترة تصبح عبلة الزوجة الوافية العاملة على اسعاد زوجها ، ولكن تدللها لا يلبث أن يظهر فى صوره أخرى ، تدفع بعنترة إلى الغضب منها وهجرها وهى فى نفس الوقت المرأة العربية التى تحتاج دائما إلى سيف رجلها ليدافع عنها فهما تركها إلى غيرها من النساء فانه لن ينسى أن من واجبه حمايتها . حتى ولو دفع حياته ثمنا لذلك . فاذا ما بلغنا نهاية القصة عاودتنا عبلة المتدللة ، ولكن تدللها هذه المرة يكون السبب فى نهايتها ، إذ لا يحتمله عامر بن طفيل ، فيقتلها ويقتل معها أباها وأخاها .

وهكذا نحس الترابط القوى فى مراحل نماء شخصية عبلة ، كما أحسسناه فى

مراحل بناء شخصية عنترة ، وكما يتوافر فى بناء كافة شخصيات السيره التى لو أننا تتبعناها شخصية . شخصية لما شذت واحدة منها عن المنهج السليم الذى اصطنعه مؤلف السيرة فى بناء الشخصيات ونمائها .

وهناك ظاهره ثالثة نلمحها فى شخصيات السيرة — بعد حسن اختيارها وحسن نمائها — هى سلامة الربط بينها وبين الأحداث . فكل شخصية اصطنعها المؤلف أظهرها فى الوقت المناسب والمكان المناسب ، بحيث يتم التناسق بينها وبين الحدث الذى تتفاعل معه لبناء الكيان القصصى العام — فشيبوب مثلا الذى تقتضى الأحداث ملازمته لعنترة يستمر ظهوره فى كل فصل من فصول السيرة بينما شداد يستخفى بعد الفصول الأولى ليعاود الظهور فى الفصول الأخيرة، حين تبدو حاجة عنترة اليه فى شد أزره وتجميع القبائل حوله لدفع الخطر عن الكعبة وعروة بن الورد يصبح جنديا من جنود عنترة منذ بدأ القصة حتى نهايتها بينما لا يلتقى عنترة بهانىء بن مسعود إلا قبيل موقعة ذى قار ليترك له فرصة التربع على عرش ذلك اليوم من أيام العرب — طبقا لأحداث التاريخ — ثم يضمه بعد ذلك إلى عداد جنده واتباعه . وشعراء المعلقات يلتقون بعنترة مرتين ليقرروا نجاحه فى حيازة السيف والشعر جميعا ، ويوافقوا على تعليق قصيدته فى الكعبة بينما لا يلتقى عنترة بحاتم الطائى إلا مرة واحدة ليعترف له بالفضل ، أما الشيخ عبد المطلب فيكرر لقاء عنترة به كلما حزب الجزيرة العربية أمر من الأمور وتعرضت لتهديدات كافر أتى يريد السوء بكعبتها المقدسة .

وأوضح مظهر لمدى الترابط بين شخصيات السيرة وبين الأحداث التى تتحرك فيها هو ظهور زبيبة — أم عنترة — فى أول السيرة ، حيث ينتهى دورها بخروج عنترة من حيز الأقليمية القبلية إلى ميدان الفروسية الدولية ، ثم لا تلبث أن تظهر بعد منتصف الرواية تقريبا ، حينما يلتقى عنترة بالأحباش ، لتلعب زبيبة

دورها فى الربط بين عنترة وبين جدها النجاشى ، مؤكدة علاقات الود والترابط بين العرب والأحباش ومثبته لسلامة نسب عنترة من جهة أمه كما أثبتتهاله من جهة أبيه بامتناعها على بقية الفرسان المصاحبين لشداد فى أول الرواية .

وهكذا نجد أن مؤلف السيرة قد أجاد أيضا فى تحريك شخصيات روايته ، وفى الربط بينهم وبين الأحداث ، بحيث يتفاعلان معا لينتجا البناء القصصى السليم وليحققا المضامين التى هدف اليها من وضع سيرته ، وهى المضامين التى سوف تتحدث عنها فى الفصل التالى .



هذا من حيث الشخصيات الفردية فى السيره ، أى الأشخاص الذين لهم دور ذاتى يلعبونه بأسمائهم المحددة ووجودهم الفردى . فاذا انتقلنا إلى الشخصيات العامة ، أى مجموع الأشخاص الذين تتطلب الاحداث وجودهم فى المواقف المختلفة كجزء مكمل للصورة التى يرسمها المؤلف ، كان أهم مايعنينا هو ملاءمتهم للموقف الذى يلعبون دورهم فيه من ناحية ، وصدق تعبيرهم عن البيئة التى يجرى فيها الحدث من ناحية أخرى .

وسيرة عنترة تنتقل بأحداثها فى أكثر من بيئة ، وتتناول أكثر من مجتمع. فهى لا تقتصر على الجزيرة العربية — رغم اختلاف مجتمعاتها من بدو فى الشمال ويمنيين فى الجنوب ، ويهود ومسيحيين — ولكنها تنتقل إلى بلاط كسرى مرة ، وإلى بلاط قيصر مره أخرى ، ثم تحملنا معها إلى بلاد الأحباش والسودان وتجوب ممالك جنوب أوروبا وشمال أفريقيا ، وتصف جيوش الهند وجنود الجن . والمؤلف لا يقتصر فى تصوير هذه المجتمعات المختلفة المتباينة فى صورة واحدة وإنما ينقل الينا أوجهها المختلفة ، فهو حين يأخذنا إلى بلاط قيصر مثلا يصور لنا مجتمعه من زوايا شتى فيرسم لنا صوره للحياة العامة فى قصر قيصر وفى

قصور غيره من الأمراء ، ثم ينتقل مع بطله عنتره إلى السجن مره وإلى حلبات المصارعة والترفيه مره أخرى ، ثم إلى تجهيز الجيوش ثالثة ، يضاف إلى هذا تصويره للمواقع الحربية ومواقف المبارزه والقتال التى تختلف من بيئة لبيئة ومن شعب لشعب .

وأظهر ما تدل عليه السيرة هو أن مؤلفها على علم واسع بمعظم البيئات التى أجرى فيها أحداث روايته ، وعلى معرفة عميقة بمجتمعاتها وأوصاف أهلها وعاداتهم وتقاليدهم ، كما أنه على خبره تامة بمواقفهم من العرب — او على الأصح — بموقف العرب منهم سواء قبل الإسلام أو بعده . وكذلك فان الصدق الفنى والواقعية والوصف المستند إلى الحقائق الجغرافية والطبيعية يبدو بوضوح فى كل ما يكتبه عنهم فاذا ما انتقل إلى اماكن خيالية كأرض الجن والغيلان فى تصويرها ورسم لها أشكالا تدل على ما يتمتع به — كمؤلف — من أو إلى مناطق لا خبرة له بها مثل مجاهل بلاد السودان اعتمد على خياله فى تصويرها ، ورسم لها أشكالا لا تدل على ما يتمتع به — كمؤلف — من تصور واسع وخيال عريض يسعفانه بما يريد وبما يتلاءم ملاءمة تامة ابرازها من وراء ذلك .

ولعل أبرز ما يوضح لنا دقة هذا المؤلف فى رسم الشخصيات العامة فى البيئات المختلفة ، هو اختياره لصفة — او مجموعة من الصفات — تبين شخصية القوم وتدل عليهم دلالات واضحة . فنحن نجد مثلا ان اول صوره اعطاها للقارىء عن بلاط كسرى تتناول الدسائس والمؤامرات المتفشية فيه ، والتى يحيكها رجال القصر والاتباع بعضهم لبعض ، ثم هدف المؤلف إلى اثارتنا ضد هذه الأوضاع بأن اظهرنا على دسيسة حاكها اتباع كسرى للملك العربى « المنذر » ليوقعوا بينهما ويثيروا حفيظة كسرى عليه .[1] وحينما تنتقل القصة إلى حصن

---

(١) السيرة ـ مجلد ١ ص ٢٤٦

خيبر حيث يقف عنترة أمام سكانه اليهود يبنى المؤلف جميع معاركهم ضده على أسس من الغدر ويجعل كل أحـــداث هذا الجزء من القصة تجرى بسبب خياناتهم وحنثهم بالوعود . [١] وعندما بلغ مصر ، قدم لنا صورة لم يسبق لها مثيل فى القصة هى وصفه لسير ركب عنتره فى طرقات الاسكندرية وخروج سكانها لتحيته .. « وقد علت منهم الزعقات ، وأكثروا من الصياح والضجات ، والناس صاروا من أعالى الأسطحة يتفرجون على شجيع عبس وذبيان . [٢]

ومما يدل على المام المؤلف بالمعالم العامة لـكل بيئة من البيئات التى أجرى فيها أحداث قصته ، وعلى المظاهر المميزة لـكل شعب من شعوبها أنه اختار أبرز تلك المعالم فى كل اقليم وصوره فى قصته تصويراً دقيقا رائعا فمن البيئة البدوية فى الجزيرة العربية تخير المؤلف صورتين بارزتين رسم لـكل منهما لوحة كاملة : الأولى هى صورة الاجتماعات الأدبية ومجالس المطارحات الشعرية والمعارضات القولية [٣] ، أما الصورة الثانية ، فيرسمها فى أواخر القصة مبينا طريقة أخذ الثأر من أسرى الأعداء [٤] فاذا انتقلنا إلى بلاط كسرى أو قيصر ، أو حتى بلاط النعمان ، فلا مكان للاجتماعات الأدبية التى يحل محلها لون آخر من الرياضة الجماعية هو حلبات المبارزة واختبار قوى الفرسان ثم ما يعقبها من حفلات سمر وطرب وشراب .

ولما كانت العادات الفردية مظهرا من مظاهر تحديد الشخصية الجماعية كذلك، فان مؤلف السيرة لم يهمل إبراز هـذا الجانب . لهذا كان فى كل لقاء يجريه بين عنترة وبين فرسان بيئة من البيئات يصف لنـا — فى دقة وتعمق — طريقة ذلك الفارس فى لقاء خصمه ، والأسلوب الذى يتبعه فى النزال ، كما يصف نوع

---

(١) السـيرة ـ مجلد ٥ ص ٢٣٢
(٢) السـيرة ـ مجلد ٨ ص ٩٠
(٣) السـيرة مجلد ٤ ص ١٠.
(٤) السـيرة مجلد ٦ ص ٧٣

السلاح الذى يحمله وطريقته الخاصة فى استعماله ، بحيث اصبحنا نستطيع بسهولة أن نميز بين طريقة قتال الفارس العربى والفارس العجمى والفارس الرومى وفرسان اليمن والجنوب . ثم أن المؤلف كان يتحرى أن يضيف إلى كل لقاء من تلك اللقاءات بعض الأحداث الصغيرة أو المحاورات القولية، التى توضح جوانب شخصية ذلك الخصم وتعكس صورة لبيئته وقومه تساعد على تحديد شخصيتها العامة.

وقد فطن المؤلف فى السيرة كذلك إلى مظهر من أهم المظاهر التى تحدد شخصية الشعوب ، ونعنى به نوع الملابس وألوانها ووسائل التأنق فيها ونوع الزينات التى يصطنعها الأفراد ويقبلون عليها . ولهذا وجدناه كلما انتقل إلى بيئة جديدة أو أجرى مبارزة بين عنترة وبين فارس أجنبى تعمد وصف هيئته وملبسه ومظهره.

بهذه اللمسات الناجحة استطاع مؤلف السيرة أن يرسم صـــوراً دقيقة للشخصيات العامة ، لا تقل فى اتقانها وفاعليتها عن تلك التى رسمها للشخصيات الفردية فى روايته ، وبحيث تتعاونان معا فى تشييد بناء قصصى سليم يجعل من سيرة عنترة عملا أدبيا قد توافرت له جميع الأركان الفنية .

المضامين

حسمت السير الشعبية بعامة موقفها من العمل الفنى ، إذا بنيت منذ أول نشأتها على وجود هدف أو أكثر تخدمه بما تسوق من أحداث وبما تسرد من أفعال وأخبار ، وقد حدد هذا — إلى حد كبير — كون السيرة عملا تقصد به الجماهير ، إذ أن الصورة التى تعرفها عن المتلقين أنهم جماعة يستمعون إلى راو ، فكان لابد لهذا الراوى — كى يستحوذ على اسماعهم — أن يمس من المشكلات مايرضيهم ويتجاوب مع مشاعرهم ، وكان لابد له كذلك أن يعبر عن وجهة نظرهم وأن يقف بأحداث سيرته وأخبارها موقف المعارك لما يعارضون والمؤيد لما يؤيدون. وهكذا نجد أن مشكلات العصر قد أطلت برأسها فى هذه السير الشعبية .

وقد حملت لنا كتب الأدب من الروايات ما يقرر أن سلطات حاكمة فى عصور بذاتها قد املت بعض هذه القصص أو أوحت بها لتحمل من الآراء والمعتقدات مايوجه الجماهير المتلقية الوجهة التى يريدون، وقد ذهبنا نحن إلى نفس هذا الرأى ولكن بصورة عكسية هى مناهضة السلطات الحاكمة الدخيلة والوقوف فى وجه تعسفها وجورها ، والواقع أن الاعتماد على السير الشعبية فى تغليف الإتجاهات السياسية وتثبيت عصبيات بعينها وتبرير أوضاع بذاتها عمل يتفق مع امكانياتها الضخمة ، وطبيعة انشائها وتلقيها . ولهذا فإنه ليس من الغريب حين تدرس سيرة ما أن نسأل ونحن نتتبع الأحداث المثيرة التى تتضمنها : ماذا وراءها ؟

وسيرة عنترة تثير هذا السؤال بحكم ما اختارته من شخصيات ، وماتتحرك فيه من بيئات . فالشخصيات التى وردت فيها تعكس دفاعا عن أكثر من قضية، والبيئات التى جرت فيها أحداثها ، تضع الإجابة لاكثر من سؤال يتردد عن الصراع بين العرب وغيرهم من الشعوبيين . فلا شك أن هـذا الاخبار إذن كان

يستهدف مضامين سياسية بذاتها ، تلح على العصر الذى كتبت فيه ، كما تلح على أهل هذا العصر الذين احتفلوا بسيرة عنترة كمخرج فى الكثير من مشكلاتهم .

حظيت معظم قبائل العرب بذكر خالد بعد الإسلام لإرتباطها بأكثر من بطل ، لعبوا أدوارا هامة فى نشر الدعوة المحمدية ، ولكن قبيلة عبس كان حظها ضئيلا — أو معدوما —[1] ولا يأتى ذكرها إلا داخل قبيلتها الأم « ربيعة » . ومن الطبيعى حين يتفاخر الناس بعد الإسلام بمشاركتهم فى الدعوة، ان يبحث بنو عبس عن سند يعتمدون عليه فى أن يكونوا اصحاب حق فى الدعوة الجديدة، ولهذا اخذ العبسيون يبحثون فى تاريخهم فوجدوا أن أظهر شخصيات تقلها التاريخ الجاهلى إليهم هى شخصيات عنترة وزهير الملك وقيس ابنه وعروة بن الورد . وقد اشتهر زهير وابنه قيس بالحكمة واصالة الراى ، واشتهر عروة بالشعر والفروسية وبجماعة الصعاليك التى كان يتزعمها حتى لقد اطلق عليه « عروة الصعاليك »[2] أما عنترة فلعله الوحيد فيهم الذى نقل التاريخ عن حياته مايصلح ان يكون مجالا لعمل قصصى بل وان يكون مجالا للدفاع عن اكثر من قضية .

وحين اختار واضع السيرة شخصية عنترة ليجعل منه بطلها وليدير الأحداث حوله ، استغل الشخصيات الباقية جميعاً ، لتلعب ادوارها فيما يسوق من احداث ولتسهم بسماتها ومآثرها فى إبرز القضايا التى يدافع عنها وتأكيد المضامين التى يريدها .

وهكذا استطاع مؤلف سيرة عنتره ان يجعل لقبيلة عبس مكانا فى التاريخ وان يخلق لها كيانا يصلح ان يكون بيئة إجتماعية فيها الخير عند عنترة وفيها الشر عند الربيع بن زياد ، فيها النجدة عند عروه وفيها الرأى الحكيم عند قيس وعند زهير . واستطاع المؤلف ايضاً ان ينمى هذه البيئة ويبعث فى مجتمعها

---

(١) معجم قبائل العرب لعمر رضا كحلا ج ٢ ص ٦٨٩ « وربما يعود هـذا لانتهاء تكتلهم قبيل الاسلام . اذ فنى منهم من فنى ولجأ من بقى الى قبيلته يحاول الحاق نفسه بها » .

الحياة بحيث لا تصبح مجرد خلية من خلايا المجتمع العربى القبلى بل يجعلها أهم خلايا هذا المجتمع قاطبة ، تدور حولها الأحداث وتتصارع فى سبيل رفعتها مجموعة من الأبطال العبسيين على رأسهم عنترة ، بل وتتكتل القبائل العربية - التى عرفها التاريخ والتى استمرت بعد ذلك تسهم فى الأحداث الاسلامية — لتقضى على قبيلة عبس فتنجح مرة وتفشل أكثر من مرة ولكنها فى كل مرة تؤكد أهمية هذه القبيلة وقيمتها فى تاريخ الجزيرة العربية .

وحين نشهد هذا الجهد الكبير الذى يبذله المؤلف لتثبيت قيمة هذه القبيلة نحس أن جزءاً كبيراً من أهدافه ، يكمن فى تأكيد مركز القبيلة خاصة حين نجده يعلن أن عنترة ماظهر إلا لأمر تريده القوة الغيبية الكبرى ، ادخرته له وزودته بالفروسية الخارقة ليحققه وأمدته — فى سبيل ذلك — بقدرات خارقة غير عادية إذ يقول المؤلف أن « عنترة كان فيه سر خفى لايعلمه إلا الذى ركبه فيه ، هذا أنه كان إذا انتهى به التعب مع خصمه من شدة القراع وانفصلا عن بعضها البعض وصار بينهما من الاتساع باع أو ذراع زال عنه تعبه ، واستمد بقوة الله عصبه ، وكأنه لم كان ، ويشتاق إلى الحرب والطعان كما كان فى أول الحال »[١] .

ويضيف مؤلف السيرة أن السبب فى هذا التأييد المادى الذى أيده به الله سبحانه وتعالى هو أن العرب فى الجاهلية (كانوا يعبدون الأوثان ولايخافون الله ولايراقبونه ولايخشونه ولايحترمونه »[٢] ، فأراد تعالى اهلاكهم « وقهرهم بأقل الأشياء عليه ، وأحقرهم لديه ، وكان ذلك غير عسير عليه ، وذلك بالعبد الموصوف بأنه حية بطن الواد ، الذكى الفؤاد ، الطيب الميلاد ، عنترة بن شداد الذى كان فى زمانه شرارة خرجت من زناد، فقمع الله به الجبابرة فى زمن الجاهلية حتى مهد الأرض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية »[٣] .

---

(١) السيرة ـ مجلد ٦ ص ٣٩٦
(٢) السيرة ـ مجلد ١ ص ٤
(٣) السيرة ـ مجلد ١ ص ٥٠٤

فالمسألة إذن ان رسالة العبسيين — ممثلة فى عنترة — كانت تمهيد الجزيرة العربية للدعوة الجديدة ، وكانت القضاء على الجبابرة من الفرسان العرب الذين قد يعوقون انتشار الدين الاسلامى . وقد حرص المؤلف على ايراد الأبطال والفرسان الذين اشتهر أمرهم فى المعارك الاسلامية وليقوموا بدور فى السيرة ، إما كأعداء لعنترة يقفون منه نفس الموقف الذى وقفوه من الاسلام فيما بعد مثل ذى الخمار وغيره ، وإما كأصدقاء مؤيدين لعنترة وهو نفس الموقف الذى وقفوه من الدعوة الاسلامية ، مثل دريد بن الصمة .

وهكذا نجد ان المؤلف حريص كل الحرص على أن يثبت فى الأذهان ان العبسيين وان لم يقوموا بدور فى الاسلام فقد خدموا الاسلام فعلا بالتمهيد له ، بل انه يحرص فى نهاية السيرة على أن يذكر أن أولاد عنترة وعلى رأسهم غنيترة والخذروف بن شيبوب قد أسلموا على يد الرسول وحاربوا فى صفوفه واستشهدوا فى غزواته ، وزاد على ذلك أنهم جمعوا للرسول من تبقى فى الجزيرة من بنى عبس فى شبه كتيبة عبسية اسلامية محاربة[1] .

وثمة ملحوظة أخرى تلفتنا إلى هذا الجهد الذى يبذله المؤلف لتثبيت مكان قبيلة عبس ودورها فى الدعوة الاسلامية تلك هى خلقه للعلاقة بين عنترة وبين عبد المطلب — جد النبى — تلك العلاقة التى تقوم على الاحترام المتبادل والطاعة من جانب عنترة والتأييد من جانب عبد المطلب فى موقعة ذى قار ، وفى تعليق قصيدته على الكعبة ثم فى استدعاء عبد المطلب له ليرد عن الكعبة غزاتها من الهنود والروم النصرانيين .

والمؤلف يلجأ إلى وسيلة أخرى لتثبيت هـــذا المعنى تلك هى الصورة الاستعلائية التى ظهر بها عنترة على فرسان الروم والفرس وغيرهم من الأمم التى حاربها الاسلام بعد ذلك وانتصر عليها ، وكأنما يريد أن يقول أن هذا الفارس

---

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ٣٥٠

العبسى ، وقد واجه أعداء الدعوة الاسلامية من قبل فأذلهم وانتصر عليهم وبث فى قلوبهم الرعب من فرسان العرب المسلمين بعد ذلك .

يمكننا إذن أن نعتبر قضية عبس — كقبيلة — واحدة من القضايا السياسية التى تبناها مؤلف السيرة . ورب قضية أخرى لها الصبغة السياسية أيضا ، هى دفاع عن موقف أهل الجزيرة الشماليين من أهل اليمن الجنوبيين . ولعلنا نفترض لقيام هذه القضية سببين : السبب الأول هو ان أهل اليمن لهم من التاريخ والحضارة والعراقة ما يجعلهم يستندون فى فخرهم وتثبيت مكانتهم إلى رصيد كبير من الأبطال الأسطوريين والتاريخيين معا — فمنذ عرف العرب الأساطير وهم يرددون أسماء الملوك من التبابعة كمظهر من مظاهر القوة والعظمة وعنوان على السيطرة ورفعة الشأن ، فلتبع الأول حكايات كثيرة هزم فيها الممالك من حوله وقضى على الأعداء الذين نازعوه الانفراد بحكم العالم المعروف آنذاك[1]، وإلى جوار اسمه وضعت الأساطير أسماء تبع الأوسط « شمر برعش » وتبع الأصغر والملك الصخر ذو القرنين بل وسليمان الحكيم وملكة سبأ[2] ثم حكايات كثيرة عن تهود اليمن وتنصرها تثبت أسماء « ذى نواس » وغيره ، بالاضافة إلى معارك مع الأحباش والفرس خلقت فيما بعد أبطالا أسطوريين مثل « سيف بن ذى يزن » .

أما عرب الشمال فلعل تاريخهم الحقيقى يبدأ منذ الاسلام أو قبل ذلك بقليل ، وحتى من سكنوا الشمال من الجزيرة كالجراهمة والعمالق ، فقد أسندتهم الأساطير إلى أصول يمنية لا شبهة فيها[3] . وحين قدم اسماعيل إلى الجزيرة ليبدأ العنصر الشمالى فيها امتزج بهؤلاء الجراهمة ليدع للأساطير الحق فى أن

---

(١) السيرة مجلد ٨ ص ٣٥٠

(٢) كتاب التيجان لوهب بن منبه

(٣) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٧٦ وما بعدها .

تجعل من عرب الشمال امتدادا جنسيا لعرب الجنوب . ولسنا هنا فى مجال مناقشة هذه الأوضاع كلها ، ولكننا نريد فقط القول بأن عرب الشمال أحسوا بخلو تاريخهم الأسطورى من مجد يستندون اليها فى منافسة عرب الجنوب عراقتهم وأمجادهم ، وحين يجىء عنترة العبسى الشمالى يخوض من المعـــارك ما يرسم لليمنيين — والجنوبيين بصفة عامة — صورة ضعيفة هزيلة يتعمدها المؤلف ، فأبطالهم أمامه يفرون من الميدان ولا يصمدون بالسيف أو فى مباراة بالشعر ، وكلما احتاج إلى مال غزا اليمن والجنوب كأنما هى من البساطة واليسر بحيث تأخذ شكل الغنيمة الباردة ، بل ان بعض الأبطال الذين هزمهم عنترة ، كان يدخل وحده إلى مدينة كبيرة من مدن اليمن فيهزم جيوشها بمفرده ويسوق أمامه ملوكهم فى الأسر وأموالهم فى الغنيمة[١] .

فالمؤلف إذن لا يكتفى بأن يجعل من عنترة بطلا شماليا يشابه أبطال الجنوب المعروفين فى التاريخ والأساطير، وإنما هو يدخل عنترة فى مجال المقارنة والمفاضلة بينه وبين أبطال اليمن ليعلن تغلبه عليهم .

أما السبب الثانى فى قضية دفاع المؤلف عن موقف الشماليين ضد أهل اليمن فهو ما افترضناه من أن سيرة عنترة كتبت بمصر ، ونحن نعلم — مما حكاه تاريخ الفتوحات الاسلامية أن جيش عمرو بن العاص الذى فتح مصر كان يتكون أساسا من اليمنيين[٢] ، ومما لا شك فيه أن هـذه العناصر اليمنيـة كونت دعائم المجتمع العربى فى مصر . فربما كان فى الأمر نوع من العصبية يريد أن يحد من غلواء اليمنيين الذين يعيشون فى مصر مرددين أمجادهم السوالف ومسيطرين على الأجهزة الحاكمة فى مصر وخاصة بعد انتقال الحكم إلى أيدى الفاطميين فلم تعد الدولة تحميهم من لسان القاص وأحداثه المؤلفة .

---

(١) السـيرة ـ مجلد ٤ ص ١٤٣
(٢) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٧٦ وما بعدها .

هذان السببان يجعلان من موقف الشمال العربى عنصرا آخر من عناصر المضامين السياسية لسيرة عنترة بن شداد .

والقضية السياسية الثالثة قضية أكثر عموما من القضيتين السابقتين ، إذ تتعلق بموقف العرب من الشعوبيين من أبناء الأمم الأخرى . وبطل السيرة ، ان كان يمثل أمته فى المعارك الدائرة داخل الجزيرة ، فانه يمثل أمته فى المعارك التى يخوضها مع أعداء الجزيرة والشعوب المحيطة بها . ومؤلف السيرة لا يجعل بطله يخوض المعارك مع دولتى الفرس والروم فحسب، وإنما هو قد أدار معاركه مع الهنود تارة ومع الأحباش تارة ومع الافريقيين والافرنج تارة أخرى ، وهو فى كل ذلك لا ينسى الصدق الفنى ، فيما يحكى إذ نراه حريصا كل الحرص على أن يجعل النتائج التى يصل اليها من رسم اللقاء بين بطله وبين هذه الشعوب تبدو مقبولة ومعقولة . فحين يتعرض للهند يرسم صورة خطيرة لقوة الهنود وغناهم وحضارتهم وأسلحتهم وفنون حربهم[1] ، ولهجته حين التحدث عنهم يملؤها الاحترام والتقدير ، وهو ان أراد أن يؤكد تفوق بطله عليهم ، فانه لا ينسى مكانتهم وقوتهم فينهى حرب العرب معهم صلحا ورضاء بعد اعترافهم بقيمة فارسه ومقدرته[2] .

أما حين يصطدم عنترة بالأحباش فهو يخلق جوا أسطوريا ضبابيا يتناسب مع جهله بالحبشة وعدم معرفته بحياه أهلها ، بل ان السحر والغيلان لا تظهر إلا فى حرب عنتره مع الأحباش[3] ولكن مؤلف السيره لا يستطيع أن يتجاهل ما نشأ بين الأحباش والعرب بعد الاسلام من تآلف ومودة جعلتهم يذكرون النجاشى بشىء من التقدير المشوب بالحب الذى لعل مرجعه هو موقف النجاشى من المهاجرين المسلمين فى مبدأ الدعوه الاسلامية وقد هيأ هذا الاحترام الفرصة

---

(١) السيرة مجلد ٦ ص ٢٠١
(٢) السيرة مجلد ٦ ص ٢٥٢
(٣) السيرة مجلد ٦ ص ٢٦٠

أمام المؤلف ليخلق نسبا بين عنتره والأحباش ، وليصلح من موقف زبيبة — أم عنتره — وليعيد العبسيين من الحبشة كما عاد المهاجرون المسلمون منها وهم يحملون أطيب الذكريات ويتحدثون عن علاقات النسب التي تربطهم ببلاد الحبشة.

أما موقف مؤلف السيره من الأحداث التي جرت بين عنتره والفرس فهي تعبر — إلى حد كبير — عن موقف الأمة الاسلامية من دعوى الشعوبية التي تزعمها الفرس ، إذ انهـا ترسم صوره للصراع بين العربي كفرد وبين الفـارسي كفرد ، وتؤكد أن عنترة — البطل العربي يفوق أبطال الفرس المعروفين من أمثال « رستم » القائد الفارسي المشهور . ويقف المؤلف طويلا ليدير المبارزات بين عنتره والاعجام الذين يحملون من الأسلحة كل ما هو مهول مخيف ولـكن عنترة يتغلب في كل مرة على « عبدة النار » من فرسان كسرى . بل ان المؤلف يرسم صورة رائعة لتنصيب عنترة — وابنه الغضبان من بعده — سيدا على كل الفرسان في ملك كسرى ، وحين يشتد الأمر بكسرى ويطبق عليه الروم من كل جانب ، لا يجد سوى سيف عنتره . ليفك من حوله الحصار ويشتت المهاجمين ، ويصل الامر عنده إلى أكثر من هذا فحين يثور فرسان من المتمردين على كسرى ويستقلون بأجزاء من ملـكه لا يردهم إلى طاعته غير سيف عنتره[1] .

والمؤلف في هذه الصور التي يرسمها لا يريد أن يجعل من عنترة سيد فرسان دولة كسرى فحسب ، وإنما هو يريد أن يجعل له الدالة على كسرى نفسه ، فـكأنما ملك كسرى الذي يتشدق به أصحاب الشعوبية من سلالات الفرس ما حماه وأقامه إلا سيف عربي لولاه لانهار هذا الملك وانتهى .

ونفس هذا الموقف تماما هو ما يقفه المؤلف من الاحداث التي يجريها مع الروم بحيث يتشابه هرقل مع كسرى في التسليم لعنترة بالفروسية ، وفي الادانة لسيفه العربي ببناء ملـكهم وحفظه من الضياع . ويتلاعب المؤلف بهذا الموقف

---

(١) السـيرة مجلد ٧ ص ٢٦٠

كثيرا ، فحين ينهزم الفرس أمام الروم ، يقف عنترة إلى جوارهم فينتصرون ، وحين ينهزم الروم أمام الفرس ، يقف عنترة إلى جوارهم فيستردون ما فقدوا . وكما ثبت عنترة ملك الفرس فانه يخوض معارك كثيرة فى صف الروم ، ليثبت بها ملكهم فى امبراطوريتهم الواسعة، ويؤكد مكانة الفارس العربى فى كل جزء منها

من هذا يبدو لنا أن المؤلف يدافع عن قضية الشعب العربى أمام العناصر التى دخلت الاسلام من شعوب أخرى تزعم لنفسها عراقة ومجدا دونهما عراقة العرب ومجدهم . وهذه تكاد تكون هى أبرز القضايا السياسية التى عالجها مؤلف السيرة ، إذ انها تبدأ عنده منذ وقت مبكر جدا وتستمر إلى نهاية روايته بينما تنتقل الأحداث دائما لترسم صورة العلاقة بين العرب وغيرهم من الشعوب محددة مكان العرب منهم ومبينة فضلهم وتفوقهم .

المضامين الاجتماعية

كما تحمل سيرة عنترة بن شداد من المضامين السياسية ما يدافع عن قضية العرب أمام الشعوبيين ، فانها إلى جانب ذلك تمثل موقفا اجتماعيا معينا يدافع عن كيان الشخصية العربية . التي وضعها المجتمع الجديد — زمن كتابة السيرة — في غير موضع الصدارة . فالحكام ليسوا عربا خلصا وإنما هم دخلاء استولوا على البلاد من يد الخليفة العباسي صاحب السلطة الشرعية في الدولة الإسلامية . وكان قوام جيش المعز — الذي فتح مصر — جنداً من المغاربة على رأسهم قائد غير عربي هو « جوهر الصقلي » ، كما كان ذلك بتدبير وزير غير عربي — بل وغير مسلم كذلك — هو يعقوب بن كلس اليهودي[1] كما استقدم الخليفة معه شاعره الخاص - غير العربي — ونعني به « ابن هانىء الأندلسي » الذي كان يريد أن يفاخر به شعراء المشرق .[2]

وكان من الطبيعي أن يحتل المغاربة والشيعيون جميع المناصب الرسمية في الدولة من وزارة وقضاء وأمامة وغيرها بعد أن أقصوا عنها أهل البلاد والسنيين ، وبذلك أصبح مكان الصدارة لأنصار الدوله من مغاربة وأتراك وأكراد . بينما تقهقر مكان أهل البلاد الأصليين خطوات كثيرة للخلف . يضاف إلى هذا أن الكثيرين من أهل الذمة (وهم النصارى واليهود) ســارعوا باعتناق المذهب الشيعي واعلان ولائهم له رغبة في الحصول على المناصب والعطايا فعاملهم الفاطميون معاملة تتجلى فيها المحاباة والرعاية [3] .

(١) تاريخ الاســلام السياسي - للدكتور حسن ابراهيم حسن جـ ٣ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٥٢
(٣) المرجع السابق ص ٦١٣

وهكذا نجد أن المجتمع المصرى قد انشطر إلى فئتين متميزتين : فئة الحكام وأنصارهم وأتباعهم ، وهى فئة تتكون من غير العرب الذين احتلوا مكان الصدارة ، وظهروا بمظهر الغاصب المتجبر المستعلى ، واعتنقوا المذهب الشيعى ، وجاهروا بالشعوبية مفاخرين متباهين . أما الفئة الثانية فهى فئة الشعب المغلوب على أمره الذى أتاه من اغتصب منه بلده وبالتالى اغتصب مكانه الممتاز فى مجتمعه فنحاه عن موضع الصدارة واعتبره فئة من العبيد بنى العبيد (١) .

هذه الفئة المستضعفة التى كان لها مجد فزال ، وكان لأهلها المركز الأول فى مجتمعهم فأزيحوا عنه إلى الأماكن الخلفية ، والتى كان منهم الحكام والقضاة والرسميون فأصبحوا زراعاً اجراء ، وفقراء يتحكم فيهم المغاربة والأتراك والأكراد ... هذه الطبقة من المجتمع التى تطرأ عليها مثل تلك المظاهر العارمة المدمرة لا بد أن يعانى أفرادها من الإحساس بالنقص ومن العقد النفسية ، ونحن نجد صدى ذلك واضحاً فى سيرة عنترة الشعبية . فمؤلف السيرة يحمل بطله ترجمات صريحة لتلك الأحاسيس والعقد النفسية التى يعانيها الشعب ثم يجعل عنترة يتخلص منها ويتغلب عليها .

وأول هذه العقد عقدة اللون . فاللون كان هو السمة التى تميز رجال الدولة الجديدة من مغاربة وأتراك عن سـواد الشعب ، وكان هؤلاء يباهون بلون بشرتهم ويعتزون به ويتخذونه مجال مفاخرة على السمر من أبناء البلاد . لذلك نجد أن مؤلف السيرة يختار لبطولتها عبد أسود اللون ، ويخلق له نفس العقدة اللونية التى تجعله فى مكان العبد من سادة يميزهم عنه لونهم . ولكن عنترة سرعان ما يتغلب على هذه العقدة — لا بالنسبه لنفسه فحسب — وإنما بالنسبة للمقاييس العامة والأحكام الصحيحة إذ يستطيع بقوته وشجاعته ، أن يرغم الناس جميعاً

---

(١) الحياة الفكرية والادبية بمصر ـ للدكتور محمد كامل حسين ص ٢٢٥ .

على تجاهل اللون كأساس فى تقييم الأشخاص وفى المفاضلة بينهم ، وأن يجعل من صفات أخرى — غير اللون — المقومات والأسس التى تعمل على رفعة صاحبها أو خفض قدره .

وفى هذه الفترة الزمنية كان أمر الشعوبية قد استفحل فجهروا بمناهضة العرب والحط من قدرهم وقيمتهم الاجتماعية ، وكان أحد سهم وجهه الشعوبيون إلى العرب هو سهم النسب — لا من حيث الأب وإنما من ناحية الأم . وقد سلك الشعوبيون إلى ذلك طريقين أولها الطعن فى النسب الخاص — أى الفردى — وذلك لأن العرب فى الجاهلية كانوا يغيرون على بعضهم البعض فيأسرون الرجال ويأخذون النساء سبايا مردفات على حقائب الابل ويطؤوهن .[1] ولهذا « قالت الشعوبية إنما كانت العرب فى الجاهلية ينكح بعضهم نساء بعض فى غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمث ، فكيف يدرى أحدهم من أبوه ؟ »[2] . والطريق الثانى الذى سلكه الشعوبيون فى ذلك هو الطعن فى النسب العام — أى نسب العرب جميعاً — باعتبار أنهم من ولد « هاجر » وهى جارية . ولهذا نعتوهم ببنى اللخناء فى مقابل بنى الأحرار الذين هم العجم من أولاد سارة الحرة [3] .

وقد تناول مؤلف سيرة عنترة هذه العقدة من ناحيتها كذلك ، فهو أولا يثبت نسب عنترة الفردى مؤكدا أن أباه هو شداد وحده لأن أمه زبيبة امتنعت على رفاقه من الفرسان[4] ولأن قاضى العرب حكم بذلك [5] ، فاذا ماأبى اشراف القبيلة أن يعترفوا بذلك أرغمهم عنترة على إدخاله فى نسبهم والتسليم له بحقه

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٧١
(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٧٤
(٣) العقد الفريد جـ ٢ ص ٧٣
(٤) السيرة مجلد ١ ص ٧٦
(٥) السيرة مجلد ١ ص ٨٠

المشروع فى الإنتساب إلى أبيه شداد ، وبذلك يكون عنترة قد حقق لنفسه النسب الخاص . أما النسب العام فإن مؤلف السيرة يمهلنا إلى ما بعد منتصف الرواية ليعود إلى هذه العقدة فيجلوها بإرجاع زبيبة — أم عنترة — إلى أصل ملكي ودم أزرق نبيل هو دم النجاشي ملك الأحباش [١]. وكأنما يريد المؤلف أن يؤكد أن عدم معرفة أصل الأم السوداء — أو غير السوداء — ليس دليلا على وضاعتها وعدم اصالتها وإنخفاض قيمتها الاجتماعية .

ويلجأ المؤلف إلى حيلة بارعة يرد بها هذا السهم الشعوبى المسموم إلى نحور مطلقيه ، فنراه يعيد قصة عنترة وطريقة ولادته وعدم ظهور نسبه ، فيكررها لأبناء عنترة جميعاً مع فارق واحد ، هو أن الأمهات هذه المرة ليسوا من العرب وإنما هن من الفرس والروم والأحباش والهنديين جميعا . فعنترة يقع على نساء من تلك الشعوب ويتركهن ليلدن أبناء له ينشأون دون أن يعرفوا أباهم ثم يتضح بعد ذلك أنهم ينتسبون إلى ذلك البطل العربى الكبير فيفرحون ويعتزون بهذا النسب ، وكأنما يريد المؤلف أن يثبت أن كل الشعوب — على اختلافها — تتعرض لمثل هذا الموقف ، وأنه إذا ما اعتبرنا هذا الموقف مأخذا من المآخذ فلن ينجو منه أحد على الإطلاق .

ويستمر المؤلف فى مواجهته لدعاوى الشعوبيين الذين أخذوا يفتخرون بانتمائهم إلى دول غير عربية وأن هذه الدول لها من التأصل فى الحضارة المدنية والرقى ، ما لم يصل إليه أولئك البدو المتعربون . وكان بديهيا أن يخلق هذا الموقف للعرب عقداً نفسية كثيرة زاد فى تعقيدها مكان هذا العربى المحكوم فى دولته الإسلامية ، بينما يرجع حكامه بنسبهم إلى شعوب أخرى غير عربية. وقد حل مؤلف السيرة هذه العقدة بإبراز مقدرة عنترة الفائقة على هزيمة كل أعدائه مهما كان نسبهم ومهما كان أصلهم وموطنهم ، فهو يتغلب على أشهر فرسان الروم

(١) السيرة مجلد ٥ ص ٤٢٠

والفرس ، ثم يقتل أعتى ملوك السودان والحبشة واليمن . ثم يزيد المؤلف على ذلك بأن يبرز عنترة فى مظهر المنقذ لعرش كسرى والمقيم للملك قيصر والمتحكم فى ملوك السودان والأحباش والفاتح لجميع ممالك العالم المعروف آنذاك . فعنترة الفارس العربى — الذى هو فى الواقع رمز للجزيرة وللعروبة — قد أقر له أشهر الفرسان المعروفين فى جميع أنحاء الأرض بالغلبة وعلو الشأن ، كما اعترفت له امبراطوريتا الروم والفرس بالفضل وبدوره فى إقامتهما بحد سيفه العربى بعد أن انتصر على فرسانهم ، فأخضعهم وفتح بلادهم ، ثم آزرهم فقضى على جميع أعدائهم وفتح لهم الممالك والبلدان . أى أن هؤلاء الشعوبيين — مهما كان مجدهم — فان فضل إقامته كان للعرب كما أن تقويضه جاء على يد العرب كذلك .

* * *

وإلى جانب هذا فان سيرة عنترة تحمل من المضامين الاجتماعية ما يبين مواقف طبقات المجتمع العربى ومكوناته ونظرة العربى إلى هذه المكونات سواء أكانت معنوية أو مادية . ومن هذه المكونات :—

١ — الدين : والدين فى السيرة دينان ، دين عربى ودين غير عربى ويتمركز مفهوم الدين العربى فى الالتفاف حول الكعبة وسادنها الشيخ عبد المطلب ، أما الأديان الأخرى غير العربية فتختلف بين عبادات غريبة فى بلاد الحبشة والهند والسودان ، والمجوسية عند العجم والمسيحية عند الروم والافرنج . ومؤلف السيرة قد حاول محاولة جيدة لإثبات فضل الدين العربى على غيره من الأديان ، وكأنما هو يبث فى ذلك ارهاصا لظهور الدعوة المحمدية . فعنترة يصادق مسيحيا هو « مقرى الوحش » ، وهو بعد ذلك يتزوج من مسيحيات وينجب أولادا مسيحيين ، ومع ذلك فهم جميعا يتمسكون بالحفاظ على الكعبة ضد من يهاجمها من الشعوب المسيحية . وعنترة قد يوقر المجوس وقد يدخل كنائس النصارى ، ولكنه ما أن يغادر بلاد الفرس والروم حتى يعود إلى الكعبة وإلى الالتفاف

حولها هو واهله . وفى خلال رحلات عنتره المتالية فى مختلف بلاد العالم نحس انه لا يعدل بدين العربى دينا آخر .

هذا الموقف الذى يقفه عنترة من الدين العربى هو فى واقع الأمر مقدمة لازمة لتلك الرسالة الدينية التى زعمها المؤلف لعنترة والتى ربطه فيها بالإسلام كدين عربى يمتد من أصالة ارتباط العرب بالكعبة . فرسالته هى تمهيد الجزيرة وإعدادها لاستقبال الدين الجديد ، وذلك بالقضاء على الجبابرة الظالمين ثم بحماية الكعبة من المغيرين الآثمين .

وقد استدعى هذا من المؤلف ألا يتعرض لموقف عنترة من الاصنام متعمدا تجاهل هذه النقطة حتى لا يربط بطله بوثنية مكروهة ، لذلك نراه يربطه برساله مبهمة غامضة تتجه نحو المكان الذى تواتر تقديسه على مر الأجيال — عند العرب وعند المسلمين — وهو الكعبة .

٢ — مفهوم الشرف : يمكننا أن نعتبر سيرة عنترة محاولة لوضع قيم جديد لمعنى الشرف ، وهى قيم تقاوم مظاهر المدنية والحضارة فى الفترة التى كتبت فيها السيرة حيث أدى التطور الاجتماعى الطبيعى إلى ظهور طبقة الأشراف بالوراثة والأشراف بالمال والاشراف بالتبعية . وهذه القيم الجديدة للشرف يستمدها المؤلف من المفاهيم العربية التى وجدت فى المجتمع العربى الجاهلى ، فهو يحط قدر إمكانه من العوامل الخارجية لتكوين معنى الشرف ، ويحاول أن يستمد هذا المعنى من تصرفات الذات نفسها . ويتبلور هذا المفهوم فى مبادىء الفروسية التى يعتنقها عنترة ويدافع عنها ويسير حياته بمقتضياتها ، من ذلك مثلا الدفاع عن الضعيف ونصرة المظلوم وإطعام المحتاج وتأمين الخائف وأخذ الحق وعدم قبول الضيم والتغلب على الاعداء ورد المعتدين واقصاء المخطىء مهما بلغ ارتباطه بالقبيلة ومهما كانت قيمته فى النسب مثلما فعل عنترة مع الربيع بن زياد ومع الأسود بن النعمان[1] .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٩٣ ومجلد ٣ ص ٣٥

٣ ــ مكان المرأة : تلقى السيرة أضواء حقيقية على مكانة المرأة فى المجتمع العربى الذى اعتبرها ــ إلى حد كبير ــ متاعا وترفا مهما بلغت من الأهمية والشجاعة حدا يعجز عنه الرجال . فمؤلف السيرة يدافع عن قضية أن المرأة وعاء للأطفال دون ما اعتبار لذاتيتها وشخصيتها . لهذا نجد أن أن السيرة تظهر أكثر من صورة لامرأة عربية بلغت فى الفروسية مكانا مرموقا ومع ذلك فهى ضجيعة لا أزيد ، وام لا أكثر . وبما أن هذا هو وضع المرأة ،لذلك فإنها لا يمكن أن تكون شخصية أساسية محركة للأحداث ــ إلا إذا تم ذلك عن طريق غير مباشر . وعبلة هى ذروة الصوره التى يرسمها المؤلف للمرأة ، فهى التى انعكست عليها مجالات الصراع فى السيرة لأن البطل جعل من الحصول عليها هى حصولا على تحرره من جميع عوامل العبودية التى كانت تحط من قدره ، إلا أن عبلة نفسها يتغير موقفها بمجرد الزواج ــ لأنها لا تستطيع أن تكون أما ــ فيهجرها عنترة إلى غيرها من النساء ليصيب منهن الذرية ، وتتوارى شخصية عبلة من صدارة الأحداث إلى ذيلها ، حيث نراها فى النهاية مقتولة قتلة مهينة بعد أن فقدت حاميها عنترة . فعبلة إذن ــ فى حد ذاتها ــ لا قيمة لها ، وإنما الذى خلق لها القيمة وأعطاها الأهمية هو علاقتها بعنترة ــ أى بالرجل ــ . ولعل هذا أن يعطينا تفسيرا لتعدد الزوجات عند عنترة ، فدور المرأة المشاركة مشاركة كاملة ــ فى السراء وفى الضراء ــ لا مكان له فى حياة عنترة، ولا مكان له فى السيره كذلك ، وإنما الدور للمرأة الغنيمة ، والمرأة المتعة ، ثم المرأة الأم ، ولا شىء وراء هذا .

٤ ــ الأسرة : تعكس السيرة أهمية رابطة الأسرة عند العربى ، والواقع أنها كانت منذ البدء هى الأساس الذى تدور عليه وحوله الحياة العربية ،فرابطة الأم التى تربط أفراد الأسرة هى أساس العلاقة بين المجتمع العربى الكبير ، فمن أجل الحصول على القوت للأسرة ، يشن الفرسان الغارات ويتعرضون للموت ومن أجل ثارات القتلى من الاسرة تنشب المعارك أخذا للثأر باعتباره واجب

أسرى . فكأنما الدفاع عن الأسرة — أحيائها وأمواتها — هو المحور الأول للمجتمع العربي .

والأسرة العربية التي تعكسها السيرة تعطى صورة متكاملة للاب الحنون المثل الأعلى في الفروسية ، وللاخوة الأشقاء المتساندين في السراء وفي الضراء على حد سواء ، ثم للمرأة الوحيدة التي لها احترامها وهي الأم . ومع ذلك فإن احترامها هنا ليس رعاية وتقديرا وإنما هو عطف ومنة . وفي أسرة عنترة يقف شداد مثالا للاب ، ويقف شيبوب مثالا للاخ ، كما تقف زبيبة مثالا للام — والعلاقة بين الأب والأم ليس لها جذور عميقة وإنما هي مشهد سطحي للاغتباط بشيء واحد هو الولد ، وكذلك يبدو الارتباط بين الاب والابناء ، وكأنه إنعكاس للاعتراف بالجميل والولاء . ومثل هذا يتضح في موقف أولاد عنترة من أبيهم وخاصة الغضبان — فنداء الدم يعرف كل منهما بالآخر ويمنع أحدهما أن يسفك دم الآخر وهما في موقف النزال ، بينما لا يزيد الأمر عن الولاء لرأس القبيلة وزعيمها بعد ذلك ، بل أن الموقف قد يتغير إذا ما كان الابن أكثر فروسية من أبيه فيتبع الأب ابنه في ولاء وطاعة مثلما حدث لشداد مع عنترة .

أما موقف الأولاد من الام فهو موقف باهت يكاد يكشف عن ضعف في الصلة ، إذ أن دور الام كربية في مجتمع مثل ذلك المجتمع العربي الجاهلي يكاد ألا يكون له وجود ، وصورتها التي تظهر لنا تكاد تضعها في موضع العبودية لزوجها ، فهو سيدها الذي لا تملك معه من الامر شيئا ، وهو يعطف عليها ان شاء ويهملها إلى غيرها إذا أراد .

وهناك صورة أخرى للام تتكرر في أكثر من مكان في السيرة آخذة دور الأم الحانية العطوف التي تقرب من الرجال في حملها للسيف ومقارعتها للفرسان وحدبها على الاولاد ، غير أن معظم هذه الصور إنما يوردها مؤلف السيرة عن

امهات اجنبيات إما من السودان والحبشة وإما من الرومان والافرنج ، وهى تبرز اكثر ما تبرز فى صور امهات اولاد عنتره ، ومبررها — فى رأينا — هو اختفاء الاب فلابد ان تحل الام محلة حتى إذا ما ظهر تورات صورتها وانطفأت.

٥ — التقاليد الاجتماعية : وتعكس السيرة صورا من علاقات اجزاء هذا المجتمع بعضه ببعض لترسم لنا مفاهيمهم وعاداتهم ، ومن هذه المظاهر الإجتماعية ما يلى : —

(ا) الزواج : تلعب فكرة الزواج دورا أساسيا فى خلق صلات المجتمع العربى بعضه ببعض بل وصلاته بغيره من المجتمعات ، فصلات الزواج هى التى تخلق علاقات النسب بين القبائل وتكون أساساً للاحلاف فيما بينهم ، وهى نفسها التى تربط البطل فى السيرة بكثير من الابطال الآخرين الذين يظهرون فى الجزيرة فتنشأ بينهم روابط لا انفصام لها مثلما حدث بينه وبين عمرو ذى الكلب الذى تزوج اخته[1] ، اما بالنسبة لغير الشعب العربى فان الزواج أيضاهو الطريق الذى خلق العلاقات بينه وبين الاحباش — عن طريق امه ثم عن طريق زواجه هو واخيه — وبينه وبين الروم .

والواقع ان علاقات النسب هذه جعلت من المتعذر إقامة أى دعوى للمفاضلة (من تلك الدعاوى التى كان يثيرها الشعوبيون) ، لان علاقة الزواج قد حققت المساواة امام الامومة وأمام الاصل ، وخلقت الارتباط بين الشريف والوضيع وبين العربي وغير العربى . ثم أن الاخوال — الذين هم من اصل غير عربى — يلعبون دورا كبيرا فى نصرة اولاد عنترة بل وفى نصره عنتره نفسه .

(ب) الصداقة : لعل اقدس العلاقات عند العربى — كما تظهرها السيره — هى علاقة الصداقة ، التى ترتفع إلى مرتبة الارتباط بالدم ان لم تفقها فى كثير

---

(١) المصيرة مجلد ٨ ص ١٤٦

من الاحيان حيث كان مزج الدم هنا يأخذ صورة عملية كاجراء من إجراءات المآخاه(١) . وصداقة العربي فى هذه السيره مبنية على الاحترام المتبادل والاقتناع بكفاءه الصديق والاعتماد عليه اعتمادا كليا فى جميع الامور ، نلمح ذلك فى صداقة عنترة بعروة بن الورد وفى صداقته بمقرى الوحش ثم فى صداقته بهانىء ابن مسعود ، كما اننا نستطيع ان ندخل فى هذا الباب تلك العلاقة المتينة التى نشأت بين عنتره وبين أخيه من امه شيبوب وذلك ان هذه العلاقة ارتفعت من مرتبة الاخوه إلى مرتبة الصداقة بكل معانيها .

ومن تقاليد الصداقة العربية استمدت السيرة الكثير من مفاهيم الشرف إذ رسمت — بما قدمت من صورها — معانى الوفاء والإيثار والنجده والبذل ، كما استطاعت عن طريق هذه العلاقة أن تربط بين البطل وبين الكثيرين من ابطال التاريخ الحقيقيين كدريد بن الصمة والشيخ عبد المطلب وهانىء بن مسعود ، لأن ربط عنتره بهم معناه انه يتحلى بالصفات التى تقربه اليهم وتجعل منهم اكفاء له وتجعله صنوا لهم جديرا بصداقتهم واخوتهم ، كما تؤكد له الواقع التاريخى وتضفى على السيرة ظلال الحقيقة والاقناع .

(ج) الاخذ بالثأر : لعلنا نخص بالذكر هذه العاده من عادات العرب لما كان لها من أثر كبير على حياتهم وعلى تكوينهم الإجتماعى ، كما كان لها دور فعال فى السيره إذ اعطت المبرر للكثير من الاحداث الدموية غير المفهومة ، كما أعطت المبرر للكثير من الوقائع الحربية التى أدت إلى ارتفاع قدر بنى عبس ، كما أعطت المبرر — آخر الامر — للنهاية التى انتهى بها بنو عبس حين تجمعت عليهم ثارات العرب . وهذه العادة الاجتماعية هى التى منحت عنتره حرية كبيرة فى الحركة وحيوية ونشاطا وتناوبا لقوى الشد والجذب ، لحين يأخذ عنتره بثارات قبيلته فانه — بذلك وفى نفس الوقت — يكثر من الثارات عليها، وهو

---

(١) للنظم السياسية والاجتماعية عند قدماء العرب — لمحمد محمود جمعة .

فخر للقبيلة حين يأخذ بثاراتها من اعدائها ولكنه أيضا نقمة عليها لأنه يكثر بذلك من الطالبين لثاراتهم منه ومنها .

وهذه العادة الإجتماعية تبرر لنا أيضاً موقف القبيلة من عنتره فهى تريده ولا تريده فى آن واحد ، تريده حين يشتد بها الخطب ويصبح وجوده ضروريا للحفاظ على أرواح أبنائها وحريتهم وكرامتهم ، ولا تريده فى أوقات السلم حين يكثر من غزواته فيزيد التأرات ويؤلب الأعداء ويصبح مجرد وجوده بين ظهرانيها منذرا بحملة أو هجمة لقتله والأخذ بالثأرمنه والافتئات على أمن القبيلة وسلامتها لمجرد انتسابه اليها . وهكذا نجد أن هذه العادة الإجتماعية ، قد أباحت للمؤلف الحركة بحرية والقدرة على خلق الأحداث ووضع المبررات لها ، كما منحته مجالا واسعا يبرز فيه الحياه العربية . وما فيها من مد وجزر ومن خير يولد الشر وشر يولد الخير .

وقد استعان المؤلف بهذه العادة الاجتماعية أيضا فى ابراز عمق حزن عنترة ومكانة المصروعين من أبناء القبيلة عنده وذلك حين كان يسوق أبناء القبائل التى قتلت أولاده وأحباءه إلى قبر القتيل ليذبحهم بالمئات والألوف ، فمن خلال هذا المظهر القاسى استطاع المؤلف أن يبرز مدى احساس عنترة بالألم والحزن .

وفى ختام السيره تأتى نهاية عنترة على يد الأسد الرهيص كمظهر من مظاهر الأخذ بالثأر ، وكتصوير لمدى تأصل هذه العادة ومدى عراقتها ، حيث لم يستطع أن يقف فى طريقها توالى الهزائم كما لم يمنعها فقد البصر .

(د) الفرس والسيف : تعكس السيرة أهمية الفرس فى حياة العربى ، فهو يسميها الأسماء وهو يحتال للحصول عليها وينفق فى سبيل ذلك كل ما فى يده من أموال ومتاع ، ويهيم عنترة بحب فرسه « الابجر » حتى يكاد ينسى حبه لعبلة . وترسم لنا السيرة صورة مجموعة من الناس اسمهم «السلالين» مهمتهم سرقة الخيل

والاتجار بها وخوض الحروب والمعارك فى سبيلها ، كما ترسم لنا مدى ارتباط الفارس بفرسه وتصور كيف يطعمه ويغذوه ويرتب لهمن يعتنون به . ويستغل مؤلف السيرة هذه العلاقة بين الفارس والفرس فى خلق الكثير من الأحداث وفى إقامة المعارك المتكررة المتتالية بسبب سرقة فرس يخرج صاحبه — مع قبيلته — ليصرع السارق بينما تخرج القبيلة كلها لتحمى من سرقه من أبنائها .

وليس هذا الارتباط بين الفارس والفرس وليد الهواية أو الصدفة ، وإنما هو وليد الحاجة الحقيقية . فعلى قدر أصالة الفرس وقوة احتماله ومدى فهمه يكون نجاح الفارس فى التغلب على أعدائه والحفاظ على حياته .

والسيف كالفرس ، له اسماؤه المدللة وله أنواعه المتعدده وأطواله المختلفة وله عند الفارس الالف الذى يشيع فى نفسه الامان ويشيع فى قلب أعدائه الذعر . ومن أجل سيف ودرع تنشب المعارك الطاحنة التى يعتنى بها مؤلف السيرة فيفصلها ويفسرها ويصفها وصفا دقيقا . ومن أجل هذا أيضا لا يرضى المؤلف لبطله حمل سيف عادى مألوف ، وإنما يجلب له سيفا صنع من شهاب . لهذا كان السيف والفرس ركنين أساسيين يحددان معالم القيم فى المجتمع العربى الذى اقامته البراعة فى ركوب الفرس والمهاره فى استعمال السيف .

(هـ) الماء : تنعكس البيئة العربية إنعكاساً كبيرا فى تحديد معالم الصراع بنوعيه ، صراع الافراد من أجل الحياه ، وصراعهم من أجل التفوق . فالصراع من أجل الحياه فى مثل هذه البيئة يعنى تذليل قسوتها من ناحية الجدب وقلة الماء وسيرة عنترة ترسم لنا صورا متعدده لفناء قبائل بأسرها إذا ضلت عن الطريق إلى الماء أو هزمت فى محاولة الوصول اليه ، كما ترسم صورا لمدى حرص العربى على أن تكون منازله بجوار الغدران .

اما الصراع فى سبيل التفاضل فيدخل فيه الصراع العربى من أجل موارد الماء ومنابعه وكفاحه من اجل الاستيلاء على اكثر الاماكن امنا — وهى الاماكن

التى يتوافر فيها الماء . هذه الظاهره تؤدى إلى مظهر إجتماعى هام من مظاهر المجتمع القبلى هو مظهر « الموارد أو الاحلاف » الذين يستأذنون القبيلة المالكة للغدير فى الاقامة بجوارها حيث ان الماء متوافر والمرعى خصيب . وهذا التجاوز يتحول عادة إلى أحد أمرين ، فأما ان يكون عاملا من عوامل الربط والتحالف القوى بين القبيلتين وهذا نادر الحدوث — او على الاصح نادر الدوام — وإما أن يكون سببا لمداومة الاحتكاك والصراع بين القبائل إذ يطمع كل منهم فى الاستئثار بالمكان وما فيه من ماء وعشب ، فتبدأ الحزازات بينهما ثم تكبر كالدوائر لتشمل اكثر من قبيلة فى اكثر من معركة .

وسيرة عنترة تصور لنا هذا المظهر الاجتماعى كأوضح ما يكون ، إذ يستغله المؤلف أولا فى بناء العلاقات بين القبائل ثم فى خلق أسباب النزاع بينها ، وأخيرا فى رسم صور للمعارك الطاحنة التى تدور بسببه .

الفصل الرابع

شخصية عنترة
فى الأدب الحديث

لم يكن الإعجاب بسيرة عنترة والانفعال بها وقفا على سواد الناس الذين يلتفون كل ليلة حول القاص الشعبي ، ولكن تأثيرها فى المثقفين كان أقوى وأفعل . فالمستشرقون الذين وقعوا على هذه السيرة لم يألوا جهدا فى ترجمتها وحملها معهم إلى بلادهم ، وأدباء العرب الذين سمعوها أو قرؤها لم يكونوا أقل تأثرا بها من غيرهم . وبما أن هؤلاء من المتفننين فلا غرو أن هذا التأثير سوف يختزن فى نفوسهم — بعد أن لمس وجدانهم — ليظهر وشيكا فى أعمال أدبية من انتاجهم إما صريحا واضحا وإما متفاعلا مع غيره من المؤثرات لينتج عملا أدبيا جديدا متأثرا بتلك المختزنات .

وفى عصرنا الحاضر نلتقى بثلاثة أعمال أدبية حديثة تدور جميعاً حول عنترة وحبيبته عبلة . ومن الواضح أن تأثيرات الأعمال وجذورها تعود إلى سيرة عنترة الشعبية وليس إلى تاريخه الحقيقى الذى لم نجد فيه بعد البحث والعناء ما يكفى لإعطاء صورة متكاملة عن عنترة وحياته بينما السيرة الشعبية التى فى متناول اليد قد قصت الكثير عنه وعن أحداثه .

وعلى ذلك فإن هدفنا من إضافة هذا الفصل إلى البحث هو تناول تلك الأعمال الأدبية الحديثة بالتحليل بغية الوصول إلى مدى ارتباطها بالسيرة الشعبية والوقوف على قيمة الأثر الذى تأثر به المنتج الحديث ، وعلى مقدار ما بين عمله وبين الأصل من أوجه الالتقاء والاختلاف . كما أن هدفنا

فى المكان الأول هو الوصول إلى كيفية تصور هؤلاء المتنجين المحدثين لشخصية عنترة بن شداد ومدى فهمهم للسيرة الشعبية كعمل فنى متكامل .

وقد آثرنا أن نتناول هذه الأعمال حسب أسبقية وجودها الزمنى فبدأنا بمسرحية « عنترة » للشاعر أحمد شوقى ، ثم مسرحية « حسواء الخالدة » للقصاص محمود تيمور ، وأخيراً قصة « أبو الفوارس » للأديب محمد فريد أبو حديد .

مسرحية (عنترة)

للشاعر : احمد شوقى

كتب الشاعر أحمد شوقى مسرحية شعرية بعنوان « عنترة » ، أدارها — كدأبه — حول مفاهيم عقلية ، وإن استعان إلى أقصى حد بأحداث التاريخ وبالروايات السطحية التى رويت عن عنترة وعن علاقته بمحبوبته عبلة . ولكنه بعد عن تلك الروايات التاريخية فى أحداث مسرحيته ليخدم الغرض العقلى الذى هدف إليه ، كما لجأ فى تسمية الأشخاص إلى اصطناع أسماء لها شهرة معينة فى التاريخ وأطلقها على أشخاص مخالفين لطبيعة ما اشتهرت به . فمثلا أطلق على رفيق عنترة اسم « داحس » ، ومعروف تاريخياً أن هذا الإسم لأحد الجوادين المشهورين اللذين تسببا فى قيام الحرب التى عرفت باسمهما واطلق على الثرى الذى نافس عنترة فى حب عبلة اسم « صخر » ، والمعروف تاريخيا أن هذا الاسم اشتهر به أخو الخنساء الشاعرة الذى لم يكن له أى علاقة بعنترة وعبلة .

ومهما يكن من أمر فإن الهدفين الذهنين اللذين هدف إليهما الشاعر أحمد شوقى يتعلق أولهما بالعاطفة والحب بينما يعتبر الثانى هدفا اجتماعياً يتعلق بحياة العرب جميعاً . فصاحب المسرحية يثير قضية عاطفية وهى : هل تميل المرأة بقلبها نحو الشاب الأمرد الحسن الصورة ، الأنيق الملبس ، اللاهى العابث ، الظريف الذى يجيد الغوايه وأحاديث الهوى ، المؤصل الحسب والنسب ، الرافل فى حلل النعيم ، ولو أنه لين العريكة بعيد عن الشدائد ، يفر من وجه الصعاب . أم أنها تترك هذا وتمنح قلبها لعبد أسود خشن المظهر ، سيء الهيئة ، طاعن السن ، لا يعرف من الحياة إلا امتشاق الحسام وخوض المعارك ؟ .

ومنذ البداية يطلعنا شوقى على رأيه فى هذه القضية ، إذ يجعل المناظرة فيها

بين صخر كطرف أول وبين عبلة التي اختارت فعلا عنترة العبد الأسود الخشن وأخذت تدافع عنه وعن قضيته كطرف ثان فى المناظرة . ويصطنع صخر المنطق محتجا بأن الجيل للجميل ، والشباب للشباب ، لا أن تزف الظباء إلى الذئاب . ولكن عبلة ترد بأن أهم من هذا وذاك حماية الذمار ورد المغير . فيجيب صخر بأن الحياة خير وسلام وليست هى شرا وقتالا . . . وقبل أن يكمل حديثه يأتيه جواب عملى من غير عبلة إذ يهاجمهم اللصوص فلا يلبث هو أن يستخفى ليظهر عنترة فى الميدان وكان واقع الحياة الطبيعى فى البيئة العربية البدوية قد كفاه المحاجة وغلبه فى المناقشة وانهى القضية لصالح عنترة .

ويكاد يكون هذا الجزء من المسرحيه — الذى يعالج فيه الشاعر هذه القضية الذهنية — خاليا خلوا تاما من رسم الشخصيات لا سيما شخصية عنترة سواء بصورته التاريخية أو بصورة جديدة تخيلها الشاعر وأظهر ملامحها . فجهد الشاعر كله كان مركزا حول الجدل المنطقى لدرجة أنه جعل عنترة ينام إلى جوار خباء عبلة فيهاجمها اللصوص ويضطرب الحى ، ويعلو الصراخ وقرع السيوف ، بينما عنترة فى سباته لم توقظه كل تلك الضوضاء ، فإذا ما نادى عليه أبوه شداد بصوت خفيض أفاق من غفوته وهرع لإنقاذ الحى .

وقد حاول صاحب المسرحية أن يستغل فى هذا المشهد الموقف التاريخى المعروف لاستلحاق عنترة حين امتنع عن القتال فوعده شداد باستلحاقه إذا ما فعل . ولكن شوقى لم يتم الموقف هكذا ، وإنما جعل امتناع عنترة عن القتال يتلاشى عند علمه بأن عبلة أسيرة فيسرع لإنقاذها ، اما اعتراف أبيه به فلم يعنه فى شىء . ولعل شوقى قد فعل ذلك خدمة لقضيته الذهنية الأولى التى أدار حولها النصف الأول من المسرحية وأنهاه بمناظرة اخرى بين عبلة وعنترة إذ تخبره بأنها إنما تحبه لشجاعته وقوته وحمايته للذمار فيشقى بذلك عنترة ويخاطبها متسائلا :

لم لا تعشقين عبل جوادى لم لا تعشقين عبل حسامى
او ليسا هما شريكى فى القتـ ـك وضرب الطلى وحصد الهام[١]

فلا تحير عبلة جوابا . وهكذا تميع القضية من جديد ، وتميع معها شخصية عبلة وشخصية عنترة على حد سواء ، ثم لا تلبث شخصية عبلة أن تميع اكثر واكثر على لسان ابيها الذى يصفها بأنها تبغض الرجل الدميم والرجل العنيف فى حين أن هاتين الخصلتين هما قوام شخصية عنترة ، أو هما المحور الذى أراد صاحب المسرحية ان يدير حوله المأساة ، ولكن عنايته بقرض الشعر الهته عن احكام بناء القصة فبدا فيها هذا التفكك والتميع ، وهى بعد لم تبلغنا شيئا مما نريد وهو تصوير شخصية عنترة .

فإذا انتقلنا إلى الهدف الذهنى الثانى فى المسرحية — وهو الهدف الاجتماعى الذى يتعلق بحياة العرب — محاولين ان نستشف شخصية عنترة كما تصورها احمد شوقى لوجدنا ان صاحب المسرحية قد أدار هذا الجزء الثانى من مسرحيته بعيداً كل البعد عن عنترة كذلك . وعلى الرغم من ان المحور الأساسى للقضية التى ساقها المؤلف هو عنترة ، إلا ان كل ما دار حول القضية كان يجرى خلف ظهر البطل ودون اشتراكه فيه ، وبالتالى دون ان تتضح ملامح شخصيته او يظهر تصور المؤلف لها . فضرغام — الفارس الثانى الذى نافس عنترة فى حب عبلة — يشهد لخصمه عنترة بأنه قد الف القوم وقادهم إلى النصر فيحاجه مالك — أبو عبلة — بأنه لا يرضى بأن يؤلفهم عبد ، وان خسف كسرى وذل قيصر احب إليه من ان يكون عبد شداد هو مانعهم وحاميهم . وكعادة المؤلف الذى لا يحب المناقشات الجدلية وإنما يقطعها دائما بشواهد عملية مقنعة ، يهجم عليهم جيش الفرس بقيادة رستم وقد تحالفت معه قبيلة « بنى لخم » فيتصدى لهم عنترة ويهزمهم ويقتل قائدهم رستم . وهنا تقف عبلة خطيبة فى بنى لخم تعنفهم على محالفة كسرى الذى اتخذ منهم جسرا إلى بلاد العرب ، وتذكرهم بأنهم أخوة أبناء جنس واحد ، وتدعوهم إلى نبذ الفرس

---

(١) المسرحية ص ٣٨ ط ١٩٣٢

والانضمام إلى إخوانهم العرب ليكونوا حلفا قوياً يستطيع الصمود امام كسرى وأمام قيصر وأمام جميع اعداء العرب .

هـذه هي القضية الذهنية الثانية التي عالجها احمد شوقي في مسرحيته وهي — كما نرى — لم تصور لنا اي لمحة من لمحات شخصية عنترة ، اما الفصل الختامي الذي انهى به الشاعر مسرحيته فقد صور لنا فيه عنترة مصطنعاً الحيلة ليفوز بحبيبته ، فبينما عبلة تزف إلى صخر ، يتدخل عنترة سرا ويتفق معها على أن تستخفي هي وتدع مكانها (ناجية) تلك الفتاة العبسية التي تحب صخرا . وما ان تتم مراسم القران حتى يظهر عنترة ويكشف عن حيلته ويرغم الجميع على قبولها ، وينتهي الموقف بأن تكون ناجية لصخر وعبلة لعنترة .

هذه النهاية المسرحية — وأن دارت كلها حول عنترة — إلا انها لا ترسم لنا إلا مظهرا واحدا فقط من مظاهر شخصيته هو في واقع الأمر بعيد كل البعد عن الشخصية الحقيقية لعنترة ، او انه مظهر جانبي بعيد الأثر هين الشأن يعتبر إيراده مع إغفال الجوانب الهامة والمظاهر الأساسية للشخصية عملا غير مستساغ . فاصطناع الحيلة شيء تافه بالنسبة لشخصية عنترة ، أو هو شيء تال للعمد الأساسية في بناء شخصيته البطولية — كما انه من ناحية اخرى — أمر بعيد عن الواقعية ، فمن المعروف ان الشجاعة تعتمد على الاقدام وسرعة البت وربما التهور ، بينما تعتمد الحيلة على الروية في التفكير واصطياد الطرق الجانبية للوصول إلى الهدف ، وبذلك يكون الجمع بين الشجاعة والحيلة — وإن لم يكن مستحيلا — فهو على كل حال أمر بعيد عن الواقع مخالف ، لمنطق الأشياء كما يكون اهتمام المؤلف بهذا المظهر الجانبي لشخصية عنترة مع إهمال جميع المظاهر الأساسية عملا مخجلا بأحكام البناء القصصي والفني :

وليس هذا حكما على مسرحية شوقي باعتبارها عملا متكاملا ، فنحن لم نحاول طرق هذا الموضوع ، وإنما انصب جهدنا على جانب واحد فقط هو متابعة تصوير المؤلف لشخصية عنترة .

مسرحية « حواء الخالدة »

للاستاذ محمود تيمور

تعتبر مسرحية حواء الخالده عملا أدبيا قائما بذاته بعيداً عن كل من التاريخ الحقيق لعنترة ، وعما ورد فى السيرة الشعبية المؤلفة حوله . فالمسرحية ليس فيها من الواقع التاريخى الصحيح شيء ، اللهم إلا اسماء أبطالها والبيئة الصحراوية التى جرت فيها أحداثها ، كما أنه ليس فى المسرحية من السيرة الشعبية شيء كذلك ، اللهم إلا اشتراك عنترة فى حروب فارس . وحول هذين الأساسين بنى الكاتب مسرحيته ليعبر بها عن فكرة جديدة تتركز حول عبلة وليس حول عنترة — كما يوحى بذلك اسم المسرحية — وهذه الفكرة هى تلك الاسلحة الخفية التى حبا بها الله حواء منذ بدء الخليقة وإلى الأبد ، تلك الأسلحة التى استعملتها حواء مع آدم ، ودليلة مع شمشون ، وكليوباترا مع انطونيو ، كذلك استعملتها عبلة مع عنترة ، وستظل تستعملها كل حواء ما واتتها الفرصة وسمح لها الحال . فمهما كان الرجل نبيا أو عظيما أو شجاعا أو غير ذلك من الصفات — سواء قلت أو كثرت فإنه لن يستطيع الصمود أمام أسلحة حواء الخفية ، فلابد له أن يهزم ، ولابد له أن يسلم ، ولابد له أن يرضى بمصيره المحتوم وهو أن يكون العوبة فى يد المرأة.

وهكذا نجد أن الكاتب يحاول أن يصور لنا عنترة العوبة فى يد عبلة ، تصيره كما تشاء ، وتسيره أينما أرادت ، وتدفعه إلى عظيم الأفعال وخطيرها لمجرد نزوة طارئة أو رغبة عابرة . فعليه أن يصارع الهزبر الاشم بيديه العاريتين ، حتى يحصل لها على جلده سليما لتزهو به أمام أترابها من بنات القبيلة ، وعليه أن يضرب فى مشارق الأرض ومغاربها سعيا وراء حجر الزبرجد ليهديه إليها . ثم هى إذا ما أرادت أن تعابثه دفعته إلى ازالة لحيته المهيبة ، ولكنه ما أن يفعل حتى تهزأ به وتعيره بمظهره الأمرد .

وإذا مايئست عبلة من عنترة ، وظنت أنه هلك فى الرحلة التى دفعته إليها لم تأبه لذلك ، وأخذت فى القاء شباكها حول رجل آخر مستعملة نفس الاسلحة التى تجعل منه عجينة لينة بين يديها ، وأخذت فى ارهاقه بالمطالب وبالدلال ، لتتأكد أنها مازالت تستطيع استعمال اسلحتها بكل مهارة ونجاح . فإذا ما التقى الغريمان فإن الأمر اهون من أن تأبه به ، بل هو على العكس من ذلك ، يعتبر موقفا أفضل فى تبيان تلك المهارة وادعى إلى شحذ همة حواء ، واغرز فى ارضاء غرورها. فللغريمين أن يتشاحنا بسببها ، وأن يقتتلا من أجلها ، أما هى فسوف تفوز فى النهايه بأيهما يكتب له النصر . وهكذا نجد أن عبلة تدير المعركة بين عنترة وبين الأمير عمارة بكل كياسة وحنكة حتى تصل بهما إلى الذروة فيقتتلان وتفوز هى فى النهاية بالغالب منهما .

هذه هى الفكرة العامة لمسرحية « حواء الخالدة » ، بطلها الأول هو عبلة وليس عنترة ، وهدفها ليس تصوير البطولة ورسم صور الفروسية ، ولكنه على النقيض من ذلك ، يكاديكون سخرية من البطولة واستهزاء من الفروسية ، وتحطيما لها على يد المرأة ، أو هو بعبارة أخرى موازنة بين اسلحة الفارس واسلحة المرأة وتبيان لأى منهما تكون الغلبة . وقد انتهى كاتب المسرحية إلى رأى لم يؤيده التاريخ ولم يأت به السير ولكنه الوضع الطبيعى على أى حال . . فكما كانت الغلبة لحواء على آدم ، ولدليلة على شمشون ، ولكليوباترا على انطونيو ، كذلك كانت الغلبة لعبلة على عنترة .

وكاتب المسرحية يقدم لنا « الحب » فى صورتين مختلفتين ، ومع ذلك فإن معينهما واحد ونهايتهما واحدة ومصير كل منهما فى يد المرأة . فعنترة يحب عبلة فى أول الأمر ذلك الحب البدوى القوى الذى جعل قلبه يهيم بأفتن بنات البادية ، وركز آماله فى الحصول عليها ، وطلب رضائها مهما كان الثمن ، فكانت هى بذلك هدفه الاوحد والاسمى فى الحياة . وهنا نجد أن سعيه وراء عبلة كان لمرضاة ذلك القلب الكليم ، واستجابة لتلك الرغبة الذاتية الجامحة . فإذا ماسافر عنترة وتغرب

سعيا وراء حجر الزبرجد الذى طلبته فاتنته التى بحياة أخرى ، وبأحداث مختلفة شغلته عن تلك التى خلفها وراءه فى ديار عبس ، ووضعت أمامه أهدافا أخرليس لعبلة فيها مكان ، وأصبح النصر فى الحروب والحصول على المغانم هو الذى يشغل بال عنترة وهو الذى يستحوذ على نفسه وعلى قلبه جميعاً بحيث نستطيع أن نقول فى بساطة أنه برأ من حب عبلة وأصبحت بالنسبة إليه امرأة بين النساء وليست ذلك الصنم المعبود ، وهو يصرح أمامها فى صراحة بأن معبودته الآن هى الحرب تلك التى وهبها عقله وقلبه ووقف عليها عمره اجمع[١] .

ولكن متى كانت حواء تتقبل الهزيمة ؟ أن فى جعبتها لكل موقف اسلحته ، ولكل ظرف مايناسبه . فاذا كانت اسلحة الاغراء قد فل حدها ، ففى اسلحة الغيرة مايبتر القلب العصى . وحيث أن الحرب هى التى أصبحت شغل عنترة الشاغل ، وحيث أن هدفه أصبح دائما الفوز على خصومه ، إذن فلتدفعه هى إلى حرب هدفها الفوز ، ويكون مظهر هذا الفوز هو الحصول عليها هى .

وهنا نشهد الصورة الثانية للحب الذى لايتجه مباشرة نحو المرأة وإنما تكون هى فيه منزوية فى جانب من الجوانب كجزء من النتيجة ، أما هدفه المباشر فهو الرغبة فى إرضاء نزعة الفوز والظهور على غريم . فالحب هنا — أو الغيرة أوغير ذلك من الأسماء ، ليست مركزة فى حواء ولاموجهة إليها ، وإنما مظهرها الرغبة فى الفوز وإثبات القوة الشخصية . فهى حب للنفس قبل أن تكون حبا للغير ، وهى مظهر من مظاهر القوة الذاتية ، وليست رغبة فى المرأة واشتهاء إليها . ومع ذلك فان حواء تعرف كيف تستغل كل ذلك لصالحها ، وتحوله إلى مكسب شخصى لها . وهذا ما فعلته عبلة مع عنترة إذ حارب فى سبيلها وهو يظن أنه يحارب فى سبيل نفسه ، وحصلت هى عليه فى النهاية دون أن يفطن إلى أنه هو الذى سعى إليها .

---

(١) المسرحية ص ٩٧ .

هذه هى الخطوط العريضه لمسرحية حواء الخالدة ، ومنها نجد أن المسرحية عمل أدبى مستقل قائم بذاته لا يربطها رابط بأى من تاريخ عنترة أو سيرته ، وأن فكرتها العامة فكرة جديدة قديمة فى نفس الوقت ، استغل المؤلف شهرة عنترة وعبلة لاظهارها وخرج بمسرحيته من حيز « التراجيديا » إلى ميدان « الفارس الخفيف » بحيث نستطيع أن نعتبرها مسرحية حديثة أو عصرية استمدت رموز شخصياتها من التاريخ .

وهكذا نجد أننا لانستطيع أن نحاسب كاتب هذه المسرحية عن تصويره لشخصية عنترة ، بل ولانستطيع كذلك أن نستشف الصورة التى تخيلها هو لبطلنا. فواضح أن عنايته لم تكن منصبة على تصوير الشخصيات ، وإنما اتجهت اتجاها آخر نحو توضيح الفكرة الذهنية للمسرحية ، وهى عرض اسلحة المرأة الخفية ، ونحو اضفاء شيء من الهزل وخفة الروح عليها. ولذلك نجد أنه فقد طوع الشخصيات لهذين العاملين دون النظر إلى بنائهما بناء فنيا سليما، وعلى ذلك ضاعت منه معالمهما وانقطعت جميع وشائج الصلة بين شخصية عنترة الحقيقية وبين تلك الشخصية التى اصطنعها كاتب المسرحية ، وأصبح لايجمعهما سوى الاسم والشهرة والإرتباط بعبلة .

أبو الفوارس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

يبدأ الأستاذ أبو حديد قصته بتصوير عنترة كعبد من عبيد شداد تتنازعه عواطف شتى متباينة . فهو ابن شداد كما أخبرته أمه زبيبة بذلك ، وهو يحب أباه ويعتبره صورة للبطل العربى ، ومع ذلك فان شدادا لا يقبل أن يلحقه بنسبه ويعترف ببنوته . ثم هو فارس بنى عبس وحاميهم ومفرج كربهم وجالب الأسلاب لهم ، ومع ذلك فانهم لا يجعلون له سوى نصف سهم من الغنائم لأنه عبد وليس بسيد . وهو بعد ذلك محب لعبلة هائم بعشقها ، منشد لأرق الشعر وأجمله فيها ، ولكنه لا يستطيع التطلع اليها ولا الوصول إلى مكانها إلا بوصفه خادما وبوصفها مولاته .

وكان عنترة يشقى بكل تلك المشاعر ، وكم غضب من نفسه لقبولها والسكوت على ذلك الوضع المهين ، وكم حدثته نفسه بترك بنى عبس الذين يعيش بينهم عبدا إلى قوم آخرين يمكنه أن يعيش بينهم سيدا . ولكنه لا يلبث أن يقرر أمر . . لماذا لا يكون سيدا بين بنى عبس أنفسهم ؟ ان الذى يمكنه من أن يكون سيدا بين غيرهم لابد وأن يوصله إلى نفس المكان بينهم . وهكذا يوطد العزم على الوصول إلى بغيته ويعاونه فى ذلك أخوه شيبوب - ابن زبيبة - بعد أن حاول صرفه عنها وعن حب عبلة كذلك ولكنه لم يستطع .

وتتضافر قوى الشر على عنترة فيقع العداء بينه وبين عمارة بن زياد ، ويرفض أبوه شداد الاعتراف به خوفا من معرة العرب ، وأخيرا يتقدم عمارة لخطبة عبلة فيفزع عنترة إلى الصحراء يحكى همه لرمالها . ولا يلبث بنو طيء أن يهاجموا عبسا فيظهروا عليهم ، حينئذ يستنجد شداد بعنترة ويعده بأن يلحقه بنسبه إذا ما هزم الأعداء . وهكذا يحقق عنترة أول هدف من أهدافه ، ولكن مالك بن

فراد لم يلبث أن حمل أهله وابنته عبلة وغادر وادى الجواء بعد أن جهر عنترة بحب عبلة وشبب بها . ونزل مالك إلى جوار بنى شيبان حيث تكاثر الخطاب على عبلة ، وتعهد أحدهم وهو « بسطام بن قيس » بأن يأتى برأس عنترة مهرا لعبلة . ولكن عنترة ترفع عن قتله بعد أن قدر عليه عدة مرات ، فلما علم أبوه قيس بن مسعود بذلك أعجب بعنترة واستضافه فى منازله وعطف على قضيته وأقنع مالكا بأن يحكم عبلة فى أمرها فاختارت ابن عمها . وخرج عنترة يضرب فى الصحراء قاصدا العراق ليفوز بمهر عبلة — ألفا من النوق العصافير . وهناك يأسره النعمان ، ولكنه لا يلبث أن يعجب بشجاعته وفصاحته فيضمه إلى جيشه ويحرز لهعنترة النصر تلو النصر، فيكافئه النعمان بفيض من الخلع والعطايا ويعود عنترة إلى قومه فى ركب عظيم وثروة طائلة ليجد أن عبلة على وشك الزفاف إلى غيره فيرسل أخاه شيبوبا ليفرق ثروته على آل عبس ، ويأخذ هو مكانه فى الصحراء وحيدا شريدا ، ولكن سرعان ما يتجمع القوم حوله ليقدموا اليه عبلة زوجا .

وهكذا نجد أن موضوع قصة الأستاذ فريد أبو حديد يكاد يتفق فى مبناه وأحداثه مع القسم الأول من سيرة عنترة ، بل انه يكاد ينقل عنه فى كثير من الأحيان فقرات بأكلها من الحوار بعد صقلها لتلائم الأسلوب العام الذى اصطنعه الكاتب لقصته ، ومع ذلك فاننا إذا نظرنا إلى هذا العمل من الزاوية التى نحن بصددها — وهى تصوير شخصية عنترة — لوجدنا أن الفرق شاسع بين العملين . فتصوير الأستاذ أبو حديد لشخصية عنترة يختلف اختلافا كبيرا عن تصوير كاتب السيرة لها رغم اتفاق الموضوع وتطابق الأحداث . والسبب الأساسى فى هذا يرجع إلى اختلاف طريقة التناول عند الكاتبين . فصاحب السيرة اصطنع طريقة السرد القصصى التى يقدم فيها الأحداث مجردة من أى شرح أو تعليل ، ودون أن يعرض لأسبابها ودوافعها ويناقش احتمالاتها ونتائجها . وهو يدير فى داخل القصة الشخصيات بأجسادهم وحركاتهم دون أن يعنى بأفكارهم ومشاعرهم وما يعتور فى صدورهم من انفعالات أو ما يتوالى على

أذهانهم من أفكار ، اللهم إلا لمحات بسيطة قد تظهر فى الحوار . وبذلك فانه يعطينا فقط صورة خارجية لعنترة تصور حركاته وأفعاله دون أن تغوص فى أعماق نفسه البشرية لتجلو لنا أحاسيسه ومشاعره .

أما صاحب « أبو الفوارس » فقد اصطنع فى قصته المنهج النفسى — بالمعنى العام لهذه الكلمة — فهو إذ يسرد الأحداث التى تعطى الصورة الخارجية لعنترة نقلا عن السيرة ، لا يلبث فى كل موقف من المواقف أن ينتحى جانبا ببطله ليغوص فى أعماق نفسه ويطلعنا على مكنونات سريرته ، ويتناول النوازع والمشاعر بالبحث والتحليل والعرض الموفق الذى ينساب بين الأحداث فى تلاؤم وامتزاج يجعل من عمله انتاجا جديدا مغايرا للأصل المنقول عنه ، ليس فى طريقة التناول فحسب ، ولا فى التصوير النفسى لشخصية عنترة فقط ، وإنما فى معانى القصة وقضاياها كذلك .

فالأستاذ أبو حديد لا يكتفى بعرض شخصية عنترة عرضا شكليا وموضوعيا ، وإنما يعرض لنا فى مقابلها شخصية أخرى تصور الجوانب النفسية العكسية التى أضفاها على عنترة هى شخصية أخيه — من أمه — شيبوب . فبينما هما ابنا أم واحدة ، ويعيشان تحت ظروف بيئية واحدة ، إذ بهما يقفان على طرفى نقيض . فعنترة لا يحتمل ذل العبودية وشيبوب يستمرئه ويرضاه ، وعنترة ثائر على لونه الأسود بينما شيبوب غير عابىء به ، وعنترة حانق على وضعه فى القبيلة كعبد أو كخادم ، ولذلك يبذل كل جهده لتغيير وضعه ، أما شيبوب فقانع بما هو فيه لا يشعر معه بحطة ولا يسعى لتغييره . وعنترة يسمو بالحب ويتمثله عاطفة نبيلة يركزها حول عبلة بينما لا يعرف شيبوب سوى الرغبة الجنسية التى يطفئها مع أى امرأة فى أى مكان ، ثم ان عنترة يقدر الفضائل ويعتنقها فلا يكذب ولا يسرق ولا يخون ، أما شيبوب فانه لا يتورع عن اقتراف شىء من هذا ، بل ويعتبرها أساس السلوك وقوام الحياة التى يحياها . وأخيرا فان عنترة يعتبر ان بنى عبس قومه وإن جاروا عليه بينما يعتبرهم شيبوب أعداءه .

وهكذا نجد أن الأستاذ أبو حديد لم يكتف بعرض شخصية عنترة عرضا نفسيا ، وتوضيح جوانب تلك الشخصية من جميع نواحيها ، وإنما زاد ذلك ابانة بعرض شخصية مقابلة لها عرضا نفسيا كذلك ليكون فى عرضها توضيح للضد الذى هو شخصية عنترة ، ولهذا كانت قصته أبعد الأعمال الادبية جميعا فى رسم صورة مشرقة دقيقة واضحة المعالم بارزة القسمات لشخصية عنترة ، والابانة عن معالم البطولة فيها سواء من ناحية البطولة العامة أو الموضوعية التى يتفق فيها مع السيرة ، وكذلك من ناحية البطولة الذاتية أو المعنوية ، كما يجب أن تكون فى كل فرد . وهذا هو الفرق فى الغاية المستقاة من كلا العملين . فهو يتفق مع كاتب سيرة عنترة فى توضيح معالم البطولة الموضوعية من شجاعة واقدام وحسن خصال وما إلى ذلك مما تصوره أعمال عنترة ، ثم يزيد على ذلك تصوير نوع آخر من البطولة التى لا تتمثل فى جلائل الاعمال وإنما تنبع من قرارة النفس البشرية ويكون مجالها النزوع إلى الافضل واطراد التقدم واباء الضيم والرغبة فى الحق والتسامى عما يشين . ثم هو يوضح لنا غاية أخرى تثبت أن طالب التحرر والرفعة لابد بالغها إذا ما هو سعى إليها وأصر فى سعيه على ادراكهما .

ولعل الفترة الزمنية التى كتب فيها الاستاذ أبو حديد قصته ، والظروف السياسية والاجتماعية التى أظلت ذاك العصر ، أن توضح لنا سبب اختياره لهذه الشخصية بالذات وهى شخصية عنترة بن شداد وانتقاله للقسم الاول من سيرته المعروفة ، ثم اصطناع الاسلوب النفسى لعرضها بهذا الشكل . وكأنما يريد الكاتب أن يقول ... ان ما يصدق على الفرد يصدق كذلك على المجموع . . . وأن المصريين الذين كانوا يرزحون تحت نير الاستعمار آنذاك مثلهم مثل عنترة الذى كان يعانى من العبودية . . . وان هناك طريقين لمواجهة هذا الموقف : طريق البطولة الذى سلكه عنترة ، وطريق الاستكانة الذى ارتضاه شيبوب . فعلى الشعب أن يختار أيهما . . . وقد رأينا كيف أن طريق عنترة قد أبلغه العزة ونوله المراد ، وكيف بقى شيبوب كما هو عبدا وان اختلف الاسياد .

ثبت المراجع الاجنبية

1 . An Introduction to Mythology	Lewis Spence
2 . An Introduction to Mythology and Folklore	Sir George William
3 . An Introduction to the Iliad and the Cdyssey	R. C Gebb
4 . Arabia before Mohamed	O'leary
5 . Arabic Thought	O'leary
6 . A short history of the Fatimid Khalifah	O'leary
7 . Bibliographie des Ouvrages Arabes	Victor Chauvin
8 . Encyclopaedia Britanica	
9 . Folklore and Historical Science	Sir George Gomme
10 Geschichte der Arabischen Literatur	Carl Brockelmann
11. Kinship	Smith
12. Modern Mythology	Lang
13. Mohamed and the rise of Islam	D. S. Maregoliouth
14. Myth ; Ritual and Repigion	Lang
15. Pre - Islamic Arabia	Della Vida
16. Primitive Society	R. Lowic
17. Primitive Culture	Tylor
18. Principles of Sociology	Herbart Spenser
19. Literature Arabe	Huart
20 Lit. History of Arabs	Nicholson
21. The Encyclopaedia of Islam	M. Hartmann
22. The golden bough	Sir James G. Fraser
23. The Origins of Arabic Poetry	D. S. Maregoliouth

محتويات الكتاب

الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٩٧٩/٣٦٣٥ م

الترقيم الدولى
٩٧٧ ـ ٢٤٧ ـ ٧٧٨ ـ ٥

مطبعة دار نشر الثقافة
٢١ شارع كامل صدقى بالفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦ ـ القاهرة

٢٢٠ قرشاً